أحمد محمد الحوفي

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول



الحياة العربية من الشعر الجاهلي

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة



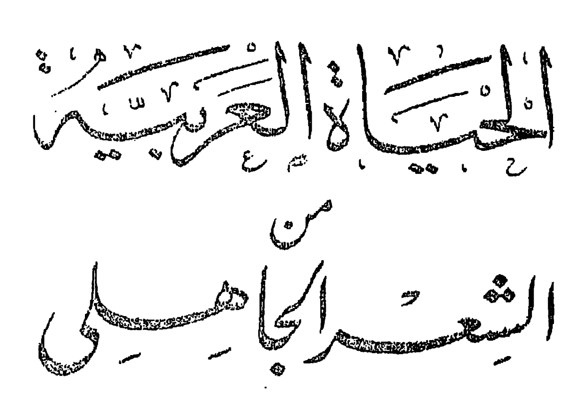
ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

١٨ شارع كامل صدقي باشا « الفجالة سابقاً »

مطبعة نهضة مصر

أحمد محمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول



الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
١٨ شارع كامل صدقى باشا «الفجالة سابقاً»

مطبعة نهضة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

عهدت إلىَّ كلية دار العلوم فى العام الجامعىِّ الماضى أن أدرس لطلبتى تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى ، فرأيت أن الكتب المؤلفة فيه تتلاقى فى منهج واحد يتناول العصر من حيث تاريخ أدبه ، وبيان أقسامه ، ودراسة أعلامه ، وخصائص كل منهم إلخ ... وما من شك فى أنه نهج حسن ، وأصحابه خليقون بالثناء .

لكنى رَوَّيت طويلا لألتمس منهجاً آخر فى دراستى ، وأتخير هدفاً آخر لطلبتى ، فاهتديت إلى هذا المنهج الذى سلكته ، والذى أستطيع أن أجمله فى أنه دراسة للشعر الجاهلى فى شتى فنونه ، لا من حيث نشأتها وبواعثها ومميزاتها ، وخصائص الشعراء فى تناولها ، وأثر شاعر فى شاعر ، وتأثر شاعر بشاعر ، بل من حيث إن الشعر الجاهلى صَدًى قوى للحياة العربية : اجتماعية ، وأخلاقية ، ودينية ، وذات عادات ومعتقدات ، فهو ترجمانها وسِجلُّها .

وقد قصدت من هذه الدراسة إلى أشياء : أن أثبت أصالة الشعر الجاهلى وصحته — إلا مانبه الثقاة على وضعه — من طريق غير التى سلكها المنالخون عن أصالته وصحته ، ولعلها أهدى وأقوم ، ذلك أن الأدب مرآة الأمة ، ومُجْتَلَى عواطفها ، ومَعْرِض أخلاقها ، ومظهر معتقداتها وعاداتها ، والمعبِّر عن مثلها وآمالها وآلامها ، والمتحدِّث عن صلة الأفراد والجماعات بعضهم ببعض ، وعن صلة الأمة بغيرها إلخ .. وهذا الكتاب قائم على أن الشعر الجاهلى وثيق الصلة بحياة العرب ، ما جَلَّ منها وما صَغُر ، هو جداول ورواضع نابعة من هذه الحياة تحمل فى مجراها ما فى الينابيع

من صفاء ومن كُدْرة ، ومن خير ومن شر ، فلو أنه كان موضوعا مصطنعا لناقض حياة العرب فى كثير أو فى قليل ، مهما تكن براعة واضعيه وناحليه ، ومهما تكن خبرتهم بنظم الحياة العربية ؛ لأن طباعهم لابد أن تغلبهم ، ولأنهم لايستطيعون أن ينسلخوا من بيئتهم انسلاخاً يجعل منهم عربا أقحاحا وهم يحيون فى الحواضر فى القرن الثانى والثالث .

وقصدت إلى شيء آخر : أن أجلو الحياة العربية فى شتى صورها جلاء لا يعتمد على التاريخ وحده ، وإنما يستند أولا إلى الشعر الذى صور هذه الحياة فأحسن تصويرها ، ولست أنكر أنه عرضة لأن يتطرق إليه الكذب والمبالغة ، ولكننى أرى أنهما يتطرقان أيضاً إلى التاريخ المدوّن والآثار المنقوشة ؛ لأن التاريخ تسجيل فرد أو أفراد ، فهو عرضة لأن يتأثر بالرواية المنقولة ، ولقد تكون مدخولة ، وعرضة لأن يميل مع الهوى والعاطفة ، ولكن الشعر تسجيل آلاف من قبائل شتى ، فى زمن طويل ، ففيه مجال أوسع لاستكناه الحقيقة من سجلات متنوعة ، خلّفها شعراء عَبّروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير كاذبين ، وإذا كان فى شعرهم ألوان من الخيال تضخم الواقع فإن من مميزات الأدب فى العالم كله هذا التخييل والتجميل الذى لايخلو من تهويل .

على أن الشعر أدق تصويراً للحياة لأنه يتناول ما يهمله التاريخ .

وقصدت إلى شيء ثالث : أن نقف على حَيَوات العرب قبل الإسلام ، لأن معرفتها ضرورية لمن يدرس تاريخهم وأدبهم ونفسيتهم وعقليتهم فى الجاهلية وفى الإسلام ، فقد بزغ الإسلام فوجد نظماً وعادات ومعتقدات وأخلاقا وصلات ، أبقى على بعضها ، وهذب بعضها ، واجتث بعضها من جذوره ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فما هى إلا حقبة من الزمن حتى تشعث بعض ما هذبه الإسلام ، ونجمت جذور من بعض ما اجتثه الإسلام ، فلابد من دراسة الحياة الإسلامية ، وإلى أى حد كان

تأثيرها فى العرب . ولابد منها أيضاً لفهم ما خلَّفوا من أدب جاهلى وغير جاهلى .

وكان مقصدى الرابع أن أشوق إلى دراسة الأدب باتخاذه إحدى الطرائق لدراسة المجتمع العربى ، ولست أشك فى أن كثيراً من ضروب حياة العرب يبعث إعجابنا بهم ، فى كرمهم وتناصرهم وشجاعتهم وغيرتهم وحمايتهم لنسائهم ، الخ ... ولقد ينتهى بنا الإعجاب إلى الأسوة بهم .

وقسمت هذا الجزء إلى خمسة أبواب :

الباب الأول يشتمل على بحوث تمهيدية .

والثانى يتناول الحياة الاجتماعية .

والثالث يصور الحياة الخلقية .

والرابع يدرس الحياة الدينية .

والخامس يعرض ألوانا من عاداتهم ومعتقداتهم .

وأرجو أن أكون قد اهتديت إلى طريف من النهج ، وجديد من الرأى ، وما توفيقى إلا بالله .

القاهرة في { ٣ المحرم ١٣٦٩ / ٢٥ أكتوبر ١٩٤٩ }

أحمد محمد الحوفى

الطبعة الثانية { ذو القعدة ١٣٧١ / أغسطس ١٩٥٢ }

الأدبُ وتطوّره

معناه فى الجاهلية وصدر الإسلام . اشتقاق الكلمة . دلالتها الخلقية . مناقشة آراء فى اشتقاق المعنى الخلقى
معناه في العصر الأموى . دلالاته الثقافية . اشتقاق المعنى الجديد
معناه فى العصر العباسى الأول . اتساع الدلالة الثقافية
معناه فى العصر العباسى الثانى . ضيق الدائرة الثقافية
دلالة أخرى للكلمة أحيانا فى العصر العباسى

— ١ —

دلت كلمة الأدْب فى العصر الجاهلى على الدعاء للمأدبة ، فالآدب هو الداعى إلى المآدب ، قال طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الْجَفَلى   لا ترى الآدب فينا ينتقر [١]

ثم توسعوا فى معناها فاشتقوا منها الأدَب بمعنى الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة ، لأنه يأدِب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين المعنيين صلة وثيقة ، لأن العرب يحيون فى بادية مقفرة شحيحة بالزاد ، فتمدحوا بالقِرى ، وبالغوا فى الحفاوة بالضيف حتى تَخَرّق فيها بعضهم ، فكان من الطبيعى أن ينتقلوا من معنى الأدْب الحسى المادى إلى ذلك المعنى النفسى الخلقى .

ولسنا نستطيع أن نحدد الوقت الذى نشأ فيه هــــذا التجوز ، وإن كنا نجد فى العصر الجاهلى نصوصاً تدل عليه منها قول بَلْعاء بن قيس الكنانى — الذى شهد حرب الفجار الثانى : —

أصبحت آتى الذى آتى وأتركه   وبات أكثر رأى الناس مُرْتابا
وإن أمُتْ والفتى رَهْنٌ بمصرعه   فقد قضيت من الآداب آرابا [٢]

---

(١) ديوان طرفة ٦٠
(٢) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٠٦

ومنها قول عُتْبة بن ربيعة لابنته هند يصف لها خاطبها — أبا سفيان ولم يذكر اسمه — : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » . وردها عليه : وإنى لآخذه بأدب البعل ، مع لزوم قبتى ، وقلة تلفتى » [١] .

وفى جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى فى كلامه على المثل : « ويل للشَّجِىِّ من الخَلِىِّ » قوله : المثل لأكثم بن صيفى ، وذلك أنه ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب له كتابا جاء فى رد المصطفى عليه قوله : « بآدابه المرسلين [٢] » ، ولعل أصل الجملة أدَّب أو بعث بآدابه المرسلين ، أو أدبنى بآدابه التى أدب بها المرسلين .

وقد ساير الكلمةَ مدلولها الخلق إلى صدر الإسلام ، ففى الحديث الشريف « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقول النبى عليه الصلاة والسلام « القرآن مأدبة الله فى الأرض » [٣] وقول سيدنا عمر لابنه : « يابنى انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وقول على رضى الله عنه : « وأدبتكم بسوطى فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا » [٤] وقوله : وقد لبس للحكمة جُنتها ، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها ، والمعرفة بها ، والتفرغ لها » [٥] وقول حجر بن عدى الشهيد للإمام على : « يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك » .

ولكن بعض الباحثين لم يطمئنوا إلى اشتقاق الكلمة من الأدب بمعنى الدعاء إلى المآدب ، وعرضوا آراء لا نقرهم عليها .

فالمستشرق الإيطالى الأستاذ نلينو يشتقها من الدَّأْب بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة دأب جمعت على أدآب ثم قلب الجمع إلى آداب ، كما جمعت بئر ورئم على آبار وآرام . واشتقت كلمة أدب من الجمع آداب .

---

(١) الآمالى ٢/١٠٤ .

(٢) جمهرة الأمثال ص ٢٠٣ طبعة بمبى . وفى طبعة المطبعة الخيرية على هامش أمثال الميدانى بأذانه ، ولعله تحريف بآدابه .

(٣) لسان العرب مادة أدب .

(٤) شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ٢ ص ٥٣٦ تستوسقوا : تجتمعوا .

(٥) المصدر السابق ٢ / ٥٣٥

وهذا فرض ، وتكلف لا نقره

١ — لأن كلمة آبار وآرام لم يشتق منهما مفردان تكون الصلة بينهما وبين بئر ورئم كالصلة بين أدب ودأب فى الحروف والمعنى ، فيقال مثلا إبْر وإرْم .

٢ — لم يذكر شبيها فى هذا الاشتقاق فى اسم معنًى قدمت عينه على فائه فى الجمع ثم اشتق منه فعل جديد .

٣ — لم يرد فى معجم أو نص جمع كلمة الدأَب أو الدأْب عَلَى أدآب ، ولكن ورد فى كتب اللغة جمع بئر على أبآر وآبار ، وجمع رئم على أرآم وآرام .

٤ — لم يرد الدأب بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسنا أو قبيحا ، والأدب خلق كريم فى أول معانيه .

والدكتور طه حسين كان فى أول الأمر يدين برأى الأستاذ نلينو . ولكنه بعد ذلك يحار فى الاهتداء إلى مصدر الكلمة ولا يرتضى رأيا من الآراء ، فيفترض أنها من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الأصيل ضاعت . وهذا رأى يعتمد على هدم البناء بمعول من الخيال والفرض لا يبنى ولا يهدم .

والأستاذ مصطفى جواد يرى أنها مشتقة من الهَدَب ، وقلبت الهاء همزا كما فى هيا وأيا وهراق وأراق . ولكن يضعفه أن الكلمة لم تستعمل مرة على هذا الأصل لا فعلا ولا اسما .

ويرى الأب أنستاس الكرملى أن الأدب « صنعة الأديب الوارد فى اللغة اليونانية باللفظ والمعنى ، فمن معانى الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الريق » [1] لكن هذا الرأى محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .

ويذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن (أدب) معناها الإنسان فى لغة السومريين الذين عمروا جنوبى العراق فى فجر التاريخ ، ومما لا مساغ للشك فيه أن

---

(١) المقتطف مارس سنة ١٩٢٣ ص ٣٢٢ مقال للاستاذ مصطفى جواد.

قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضهم حوالى القرن الثلاثين قبل الميلاد فغزتهم وأخضعتهم واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا نظن أن هذه الكلمة السومرية قد دخلت العربية بلفظها ومعناها ، ثم تحولت إلى آدم واستعملت كذلك فى اللغات السامية ، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدمها وعدم اختلاطها ، ثم استعملت هذه الكلمة فى الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذى استكمل مزايا الإنسانية من حُرِّ الخلال وكرم الفعال ، وحسن السيرة ، كما نقول اليوم فلان آدمى وفلان إنسان ، ثم قلبها الزمن على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . ومما يساعد هذا الفرض قول التبريزى فى شرح الحماسة كان الأدب اسما لما يفعله الإنسان فيتزين به فى الناس »(١) .

ومع تقديرى للأستاذ وتحرزه فى عرض هذا الفرض أدفعه بأن المراد من الكلمة إذاً الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز بصفات ، لا الخلق الكريم نفسه ولا الصفات المميزة لبعض الناس ، وليس فى اللغة أثارة تؤيد هذا المعنى أو تشير إليه ، وحتى كلمة التبريزى نفسه صريحة فى أن الأدب ميزة وحلية يتزين بها الرجل فى الناس ، على أن استعمال هذه الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيد الاحتمال .

وبعد فهذه آراء تبحث عن أمومة للكلمة فى غير جنسها ، وأمها فى اللغة العربية نفسها ، وبعضها ينصب شباكا لاصطياد جديد ، وأقوى منه ذلك الرأى التليد الوطيد

— ٢ —

وفى العصر الأموى ظل هذا المعنى الخلقى الصرف حياً شائعا ، ومنه قول سالم ابن وابصة الأسدى :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرّما ... أديبا ظريفا عاقلا ماجداً حراً

إذا ما أتَتْ من صاحبٍ لكَ زَلَّة ... فكن أنت محتالا لزلته عذرا

---

(١) فى أصول الأدب ص ٨

وقول مزاحم العُقيلى فى وصف الإبل :

وهن يُصرِّفن النوى بين عالجٍ ونجران تصريف الأديب المذلَّل (١)

ولكن الكلمة تطورت إلى معنى آخر ، هو الشعر والنثر ، وما يتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب ، وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريسه لأبناء الخاصة وأولياء العهد طائفة من الأساتذة سموا المؤدِّبين . ومن ذلك قول معاوية : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم ، فان فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم » ، وقول عبدالملك بن مروان لمعلم ولده : « أدِّبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه — قاتله الله — ما كان أعذب بحره ، وأصلب صَخْره » . وسُمِّى المملون بهذه الثقافة أدباء أيضاً ، قال أبو العيزار كما ذكر الجاحظ أو عبيدة بن هلال اليشكرى كما ذكر المبرد فى مدح الخوارج :

أدباء إما جئتهم خطباء ضمناء كل كتيبة جرار (٢)

على أنه كانت فى العصر نفسه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب هى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهذه هى الثقافة الشرعية أو الدينية

فمن أين اشتق هذا المعنى الجديد للأدب ؟

جرى الباحثون على أن المعنى الجديد وليد القديم ؛ لأن المؤدبين كانوا يتوخون من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة ، ولكنى أرى أن المعنى الجديد إنما جاء من الأدْب وهو الأمر العجيب ، قال الأصمعى : جاء فلان بأمر أدْب أى عجيب ، وأنشد :

سَمِعَتْ من صلاصل الأشكال أدْباً على لَبَّاتها الحوالى

أو من الأدْب وهو العجب والدهشة ، قال منظور بن حَبَّة الأسدى :

بِشَمَجَى المشىِ عَجول الوثبِ غَلَّابة للناجيات الغُلْب

---

(١) الأديب والمؤدب : البعير المذلل المنقاد .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٩/١ .

حتى أتى أزْبِيُّها بالأَدَبْ (١)

فالأدْب الأمر العجيب ، أو الدهشة والعجَبَ ، والصلة بين الأدب بمعناه الفنى وبين هذين الأصلين صلة وثيقة ؛ لأن الأدب عجيب يثير النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عجب من منظر أو حادث أو شعور ، ونتاج يدعو إلى عجب القراء والسامعين ، ويعزز رأيي هذا أن بعض الشعر الذى كان يدرس ويروى على أنه أدب حافلٌ بالمجون والغزل الفاحش ، كشعر طرفة وامرىء القيس والأعشى ، فاشتقاق المعنى من الأدْب بمعنى الأمر العجيب أو العجب والدهشة أكثر ملاءمة للأدَب ومسايرة له من اشتقاقه من الأدَب بمعنى الخلق الكريم .

وإذاً فالأدْب بمعنى الدعاء للمأدبة أصل الأدَب بمعنى الخلق العظيم ، والأدْب بمعنى العجيب والعَجَب أصل لذلك الفن الجميل الرفيع من شعر ونثر .

— ٣ —

وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى الأول أو ، فى القرن الثانى والثالث نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها وأسمائها . فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب بهذا المعنى مثل طبقات الشعراء لابن سلام المتوفى ٢٣٢ هـ والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ والكامل للمبرد المتوفى ٢٨٥ هـ والشعر والشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ ونحن نجد مثلا فى كتاب الكامل شعراً ولغة وصرفاً ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لأنهم فهموا الأدب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة .

ولم يكن الأدب ثقافة المسلمين الوحيدة فى ذلك الحين ، فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ،

---

(١) لسان العرب مادة أدب . الشمجي : الناقة السريعة . الأزبى : السرعة والنشاط . الناجيات : النوق السريعة . ملاصل الأشكال : وسوسة الحلى .

واتسعت دائرتها عما كانت عليه فى القرن الأول ، فتفرعت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته ورسمه ، وإلى الحديث الشريف وعلوم الحديث ، وإلى الفقه وأصوله ، والكلام ومذاهبه ، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك . . .

ولكن الأدب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة ، فهذه فلسفية وتلك دينية ، على أن الدلالة الخلقية ما فتئت حية تدور على الألسنة وأسلات الأقلام ، فإن الجاحظ مثلا فى البيان والتبيين عقد فصولا فى الأدب منها (كلام فى الأدب) ذكر به عدة حكم ووصايا مما يهذب الأخلاق (١) ، وذكر لابن هرمة أبياتا فى الرثاء منها بيت يمدح المرثى بالكرم وحسن أخلاق الخدم فى لقاء الضيوف :

هَشٌّ إذا نزل الوفود ببابه   سهل الحجاب مؤدَّب الخُدَّام (٢)

وابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ ﻫ سمى كتابين له فى الأخلاق (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير)

— ٤ —

وقد كان النقد يتدرج فى نضجه وارتقائه منذ القرن الثالث ، ونهض علماً مستقلا متميزاً من الأدب فى القرن الرابع ، وسمى بلاغة حينا وبيانا حيناً وبديعا حينا ، وكان رواة الأدب قد قللوا من الاستطراد اللغوى والنحوى فيما يروون ويدونون ، فضاقت دائرة الأدب التي كانت رحبة شاملة فى القرنين السابقين ، وانحسر لفظ الأدباء عن العلماء واستقل به الكتاب والشعراء ، لأن العلوم استقلت فاختص بكل علم رجاله ، حتى قالوا ختم تاريخ الأدباء بثعلب والمبرد وكانت وفاة المبرد ٢٥٨ ﻫ وثعلب ٢٩٢ ﻫ . وهم يقصدون بالأدباء هنا الملمين بالثقافة العربية جملة ، وصار الأدب يطلق على الجيد من الشعر والنثر وما يرتبط بهما من شرح ونقد وهذا هو معناه فى كل اللغات الآن

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٦   (٢) البيان والتبيين ١/١٥٥

— ٥ —

على أن هذه الكلمة دلت فى العصر العباسى أحياناً على معنى أوسع من هذا كله، دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعملية ، فالفلسفة أدب ، والصيد والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب ، والأديب هو المثقف المستنير اللبق ، قال الوزير الحسن بن سهل المتوفى ٢٣٦ هـ : « الآداب عشرة: ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس » (١)

ومن النصوص الدالة على أن الأدب هو المهارة وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ما أنشده ابن أبى كريمة :

ألا زعمت عفراء بالشام أننى ... غلامُ جوارٍ لا غلام حروبِ

وإنى لأهذِى بالأوانس كالدمى ... وإنى بأطراف القنا للعوبُ

وإنى على ما كان من عنجهيتى ... ولوثة أعـرابيتى لأديبُ (٢)

وجاء فى إحدى رسائل الجاحظ قوله : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيميا والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها » فأدخل فى الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعة ، متأثراً بأرسطو فقد سمى العلوم الرياضية الأدب فى تقسيمه للعلوم المأثور عنه (٣)

وأدخل إخوان الصفا فى عداد العلوم الرياضية التى سميت الأدب أحيانا

---

(١) زهر الآداب ١/١٤٢ (٢) البيان والتبيين ١/١٤٩

(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٥٣٣

السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة [١]

وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل الأغانى من أرقى فنون الأدب ، وفيها وضع عبيد الله بن طاهر من ندماء الخليفة المعتضد بالله المتوفى ٢٨٩ هـ كتابه (الآداب الرفيعة) ، لذلك قال ابن خلدون : «وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء الأدب لأنه تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه »

وقال : « يجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين اللغة العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، يفهم به مايقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة .... فالأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف » [٢]

وقد جمع أبو القاسم إسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع ضروب الأدب فى قوله :

إن شئتَ تعلم فى الآداب منزلتى وأننى قد عدانى العز والنعم
فالطِّرف والسيف والأوهاق تشهد لى والعود والنرد والشطرنج والقلم [٣]

(١) الرسالة السابعة ج١ .
(٢) المقدمة ص٤٤٨ — ٤٨٩
(٣) الأوهاق : الحبال القوية ترمى فى أنشوطة لتؤخذ بها الدابة والإنسان ، وغرض الشاعر حرف الكدية التى ينال بها المال

تاريخ الأدب

وهل للأدب تاريخ ؟ نعم فإن الأدب كائن حي متطاول العمر ، فلا بد أن يؤرَّخ ، لابد أن نعرض لحالته من قوة أو من ضعف ، وأن نحيط خبراً بالمؤثرات العامة فى حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وحرية أو عبودية وثقافة أو جهالة وحرب أو سلم الخ ، لنعرف الينابيع الأولى التى استقت منها النفوس والعقول ، ولابد أن ندرس الحركة الفكرية فى كل عصر وتأثيرها فى الأدب ، وتأثر أديب بغيره وتأثيره فى غيره ، ونعلم خصائص كل أديب وخصائص الأدب فى كل إقليم الخ .

فمؤرخ الأدب إذاً لا بد من أن يلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة ، ولابد أن يدرس الحالة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية للعصر الذى يدرسه دراسة تمكنه من فهم الأدب وظروفه ، ومن المعرفة بالأديب وإنتاجه ، على أنه فوق هذا كله لابد أن يكون هو نفسه أديباً ذا ذوق ، ليتشايع ذوقه وثقافته ، فليس تاريخ الأدب علما صرفا ، وإنما هو مزيج من العلم ومن الذوق ، وكيف نريد ممن حُرِم نعمة الذوق الأدبى أن يؤرخ هذا الذوق ؟ ولو أن مؤرخ الأدب اقتصر على ذوقه وحده دون أن تؤازره الثقافة العامة لضلَّ ، قال رجل لخلف الأحمر : إذا استحسنت أنا الشعر فما أبالى ما تقول فيه أنت وأصحابك ، فقال خلف : أرأيت إذا استحسنت أنت درهما ثم قال لك الصراف : إنه ردىء ، أكان ينفعك استحسانك له ؟ (١)

وقد نتساءل ما قيمة تاريخ الأدب وما أثره ؟ ولو نظرنا إلى العصور الأدبية كلها لأجبنا بأن هذا التاريخ يبصرنا بحياة الأدب والحركة العلمية والفكرية وما أثَّر فيها فرقاها أو هبط بها ، ثم هو يبصرنا بآثار الأدباء والعلماء والمؤثرات فى أدبهم

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧

وعلمهم، لنسترشد بذلك في فهم إنتاجهم، ونوفر الجهد الذى كان مضطراً كل منا أن يبذله لو انفرد بالبحث والدرس، وهيهات أن يتسع له وقته أو تمكنه وسائله، على أنه يبعث فينا الشوق إلى مواصلة الدراسة، ويهدينا إلى طرق البحث القويمة المجدية.

ومن حق الأدب علينا أن ندرسه؛ لأنه ميزة تميز بها الإنسان، ولأنه لغة الروح وترجمان القلب وصقال النفس، وهو بعد ذلك وسيلة بلاغ الرسل إلى العباد، والإرهاص الذى يتقدم ثورات الأمم على عسف طال، أو خمود استطال، فتنفلت من قيودها، وتنطلق من خمودها، وتثب على أنغام الأدباء إلى أعلى مُثلها.

اللغة العربية

اللغات السامية
اللغة العربية سامية
أطوار رقيها وتهذيبها وعوامل التقريب بين اللهجات

— ١ —

اللغات السامية هي لغات الجنس السامي الذي اتصلت شعوبه اتصالا وثيقا، واتحدت في النشأة، والبيئة، واللون، وارتبطت بروابط طبيعية واجتماعية جعلتها جنساً من البشر متميزاً، سواء رجعنا إلى تقسيم التوراة أم إلى التقسيم الطبيعي [١]

وأول من أطلق على لغات هذا الجنس (اللغات السامية) المستشرق الألماني شلوتزر ١٧٨١ م ولكن هذه التسمية على ذيوعها وخفتها غير جامعة وغير مانعة، لأن بعض من يتكلمون بها ليسوا من الجنس السامي مثل الأحباش فلغتهم سامية وهم حاميون [٢]

— ٢ —

واللغة العربية المستعربة سامية، ولابد أنها استمدت كلمات من أخواتها الساميات كالحبشية والحميرية والعبرية والآرامية القديمة.

ذلك أن إسماعيل عليه السلام تعلم العربية من جُرْهُم الثانية التي كانت قد هاجرت

---

(١) فالتوراة ترجع النوع الإنساني كله إلى أبناء نوح الثلاثة. سام، حام، يافث، فتقسمه إلى ثلاثة أجناس. والتقسيم الطبيعي يعتمد على طبيعة الناس من اللون والفطرة، والبيئة ... الخ. والجنس السامي في رواية التوراة هو نفسه في رأي العلم.

(٢) بعد أن تفرعت من اللغة الأثيوبية الحبشية لهجات حامية امتزجت بالعربية السامية امتزاجا محا الأولى وأبقى الثانية حتى صارت اللغة الأثيوبية أو الحبشية تعد من اللغات السامية، كما أن اللغة المصرية القديمة امتزجت باللغات السامية حتى خرجت من طبيعتها الأولى وعدها بعض اللغويين من السامية (مقدمة الأساس في الأمم السامية ولغاتها)

من اليمن إلى مكة ، وامتزج بهم وأصهر فيهم . ويقال إنه كان لإسماعيل لغة أخرى عبرية أو كلدانية ، فقد كانت أمه هاجر مصرية ، وأبوه يعرف الكلدانية ، ومن البعيد أن ينسى إسماعيل لغة أبيه ولغة أمه ، بل القريب أن تمتزج لغة أبويه بلغة أصهاره ، ونشأ من إسماعيل ومن ذراريه جيل عربي جديد هم العرب المستعربة .

وانتسب المضريون — العرب المستعربة — إلى أبيهم لا إلى أمهم ، وإن كان النسب إلى الأم شائعا فى العصر الجاهلى ، ورفض النبي صلى الله عليه وسلم أن ينسب المضريون إلى آكل المرار ، وذلك أن وفد كندة قدم على النبي برياسة الأشعث ابن قيس ، وقال الأشعث للنبي : « يارسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار » فتبسم النبي وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث » وكانا تاجرين يوغلان فى بلاد العرب ، فإذا سئلا ممن هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك — لأن كندة كانوا ملوكا — ثم قال لهم : « لا بل نحن بنو النضر ابن كنانة ، لا نقفو أمنا ، ولا ننتفى من أبينا »(١)

ويقال إن القحطانيين هاجروا من الفرات أو الحبشة إلى اليمن وعمروها وأضافوا إلى لغتهم من لغة أسلافهم المعينيين الذين هم من بدو الآراميين أو بقايا البابليين ، عبروا إلى اليمن قبل القحطانيين ، وكانت لهم بها دولة قبل سبأ وحمير ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التى تطورت إلى الخط المسند أو القلم الحميرى .

فاللغة العدنانية استرفدت من هذا كله ، وقد تطورت إلى المضرية الفصحى فى الوقت الذى زالت فيه الدولة الحميرية حوالى أوائل القرن السادس للميلاد ، وفى الوقت

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٥٤ وآكل المرار : الحارث بن عمرو بن حجر الكندى ، والمرار نبات مر إذا أكلته الابل تقبضت مشافرها ، وسمى الحارث بذلك لأن عمرو بن الهبولة الغسانى أغار عليهم والحارث غائب فغنم وسبي وكان فى سبيه امرأة الحارث فقالت لعمرو فى سيره : لكأنى برجل أدلم — مسترخي الشفتين — أسود كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار قد أخذ برقبتك ، تعنى الحارث ، فسمى آكل المرار ، ثم تبعه الحارث وقتله واستنقذ امرأته وما كان أصاب (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٥)

الذى بسطت فيه سلطانها على أكثر أرجاء الجزيرة ، وتوحد اللسان العربى إلا ما ينجم عن طريقة النطق ويسميه العلماء اختلاف اللهجات .

وعلماء اللغات يفضلون اللغات السامية على الحامية والآرية بكثرة مفرداتها ، وتنوع أساليبها ، واطراد قياسها ، ووضوح مخارج حروفها ، وهم أنفسهم يقدمون العربية على أخواتها السامية بهذه الميزات وبغيرها ، حتى رأى كثير منهم قدماء ومحدثون شرقيون وغربيون أن العربية أصل اللغات السامية أو أقربها إلى السامية الأولى ، لنشأتها فى أقدم موطن للساميين ، وبقائها بمعزل عن الاحتكاك باللغات الأخرى .

وهم قد وازنوا بين العربية والسريانية والعبرية فاتضح أنهما متأثرتان بها ، بدليل أن الكلمات التى بها ضاد — وهو حرف خاص بالعربية — نقلت إلى العبرية بالصاد ، وإلى السريانية بالعين ، ولو كانت العربية هى الناقلة لبقيت الصاد أو العين على أصلهما لأن الحرفين فى العربية فلا مدعاة للإبدال .

— ٣ —

لسنا نستطيع أن نزعم أن اللغة العربية قد ولدت ناضجة كما وصلت إلينا لأن هذا مخالف لقوانين التطور ، وطبيعة اللغات تأباه ، فلابد أن مرت بهذه اللغة أطوار ومؤثرات رقتها وأنضجتها وأوصلتها إلى درجة من الكمال جعلتها خليقة أن ينزل بها كتاب الله .

وأهم أطوار التهذيب هى :

١ — نزل إبراهيم بالحجاز وترك هنالك ابنه إسماعيل عليهما السلام ، وأصهر إسماعيل فى جرهم الثانية وهى قحطانية ، فكان لسانه ولسان نسله متأثراً بلغة أبيهم وبلغة قحطان .

وكان من الطبيعى أن تمتزج لغة إسماعيل بلغة جرهم ، وأن ينطلق لسانه فى مجال أوسع ويشقق عبارات أوضح ، لكماله الفطرى الذى لا يفتقر إلى تلقين ولا تعليم ، وجرى على لسانه بنوه من بعده ، وامتد الزمن باللغة ينميها ويكملها حتى ظهر عدنان

أبو العرب المستعربة ، فنشأ جيل جديد ذو لغة أعظم ثروة ونمواً ، أسهم فيها الجميع ، لأن دارهم وبيئتهم وأخلاقهم وشيمهم واحدة ، وبينهم تصاهر وتشابك واجتماع لا ينقطع .

ب — ثم انشعبت قبائل من أولاد إسماعيل ، وجعلت لغتها تنمو وتتطور ، وساعدها أنها لم تُكْتَبْ فتتأنى فى تطورها أو تجمد ، لأنها لغة قوم أحرار ذوى فطر سليمة يُصَرِّفون لغتهم كما يُصَرِّفون أزِمَّةَ نُوقهم وأعنة خيلهم ، وكان يأخذ بعضهم عن بعض بالمخالطة والمجاورة والتلاقى فى الأسواق ، فتنتقل الكلمات من قبيلة إلى أخرى كما تنتقل العروض .

حـ — ولقريش وحدها فى هذا المضمار نصيب عظيم من الجهد والفخار ، فإن التطور الأول كان عمل القبيلة الأولى ، والثانى كان من صنع القبائل جميعاً ، أما هذا فجهد قريش ، وقد أعانتها على ذلك أمور :

(١) أعانها الدين ، فالقرشيون يقيمون بواد غير ذى زرع ، وهم مفتقرون إلى أن تهوى أفئدة الناس إلى البيت الحرام ، وقد استجاب الله دعاء سيدنا إبراهيم ، فجعل الكعبة الشريفة وجهة العرب أجمعين يحجون إليها أو يعتمرون ، وكانت القبائل التى تفد على مكة للحج ذات لهجات منها الجيد ومنها الردىء ، وقريش تستمع إلى الوافدين وتستصفى من لهجاتهم مايروقها ، وكان النازلون ينقلون عن قريش ويبثون فى الجزيرة ما نقلوا .

(٢) وساعدتها التجارة ، فقد كان القرشيون يرتحلون فى كل عام رحلتين ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى الشام ، وكانوا أحياناً يضربون فى الأرض ويمشون فى مناكبها إلى فارس وإلى الحبشة كما سيجىء . وهم قوم صناعتهم الكلام ، يضيفون إلى لغتهم ما يغذيها ، ويزودونها بما ينميها ويرقيها .

وقد ساعدهم على التجارة موقع بلادهم الجغرافى ، وأنهم أهل الكعبة التى يدين العرب لها فلا يعتدى عليهم أحد فى رحيلهم . وإن اطمئنانهم على حياتهم وأموالهم ،

وإن امتيازهم بالرحلات التجارية لجديران بأن يكونا نعمة يذكرهم الله بها ، قال تعالى: «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » قال الزمخشرى : إنهم كانوا آمنين فى رحلتهم ، لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم ، قال تعالى : « أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كل شىء رزقاً منْ لَدُنَّا ، ولكن أكثرهم لايعلمون » (١)

(٣) وظاهرتها المكانة السياسية التى استمدتها من نفوذها الدينى والاقتصادى ، حتى قال أبو بكر فى رده على الأنصار يوم السقيفة مؤيداً حق المهاجرين فى الخلافة : « ... وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، وقال فى خطبته الثانية : لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش »

(٤) وكانت لهجة قريش أغنى اللهجات وأطوعها وأقدرها على التعبير ، لأن أهلها أرق ، ولأنهم أغنوها بما أضافوا إليها

(٥) على أن الأسواق المشهورة — وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز — كانت على مقربة من مكة ومن موسم الحج تفد إليها القبائل ، وعكاظ خاصة مجتمع العرب جميعا يتوافدون إليها من كل حدب وصوب ليتفادوا أسراهم ، ويتحاكموا فى خصوماتهم إلى بنى تميم ، ويتفاخروا بأحسابهم ومحامدهم وشجاعتهم ، ويتباهوا بالبليغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويخطب الخطيب خطبته . فى عكاظ أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرب للنابغة قبة من أدم ليتحاكم إليه الشعراء ، وقد أنشده الأعشى والخنساء وحسان فى قصة مشهورة(٢) وفيها خطب قس بن ساعدة خطبته التى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواها ، ذلك أن وفد بكر بن وائل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من حوائجهم قال :

---

(١) الكشاف ٥٦١/٢ (٢) الأغانى/٤/٣٥ ساسى

هل فيكم أحد يعرف قس بن ساعدة الأيادى ؟ قالوا : كلنا نعرفه ، قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأنى به على جمل أحمر بعكاظ قائما يقول : « أيها الناس اجتمعوا واستمعوا ، وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، وبحار تموج ، وتجارة تروج ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قس حقا لئن كان فى الأرض رضا ليكونن بعده سخط ، وإن لله عزت قدرته دينا هو أحب إليكم من دينكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ » ثم أنشد أبو بكر رضى الله عنه شعرا حفظه له وهو :

فى الذاهبين الأولـــين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلـــىَّ ولا من الباقين غابر
ايقنت أنى لامحـــا لة حيث صار القوم صائر(١)

وكانت عكاظ ملتقى الجميع ، حتى إن من أراد أن يثأر ولم يعثر على واتره طلبه فى الموسم ، ومن أراد أن يعمل عملا تعرفه العرب ويشيدها عليه عمله فى عكاظ (١) وقد عمرت من ٥٤٠ م إلى أن نهبها الخوارج الحرورية ١٢٩ هـ

وكانوا يجتمعون (بسوق عكاظ) من أول القعدة إلى العشرين وفى (مجنة) قرب مكة بقية القعدة ، وفى (ذى المجاز) بجانب عرفة أول ذى الحجة ، ومنها ينصرفون إلى عرفات حيث الموقف الأعظم .

وكانت لهم أسواق بين بلادهم وبلاد العجم يلتقون فيها للتسوق والبيع ، وهى

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٩٩/١
(٢) الأغانى ١٣/٢

أوسع أبواب الدخيل والمعرّب ، ذكر منها الجاحظ (سوق الأبلة) (وسوق الأنبار) (وسوق الحيرة) .

وكانت لهم أسواق أخر تتوالى ، ينزلون فى (دومة الجندل) أول ربيع الأول ثم ينتقلون إلى (هجر) بالبحرين حيث السوق فى ربيع الآخر ، ثم يرتحلون إلى (عمان) بالبحرين أول جمادى الأولى ، ثم ينزلون سوق (المشقر) بالبحرين أول جمادى الآخرة ، ثم ينزلون سوق (صُحار) بعض أيام من رجب ، ثم تقوم سوقهم فى (الشحر) بين عمان وعدن فى نصف شعبان ، ثم فى (حضرموت) نصف ذى القعدة ، ومنهم من يجوزها وينزل (بسوق صنعاء)

فالأسباب التى كانت تقرب بين لهجات العرب أثرت وأنتجت قبل أن تصير لقريش السيادة فى الإسلام ، وللشعر نصيب فى هذا التقريب ، قال الدكتور شورتز والأستاذ ليورنارد كنج فى تاريخ هارمزورث العالمى ص ١٨٩٢ : « وقبل أن تؤسس مكة بزمن طويل كان من عادة الحاج أن يجتمعوا فى بعض الأماكن فى الأشهر الحرم يقيمون أسواقا يتبادلون فيها السلع كما يتبادلون منتجات القرائح ، وكان أشهرها عكاظ ، يجتمع فيها من قبائل العرب شجعانهم وفصحاؤهم يتنافسون فى الأشعار ، ينشدونها فخرا بعشائرهم وإشادة بأعمال رجالهم ، أو اجتهادا فى الفوز بالجائزة التى كانت تعطى لأحسنهم غزلا ونسيبا ، وكان مشايخ القبائل برأسهم من ينصبونه (أمير الشعراء) يحكمون فى تلك المسابقة التى كانت تقام فى أشهر السلم ، والتى كان يُتَشَوَّف إلى نتيجتها فى جميع أنحاء بلاد العرب .

وقد عرض هذا الكتاب نفسه لسوق عكاظ وبين أثرها فقال :

« وفى أيام ما قبل الإسلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السوق والمجتمع السنوى العظيم : سوق عكاظ ، نسبة إلى السهل الذى كان يقام فيه ، كان يأتيه الناس من جميع الطبقات من كل فج فى الجزيرة ، ويستمر شهر ذى القعدة الذى كان يسبق شهر الحج فى الجاهلية كما يسبقه فى الإسلام ، فيه كانت المسابقات بين الخيل ، والألعاب

وتناشد الأشعار ، وجميع أنواع الملاهى تروح على الناس عناء الأعمال التجارية فى سوق عام يكاد فى شموله واتساعه يكون معرضاً قوميا ، وفيه أيضاً كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم فى أمهات الأمور من حرب وسلم وحلف وتعاهد وثأر وتقاض ، فكان أولاد نزار — كما كانت العرب المستعربة تحب أن تدعى — يجتمعون فى نوع من منتدى عام لايقل عراقة فى القدم عن منتدى طيبة ، وإن كان أثره ما دام قائما أكبر فى بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أتيح لمنتدى طيبة فى قديم اليونان ، وكان لرؤساء قريش المقام الأول فى ذلك المجتمع ، لقربه من ديارهم ، ولما كان لهم من ثروة وشجاعة وحسن خطاب »[1]

فلا بد أن لهجات العرب فى ذلك الوقت كانت متقاربة يسهل التفاهم بها ، ونستطيع أن نتصور زحمة الأسواق بالوافدين عليها وكثرتهم إذا ما نظرنا إلى أسواقنا فى الأقاليم ، وإلى اجتماعات الناس فى الموالد كالمولد الأحمدى والدسوقى ، ثم إذا ماعلمنا أن للهنود سوقا يقيمونها فى هردوار على ضفاف الكنج فى كل سنة ويجتمع فيها نحو ثلاثمائة ألف نفس ، ويقيمون حجاً فى ذلك المكان مرة كل ١٢ سنة يبلغ فيه عدد الحجاج نحو مليون نفس

وشأن العرب فى أسواقهم شأن اليونان القدماء فى الجمناسيوم (الملعب الرياضى) إذ كانوا يجتمعون للألعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء ، فيغنمون فرصة الاجتماع ويتباحثون ويتناظرون كما كان يفعل العرب فى عكاظ

وبعد ، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة ، والعرب جميعاً يدينون لقريش بسيادة دينية ولغوية كما قدمنا ، فهم يحاكون لهجتها ، ويتأثرون منطقها ، وقريش أيضاً تنتقى من لهجاتهم أفصحها ، ومن كلماتهم أعذبها .

فليس فيها شيء من معيب اللهجات ، قال معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن عَنْعَنَةِ تميم وتياسروا عن

---

(١) النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى ٢١٠ — ٢١١

كَشْكَسة بكر ، ليست لهم غَمْغَمَةُ قضاعة ، ولا طُمْطُمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جَرْم [١]

وقالوا أيضا إن لغتهم سلمت من عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء [٢]

وبذلك كله بلغت اللغة درجة من الرقى والوحدة أعدتها لأن ينزل القرآن الكريم بأسمى لهجاتها لهجة قريش ، فتمت به الوحدة اللغوية ، وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدِّرء لهذه اللغة ، يصونها من أن تمحوها النوازل ، أو تتشعب منها لهجات مختلفات تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف

موقع سوق عكاظ

استعرض الأستاذ حمد الجاسر من الرياض ، أقوال المؤرخين القدماء فى تحديد موقع عكاظ :

١ — محمد بن إسحاق (المتوفى ١٥١ هـ) من كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام تأليف أبى الطيب الفاسى ، مخطوط فى مكتبة الشيخ عبد الستار الدهلوى بمكة جـ ٢ ص ٤٩٣

٢ — محمد بن عمر الواقدى (١٣٠ — ٢٠٧ هـ) نقلا عن معجم البلدان ٢٠٣/٦

٣ — أبى عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ — ٢٠٩ هـ) نقلا عن معجم ما استعجم للبكرى ص ٦٦٠ طبعة باريس سنة ١٨٧٧

---

(١) البيان والتبيين ٢١٢/٣ لخانية الفرات : لهجة لأعراب الشحر وعمان باليمن يحذفون بعض لحروف اللينة كقولهم مشاء الله يريدون ما شاء الله والظاهر أن بعضهم نزلوا بشط الفرات بعد الإسلام . العنعنة : قولهم أن فى موضع عن الكسكسة : لهجة لبنى بكر بن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلحقون بعد كاف الخطاب سينا . الغمغمة : الكلام المبهم . الطمطمانية : لهجة لحمير يبدلون لام التعريف ميما مثل أمصيام فى الصيام .

(٢) مجالس ثعلب ١ / ١٠٠ — ١٠١

٤ — الأصمعى (١٢٢—٢١٦هـ) عن معجم البلدان ٦/٢٠٣

٥ — ابن هشام (المتوفى ٢١٨ هـ تقريبا) عن كتاب التيجان فى ملوك حمير ص ٢١٠ طبعة حيدر آباد

٦ — الأزرقى (المتوفى ٢٤٤ هـ تقريبا) عن كتاب المحبر لابن حبيب ص ٣١٥ المطبوع فى الهند

٧ — محمد بن حبيب البغدادى (المتوفى ٢٤٥ هـ) عن كتاب المحبر ص ٣١٥ المطبوع فى الهند

٨ — عرام بن الأصبغ السلمى عن كتاب (أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما نبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه) نسخة خطية ملك الشيخ محمد نصيف بجدة، وقد نقل البكرى وياقوت معظم هذا الكتاب

٩ — ابن واضح اليعقوبى (المتوفى ٢٩٢ هـ) عن تاريخ اليعقوبى ص ٢٧٧ طبعة العراق

١٠ — الهمدانى (المتوفى ٣٣٤ هـ تقريبا) عن (صفة جزيرة العرب طبعة ملر فى ليدن ص ٢٦٢و٢٦٤و١٦٤و٧١

١١ — أبى عبيد البكرى (المتوفى ٤٨٧ هـ) عن كتابه معجم ما استعجم ص ٦٦٠ — ٦٦٢ طبعة أوروبا سنة ١٨٧٧

١٢ — الشريف الإدريسى (المتوفى ٥٦٥ هـ) عن كتابة نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ورقة ١٠٢ ج ١ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٦٣ جغرافية

١٣ — ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦هـ عن كتابه معجم البلدان ٦/١١٣و٧/٢٧١

١٤ — الحميرى مؤلف الروض المعطار، نسخة مكتبة عارف حكمت شيخ الإسلام المخطوطة بالمدينة المنورة

١٥ — الفيومى (المتوفى ٧٧٠ هـ) عن كتابه المصباح المنير ٢/٤٩ بولاق

واستخلص منها

١ — أن موقع سوق عكاظ فى أعلى نجد ، فليس فى تهامة ولا فى الحجاز

٢ — أنه فى بلاد قيس عيلان من مضر ، ثم فى بلاد بنى نصر بن معاوية بن بكر ابن هوزان بن قيس عيلان

٣ — أنه يبعد عن الطائف مسافة تتراوح فى تقدير المتقدمين بين عشرة أميال أو بريد (١٢ ميلا) أو مسيرة يوم

٤ — أنه على طريق اليمن من مكة بين المناقب وكلاخ ، ولليمن إلى مكة طريقان : تهامى يأخذ على الساحل ، وآخر يأخذ على أطراف السراة مارا ببلاد عسير وهو الذى يقع عكاظ فيه

مشاهدتى الخاصة

تنطبق الأوصاف السابقة على الأرض الواسعة الواقعة شرقى الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيفة ، وتبعد تلك الأرض عن الطائف نحو ٣٥ كيلو ، ويحدها غربا جبال بلاد عدوان ، وجنوبا جبال أسفل وادى ليّة . . وشرقا صحراء رُكْبة وشمالا طرف ركبة ... (١)

---

(١) عن مجلة المجمع العلمى العربى ج ٣ مجلد ٢٦
١ تموز ١٩٥١ — ٢٧ رمضان ١٣٧٠

اللغة العربية واللهجات

لغة الشمال ولغة الجنوب
اختلاف اللهجتين طبيعي
اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة
لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات فى الشعر الجاهلى ؟
بعض الشعر المروى يسجل اللهجات . القراءات واللهجات . اللغة واللهجات
رحلات القحطانيين إلى الشمال قديمة وثابتة
معنى كلمة أبى عمرو بن العلاء

لغة الشمال ولغة الجنوب

ذكر الدكتور طه حسين بك فى شكه فى الشعر الجاهلى أن لغة الشمال غير لغة الجنوب ، معتمداً على كلمة لأبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم كعربيتنا » ، ومعتمداً على أن الكشف الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغتين ، فكيف جاء الشعر الجاهلى كله بلغة أهـــل الشمال ؟ ثم نفى أن يتخذ القحطانيون لغة الشمال ترجمانا عن عواطفهم ولغة أدبية لهم ، مع أن السيادة السياسية والاقتصادية ، والحضارة — وهى أمور من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب — قد كانت للقحطانيين لا للعدنانيين .

وردّ على من يقول إن أهل الجنوب هاجروا إلى الشمال ، وتأقلموا واصطنعوا لغة الشمال بأنه يشك فى صحة نسب الذين هاجروا ، بل يشك فى الهجرة نفسها : متى كانت ؟ ومن المهاجرون ؟ وإلى أين هاجروا ؟ (١)

ثم قرر أن العدنانيين أنفسهم كانت لهم لهجات ، فكيف جاء الشعر المروى كله بلهجة قريش ، مع أن فى الشعراء يمنيين وقيسيين وربعيين الخ ؟ وقد قرأ العرب القرآن

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٨٨ — ١٠٢

الكريم بلهجاتهم ، فأمالوا حيث لم تكن تميل قريش ، ومدوا حيث لم تمد الخ . وعجب من أنه لم يحدث مثل هذا فى الشعر المروى .

ورد على من اعترض عليه بأن اللهجات كانت قائمة بعد الإسلام فلماذا لم تظهر فى الشعر الذى قيل بعده ؟ بأن العرب قد اتخذوا بعد الإسلام لغة قريش دستورهم (١)

اختلاف اللهجتين طبيعى

ولا يمارى أحد فى أن لهجة الشمال كانت مغايرة للهجة الجنوب ، ولا يدفع أحد أن لهجات القبائل فى الشمال كانت تختلف إلى حد ما ؛ لأن هذا وذاك راجعان إلى طبيعة المنطق وتأثير الوراثة والبيئة ، فليس بعجيب أن اختلفت اللهجات ، بل كان العجيب لو أنها اتحدت ، فما زالت اللهجات تنشعب من اللغات وتتباعد وتتقارب حسب العوامل المؤثرة فى الناطقين بها وفى اللغة نفسها .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فالأمة العربية تصطنع لهجة قريش الآن وتتخذها لسانها الأدبى والرسمى ، ولكننا نجد أن لهجة المصرى مغايرة للهجة السورى والعراقى والحجازى ، وهـــذه المغايرة قائمة حتى فى النطق باللغـة الفصحى شعراً وخطابة .

بل اللغة المصرية العامية ذات لهجات ، مع أن أصلها واحد ، فللصعيد لهجة وللدلتا أخرى ، ولقد تختلف لهجة الناس فى قريتين من (مركز) واحد على قرب ما بينهما .

كانت اللهجتان مختلفتين إذاً ، ولكنه خلاف بين لهجتين أو لهجات من لغة واحدة ، وقد تقاربت اللهجات فى أواخر العصر الجاهلى حتى كان أهل الحجاز ونجد يفهمون عن أهل اليمن ويُفهمونهم ، كما يتفاهم الآن سكان الصعيد وسكان

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٠٤ — ١٢٣

الوجه البحرى أو سكان السودان وسكان مصر ، وكما يتفاهم أهل باريس وسكان بروكسل .

أريد من هذا أن أقرر أن لاعجب فى أن يروى الرواة أن لهجة الشمال كانت غير لهجة الجنوب ، وأن هذا لايطعن فى صحة ماقرره التاريخ أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب .

وقد جلّى ابن خلدون هذه الفكرة فى قوله : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى ... ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر . . ولقد كان اللسان الحميرى بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الأنقال (النقوش) الموجودة لدينا ... ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها ، وتصاريف وحركات إعرابها ، كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر »[1]

لم ير ابن خلدون إذاً فى اختلاف اللهجتين دليلا على أن العدنانية لم تنشأ من القحطانية ، بل احتج لهذا الخلاف بأنه يشبه ما بين لغة عصره ولغة مضر التى نزل بها القرآن الكريم .

اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة

على أن النقوش التى تظهر اختلافا بين لهجة الشمال ولهجة الجنوب غير القديمة ليس تاريخها محدداً ، والخلاف فى جملته قليل طفيف لايقطع الصلة بين اللغتين ، بل إنه يعززها ، لما بينهما من كثير من وجوه الاتحاد ، وليس معنى الخلاف أن لغة الجنوب ليست أصلا للغة الشمال ، فلغتنا العامية انشعبت من العربية ولكنها تغايرها والإنجليزية الحديثة تولدت من الانجلوسكسونية وهى تباينها ، وفى فرنسا لغات

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١

لها خصائصها ومع ذلك فإنها لا أثر لها فى إنتاج الأدباء من أبناء هذه الأقاليم ، فلغة النقوش محلية ليست بذات صبغة أدبية ، فالنوبيون يكتبون اليوم بالعربية مع أنهم يتكلمون غيرها فيما بينهم ، والأمة العربية الآن تتكلم لغة وتكتب أخرى ، وما من شك فى أن اللغة الإنجليزية واحدة ، ولكن البون عظيم بين إنجليزية تشوسر وإنجليزية ماكولى ، وبين إنجليزية ألفرد الملك وإنجليزية تشوسر .

وربما كانت لهجة الشمال فى ذلك الوقت أيضاً مقاربة جداً للهجة الجنوب ، ولو عثرنا على نقوش بلغة الشمال من عهد نصوص الجنوب لوجدنا اللغتين متشابهتين ومتقاربتين تقارُبَ الفرع وأصله ، لأن الموازنة بين لهجة عدنان التى رُويت قبيل الإسلام بقرن ونصف قرن وبين لهجة قحطان التى كانت قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرنا [1] موازنة تغفل البيئة والزمن وأثرهما فى اللغة ، وتهمل ما تعرّض له سكان الجنوب من خِلاط بالأحباش والفرس ، ثم هى موازنة بين لغة عدنان فى الشمال وبين لغة من بقوا من قحطان فى الجنوب ولم يرتحلوا إلى الشمال ، ونحن نعلم أن كثيراً من القحطانيين قد هاجروا إلى الشمال ، وتربوا فى بيئة أخرى ، ولهجت بلغة الشمال ألسنتهم ، وانقطع بلغة الجنوب عهدهم ، شأنهم شأن الأسر التركية الكثيرة التى وفدت على مصر ، وأقامت بها فى العصر الحديث ، فما هو إلا ردح من زمن حتى نسوا تركيتهم ، وانطلقت باللغة العامية العربية ألسنتهم ، ولم يعد لهم بالتركية إلا نسب يحفظونه ، وكثير منهم ينسونه ، هذا مع البون الشاسع بين التركية والعربية العامية ، ومع القرابة الوثيقة بين لهجة الجنوب ولهجة الشمال ، وفى تاريخ اللغات مثل كثيرة تعزز هذا الرأى .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يتفاهمون ، ولا يجدون مشقة فى تفاهمهم ، سواء التقوا فرادى أم جماعات فى نواديهم أو أسواقهم أو مواسمهم أو حروبهم ، فمثلا

---

(١) يرى جلازر أن أقدم النقوش هي المعينية وأن أقدمها يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . ويرى مولر أن أقدمها يرجع إلى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد (النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي ص ١٧٢)

كانت قريش ترحل إلى الشمال وإلى الجنوب قبل الإسلام فتخالط هؤلاء وهؤلاء فتفهم عنهم، ويفهمون عنها، واستهلّ الإسلام وعرض النبي عليه الصلاة والسلام الدين الجديد على القبائل، ووفدت عليه وفودهم من أنحاء الجزيرة فتكلموا وتكلم معهم دون حاجة إلى ترجمان، ونجد تفصيلا عن وفد كندة برياسة الأشعث بن قيس، وعن وفد همدان وما دار بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام من قول، ولا نجد إشارة إلى صعوبة فى التفاهم (١) وبعث النبي كتبا إلى جهات كثيرة بلغة قريش، وأوفد إلى اليمن على بن أبي طالب ومعاذ بن جبل فلم يحتاجا فى التفاهم إلى وسيط، وأناب عنه بعض المسلمين ليفقهوا القبائل فى الدين ويجمعوا الزكاة، ولم يرو التاريخ أن صعوبة فى التفاهم نشأت فى حالة من هذه الحالات.

حقا كان لأهل اليمن لهجة تختلف بعض الاختلاف عن لهجة الحجاز ونَجْد فى بعض مظاهر الصوت والدلالة، والقواعد والمفردات، فالنقوش التى قرئت تدل على أن لغة الجنوب أقدم من لغة الشمال، وعلى أن الأولى أصل الثانية وليس بينهما فرق كبير.

فمن حيث الهجاء ترسم التاء المربوطة مفتوحة فى اليمن كما فى (كلبت) الحميرية وكلبة العدنانية، ويحذف حرف المد غالباً من أواسط الكلمات وأواخرها كما فى (ذ) الحميرية بمعنى (ذو) العدنانية و (ذن) بمعنى (ذان)

على أن هذه المغايرة الهجائية ليست فرقا حاسما، لأن الكتابة رمز للغة، وقد تقصر عما ترمز إليه، ونحن الآن نكتب (ذلك) بدون ألف بعد الذال (وهذان) بدون ألف بعد الهاء، ونكتب إسماعيل وإبراهيم أحيانا بغير الألف الوسطى، وكان العرب فى صدر الإسلام يكتبون بغير نقط ولكنهم يقرءون ما يكتبون.

ومن حيث القواعد بعض الخلاف صغير كرسم القحطانين نون التنوين ميما مثل

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٥٤، ٢٦٨

(نعمتم) فى (نعمة) والنون والميم متقاربا المخرج ، وبعضه كبير مثل إثبات حرف العلة فى الفعل الناقص إذا اتصل بواو الجماعة كما فى (هَقْنِيُوا) الحميرية وأَقْنَوْا العدنانية بمعنى أعطوا فى اللغتين .

ومن حيث المفردات بعض الخلاف طفيف كما فى (هَقْنِيُوا) السابقة إذ قلبت الهاء همزاً فى لغة الشمال ، وهذا القلب شائع عندهم نحو هراق وأراق وهياوأيا ، وكما فى عَدَوَ بمعنى اجتاز ، وبعضه كبير كوجود كلمات فى اليمنية ليست فى العربية الشمالية مثل (حجن) بمعنى لأن .

ومن المستطاع رد هذا الخلاف كله إلى أنه تطور فى اللغة .

ولكن ماذا نقول فى وجود كلمات فى الجنوب وليست فى الشمال ؟

الجواب على ذلك أن المعاجم قد ألفت بعد الإسلام ، فمن المحقق أن تَنِدَّ من جامعيها كلمات مستعملة ، وقد وجدت كلمات فى الشعر الجاهلى ولم يسجلها معجم .

أما اختلاف الدلالة فإنه تطور أيضاً . وتمش مع الزمن والاستعمال والتجوز ، فمثلا (بعل) معناها فى الجنوب صاحب وفى الشمال زوج ، و (وَقِهَ) معناها فى الجنوب أجاب وفى الشمال أطاع ، وبين المعنيين ارتباط وثيق كما ترى .

وأما التغاير المبنى على التخفيف فكثير كإبدال الهاء همزا فى أفعل الرباعى ، وكحذف آخر الفعل الناقص المسند إلى واو الجماعة كما سبق ، وكحذف الإشباع من الضمير المتصل الغائب نحو (أخوه) فى لغة الشمال و (أخهو) فى لغة الجنوب ، وهذا التخفيف دليل واضح على أن عربية الشمال تطورت من عربية الجنوب ، لأن التطور يجنح دائماً إلى التخفيف والتسهيل ، ونحن نرى ذلك فى لغتنا العادية المولدة من العربية ، ونراه فى الإنجليزية فمثلا Large كانت تنطق فى عصر تشوسر (١٣٤٠ — ١٤٠٠م) بتحريك الآخر و Have كانت تنطق فى عصر مارلو وشكسبير

بتحريك الآخر أيضا . وكانت علامة المضى تنطق متحركة فى الأفعال الضعيفة فيقال Loved .

أما التشابه بين اللغتين فقوى وكثير جداً كاتحاد الضمائر واسم الإشارة واتحاد بعض الكلمات لفظا وإن لم يتفق المعنى تماما ، واتحاد بعضها معنى وإن تغاير اللفظ بعض التغاير ، واتحاد بعضها لفظا ومعنى [1] ، وهذا الاتحاد وهذه المغايرة الناشئة عن التطور تعزز رأى العرب القدماء فى أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب ، وتعزز ما قاله ابن خلدون من أن المضرية نشأت من الحميرية كما نشأت لغة العرب فى عصره من اللغة المضرية .

ومن الأمثلة على الاتحاد (بورك وتبارك اسم الرحمن الذى بالسماء) و (نذرت الذى بالسماء نذرا لأنها أخطأت ببيته ومحرمه ، ولأنها وطئت موطنا غير طاهر) وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين فى أقدم النقوش مثل أخ وأخت وركب ووثن وشبل وأسد وسبع وشهر وشيب وقلب وقليل وحادثة وغلام وثمن وفرس وإبل وحرة وخميس وخريف ومُقْتَوٍ بمعنى مساعد الخ [2] . وإذا كانت اللغات السامية متقاربة فى أول أمرها فأحرى بلهجة الشمال ، ولهجة الجنوب أن تكونا متقاربتين بصورة أوضح وأقوى ، يقول الأستاذ جرجى زيدان : « وقد ساعد العرب على التوسع فى وسائل التجارة فضلا عن توسط بلادهم أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة فى ذلك الحين ، لأن اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظا ومعنى ، فالعربى والكلدانى والأشورى والعبرانى والحبشى والفينيقى كانوا يتفاهمون بلا واسطة ، لقرب عهد تلك اللغات من التشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى ، فكان العربى من حمير أو مضر إذا جاء العراق لا يحتاج فى مخاطبة الكلدانى أو البابلى أو الأشورى

---

(١) النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى ١٨٢ــ١٨٦

(٢) النابغة الذبيانى عمر الدسوقى ١٠٢

إلى ترجمان ، وكذلك إذا يمم فينيقية أو الحبشة فإنه يفهم لسان أهليهما كما يفهم الشامى لسان أهل مصر اليوم ، ويؤيد ذلك ما جاء فى التوراة عن إبراهيم الخليل ، فإنه تزوج من بلاد الكلدان فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، فاجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ولم يفتقر فى مخاطبتهم إلى مترجم ، وكذلك بنو إسرائيل فى تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فإنهم قضوا أربعين سنة فى أعالى جزيرة العرب ولم يحتاجوا إلى مترجم بينهم وبين أهلها [1] .

لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات فى أكثر الشعر المروى ؟

وهذا سؤال يدور بالخلد ويسترعى النظر ، معتمداً على ما سبق من تقرير المخالفة بين اللهجات ، ولكن الإجابة عنه ميسرة ، ومستمدة من حقائق مقررة :

١ — علمنا فى تهذيب أطوار اللغة أنها بتراخى الزمن وتطاوله وجهود أبنائها ، واختلاط بعضهم ببعض تقاربت حتى كادت تمحى فروقها قبيل الإسلام إلا ما بقى من لهجات خاصة لم تستطع الألسنة أن تنفلت منها ، وقد نبه عليها العلماء ، ولو كان هناك خلاف جوهرى ما استطاع الإسلام فى سنوات قليلة أن يلوى ألسنة الحميريين إلى لسان قريش ، ولما استطاع أن يَسْتَلْغِيَ العرب كافة بلهجة قريش .

٢ — والتاريخ يحدثنا بأن سيادة اليمن كانت منذ أواخر القرن الرابع الميلادى قد زالت ، وتناوشتها الفتن والمنازعات الداخلية ، ومنيت بالاحتلال الأجنبى الحبشى ثم الفارسى بينما شرع نجم القرشيين يتألق وشرع سلطانهم التجارى والثقافى والدينى يمتد على جيرانهم وعلى اليمن ، ولغة العدنانيين كانت حينئذ أرقى من لغة القحطانيين ، وقد خلفهم الحجازيون فى مكانتهم التجارية منذ القرن السادس للميلاد .

على أن انتصار لغة على أخرى ليس ناشئا عن الْغَلَب السياسى وحده ، بل يرجع إلى عوامل أخرى أيضا منها رقى اللغة ، وثروتها الأدبية والعلمية ، فالرومان أخضعوا

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ١/ ١٠

اليونان سياسيا ولكنهم خضعوا لهم أدبيا وثقافيا ، والأتراك لم يستطيعوا أن يثبتوا لغتهم فى بلد من البلدان التى فتحوها .

٣ — على أن الرواة والعلماء لم يرووا الشعر ، ولم يدونوا اللغة على نطق القبائل قبل تهذيب قريش للغة ، ولكنهم تناقلوا ما كان قبيل الإسلام ، وفى صدر الإسلام إذ الأدب بلغة قريش فى الأعم الأغلب « ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام »[1] ، وهم أرادوا من جمع اللغة وتدوينها تسجليها وتسهيلَ تعلمها ، وتخليدَ أدبهم ، وخدمةَ علوم القرآن والحديث ، واللغة الكفيلة بتحقيق ذلك كله قرشية وهى مضرية راقية ، يقل فيها الاختلاف .

وأقدم ماوصل إلينا عن الأدب الجاهلى لايعدو قرنين قبل الإسلام ، وكانت لغة الشمال قد تغلبت على لغة الجنوب ، واستأثرت بالمحادثة مع بعض تحريف ، وبالأدب دون تحريف والموازنة بين لغة الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا منذ أول القرن الخامس الميلادى وبين لغة النقوش التى ترجع إلى قرون قبل ذلك موازنة فيها تعسف ، وليس من الصواب أن يحكم باحث — بناء على ما بين اللهجتين المتباعدتى الزمن من بعض الفروق — أن شعر امرئ القيس كله منحول لأنه بلهجة قريش وامرؤ القيس يمنى الأصل

وكيف ينسى أن لغة اليمن فى عهد امرئ القيس كانت غير لغة اليمن التى ترويها النقوش وهى قبله بقرون ، وأن امرأ القيس وأضرابه قد اصطنعوا لهجة الشمال لغة أدبية لهم ؟

٤ — ذلك أن اللغة العربية الشمالية جاورت اليمنية القديمة وصارعتها صراعا انتهى فى أواخر العصر الجاهلى بانتصار العربية الشمالية ، لأنها كانت أرقى ثقافة وأدبا ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وكان نفوذ عرب الشمال التجارى والسياسى والثقافى والأدبى والدينى قد شرع يتغلغل فى اليمن التى كانت ضعيفة فى ذلك الوقت

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ١٢

فكانت جميع الظروف الملائمة للتغلب اللغوى عونا للغة الشمال على لغة الجنوب ، وهذه الحالة شبيهة بحال اللغة الألمانية فى صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وبحال اللغة الفرنسية فى صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا ، فقد انتصرت الألمانية والفرنسية كما انتصرت لغة العدنانيين على لغة القحطانيين ؛ لأن الظروف متشابهة ، بل إن القرابة القوية بين العربية الشمالية والجنوبية قد سلحت الأولى بسلاح لم يكن للألمانية والفرنسية لأن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تذلل لأرقاهما سبل الانتصار [١].

وقد صرعت العربيةُ الفارسية ، واستعرب كثير من الفرس ، وكان من ذراريهم أدباء شعروا ونثروا بلسان عربى مبين كما شعر ونثر العرب الخلّص .

وكان للدوريين من اليونان شعر وأوزان ، ولليونانيين شعر وأوزان ، فلما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية ذاع الشعر اليونى والأوزان اليونية ، وجرى عليهما الدوريون إذا شعروا أو نثروا ، وعدلوا عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم إلى لغة الأثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم .

ولم يكن اصطناع اللغة السائدة للتعبير الشعرى نهج الشعراء وحدهم ، بل شاركهم رعاه هذيل الضاربون قرب مكة ، فاصطنعوا فى شعرهم لغة تغاير لغة التخاطب ، على أنها مستمدة من جميع اللهجات ، والعرب يفهمونها فى كل مكان ، ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية لم تسُدْ فى الحجاز ونجد وحدهما ، بل امتدت إلى قلب البلاد العراقية أيضاً ، وصارت بعدُ أم العربية الفصحى [٢]

وقد اتخذ شعراء الجزيرة فى شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، تدل سماتها على أنها لغة شعرية ... وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات

---

(١) فقه اللغة على عبد الواحد بتصرف ص ٦٠ــ٦٣

(٢) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ٣٢

أدبية فى الأمم البدائية مع وجود لهجات مختلفة للقبائل الشمالية لم يحدثنا النحاة إلا عن قليل منها (١)

تغلبت لغة الشمال فى ميادين الأدب كما تغلبت فى الخطاب ، غير أن لغة الأدب دامت خالصة فصيحة لاتكاد تغاير لغة الشمال فى شىء ، وهذه طبيعة اللغات المنتصرة فى كل عصر وكل أمة ، يصيبها التحريف فى لغة الحديث ولا يكاد يمسها فى لغة الأدب . فاللغة اللاتينية تطورت تطوراً كبيراً فى لغة المحادثة فى البلاد التى دانت لها ، فنشأت منها لهجات مغايرة لأصلها وهى : الفرنسية والإيطالية ، والإسبانية ، والبرتغالية الخ . ولكنها ظلت لغة أدب وكتابة حتى فاتحة العصر الحديث دون أن يعتريها تغيير كبير ، واللغة العربية القرشية مازالت لسان الأدباء إلى اليوم ، ولم تتأثر باللهجات المحلية والقومية ولكنها فى لغة المحادثة خاضعة لتأثير البيئة والنطق .

« وفى إنجلترا اليوم عشرات من اللهجات التى يشق على كثير من الإنجليز فهمها ، والإحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو يتعلمون أو يكتبون ، وهى لغة الأدب والصحافة ولغة الطبقة الراقية واسمها اللهجة التعليمية العامة Public School Dialect » (٢)

بعض الشعر المروى يسجل اللهجات

على أنهم دونوا لهجات شافههم بها الأعراب فى البادية ، وهى بقايا من اللهجات المتباينة التى كانت فى الجاهلية ، وقد اقتصروا فى تدوينهم على ما يحتاجون إليه فى تصاريف الكلام ، أو إقامة الدليل على قاعدة أو منطق ، ولم يتوسعوا ليدونوا اللهجات كلها ، وتاريخها ، ولو قد فعلوا ذلك لجاءنا علم كثير .

وقد وصل إلينا كثير من اللهجات المختلفة حفظها التاريخ على أنها مناح من النطق

---

(١) النابغة الذبيانى ص ١٧ . عن بروكلمان

(٢) النابغة الذبيانى ١٦

اختصت بها بعض القبائل ، وقررها كثير من العلماء ، ورووا عليها شواهد ، ويمتد بنا البحث لو تقصينا كل ماقيل ، فنجتزئ ببعض إشارات لتكون مثالا لهذا الاختلاف الذى قال الدكتور طه إنه لا أثر له فيما روى من شعر .

وكتب اللغة والأدب والنحو حوافل بهذا الاختلاف .

وسنضرب أمثلة لبعض أنواعه معتمدين على نصوص تمثل هذه الأنواع :

١ — قد تختلف دلالة اللفظ على معنى ، كهذه الأبيات من قصيدة خنافر الحميرى التى رواها أبو على القالى :

ألم تر أن الله عاد بفضله ... فأنقذ من لفح الزَّخيخ خُنافرا
وكَشَّف لى عن جَحْمَتَىَّ عماهما ... وأوضح لى نهجى وقد كان دائرا
دعانى شِصار للتى لو رفضتها ... لأُصْليتُ جمراً من لظى الهَوْب واهرا

وفسر الزخيخ بالنار ، والجحمتين بالعينين ، والهوب بالنار ، والواهر بالساكن مع شدة الحر ، وقال إنها كلها كلمات يمانية .

وأورد لشاعر يمنى أيضاً قوله فى أمه التى أكلها الذئب :

فيا جحمتا بكِّى على أم واهب ... أكيلة قِلَّوْب ببعض المذانب

وفسر القلوب بالذئب ، وهو القِلِّيب أيضاً ، والكلمتان يمانيتان (١)

وقال لسان العرب : القِلِّيب والقَلُّوب والقِلَّوب والقَلُوب والقِلاب : الذئب ، يمانية ، وذكر البيت السابق (٢)

وقال القالى فى موضع آخر : السِّرحان الأسد بلغة هذيل ، والذئب بلغة غيرهم من العرب (٣)

وتستعمل ذو اسما موصولا عاما فى لهجة طيء ، قال بجير بن عنمة الطائى :

---

(١) الأمالى ١/١٣٥ـ١٣٦ (٢) لسان العرب مادة قلب
(٣) الأمالى ١/١٠٦

وإن مولاى ذو يعيرنى لا إحنةٌ عنده ولا جَرِمة
ينصرنى منك غير معتذر يرمى ورائى بالسهم والسَّلِمَة[١]

وفى رواية لسان العرب بامسهم وامسلمة

وقال سنان بن الفحل الطائى :

فإن الماء ماء أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت[٢]

وأهل الجنوب يعرِّفون بأم لا بأل كما فى رواية اللسان ليبت بجير .

٢ — وتختلف القواعد النحوية نفسها اختلافا كان له ضجيج وعجيج . فمثلا بعض اللهجات على إعراب المثنى بالألف ، ومنه :

تزود منا بين أذناه طعنة دعته إلى هابى التراب عقيم[٣]

وبعضها على لزوم الأسماء الخمسة الألف ، ومنه قول أبى النجم العجلى أو رؤبة[٤]

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وهذيل تستعمل متى بمعنى مِن ، ويجرون بها ، ومنه قول أبى ذؤيب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لججٍ خضر لهن نئيج

وبعض القبائل لا يجزمون الفعل بلم ، ومنه :

لولا فوارس من نُعمٍ وإخوتهم يوم الصليفاء لم يوفون بالجار[٥]

وبعضها تحذف النون من المضارع المرفوع ، ومنه :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكىّ[٦]

والطائيون يحذفون آخر الفعل الناقص فى غير إسناد إلى ضمير بارز ، ومنه .

نستوقد النبل بالحضيض ونصـ ـطاد نفوساً بُنَتْ على الكرم[٧]

---

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ٥٨ جرمة : جريمة . سلمة : حجارة (٢) حماسة أبى تمام ١/٢٣٦
(٣) فقه اللغة لابن فارس . تاريخ آداب العرب للرافعى ١/١٤٥
(٤) الدرر اللوامع ج ١ ص ١٢ (٥) الخصائص لابن جنى ٣٩٣ والمغنى والأشمونى
(٦) الخصائص ٤٩٤ (٧) شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ١/١٦٥

وقد وردت كلمة (أُمْلوك) دالة على الجمع فى مدح حُجَيَّة بن المضرِّب ليعفر ابن زُرْعة ملك رُدْمان — قبيلة من عرب اليمن : —

فإن كنت سآلا عن المجد والعلا وأين العطاء الجزل والنائل الغمر
فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر وعش جار ظل لا يغالبه الدهر (١)

وقالوا إن الأملوك اسم جمع بمعنى الملوك ، وفى رأيى أنها ليست اسم جمع بل هى جمع لملك ، وهذه الصيغة اليمنية ومثيلاتها متأثرة بصيغة حبشية مماثلة لها ، فالأحباش يستعملون (أفعول) للدلالة على الجمع ، والعرب قد ضموا أول الجمع ، على أنه نادر فى العربية ، فلم يذكر السيوطى منه إلا ثلاث كلمات : أمعوز للقطيع من الظباء ، وأحبوش لجيل الحبش ، وأركوب لجماعة الركاب (٢) .

٣ — وقد يقع الاختلاف فى بنية الكلمة نفسها بإبدال حرف مكان حرف فمثلا أنطى لغة فى أعطى ، ومنه قول الأعشى :

جيادك فى الصيف فى نعمة تُصان الجِلالَ ، وتُنْطَى الشعيرا (٣)

وفى لعل لغات منها لعنَّ ولغنَّ ، ولأنَّ ، ولَوَنَّ ، وتقول العرب : لعلك ، وعلك ولعنَّك ولغنَّك ، أنشد أبو النجم :

اغد لَعَلْنا فى الرهان نرسله (٤)

وتتعاقب السين والثاء ، ومنه قول أبى ذؤيب :

قَصَرَ الصبوح لها فَشُرِّج لحمها بالنَّى فهى تثوخ فيها الإصبع (٥)

وتتعاقب العين والهمزة فتبدل الهمزة عينا فى لغة قيس ، ومنه قول ذى الرمة :

أعَنْ توسمت من خرقاءَ منزلةً ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟ (٦)

وتبدل العين همزة مثل قول : حطائط بن يعفر أو دريد

أرينى جواداً مات هزلا لأنَّنى أرى ماترين أو بخيلا مخلدا (٧)

---

(١) الأمالى ١/٥٣ (٢) المزهر ٨٣
(٣) الأمالى ١/٥٧ (٤) الأمالى ٢/١٣٤ (٥) الأمالى ٢/١١٤ شرج : خلط . النى : الشحم . تثوخ : تدخل (٦) لسان العرب مادة عين (٧) الأمالى ٢/٧٩

وتبدل السين تاء ، ومنه :

ياقبح الله بنى السعلاة   عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاءَ ولا أكياتِ

ويروى غير أعفاء ولا أكيات [١]

وتبدل كاف الخطاب للأنثى شينا ، وأنشد ابن الأعرابى :

علىَّ فيما أبتغى أُبْغيش   بيضاء تُرضينى ولا تُرضيش
وتطَّبى ود بنى أبيش   إذا دنوت جعلَت تُنئِيش
وإن نأيت جعلت تُدْنيش   وإن تكلمت حَثَتْ فى فيش
حتى تَنَقِّى كنقيق الديش [٢]

وخضعت كاف الديك لما خضعت له كاف الخطاب فانقلبت شينا أيضا .

وتبدل أواخر بعض الكلمات المجرورة ياء ، مثل الثعالى فى الثعالب ، والأرانى فى الأرانب ، قال النمر بن تولب اليشكرى فى وصف عقاب :

لها أشاريرُ من لحم تتمِّره   من الثعالى ، ووَخْزٌ من أرانيها [٣]

وذكر المبرد فى الكامل أن بنى سعد بن زيد مناة ، ولخم ، ومن قاربها يبدلون الحاء هاء لقرب المخرج ، فيقولون فى مدحته مدهته . ومنه قول رؤبة

« لله در الغانيات المُدَّهِ » أى المدَّح

وقوله فى الأرجوزة نفسها :

« برَّاق أصلادِ الجبين الأجْله » أى الأجلح [٤]

وتختلف حركة المنقوص ، فمثلا تميم تقلب ياء المنقوص ألفا وتفتح ما قبلها ، فتقول فى بَقِيَ بَقَى ومنه قول زيد الخيل

(١) الأمالى ٢/٦٨   (٢) مجالس ثعلب ١/١٤١

(٣) سر الصناعة لابن جنى . تاريخ آداب العرب للرافعى ١/٥٥

(٤) الأمالى ٢/٩٧ أصلاد : جمع صلد وهو الحجر الصلب . الأجلح : الذى انحسر شعره من مقدم رأسه فوق الصدغين

نصول بكل أبيض مشرفىّ على اللاتى بَقِىَ فيهن ماء

وأهل الشمال يقولون هو خِلْب نساء أى يلصق بقلوبهن ويحل منهن محل الخلب وهو حجاب القلب ، وأهل اليمن يقولون هو خِلْم نساء ، والخلم عندهم الصديق (١)

القراءات واللهجات

على أن قراءات القرآن الكريم إن هى إلا مظهر لتسجيل هذه اللهجات وهى أمثلة تاريخية لاريب فيها .

ذكر المبرد أنه قد قرئ (ولا تأخذكم بهما رآفة فى دين الله) بدل رأفة (٢) وقرئ (أفَتَمْرُونه على مايرى) بمعنى أفتدفعونه بدلا من أفتمارونه (٣) وذكر أن فى مصحف ابن مسعود (ودوا لو تدهن فيدهنوا) (٤) والقراءة فيدهنون على العطف . وقرأ عبد الله بن مسعود (ما ينظرون إلا زقية) والقراءة (إلا صيحة) والمعنى واحد (٥) .

وذكر الطبرى أن قراءة زيد بن ثابت (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوه) وأن قراءة أبان بن سعيد وعثمان (التابوت) ، وقرأ عيسى الثقفى قوله تعالى (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هـون) (على هوان) وقرأ الأعمش (على سوء) (٦)

اللغة واللهجات

ولم تتمثل اللهجات فيما روى من شعر فحسب ، بل تمثلت أيضا فى اللغة المروية

---

(١) الأمالى ١/ ٢٤ (٢) الكامل ١/ ٣٢٤

(٣) الكامل ١/ ٣٥١ (٤) الكامل ٢/

(٥) تفسير الطبرى والكامل للمبرد (٦) القرطبى ١٠/ ١١٧

نفسها ، فالتضاد ، والترادف ، وكثرة الجموع للكلمة الواحدة ، وتغيير بنية الكلمة بتقديم حرف وتأخير حرف — هذه كلها من آثار اللهجات .

فمن أسباب الترادف فى اللغة أن اللهجات امتزجت فصارت أشبه ببحيرة ، امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة ، وإلى هذا يشير ابن جنى فى كتابه الخصائص إذ يقول : وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك ، ويشير إليه ابن فارس فى كتابه الصاحبى إذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها »[١]

وكثرة صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة كعبد وناقة ناجمة عن اختلاف اللهجات ، وأن لكل قبيلة وزنها القياسى المطرد غالبا ، وشبيه بهذا اختلاف أوزان الأفعال الثلاثية ، وتعدد مصادر الفعل الثلاثى ، وليس من الصواب فى شىء أن يعدد قوم جموع الكلمة الواحدة ويعددوا مصادر الفعل الواحد ، ويختلفوا هذا الاختلاف فى بنية الفعل نفسه ، لأن اللغات وسائط للإفهام لا للتعمية والإبهام .

ثم إن الكلمة قد تكون واحدة فى الأصل ولكن اللهجات تختلف فيها بتقديم حرف أو وضع حرف مكان حرف ، كأن تقول قبيلة فاظ وتقول أخرى فاض ، وتقول قبيلة عاث وتقول أخرى عثا الخ ، وواضح أن أصل الكلمة واحد .

وفى كل هذه الأحوال التى أسبقنا جمع مؤلفو المعاجم مفردات اللغة جمعا لا مراعاة فيه لنسبة كل كلمة لقبيلتها ، فخيل إلينا أنها كلها لهجة واحدة .

---

(١) فقه اللغة ص ١١٠

على أن جامعي اللغة من النصوص ومن مشافهة العرب في البوادي قد توخوا العرب الفصحاء الخلص الذين لم يفسد لسانهم بخلاط ولا حضارة، وآثروا أن يرووا عن قيس وتميم وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يأخذوا عن غيرهم من بقية القبائل، أو ممن تأثروا بالحضارة، أو ممن كانوا يتاخمون الأمم المجاورة.

رحلات القحطانيين إلى الشمال

أما أن القحطانيين نزحوا من الجنوب إلى الشمال حتى قبل عصر إبراهيم عليه السلام فإن التاريخ يثبته، فقد كانت قبائل يمنية الأصل في شمالي الجزيرة قبل الإسلام مثل: لخم وغسان والأزد، وهوجو فنكلر، وليونارد كنج قررا في الفصل الذي كتباه عن بلاد العرب قبل الإسلام في المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث العالمي: «أن نفس سيل الأمم الممكن تتبعه في العصر الإسلامي من جنوبي شبه الجزيرة إلى الممالك المتمدينة حول البحر الأبيض المتوسط كان جاريا في الوقت الذي طغى فيه الكنعانيون ثم الآراميون على الشرق»، والذي كتب تاريخ العرب القديم في المجلد الثامن من تاريخ المؤرخ العالمي يقول: «إن اللمحات الأولى المنبعثة من أول شيء يستحق أن يسمى تاريخا تكشف لنا عن بلاد العرب خاضعة جلها أو كلها تقريبا لحكم جنس جنوبي الأصل هم العرب الصرحاء أو العرب القحطانيون»، والأستاذ سيس A. H. Sayce العالم الأثري الكبير يقول في الفصل الذي كتبه عن الامبراطوريات الأولى في العراق ومصر في المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث: «إن تاريخ الشرق القديم الذي كان منذ أقل من قرن لا يملأ إلا صفحات، قد كشف البحث الأثري الآن عنه فصار المؤرخون يعرفونه كما يعرفون تاريخ القرون الوسطى، وإن أول ذلك التاريخ المعروف سابق على الألف الثالث قبل المسيح ... ونحن نستطيع أن نقرأ الخطابات التي كتبها الملك البابلي الذي جاهده إبراهيم، وعصر

موسى بل إبراهيم أخذ يبدو لنا فى أدق تفاصيله ، كما يبدو منظر طبيعى من خلال تلسكوب .... وبعض ما كتبه الأقدمون تخليداً لمجد بابل ، يذهب إلى ما وراء عصر حمورابى معاصر إبراهيم ... وكثير من خطابات حمورابى وخلفائه من بعده محفوظ اليوم فى متاحف أوربا .... وكانت مصر خاضعة للهكسوس وكان الساميون الكنعانيون يعبرون الصحراء ذاهبين آيبين ، ويجدون لدى بلاط قومهم الهكسوس ماوجده إبراهيم من الترحاب ، ولم يكن عجيباً أن يرقى عبرى مثل يوسف إلى مقام وزير »(١)

ونحن نعلم أن الهكسوس قد حكموا مصر نحو خمسة قرون حتى أخرجهم أحمس الأول حوالى ١٦٠٠ ق . م وأن عهد إبراهيم جد يوسف عليهما السلام كان قبل المسيح بمالا لايزيد على ألفى عام .

والعرب العاربة كانوا يسودون شبه الجزيرة قبل ذلك كما اتضح من قبل ، وإذاً فما يقوله تاريخ الأدب عن أصل اللغة العدنانية متفق مع الحقائق التاريخية ، وسيادة القحطانيين على البلاد العربية ، كانت قبل عهد إبراهيم عليه السلام بأمد بعيد .

والتوراة تحدثنا بصلة الجنوب بالشمال ، فتذكر أن ملكة سبأ وفدت على سليمان عليه السلام حوالى ٩٥٠ ق . م ، والقرآن الكريم عرفنا هذه الوفادة .

ثم إن المراجع التاريخية الإفرنجية تقرر أن فى العُلَا شمالى بلاد العرب نقوشاً معينية تدل على صلة المعينيين بهذه الجهة .

« وكان اليمنيون يحترفون بالتجارة ، وينقلون متاجر الهند إلى مصر والشام ، مارين فى طريقين من الجنوب إلى الشمال ، أحدهما يجوب الحجاز ، وقد أقامت قبيلة جرهم بالحجاز قبل وفادة إسماعيل ، وقيل إنها وفدت عليه ، وكان ذلك قبل الميلاد بنحو ألفى عام .

---

(١) النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى للغمراوى ص ١٦٤ـ١٦٦

« وقد ثبت من النقوش التي كشفت أواخر القـــرن الماضي أن قبائل معينية هجرت الجنوب ويممت الحجاز وشمالي الجزيرة في الألف الثاني قبل الميلاد ، وهي القبائل التي عرفت في التوارة باسم (معونيم) وفي الكتابة الهيروغليفية باسم (معين مصران) وغزت بطون منهم جنوبي فلسطين ، وأنشأوا لهم دولة في منطقة غزة ، وظلوا إلى عهد الإسكندر الأكبر » (١)

ولما انهار سد مأرب حوالى ١١٥ ق . م وغمر البلاد هاجر كثير من سكان اليمن إلى الشمال ، والقرآن الكريم يسجل هذا ، وكان من المهاجرين بنو ثعلبة (ومنهم الأوس والخزرج) وخزاعة وقد جاوروا الحرم ، وأجلوا عنه قبيلة جرهم الأولى . والأزد وقد استوطن بعضهم عُمَان ، وبعضهم استوطن تهامة ، وهم أزد شنوءة ، وأقام جفنة بن عمرو وأبناؤه بالشام ، ومنهم الغساسنة ، وطيء قد استوطنوا جبلي أجأ وسلمى الخ .

وهؤلاء المهاجرون قد حملوا معهم لغتهم اليمنية إلى المناطق التي هاجروا إليها ، وامتزجت اللغتان بالمجاورة ، والمصاهرة ، والمعاشرة ، والمتاجرة ، والمخالطة، امتزاجا جعلهما لغة واحدة ، إلا ما كان ينجم عن بعض العادات الكلامية .

معنى كلمة ابن العـــلاء

أما كلمة أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » (٢) فهي صالحة لأن يكون معناها :

١ — أن الحميرية الموغلة في القدم — وكانوا كثيرا ما يعبرون عن القحطانية بالحميرية — هي التي تغاير لغة قريش ، فليست حميرية القرن الخامس الميلادي — وهو

---

(١) النابغة الذبياني ص ١١

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٨

عهد الأدب الجاهلي المروى — هى المغايرة للغة قريش ؛ لأن النصوص التى عثروا عليها فى النقوش وفيها خلاف بين اللغتين ، نصوص معينية أو سبئية أكثرها غير مؤرخ . وفى رأى جلازر أن أقدمها هى المعينية ، وأقدم هذه يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، وفى رأى مولر أن المملكة المعينية والسبئية كانتا متجاورتين وأن أقدم تلك النقوش يرجع إلى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

٢ — أن اللغتين عربيتان ، ولكن التطور والمكان والزمان والأحداث والألسنة الخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين ، بدليل : « ولا عربيتهم بعربيتنا » والعرب يطلقون على اللهجة اللسان .

اتصال العرب بغيرهم

التجارة . اتصالهم بالفرس بطرق شتى . اتصالهم باليونان والرومان . اتصالهم بالحبشة . آثار هذا الاتصال فى اللغة والأدب .

***

لم يكن العرب بمعزل عن العالم القديم ، فقد تبينا صلاتهم بالعالم القديم فى بعض ما مر بنا ، وكان لهذا الاتصال طرق شتى ، وله فى اللغة والأدب والعقلية آثار .

التجارة

١ — اتصل العرب بالأمم منذ عهد قديم اتصالا تجارياً ، فكانوا « يقدمون على الفرس بالتجارات والبياعات ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها »(١) وكانوا إذا أجدبوا قصدوا العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ، ويعودون إلى بلادهم خوفا من الذلة فى سلطان دولة أعجمية .(٢) واستعان الفرس بعرب الحيرة على خفارة قوافلهم التجارية التى كانت تتغلغل فى الجزيرة العربية ، ولاسيما إلى سوق عكاظ ، لقاء جُعْل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل من العدوان ، « وكثيرا ما كانوا يردونه إن اعتدى معتد على القافلة وعجزوا عن حمايتها »(٣) ، وقد يجرّ الاعتداء على القافلة المحمية حرباً كما حدث فى يوم السلاّن ، إذ قامت حرب بين النعمان الثالث أبى قابوس بن المنذر الرابع (٥٨٥ — ٦١٣ م) وبنى عامر ابن صعصعة ، لأن العامريين اعتدوا على لطيمة كسرى أبرويز المتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان واستنفر أخاه لأمه وبرة بن رومانوس الكلبى ، وجمع بنى تميم ، والتقى الجيشان بالسلان ، واقتتلا قتالا شديداً ، وكان النصر لبنى عامر على جيش النعمان (٤)

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : الطبرى ١/٢٩١

(٢) الكامل لابن الأثير ٢/٢٢٨.

(٣) فجر الإسلام ١٤ .

(٤) الكامل . لابن الأثير ١/٣٩١

٣ — وكان فى جزيرة العرب طريقان للتجارة بين المحيط الهندى والشام ، أحدهما يسير من حضرموت شمالا إلى البحرين على الخليج الفارسى ثم إلى صور ، والآخر يسير من حضرموت موازيا البحر الأحمر متجنبا صحراء نجد اللافحة وهضاب الشاطئ الوعرة ، وعلى هذا الطريق مكة .

وكانت التجارة قديماً فى قبضة اليمنيين ، حلقة الاتصال بين أوروبا وبقاع الشرق القاصية ، ولم يقتصروا على منتجات بلادهم بل شملت متاجرهم « السلع التى كانوا يجلبونها من إفريقية والهند أيضا ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأفاويه والحجارة الكريمة والتبر والأرقاء وغيرها أهم ما يتاجر به العرب . واستعانوا بالفينيقيين زمنا طويلا لبيع سلعهم ، لأن لغة هؤلاء وهؤلاء متقاربة ، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب فى مدنهم الكثيرة كمدينة صور ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها . وكان العرب والبابليون يتنافسون فى الاتجار مع الهند »(١)

وكان لسبأ أسطول بحرى يمخر البحر الأحمر ناقلا البخور إلى مصر لحاجة الهياكل إليه ، وقد ورثت سبأ من مَعين هذا المركز التجارى ، كما كانت لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية (٢) .

كان السبئيون إذن هم حلقة الاتصال التجارى بين الهند والحبشة وبين شمالى آسيا وإفريقية وجنوبى أوروبا ، وكانت عُمان مركزاً لهذه المتاجر ، إليها ترد ومنها تصدر ، وكانت المتاجر تنقل أول الأمر فى البر إلى البحر الأحمر ثم تحملها السفن إلى مصر والشام والعراق ، وبعد حين قضت صعوبة الإبحار فى البحر الأحمر أن تنقل التجارة براً من شبوت فى حضرموت إلى مأرب حاضرة سبأ ثم إلى مكة ، ثم بطرا فغزة .

فلما تغير طريق التجارة حوالى القرن الأول الميلاد ضعفت سبأ وتهدم سدها ،

---

(١) حضارة العرب . جوستاف لوبون ١١٩

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ١/٤٤ عن Hell, Cultur der Araber P. P. 3-4

وتفرق سكانها والراجح أن تحويل تجارة الهند إلى طريق البحر كان فى أيام البطالسة، لأن دولتهم قامت فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد بمشروعات تجارية الغرض منها السيادة على التجارة الشرقية . ومنها تعبيد الطريق بين قنا والقصير ، وإعادة بطليموس الثانى (٢٨٥ — ٢٤٦ ق) فتح القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وبذلك صارت السفن تأتى من الشرق إلى مصر ، واستطاع التجار المصريون من البطالسة أن يخرجوا من البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ، وأن ينافسوا التجار العرب منافسة خطيرة [1] .

وخلفتها حِمْير ، وامتد سلطانها على قبائل العرب الشمالية إلى القرن الخامس الميلادى ، ولكنها لم تصل إلى مكانة سبأ فى بسطة ملكها وعظم ثرائها ، لأن الحميريين « فقدوا مصدر ازدهارهم عند ما تحول قسم من التجارة الهندية إلى مصر » [2]

وقد أثرى اليمنيون من مركزهم التجارى ، ومن خصوبة أرضهم ، فعاشوا فى سعة من العيش لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، ولاسيما كبراؤهم الذين كان لهم « حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن فى الأكل ، يُطبخ فى بيت الرجل منهم عدة ألوان . و يُعمل فيها السكر والقُلُوب ، وتُطَيَّب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفى بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهنود والحبوش ، ولهم الديارات الجليلة ، والمبانى الأنيقة » [3]

٣ — وإذا ما رجعنا إلى بزوغ الدعوة إلى الإسلام وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهاداً يلجئ مئات منهم إلى الفـــرار بدينهم ، فإلى أين فروا ؟ فروا إلى الحبشة التى تربطهم بها صلات تجارية ، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان وأبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وبعثت قريش فى أثرهم مندوبَيْن عنها يزينا للنجاشى ألا يقبل

---

(١) عصر ما قبل الإسلام ٧٤

(٢) العرب والأمبراطورية العربية : بروكلمان ١٤ (٣) صبح الأعشى ٥/٧ الغاشية : الزوار والأصدقاء . القلوب : جمع قلب مثلثة القاف وهو شحمة النخلة ولبها يؤكل ، وهو جمارها (لسان العرب)

فى مملكته هؤلاء الوافدين هما عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، وجمعت قريش لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، وتحاور مندوبا قريش والمسلمون فى مجلس النجاشى وبطارقته ، وانتصر المسلمون وطاب لهم المقام فى بلاد الحبشة مدة من الزمان [١]

ولم يكن اختيار النبى بلاد الحبشة مُهاجَراً للمسلمين ناشئا عن أنها تدين بدين سماوى فهى لا تتعدى عليهم ولا تضطهد الإسلام لأنه دين سماوى ، فقد كانت الحيرة وغسان بلاداً مسيحية ، وكانت اليمن يهودية ومسيحية ، فلماذا لم يلجأ إليها المسلمون ؟ إنما كان هذا الاختيار الموفق ناشئا عن صلات وثيقة تجارية بين العرب والحبشة من ناحية « إذ كانت أرض الحبشة لقريش متجرا ووجها »[٢] وناشئا عن شىء آخر هو أن الحبشة مسيحية مستقلة ، أما الحيرة فمسيحية خاضعة للفرس المجوسية ، واليمن فيها مسيحية ويهودية ولكنها خاضعة أيضا للفرس ، والغساسنة مسيحيون خاضعون للدولة الرومانية ، فكيف يحمون دينا يغاير دين سادتهم ؟ ثم إن المناذرة والغساسنة واليمنيين كلهم عرب ، وقريش التى تناوئ النبى وتناصبه العداء عربية ، فهم ينفسون على رجل عربى أن يستلب منهم نفوذهم كما نفست عليه قريش .

٤ — ومنذ القرن السادس الميلادى آلت التجارة إلى عرب الحجاز ، وسهلت لهم مكانتهم الدينية أن يجوسوا خلال الصحراء آمنين ، واشتهروا برحلتى الشتاء والصيف « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

وقــــد اعتمد الروم على تجار مكة فى حاجاتهم حتى فيما يترفهون به كالحرير ، ويستظهر بعض مؤرخى الإفرنج أنه كان فى مكة بيوت تجارية رومانية تزاول الشئون التجارية للرومان ، وكان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية [٣]

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ — ٣٦١ (٢) الأغانى ٨/٥٠ ساسى
(٣) عن فجر الاسلام ص ١٥ Arabia Befor Mohammad

وصارت مكة تعج بالتجار من كل ناحية ، وكانت تهيمن على المتاجر التى تتجه من الجنوب إلى الشمال وتمر بها ، وتتقاضى عليها ضرائب . وكانت حياة المكيين قائمة على التجارة ، ومن أجل ذلك كانوا لا يجدون من وقتهم ما يمكنهم من الانخراط فى أعمال الشرطة أو الجيش ، فاستأجروا جنداً مرتزقة من إفريقية ومن الأحباش ، ليقوموا بحراستهم . واصطبغت مكة بصبغة دولية ، فسحت المجال أمام ألفاظ رومية وفارسية وحبشية ، ولذلك سماها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب (فينيسيا) . وذكر المستشرق أوليرى فى كتابه (بلاد العرب قبل الاسلام) أن مكة أصبحت مركزاً للصيرفة ، يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة ، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك ، كذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر » .

وكان للدول المجاورة كبيزنطة وفارس ممثلون فى قلب مكة كما ذكر ذلك الواقدى والمستشرق لامانس [(١)] » .

وكانت القوافل التى تقصد الشام تتسوق من أسواق عينتها لهم الحكومة الرومانية ، لتحصل منهم على الضرائب ، ولتراقب الوافدين من الأجانب ، فمثلا كانت تنزل فى أيلة (العقبة الآن) ومنها إلى غزة حيث تتصل بتجار البحر الأبيض ، ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بُصْرى . وقد رأى سترابو هذه القوافل ، وشبه القافلة منها بجيش . وذكر الطبرى أن قافلة منها بلغت خمسمائة بعير وألفا ، وقد كانت عير قريش يوم بدر ألف بعير [(٢)] .

وكان بنو عبد مناف أول من سنّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، فقد أخذ هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل العِصَم لقريش ، فانتشر القرشيون من الحرم ، أخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام الروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشى الأكبر فاختلفوا إلى أرض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبلا

---

(١) عصر ما قبل الإسلام ١٧١ (٢) المغازى ٢٠

من الأكاسرة فاختلفوا إلى العراق وفارس ، وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير فاختلفوا إلى اليمن فجبّر الله بهم قريشاً وأصلح أحوالها فسموا المجبّرين (١) .

وكانوا يفتخرون باتساع متاجرهم ، فمثلا سهيل بن عمرو الذي رفض النبي عليه الصلاة والسلام أن ينزع ثنيتيه أسلم وحسن إسلامه ، وسكّن الناس يوم قبض الرسول بقوله . . إني أكثركم قتباً في بر وجارية في بحر (٢) .

٥ — ولهذا الاتصال التجاري آثار في اللغة والعقلية نرجيء الحديث عنها إلى بيان الاتصال بكل أمة ، ولكننا نذكر هنا أثر اتصالهم بالهند .

كانت السيوف ترد إليهم من الهند ، فقالوا هندي وهُندواني ومهنّد ، وكانت القنا تُنقل من الهند إلى الخط على ساحل البحرين فقالوا خطّيّة ، ونسبوا إلى الهند المسك فقالوا داريني لأنه كان يُجلب من الهند إلى دارين .

وكانوا يجلبون من الهند عطراً وبخوراً ، من مَندل وقمار وغيرهما .

قال امرؤ القيس :

وباناً وألوياً من الهند ذاكياً ‏ ‏ ‏ ورَنداً ولُبنَى والكِباء المُقتّرا (٣)

وقال ابن هرمة :

كأن الرَّكبَ إذ طرقتك باتوا ‏ ‏ ‏ بمَندَل أو بقارعتَيْ قِمارا

وقال العجير السلولي :

إذا ما مشت نادى بما في ثيابها ‏ ‏ ‏ ذكي الشَّذى والمَنْدَليّ المطير (٤)

وفي اللغة العربية كلمات هندية مثل مسك معرب مشكا وإن عدها السيوطي والفيروز ابادي فارسية ، وقال ابن جني في التدليل على أصالتها العربية إنها مشتقة من أمسكت الشيء ، كأن المسك لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ولا يعدل

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ٢/١٨٠ ومجمع الأمثال ٢/٦٦
(٢) البيان والتبيين ١/٢٥٣
(٣) ديوان امرئ القيس ٦٩ المقتر : الساطع الرائحة . (٤) لسان العرب مادة طير

بها صاحبها عنه [١] ، وفى هذا تكلف وتمحل ؛ « لأن الكلمة سنسكريتية أصلها (مشكا) » [٢] . وذكروا الكافور على أنه فارسي ، وهو هندى على لغة أهل ملقا ، ولفظه عندهم (كابور) [٣] .

وليس أدل على وثاقة الصلة التجارية بين الهند والعرب من أن نواحي البصرة كانت تسمى فى صدر الإسلام أرض الهند ، وسميت الأُبُلَّة كذلك ، وما نشأت هذه التسمية إلا لتردد كثير من السفن إلى هناك حاملة متاجر الهند .

الاتصال السياسي والحربي بالفرس

الاتصال قبل إنشاء لمارة الحيرة . الاتصال عن طريق الحيرة . الاتصال عن طريق اليمن . الاتصال عن طريق الحروب . آثار الاتصال .

— ١ —

اتصل العرب بالفرس قبل أن تنشأ إمارة الحيرة بزمن طويل . فقد أدوا الجزية للملك قورش (٥٥٠ ق . م) بخوراً ولبانا ، ألف وزنة كل سنة ، وكانوا أعوانا لقمبيز فى فتحه مصر ٥٢٥ ق . م يمدون له الماء فى البادية ، وكانوا فى حملة الفرس على اليونان ٤٩٢ ق . م يساعدون الفرس وهم فى مؤخرة الجيش لئلا تجفل إبلهم [٤]

ويذكر المسعودى أن ساسان بن بابك جد أردشير كان يحج إلى الكعبة ويهدى إليها [٥] وكان ذلك قبل تأسيس إمارة الحيرة . وفى عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ — ٢٧٢ م) كان بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحَضْر ، وكان بها رجل من الجرامقة يقال له السَّاطِرُون ، والعرب تسميه الضَّيْزَن ، ويرى ابن الكلبي أنه

---

(١) الخصائص ١/١١٠
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان ١/٤١ (٣) المرجع السابق ١/٤٢
(٤) العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان ١٠١ نقلا عن هيرودوت
(٥) مروج الذهب ١/١١٦

من قضاعة وأنه كان ملك أرض الجزيرة وكان معه من بنى العَبيد وقبائل قضاعة مالا يحصى ، وقد بلغ ملكه الشام ، ثم إنه أغار على بعض السواد ، وافتخر بهذه الإغارة عمرو بن إلّة من قضاعة :

لقيناهم بجمع من عِلافٍ ... وبالخيل الصلادمة الذكور

فلاقت فارس منا نَكَالا ... وقَتَّلنا هَرَابِذَ شَهْرَ بُور

دَلَفْنا للأعاجم من بعيد ... بجمعٍ م الجزيرة كالسعير (١)

وقد شخص سابور إلى حصن الضيزن فحاصره حولين : قال الأعشى :

ألم تر للحَضْر إذ أهــلُهُ ... بنُعْمَى وهل خالدٌ من نَعِمْ ؟

أقام به شاهَبُورُ الجنو ... د حولين يضرب فيه القُدُم

فما زاده ربه قــوة ... ومثلُ مُجَاوِره لم يَقُمْ

فلما رأى ربه فعــله ... أتاه طُروقا فلم يَنْتَقِم

وكان دعا قومه دعوة ... هلموا إلى أمركم قد صُرِم

فموتوا كراما بأسيا فكم ... أرى الموت يَجْشَمُهُ من جَشِم (٢)

ثم فتح سابور الحصن وقتل الضيزن ، وأباد الذين كانوا معه من قضاعة ، فقال عمرو بن إلة وكان مع الضيزن :

ألم يحزنك والأنباء تنمى ... بما لاقت سراةُ بنى العبيد

ومصرع ضيزن وبنى أبيه ... وأحلاس الكتائب من تَزِيد

أتاهم بالفُيول مجلّلات ... وبالأبطال سابورُ الجنود

(١) تاريخ الطبرى ٢/٦٢ والأغانى ٢/١٤١ الدار . الهرابذة : خدام نار المجوس الواحد هربذ . شهر بور : هو سابور الأول وكان من أسمائه شاه بور ومعناها ابن الملك كما فى الطبرى ١/٦٠ ولكنها وردت محرفة فى الشعر هكذا شهر زور . والعرب يسمونه سابور الجنود

علاف : علاف بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة وهو ريان أبو جرم من قضاعة وإليه تنسب الخيل العلافية . الصلادمة : القوية الشديدة

(٢) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٢/٦١ وابن هشام ١/٧٨

فهدّم من أواسى الحصن صخرا كأن ثقاله زُبُر الحديد [١]

ويفسح الرواة لخيالهم المجال فيزعمون أن ابنة الضيزن عشقت سابور وعشقها، وأنها دلته على حيلة ليقوض الحصن بها، ثم غدر بها [٢].

وفى أيام سابور الثانى المسمَّى بذى الأكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م) انتهز العرب فرصة صغر سنه فأغاروا على أطراف مملكته، كما طمع فيها الترك والروم. وكان العرب أقرب إلى بلاد الفرس، وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معايشهم وبلادهم، لسوء حالهم وشظف عيشهم. فسار جمع عظيم منهم فى البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى تخوم الفرس وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعايشهم، وأكثروا الفساد فى تلك البلاد، ومكثوا على ذلك مدة لا يجليهم أحد من الفرس. فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده وأبطالهم وسار بهم فأوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب، وقتّلهم تقتيلا، وأسرهم أسراً عنيفا، ولم ينج منه إلا من هربوا. ولم يكتف بذلك، بل اجتاز البحر إلى بلاد العرب فورد الخط والبحرين وقتل أهلهما، ثم ورد هجر فأروى الأرض بدماء من هنالك من تميم وبكر وعبد القيس، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه غار فى جبل ولا جزيرة فى بحر، ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب منهم، ثم أتى اليمامة فأسرف فى القتل، ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غوره، ولا بئر إلا طمسها، ثم أتى قرب المدينة فقتل وأسر، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس والروم بالشام فقتل وسبى وانتقم، وأسكن الأسرى من العرب من بكر بن وائل كرمان، ومن بنى حنظلة الأهواز.

وعاش سابور حياته ضاريا بقتل العرب، ونزع أكتاف رؤسائهم، وكان ذلك سبب تسميتهم إياه ذا الأكتاف [٣].

---

(١) الطبرى ٦٢/٢ والأغانى ١٤٢/٢ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ ونسب الشعر لجدى بن الدلهات

(٢) الطبرى ٦٣/٢ والمسعودى ٢٩٦/١

(٣) تاريخ الأمم والملوك الطبرى ٦٦/٢ — ٦٩ ومروج الذهب ١٢٢/١ — ١٢٤

وقد انضم العرب بعد إيقاعه بهم إلى خصمه لليانوس ملك الروم ، فى الحرب التى قامت بينهما ، حتى قالوا إن العرب كانوا فى جيش لليانوس مائة وسبعين ألفا (١)

وتحدد دائرة المعارف الإسلامية حملة سابور على العرب بأنها كانت حوالى ٣٥٠م وتذكر من نتائجها أنه أسكن العدد العظيم من الأسرى فى الأهواز وتوّج وكرمان (٢)

وكأن هذا العداء المستحكم يأبى إلا أن يغزو البحرين أردشير الثانى (٣٧٩ - ٣٨٥م) وكان من جرائها أن ألقى ملكها بنفسه فى البحر (٣) .

— ٢ —

رأى الفرس أن خير وسيلة لاتقاء هذا الغزو أن يقيموا من القبائل العربية المجاورة للحدود درءا يقيهم غزوات العرب ، ويحجز بين حدود الفرس والروم ، ، فأنشئوا إمارة الحيرة .

والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة النجف وعلى حدود البادية ، وكان أهلها منذ القرن الثالث الميلادى ثلاثة أصناف تنوُخ وهم العرب أصحاب المظال وبيوت الشعر ينزلون غربى الفرات ، والعِباد وهم السكان الأصليون الذين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعا ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .

وهؤلاء السكان جميعا من العرب .

وأول من تأمر على هذه النواحى مالك بن فَهْم الأزدى ، وخلفه ابنه جَذيمة الأبرش ، ثم خلفه ابن أخته عمرو بن عدى (٢٦٨ — ٢٨٨ م) ، وهو أول الأمراء اللخميين آل نصر ، وأول من اتخذ الحيرة منزلا ، وأول من يعده أهل الحيرة من من ملوك العرب بالعراق (٤) .

---

(١) الطبرى ٣/٦٨ (٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر

(٣) العبر . ابن خلدون ٢/١٦٩

(٤) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٢/٣٧

وكان تأسيسها فى عهد سابور الأول بن أردشير ملك الفرس ، حوالى ٢٤٠م إذ أسس الفرس إمارة الحيرة على نهر الفرات وأمروا عليها عمرو بن عدى [١] ، أو كان تأسيسها فى عهد أبيه أردشير بن بابك مقيم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة (٢٢٦ — ٢٤١ م) ثم توالى الأمراء من بعد عمرو [٢] . وكان ملوك الحيرة يخضعون للفرس خضوعا اسميا ، والفرس يعفونهم من الإتاوة كفاء حمايتهم للحدود ممن يغير عليها .

وبلغ من إعجاب الفرس بهم أن يزد جرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ م) الملقب بالأثيم دفع ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرىء القيس بن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ — ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء الخورنق مسكنا له ، وأن يخرجه إلى بوادى العرب [٣] ، وفى رواية أخرى أن الذى تعهد تربية بهرام المنذر بن النعمان [٤] (٤٣١ — ٤٧٣م) ولكن هذه الرواية لا تتمشى مع سنوات حكم يزد جرد والمنذر ، فالأقرب إلى الصواب أن يكون الذى تعهد بهرام النعمان لا ابنه . ومهما يكن من شىء فقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتتلمذ على أساتذة من الفرس ومن العرب ، وقد أعانه العرب فى أن يخلف أباه على عرش فارس [٥] ، وتوسط عظماء الفرس وأهل بيوتاتهم بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساءتهم إليه [٦] .

وقالوا إن بهرام أجاد اللغة العربية ولغات أخرى ، وقرض الشعر العربى والفارسى [٧] ، وذكر شمس الدين الرازى فى كتابه « المعجم فى معايير أشعار العجم » أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسيا ، وأنه أخذ الشعر عن العرب فى الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه .

---

(١) فجر الإسلام ١٨

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٣٧ وتاريخ الإسلام السياسي . الدكتور حسن إبراهيم ٤٨

(٣) الطبرى ٢/٧٢

(٤) الطبرى ٢/٧٤

(٥) الطبرى ٢/٧٤ — ٧٦

(٦) الطبرى ٢/٧٨

(٧) مروج الذهب ١ / ١٢٦

وكان ملوك الحيرة أحيانا يصلون من القوة إلى حد يسوى بينهم وبين الفرس والروم ، فهم فى قليل من الأحيان يحاربون الفرس ، وفى كثير منها يحاربون الروم منتصرين للفرس وموالين لهم ، وقد حدثوا أن النعمان الأعور كانت عنده كتيبتان يقال لإحداهما دوسر وهى عربية لتنوخ ، ويقال للأخرى الشهباء وهى فارسية ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يدن له من العرب (١) ، وعظمت مكانة الحيرة فى عهد المنذر الثالث الملقب بابن ماء السماء (٥١٤ — ٥٦٣ م) حتى إنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم فى عهد الامبراطور جستنيان عام ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الرومان غرامة لملك الفرس ، وللمنذر .

وقد تنصرت الحيرة فى عهد النعمان بن المنذر أبى قابوس (٥٨٥ — ٦١٣ م) على يد الجاثليق صبر يشوع (٢) ، ويقول العرب إن النعمان تنصر على يد عدى بن زيد العبادى ، ومن السهل التوفيق بين الروايتين ، فربما حبب إليه عدى النصرانية ، وعمده الجاثليق .

على أن فى تاريخ الكنيسة الشرقية ما يثبت أن الحيرة عرفت النصرانية قبل ذلك فقد كان عليها أسقف سنة ٤١٠ م وأن ملكها حمى النصرانية ٤٢٠م ، وإذن فقد كانت النصرانية معلومة فى الحيرة ودينا معتنقا قبل النعمان بن المنذر . ولكن لا بورت Labourt يقرر أن ملوك الحيرة كانوا على الوثنية إلى أواسط القرن الخامس الميلادى ، وأن المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء (٥١٤ — ٥٦٣ م) كان يقدم ذبائح من البشر إلى العُزّى (٣) ، وكان من نسائه امرأة من غسان — اسمها هند الكبرى أم عمرو ابن هند مضرط الحجارة — مسيحية . وقد بثت الميل إلى دينها فى نفس ابنها فنشأ نصرانيا ، كما أنها بنت ديرا

ويظهر أن النصرانية لم تعمر بعد عمرو بن هند ، لأن خليفته قابوس أو لأن

---

(١) الطبرى ٢ / ٧٣

(٢) Labourt 207

(٣) Labourt 109 & 206

المنذر الرابع (المنذر بن المنذر بن ماء السماء) (٨٢، — ٥٨٥ م) صبا إلى الوثنية ، ونشأ ابنه النعمان وثنيا ثم تنصر .

وكان آخر ملوكهم الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ — ٦١٣ م) أو (٥٨٠ — ٦٠٢) وهو أبوقابوس ، وصاحب النابغة ، وقاتل عبيد بن الأبرص وعدى ابن زيد فى إحدى الروايات ، وقد مات فى حبس كسرى ٦١٣ م .

ثم أقام كسرى إياسَ بن قبيصة خلفا للنعمان على الحيرة ، ولم يكن من أهل بيت النعمان ، وأشرك معه رجلا فارسيا فى الحكم اسمه النخيرجان . وكان من أثر ذلك ضعف الحكومة فى الحيرة ، وقيام حرب ذى قار بين الفرس يؤيدها إياس بن قبيصة وبعض العرب ، وانتصر العرب . ثم انفرد بملك الحيرة آزاذ بن يابيان الهمذانى سبعة عشر عاما ، ولم يمكث بعده المنذر بن النعمان بن المنذر الذى يسميه العرب المغرور إلا ثمانية أشهر إذْ قدم خالد بن الوليد ففتح الحيرة ٦٣٣ م[١] .

— ٣ —

ولم يقتصر اتصال العرب بالفرس على تلك الغزوات المتبادلة ، ولا على الحيرة والصلات التجارية ، فقد تغلغل نفوذهم إلى اليمن وحكموها ، فالمؤرخون جميعاً على أن سيف بن ذى يزن استنجد بكسرى أنو شروان (٥٣١ —٥٧٨م) لطرد الأحباش من اليمن فأنجده ، وكان قد استنجد بقيصر فلم ينجده ، لاتفاق الدين المسيحى بين الروم والأحباش ، ولرغبة قيصر فى بقاء اليمن فى حكم أحلافه الأحباش لتكون طريقا إلى تجارته وقضاء على تجارة الفرس منافسيه .

اتجه سيف بن ذى يزن إلى النعمان بن المنذر ليتوسط له لدى كسرى ، فقبل بعد لأى أن يمده بجيش ، وخلصت اليمن من حكم الحبشة ، وخضعت لحماية الفرس [٢].

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٢/١٥٦ — ١٥٧

(١) الطبرى ٢/١١٥ — ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١/٦٥ — ٧٣

وقد وفدت وفود العرب على سيف بن ذى يزن تهنئه بطرد الحبشة ، وسجل أبو الصلت والد أمية بن أبى الصلت هذا بقوله :

لا يطلب الثأر إلا كابن ذى يزن ... فى البحر خيّم للأعداء أحوالا
أتى هرقلَ وقد شالت نعامته ... فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم ... تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
مَنْ مثل كسرى شهنشاه الملوك له ... أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا ؟
لله درهم من فتية صبروا ... ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا
بيضٌ مرازبة ، غُلْبٌ ، أساورة ... أسدٌ تربب فى الغيضات أشبالا
أرسلتَ أُسْداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم فى الأرض فُلّالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... فى رأس غُمْدانَ داراً منك محلالا
وأطلِ بالمسك إذ شالت نعامتهم ... وأَسْبِل اليوم فى برديك إسبالا (١)

وبنو الأحرار الذين عناهم أمية فى شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف ابن ذى يزن ، وهم إلى الآن يسمون بنى الأحرار بصنعاء ، ويسمون باليمن الأبناء ، وبالكوفة الأحامرة ، وبالبصرة الأساورة ، وبالجزيرة الخضارمة ، وبالشام الجراجمة (٢) . وذكر ابن هشام قصيدة لسيف بن يزن ، وأخرى لعدى بن زيد فى الابتهاج بإجلاء الحبش عن اليمن .

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٩٣/١ والطبري ١٢٠/٢ وابن هشام ٦٩/١ مطبعة حجازى وابن قتيبة ١٧٧ وابن سلام ١٠٢ والأغانى ٧٣/١٦ ونسب الشعر الى أمية لا إلى أبيه .

المفردات : سال : مخفف سأل . مرازبة : جمع مرزبان وأصل معنى الكلمة وزير الفرس والمراد أنهم ذوو رأى ومكانة . غلب جمع أغلب : قوى شديد . أساورة : جمع أسوار بضم الهزة وكسرها وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمى بالسهام . تربب : تربى الغيضات : جمع غيضة وهى المكان الملتف الشجر ويكون مأوى السباع . فلال : جمع فل وهو المهزوم . غمدان : قصر عجيب الصنعة بين صنعاء وطيوة . شالت نعامتهم : هلكوا . أسبل : أرخ ثوبك مختالا

(٢) الأغاني ٧٣/١٦

ولاشك أن اليمانين والعرب عامة كانوا موتورين من سوء حكومة الأحباش، ومحاولتهم استعمار الحجاز، وهدم البيت الحرام، ولذلك فرحوا بالخلاص منهم، ورحبوا بالفرس، ثم إنهم — وإن لم يستقلوا استقلالا تاماً فى عهد الحكم الفارسى — كان لهم النفوذ والسلطان، لأن سيف بن ذى يزن كان يحكم اليمن ويدفع الجزية كل عام لكسرى [1]. وما من شك فى أن العرب كانوا يأنفون أن يحكمهم الأحباش، ونحن نتبين ذلك فى قــول سيف بن ذى يزن لكسرى: «أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة، فجئتك لتنصرنى عليهم، وتخرجهم عنى، ويكون ملك بلادى لك، فأنت أحب إلينا منهم» [2]، فهو يعبر عنهم بالغربان، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن يحكمهم هؤلاء الغربان.

وقد مر بنا قول أبى الصلت (أرسلت أسداً على سود الكلاب) وهو يعنى الفرس بالأسد، ويعنى الأحباش بالكلاب السود

وقد أمعن سيف بن ذى يزن فى الأحباش تقتيلا حتى أفناهم إلا بقايا ذليلة قليلة، فاتخذهم عبيدا له وجمَّازين يسعون بين يديه بحرابهم، ومكث على ذلك زمنا غير طويل، فاغتالوه، ووثب إلى الحكم رجل من الحبشة فأخذ يقتل ويفسد، فأرسل كسرى جيشاً يقوده وهرز، وأمره أن يقتل كل من باليمن من الأحباش، ففعل، وأمّره كسرى على اليمن، فتولى حكومتها وكان يجبى مالها إلى كسرى، ولما مات ولّى كسرى ابنه المرْزبان، ولما مات ولى كسرى ابنه البينجان، ولما مات ولى بعده ابنه خُرّ خُسرَه، ثم عزله وولى بعده باذان، ولم يزل عليها حتى بعث الله النبى عليه الصلاة والسلام [3].

— ٤ —

ولقد كان اتصال العرب بالفرس ذا آثار فى الشعر العربى، من حيث إنه فسح

---

(١) الطبرى ٢/١١٧ (٢) الطبرى ٢/١١٦
(٣) الطبرى ٢/١٢٠ — ١٢١

مجالا للقول ، تحميسا على الاستبسال ، أو إشادة بالانتصار . فكثيراً ما كان يشتبك العرب والفرس فى حرب ، إذ يغير العرب على حدود الفرس فيرد الفرس إغارتهم ، وقد يتعقبونهم إلى أعماق الصحراء ، وقد أسبقنا ما فعله سابور ذو الأكتاف .

وفى عهد كسرى حدث مايشبه هذا ، إذ غزت إياد سواد العراق ، واعتدت على ملوك آل نصر ، وعلى امرأة من شريفات العجم ، فغزاهم كسرى ، ولكنهم انتصروا أول الأمر انتصارا مبينا ، حتى قالوا إن جماجم الفرس وأجسادهم كانت كالتل العظيم ، وكان إلى جانبهم دير فسمى دير الجماجم . ولكن كسرى لم يلن لهذه الهزيمة فبعث فى آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة ، فبغتهم ، واقتتلوا قتالا شديدا حتى ظفر بهم ، وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا قد أصابوا من الأعاجم يوم الفرات .

وكان لقيط بن يعمر قد حذر إياد بعد النصر بقصيدة طويلة منها :

ياقوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُراً ... على نسائكم كسرى وما جمعا
هو الخلاء الذى تبق مذلته ... إن طار طائرهم يوماً وإن وقعا
هو العفاء الذى يجتث أصلهم ... فمن رأى مثل ذا يوماً ومن سمعا ؟
وقد بذلت لكم نصحى بلا دخل ... فاستيقظوا إن خير العلم مانفعا(١)

وحذرهم مرة أخرى بقوله :

سلامٌ فى الصحيفة من لقيط ... على من بالجزيرة من إياد
فإن الليث آتيكم دليفاً ... فلا يحسبكم سَوْقَ النِّقاد
أتاكم منهم ستون ألفا ... يُزجُون الكتائب كالجراد(٢)

وهم قد تحاربوا أيضا فى يوم الصَّفْقة ، وسببه فى رواية أن باذان عامل كسرى

---

(١) الأغانى ٢٠/٢٣ — ٢٤ ساسى

(٢) المؤتلف والمختلف ١٧٥ والأغانى ٢٠/٢٤ النقاد : صغار الغنم أو الغنم القبيحة الشكل القصيرة الأرجل

باليمن أرسل إلى كسرى عيراً تحمل ثيابا من اليمن ومسكا وعنبرا ومناطق محلاة ، وكان يخفرها بنو الجعيد المراديون ، فلما كان ببلاد بنى حنظلة بن يربوع أغار عليها هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حماتها ومن معهم من الفرس واقتسموها ، وعلم الفرس الذين بهجر فساروا إلى بنى حنظلة وقاتلوهم قتالا شديدا انهزم الفرس فيه ، واستشاط كسرى غضبا ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم غيلة فى الحصن المسمى المشقَّر .

وفى رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحا أرسلها كسرى إلى اليمن وكان العرب يخفرونها بالتناوب كل فى منطقته لقاء جُعل ، ولكن هوذة بن على الحنفى تعهد بخفارة العير فى المناطق كلها على أن يأخذ وحده الجعل ، فغضب بنو سعد من تميم وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة وأسروا هوذة حتى فدى نفسه ، وفى ذلك يقول شاعر بنى سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهوذَةَ مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانيا عليه وثاق الْقَدِّ والحلق السمر

وسار هوذة إلى كسرى فأرسل معه جيشا ، ونزلوا المشقر من أرض البحرين ، وبعث إلى العرب ليمتاروا مما معه ، وكان أعظمَ من أتاه بنو سعد من تميم ، وكانت الحيلة للقضاء عليهم أن يدخلوا من باب المشقَّر رجلا رجلا فتضرب أعناق الداخلين ، ولكن العرب كشفوا الخديعة وثاروا ، فاضطر هوذة والأساورة إلى الهرب ، وتبعهم بنو سعد والرباب يقتلون من يلحقون به (١)

ويروى صاحب العقد الفريد أن الذى كشف المكيدة ونبه قومه إليه وضرب سلسلة باب المشقر بسيفه فقطعها اسمه خَيْبَرى بن عبادة (٢) ويروى الطبرى أن اسمه عبيد بن وهب ، وقد افتخر بعمله فى قوله :

---

(١) الأغانى ١٦/٧٥—٧٦ ساسى
(٢) العقد الفريد ٣/٣٥٤ .

ألا هل أتى قومى على النأى أننى حميت ذمارى يوم باب المشقّر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تَفَرَّجَ منها كل باب مُضَبَّرٌ (١)

وقد مدح الأعشى هوذة بن على ، وأشار إلى مكرمة له يوم المشقر ، لأنه لما رأى ثورة القوم وأنهم قد نذروا به كلّم المكعبر — قائد الفرس — فى أن يعفو عن مائة من خيارهم ، فوهبهم له يوم الفِصح :

سائل تميما به أيام صفقتهم لما رآهم أسرى كلهم ضرعا
فقال للملْك أطلق منهم مائة رِسْلاً من القوم مخفوضا ومارفعا
ففك عن مائة منهم إسارهم وأصبحوا كلهم من غله خلعا
بهم تقرب يوم الِفصح ضاحية يرجو الإله بما أسدى وما صنعا

وافتخر الجذام التميمى بأسر هوذة ، فقال :

وهن عصبن هوذة يوم حجر فظل ينازع المَسَدَ المُغارا (٢)

وأشهر الوقائع بين الفرس والعرب يوم ذى قار ، فقد غضب كسرى على النعمان انتقاما منه لأنه قتل عدى بن زيد ، وحبسه فى سجن بخانقين أو بساباط حتى مات ، وقيل إنه ألقاه تحت الفيلة فداسته حتى مات ، فجعلت بكر بن وائل تغير على السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له أجراً على أن يضمن له ألا يدخل البكريون السواد ، فأقطعه الأبلة وماوالاها ، ولكن البكريين أغاروا ، فحنق كسرى عليهم وغضب على قيس فحبسه بساباط ، وعبأ كسرى جيوشه ، فقال قيس ينذر قومه :

ألا ليتنى أرشو سلاحى وبغلتى لمن يُخبر الأنباء بكر بن وائل (٣)

وعلم كسرى أن أسلحة النعمان وماله وولده عند هانئ بن مسعود الشيبانى

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/١٣٤ مضبر : سميك متين (٢) معجم الشعراء ٤٧١ رسلا: فى لين من القول
(٣) هذه رواية الأغانى للبيت الأول من القصيدة ورواية معجم الشعراء ٣٢٥ : لأن تعلم الأنباء والعلم وائل . وهى أصح لأنها لا إقواء فيها بالنسبة لبقية الأبيات

فبعث إليه يطلبها ، فرفض هانیٔ ، ودعا کسری إياس بن قبيصة الطائی وكان عامله على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، فأتاه بصنائعه من العرب الذين كانوا بالحيرة ، واستشارهم فی الإغارة على بكر بن وائل ، ثم جيّش من العرب ثلاثة آلاف رجل ومن الفرس ألفين ، وجعل على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث اللطيمة مع الجيوش — وهی عير كانت تخرج من العراق فيها البز والعطر والألطاف إلى عامله باليمن وقال إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بالعير إلى اليمن — وبلغ الخبر هانیٔ بن مسعود وبكر بن وائل ، فانتهوا إلى ذی قار ، ولما التقى الزحفان قال هانیٔ : ياقوم مَهْلِك مقدور خير من نَجَاء معرور ، وإن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن فی الثغر أكرم من الطعن فی الدبر ، ياقوم جدوا فما من الموت بد ...

وحمسهم عمرو بن جبلة اليشكری بقوله :

ياقوم لا تغرركم هذه الخِرق ولا وميض البيض فی الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذا العَنَق فجنبوه الراح واسقوه المرق

وقطع العرب وُضُن رواحل نسائهم حتى يقتسروا نفوسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتی لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها ، وانجلت المعركة عن هزيمة الفرس ، واقتفى البكريون آثارهم إلى السواد ، وغنموا وقسموا لطيمة كسرى على نسائهم ، فذلك قول الدهان بن جندل :

إن كنت ساقية يوما على كرم فاسقی فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقی فوارس حاموا عن ديارهم واعلی مفارقهم مسكا وريحانا

وكانت الموقعة لتمام أربعين سنة من مولد النبی وهو بمكة بعد أن بعث ، وقيل بعد أن هاجر ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه

وسلم بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصرت عليهم بى [١]

وقد أشاد الشعراء بهذا النصر أيما إشادة ، من ذلك قول الأعشى :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى   وراكبها يوم اللقاء ، وقلّت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقرٍ   مقدمة الهامرز حتى تولت [٢]

— ٥ —

ولم تقتصر آثار هذا الاتصال على الأدب الذى أذكته الحروب ، بل إنها تجاوزت ذلك إلى ضروب أخرى من الأدب ، وإلى ضروب من التأثير فى العقلية والعقيدة ونظام الحياة .

فقد كان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس وقياصرة الروم فى الترف ومظاهر العظمة « فقصور الحيرة مؤثثة بأثمن الأثاث ، وحدائقها مستورة بأعز الأزهار ، وقواربها الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلا حاملة أغنى الأمراء وأمهر الموسيقيين ، وأطلق العرب لأنفسهم عنان الخيال ، فقصوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التى أضحت أجمل مساكن الشرق وأطيبها » [٣]

وعاشت دولة الحيرة أربعمائة سنة ، أى مدة تعد طويلة لدولة ، ولا شك أن عرب الحيرة كانوا أرقى عقلا ومدنية عن عرب الجزيرة ، لتأثرهم بالفرس ، وكان منهم من يعرف الفارسية ، فزيد والد عدى كان يقرأ العربية والفارسية ، وعدِىّ بن زيد كان من تراجمة كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) أو من تراجمة كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) ، وابنه زيد كان من تراجمة كسرى بعد أبيه .

وقد تسربت إلى الفارسية كلمات عربية ، وتسربت إلى العربية كلمات فارسية ،

---

(١) و(٢) الأغانى ٢/ ٢٩ و٢٠/ ١٣٢ — ١٤٠ ساسى ومروج الذهب ١/ ١٣٤

(٣) حضارة العرب جوستاف لوبون ١١٦

ورد بعضها فى شعر الأعشى،وعدى بن زيد العبادى ، فمن الكلمات الفارسيه : الكوز والجرة والإبريق والسكرجة والخوان والسندس والكعك الخ من ذلك قول عدى بن زيد :

ثم ثاروا إلى الصبوح فقامت قينـــة فى يمينها إبريق

وعرف العرب كثيراً من أخبار الفرس وقصصهم كقصة رستم واسفندياذ ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن يؤذون النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفندياذ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكّر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله ،خلفه فى مجلسه إذا قام،ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم إلىّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفندياذ ، وهو الذى قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم . منها قوله تعالى « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين [١] »

وروى أن النضر اشترى كتب الأجم ليحدث منها ، ويرى بعض المفسرين أنه هو الذى نزلت فيه الآية الكريمة « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين »

وعرف بعض العرب المجوسية ، ودان بها بعض تميم ، وسموا أبناءهم بأسماء فارسية . فالنعمان سمى ابنه قابوس ، ولقيط بن زرارة التميمى سمى بنته (دختنوس) وقيل انه تزوجها كما يفعل الفرس، وعيرته العرب بذلك [٢]

وقد دون مؤرخو الفرس تاريخ العرب واستقى منه كثير ممن أرخوا

---

(١) سيرة ابن هشا ١/ ٣٢٠

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ٢٠٠ والأعلاق النفيسة لابن رستة ٧/ ٢١٧

للعرب ، فالطبرى مثلا يقول : وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة مثبتاً لما كان مثبتاً عندهم فى كنائسهم وأشعارهم ، وقد حدثت عن هشام بن محمد الكلبى أنه قال : إنى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها »[1] .

وقد ذكروا أن الأعشى زار كسرى ومدحه ، وأن كسرى مر به وهو يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... ومابى من سقم ومابى تعشق

فسأل عن معناه فلما ترجم له لم يعجبه[2]

والأعشى يذكر أسفاره فى كثير من شعره ، ومن ذلك هذان البيتان اللذان ذكرهما ياقوت فى معجم البلدان :

وطَوَّفْتُ للشعر آفاقَهُ ... عُمَانَ وحمص وأُورِيشْلِمْ

أتيتُ النجاشىَّ فى أرضه ... وأرض النَّبيط وأرض العَجَمْ

ويقول :

قد سرتُ مابين بانقيا إلى عدن ... وطال فى العجم تكرارى وتسيارى[3]

وقد أدخل الأعشى فى شعره كلمات فارسية ، وغير فارسية ، منها هذه الأسماء الفارسية للأزهار التى وردت فى حديثه عن مجلس من مجالس لهوه :

يُطوف بها ساق علينا مُقَوَّمٌ ... خفيف رفيقٌ ما يزال مُقَدَّما

بكأس وإبريق كأن شرابه ... إذا صُبَّ فى المِصْحَاة خالط بَقَّما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٣٧/٢ (٢) دراسة الشعراء للمرصفى ٩٢

(٣) معجم البلدان ٥١/٢

لها جُلَّسانٌ عندها وبنفسج وسيسنبرُ والمرزَجوشُ منمنما
وآسٌ وخِيريٌّ وورد وسوسن يُصَبِّحنا فى كل دَجْنٍ تغيَّما(١)

وقد أثر اتصال العرب بالفرس فى خيال الشعراء ، فالمرقش الأكبر يشبه البقر الوحشى الذى يرعى فى الأطلال متمهلا مطمئنا مختالا برجال من الفرس يمشون مزدهين فى قلانسهم .

أمست خلاء بعد سكانها مقفرةً ما إنْ بها من أَرَمْ
إلا من العِينِ ترَعّى بها كالفارسيِّينَ مشوا فى الكُمَمْ(٢)

والخنساء تقول فى رثاء أخيها صخر إنه كالرمح ، ويمشى مختالا كأنه قائد من قواد الفرس :

مثل الرُّدَيْنِيِّ لم تنفد شبيبتُه كأنه تحت طى البُرْدِ أُسْوارُ(٣)

وقد ذكر شارح الديوان أنها شبهت أخاها بسوار من الذهب أو الفضة فى حسنه وضُمْره ، ولكنى أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى .

والمخبَّل السعدى يشبه وجه حبيبته بالصحيفة ملاسة ولينا ، ويقول إنه ليس ضامراً ولا مكتنزاً ، وإنه يشبه الدرة النادرة التى أضاء بها العجم صدر مجلس عزيزهم ، وقد اشتراها العزيز بثمن غال ، لأنها نادرة جهد الغواص فى العثور عليها ، فقد جاء بها من أعماق البحر الهائج المتماوج الواسع غواص دقيق العظام كأنه سهم فى سرعته ونحوله ، وقد دهن جسمه بالزيت ليقيه من ملوحة البحر :

---

(١) المرصفى ١٠٠ مثوم : مقرط أو لابس القلادة . المصحاة : إناء نحو الجام يشرب فيه . البقم : خشب شجر كبير وورقة كورق اللوز وساقه أحمر يصبغ بطبيخه . الجلسان : معرب جلشان أو كلشان وهو نوع من الريحان . البنفسج : معرب وهو زهر طيب الرائحة . السيسنبر : الريحان الذى يقال له النمام ، وهو معرب . المرزجوش : الياسمين أو غيره ، معرب . وكذلك الآس والخيرى والسوسن أسماء فارسية لأزهار .

(٢) المفضليات ٢/٤٩ شاكر وهارون . أرم : أحد . الكمم : القلانس

(٣) ديوان الخنساء . الأب لويس شيخو ٨٢

وتريك وجهاً كالصحيفة، لا ظمآنُ مختلجٌ ولا جهمُ
كعقيلة الدرّ استضاء بها محرابَ عرشٍ عزيزها العُجُمُ
أغلى بها ثمناً وجاء بها شخْتُ العظامِ كأنه سهمُ
بِلبانِه زيتٌ وأخرجها من ذي غواربَ وسْطه اللُّخمُ(١)

وعرفوا الدروع الفارسية، وافتخروا بها، قال عمر بن امرىء القيس إن كتيبتهم لا يرعبها أسود تسكن فى الغياض، فهم شجعان لا يرهبون أعداءهم إذا ما مشوا فى الدروع الفارسية كأنهم فحول فى الإبل بطاء السير، وهم يمشون إلى الموت سراعا:

والله لا يَزْدهى كتيبتَنا أُسْدُ عرينٍ مَقيلُها غُرُفُ
إذا مشينا فى الفارسى كما تمشى جمالٌ مصاعبٌ قُطُفُ
نمشى إلى الموت من حفائظنا مشياً ذريعاً وحكمنا نَصَفُ(٢)

وقال دريد بن الصِّمَّة إنه نصح أخاه عارضا وأصحابه وأنذرهم أن يأخذ واحذرهم من أعدائهم المهاجمين فى دروع فارسية، فعصوه، ووقعت الواقعة فانضم إليهم:

نصحت لعارضٍ وأصحاب عارضٍ ورهط بنى السوداء والقوم شُهَّدى
فقلت لهم ظنوا بألْفَى مُدَجَّجٍ سَراتُهمُ فى الفارسى المسَرَّد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غَوايتهم وأننى غير مهتد
أمرتهم أمرى بمنعرَج اللِّوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحا الغد
وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غَوَيتُ وإن تَرْشُدْ غزيةُ أَرْشُدِ(٣)

---

(١) المفضليات ٤٣ السندوبي. مختلج: هزيل. جهم: كثير اللحم. أغلى بها ثمنا: اشتراها بثمن غال. شخت: دقيق. لبانه: صدره. غوارب: أمواج. اللخم: السمك الكبير

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٦٢. يزدهى: يستخف. غرف: المراد بها الغابة. الفارسى: الدرع. مصاعب: فحول. قطف: بطيئة المشى

(٣) الجمهرة ٢٢٥. بنو السوداء: أصحاب أخيه الآخر عبد الله الذى يرثيه. ظنوا: أيقنوا. الفارسى المسرد: الدرع المتينة النسج الضيقة الحلق. غزية: قومه

وهذه صورة فكهة فى خطاب أعشى همدان لخالد بن عتاب بن ورقاء ، يذكر له ما أصابهم إذ غزوا أصبهان ، ويذكره ببغله الحقير المشئوم الذى يتردى فى الوحل فيركب رأسه ، والذى يعثر فى الطريق السوى الممهد ، ثم يذكره برثاثة ملابسه البالية :

أتينا أصبهانَ فهزَّلتْنا   وكُنّا قبل ذلك فى نعيم
أتذكُرنا ومُرَّةَ إذ غزونا   وأنت على بُغَيْلكَ ذى الشُّئوم
ويركب رأسه فى كل وَحْل   ويعثر فى الطريق المستقيم
وليس عليك إلا طيلسان   نَصيبيٌّ وإلا سَحْقَ نيم (١)

وكانت القيان فى العصر الجاهلى فارسيات وروميات يغنين الشعر العربى بألحان فارسية أو رومية ، فيؤثر فى النفوس تأثيراً عجيباً ، وفيهن يقول عمرو بن الإطنابة فى مقدمة رثائه لخالد بن جعفر ، وقد دعا بشرابه وقيانه ، فغنين له بقصيدته التى أولها

عللانى وعللا صاحبيّا   واسقيانى من المروّق ريّا
إن فينا القيانَ يعزِفْنَ بالدفـ   ـفِّ لفتياننا وعيشا رخيا
يتبارين فى النعيم ويصبـ   ـبن خلال القرون مسكا ذكيا
إنما همهن أن يتحليـ   ـن سُموطا وسُنبُلاً فارسيا
من سموط المرجان فصل بالدر   فأحسِنْ بحَلْيهن حُليا (٢)

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٥١ طيلسان : حزام . نصيبي : نسبة الى نصيبين قاعدة ديار ربيعة . سحق نيم : فروخاق بال .
(٢) الأغانى ٩/١٦٤ الدار

الاتصال السياسي والحربي بالروم واليونان

حملة رومانية إلى اليمن . دولة الأنباط . دولة تدمر . إمارة غسان . حضارة الغساسنة ومكانتهم . أثر اليونان والروم في اللغة والادب

١ — اليمن

عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب التي كان الإغريق يعتقدون غنى سكانها ، وكانت الغزوة التي قام بها نيارك حول بلاد العرب نذير تصميم الإسكندر على غزوها ، ولكن بلاد العرب نجت من تطلع الإسكندر بعد موته ، ثم بعث القيصر أغسطس إلى اليمن جيشا يقوده إليوس غالوس ، كانت الهزيمة مصيره سنة ١٨ ق . م .

٢ — الأنباط

كان مقر دولة الأنباط في الجنوب الشرقي من فلسطين ، تمتد من حدود فلسطين إلى رأس خليج العقبة ، يحدها من الغرب وادي العرابة ، ومن الجنوب بادية الحجاز ، ومن الشرق بادية الشام ، ومن الشمال فلسطين .

نشأت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وظلت قائمة إلى أن دخلت في حوزة الرومان ١٠٦ م ، وعاصمتها بَطْرا

ولما مات الإسكندر وقسمت دولته شايع الأنباط بطليموس صاحب الإسكندرية على أنتيغون خليفة الإسكندر ، وكان أحد قواده قد فتح بلاد الحِجْر بغتة بعد أن أصبح سيد سورية وفينيقية ، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أنتيغون المكون من ٤٦٠٠ جندي ، فساق إليهم جيشا آخر بقيادة ابنه ديمتريوس . وخاطب عرب بلاد الحجر — كما روى ديودور الصقلي — الأمير ديمتريوس عند ما بلغ ديارهم بقولهم : « لماذا تحاربنا أيها الملك ؟ ونحن من سكان الصحاري التي لا تُسَدُّ فيها خَلّة ، ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فرارا من العبودية ، فاقبل هديتنا وارجع إلى حيث

كنت ، فستكون من أوفى الأصدقاء لك ، ولكنك إذا رغبت حصرنا حرمت كل هناءة ، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التى تعودناها منذ نعومة أظفارنا ، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنتَ أنك لن تجد واحدا من الأسرى يستطيع أن يألف حياة غير التى ألفناها » . فرأى ديمتريوس أن يقبل هدية الأنباط وأن يرضى بالمآب خاتما بالسلم حربا أبصرها مملوءة بالمصاعب (١)

واستفحل أمر الأنباط بعد ذلك — بعد انسحاب ديمتريوس — حتى أنشئوا دولة منظمة وولوا عليهم ملوكا ضربوا النقود واستوزروا الوزراء، وكان ملوكهم يسمون فى الغالب باسم (الحارث) أو (عبادة) أو (مالك) . وأقدم من وقف الباحثون على اسمه من ملوكهم الحارث الأول حكم نحو سنة ١٦٩ قبل الميلاد، وكان آخرهم مالك الثالث ، وقد غلبه الرومان وذهبوا بدولته ١٠٦ م

وفى أيام عبادة الثالث كانت حملة إليوس غالوس القائد الرومانى على بلادالعرب ، سنة ١٨ قبل الميلاد ، وقد استعان فيها بالأنباط .

اتسعت مملكة الأنباط فى عهد أولئك الملوك حتى شملت جزيرة سينا من الغرب، وحوران إلى حدود العراق من الشرق ، وبلغت إلى وادى القرى فى الجنوب . ولما استولى الرومان على مصر والشام طمعوا فى مملكة الأنباط فحاربوهم فى عهد أغسطوس ولكنهم ارتدوا عنهم .

وظلت مدينة بطرا مركزا تجاريا بين الشرق والغرب والجنوب والشمال حتى أعادوا الطريق من القصير على البحر الأحمر إلى قفط على النيل فأخذت تتقهقر .

وكان الأنباط قد تحضروا ومالوا إلى الترف، فلما أفضت الدولة الرومانية إلى الامبراطور تراجان عجزوا عن مقاومته فغلبهم سنة ١٠٦ م ، فاختلط الأنباط بأهل البلاد الأصليين من سريان وآراميين . وتحولت التجارة إلى تدمر (٢)

---

(١) حضارة العرب . لوبون ١١٤ والعرب قبل الاسلام . زيدان ٧٢

(٢) العرب قبل الاسلام ٦٨ — ٧٦ جرجى زيدان

والمؤرخون مختلفون فى أصل الأنباط ، ولكن الرأى الراجح أنهم عرب :

١ - ذكر مؤرخو اليونان أنهم عرب

٢ - أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورئبال ومالك وجميلة

٣ - كانوا يتكلمون بالعربية ، ولا عبرة بما وجدوه على آثارهم باللغة الآرامية فإنها لغة الكتابة فى ذلك العهد مثل اللغة الفصحى فى أيامنا . وذلك كان شأن الدول القديمة بالشرق ولاسيما فيما يتعلق بالآثار الدينية أو السياسية [1]

٣ — تدمر

والقول بأهمية هذه المدينة ووجودها منذ العصور المتغلغلة فى القدم أمر لايحتمل الشك ، ويؤيد هذا القـــول تلك النقوش المنسوبة إلى تِجْلَتْ بِلَزَرْ الأول Tiglat - Bileser الملك الآشورى ، إذ أن هذه النقوش ذكرت هذه المدينة — فى القرن الثانى عشر ق.م[2]

وقد راجت تجارة تدمر رواجا كبيرا بانضمامها إلى الامبراطورية الرومانية ، واستغل تجار تدمر العداوة التى كانت بين روما والبارثيين . ونلمس أثر الإغريق فى تقدم الذوق الفنى لأهل تدمر عندما تشاهد آثار معبد الشمس الفخمة وما إليه من أبنية جميلة [3]

وفى بداية القـرن الثالث قامت أسرة آل ساسان الجديدة من الفرس فتجدد النزاع الشديد القديم مع الرومان ، وأتيحت لأهل تدمر فرصة لإظهار مقدرتهم السياسية . وقد آثر Odenathus (أذينة) أمير تدمر أن ينضم إلى الفرس بزعامة سابور (٢٤١ — ٢٧٢) فلما أعرض عنه انضم إلى القائد الرومانى بالستا Ballista فى آسية الصغرى ، وأوقع بالفرس المتقهقرين هزيمة منكرة ، وأصبح فى عهد

---

(١) العرب قبل الإسلام ٦٨ — ٨٣ جرجى زيدان

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٥/١٣ (٣) المرجع السابق ٥/١٣، ١٤

جالينوس Gallienus الحاكم الفعلى للشرق كله ، ومنحه الامبراطور لقب أغسطس Augustus . وقد انتقلت السلطة إلى ابنه فبلاتوس Vabalathus بعد قتله عام ٢٦٦ — ٢٦٧ ولكن النفوذ الفعلى بقى لأرملته زينوبيا ، وقد وسعت رقعة ملكها وخاصة بفتح مصر ، ولكن سرعان ماشبت فى تدمر ثورة ضد الرومان ، وهزمت زنوبيا ٢٧٠ م وسلمت تدمر وفرت زنوبيا (١)

ثم بعد موت زنوبيا أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ، وعاش بها بعض الأساقفة وشيد بها جستنيان كنيسة ، واستمرت تدمر تحت حكم الرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب (٢)

وقد هلل الرومان بنصرهم على الزباء وانتشوا به لأنه نصر كان ميئوسا منه ، حتى إنهم زعموا أن ملَكاً نزل من السماء وآزر الامبراطور وجيشه فى معركة الزباء ، فانتصروا ، ثم انتهت حياة الزباء فى شرقى مملكتها على يد قصير بعد نزاع بينها وبين جذيمة الأبرش كما تقص الرواية العربية .

على أن الرومان يزعمون أنهم أسروها إلى روما ، ولكن اختلافهم فى اسم الملكة الأسيرة ، وتبجحهم بالنصر والغنيمة ، وإجماع الروايات العربية على أنها ماتت فى العراق كل ذلك يجعلنا لا نصدق مزعمهم

وكان العرب يهددون سلامة آسيا الصغرى ولم يقصوا عنها إلا بهدم تدمر فى عهد أورليانس ٢٧٢ م وتحويل سورية إلى ولاية رومانية وتبعية بعض سكانها للغساسنة العرب الذين كانوا تحت حماية القياصرة .

٤ — إمارة غسان

نزل الغسانيون مشارف الشام ، وفيها الضجاعمة من قضاعة فغلبوهم على ما فى أيديهم ، وأنشئوا لأنفسهم دولة فى حماية الروم ، فيما هو الآن البلقاء وحوران ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٣/٥ — ١٤ (٢) المرجع السابق ١٤/٣

عرفت بدولة الغساسنة أو بنى غسان ، وكانت عاصمتهم بصرى فى حوران [1] وقد انتهوا فى هجرتهم من الجنوب إلى الشمال إلى ماء غسان فنسبوا إليه وقد اختلف المؤرخون اختلافا بيناً فى عدد ملوكهم ، وسنى حكمهم ، والراجح أنهم حكموا نحو أربعمائة سنة [2]

منذ سقطت تدمر عام ٢٧٣ م انتهى عهد الدول العربية المستقلة فى الشمال ، وصار الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون يستعينون بالعرب فى صد غارات البدو على التخوم المتحضرة ، ولذا اصطنعوا الغساسنة فى الشام « وتحالف الامبراطور أنستاسيوس البيزنطى مع الحارث الرابع كى يدرأ عن الشام غارات القبائل العربية ، وانصرف هم الحارث وقبائله إلى الإغارة على المملكة اللخمية بالحيرة ، وهزم جيش النعمان الثالث ، واستولى على جل ممتلكاته ما عدا الحيرة نفسها عام ٥٠٣ م وعقد قباذ ملك فارس مع الحارث معاهدة نزل له بمقتضاها عن دخل ناحية من نواحى الحيرة فى نظير أن يصرف بنى بكر وأحلافهم عن الإغارة على فارس . ثم تمكن المنذر الثالث فى عهد كسرى الأول أنوشروان من هزيمة الحارث ، والقبض عليه ، وأطاح برأسه عام ٥٢٩ م » [3]

* * *

وأعظم أمرائهم الحارث بن جبلة المعروف بابن أبى شمر ، والملقب بالأعرج (حوالى ٥٢٩ — ٥٦٩ م) وقد عينه الامبراطور جوستنيان أميرا على جميع قبائل العرب فى سوريا ، ومنحه لقب فيلارك . أى أمير ، أو رئيس قبيلة ، ثم لما حارب المنذر بن ماء السماء عام ٥٢٨ م وأعان الروم فى واقعة السامرة رقوه ٥٢٩ م

---

(١) العرب قبل الاسلام . جرجى زيدان ١٨٤ (٢) أبو الفداء ٧٦/١

(٣) دائرة المعارف الإسلامية العدد الأول من المجلد الرابع ٤٣

وسموه باسيليوس أى الملك أو الأمير (١) ، ثم بعد ذلك منحوه لقب بطريق وهو لقب الأشراف ، وأرفع لقب بعد الإمبراطور ، وكان الحارث نصرانيا يعقوبيا وحاميا للكنيسة ، وكان من أكبر أعوان بليزاريوس القائد الرومانى فى محاربة الفرس ٥٣١ م لرد هجماتهم هم والمناذرة عن مملكة الروم

وفى سنة ٥٦٣ م شخص الحارث بن أبى شِمْر إلى القسطنطينية ليمهد الولاية من بعده لابنه المنذر ، وليتفق على الوسيلة التى يعامل بها عمرو بن هند مضرط الحجارة صاحب الحيرة . وقد أدهشه مارأى فى القسطنطينية من عظمة وحضارة ، كما دهش أهلها من منظره المهيب ، فطالما سمعوا به وخوفوا أبناءهم باسمه .

والحارث هذا هو الذى توسط لامرىء القيس الشاعر فى ذهابه إلى قيصر بعد أن أودع السموءل أدراعه .

وتوفى الحارث ٥٦٩م وخلفه ابنه المنذر ، وأعان الروم فى مواقع كثيرة ، وشخص إلى القسطنطينية سنة ٥٨٠ م فاحتفى به الروم والقيصر طيباريوس ، وألبسه التاج ، ولم يلبس أبوه قبله غير الإكليل ، وسماه بعض مؤرخى الروم لذلك (المنـــذر ملك العرب) .

ثم انقسمت المملكة إلى إمارات صغيرة ، ولما انتصر البيزنطيون على الفرس تركوا حكم غسان لأهلها ، ولم يُوَفَّقْ ملك غسانى آخر إلى إخضاع جميع السوريين لسلطته إلا قبيل الفتح الإسلامى . وآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم صاحب القصة المشهورة مع عمر .

— ٥ —

وكان الغساسنة مقصد كثير من شعراء العرب ، يمدحونهم وينالون حِباءهم ، كالنابغة ، والأعشى ، والمرقش ، وعلقمة ، وحسان ، وكانت المنافسة الشديدة

---

(١) العرب قبل الإسلام ١٩١ زيدان

والعداء المستحكم بينهم وبين اللخميين فى الحيرة باعثا على التنافس أيضا فى تقريب الشعراء وإذاعة المديح ، يدل على ذلك أن قيس بن رفاعة كان من عادته أن يفد سنة على النعمان اللخمى بالعراق ، وسنة على الحارث ابن أبى شمر الغسانى بالشام ، وقد سأله الحارث : بلغنى أنك تفضل النعمان على ؟ فأجابه بالتعظيم من قدره والتهوين من قدر النعمان (١) ، ويدل على ذلك اعتذار النابغة للنعمان إذ غضب منه لمدحه الغساسنة :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أُحكَّم فى أموالهم وأُقرَّب
كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم ... فلم ترهم فى فعل ذلك أذنبوا

وقد توسط امرؤ القيس بن حُجر بالحارث بن أبى شِمْر الغسانى المعروف بابن جبلة (٥٢٩ — ٥٦٩ م) إلى قيصر ، فأكرم وفادته ومده بالجند ، ولكن خصمه الطماح الأسدى تخوف على قومه ذلك الجند الكثيف ، فوشى بامرئ القيس عند قيصر فاسترد جنده ، وزعم الرواة أن قيصر أهدى إلى امرئ القيس حلة مسمومة فلبسها فتساقط جلده (٢)

وكانوا على قسط عظيم من الحضارة ، فمثلا يروى الأصفهانى أن حسان بن ثابت تحدث عن بعض لياليه عند جبلة بن الأيهم فى الجاهلية ، فقال : « إنه رأى عشر قيان ، منهن خمس روميات ، يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنين من العرب من مكة وغيرها ، وكان جبلة إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأُتِىَ بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة وأوقد له العود المندَّى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفا بُطِّن بالثلج وأُتَى هو وأصحابه بأكسية صيفية يتفضلون بها فى الصيف ، وفى الشتاء يلبسون فراء الفنك وأشباهه » (٣)

(١) الأمالى ١/٢٥٧
(٢) الأغانى ١٩/٩٩ ودراسة الشعراء للمرصفى ١٢
(٣) الأغانى ١٦/١٤ ساسى

— ٦ —

ا — وكان اتصال العرب بالروم منفذا لكلمات يونانية ولاتينية ، دخلت اللغة العربية . كالفردوس ، والقسطاس ، والدرهم ، والدينار ، والأوقية ، والقيراط ، والقسطل ، والبطريق ، والترياق ، والصراط ، والخندريس معرب خندروس

ب — واستورد العرب السيوف أحيانا من بلاد الروم ، ونسبوها إليها . قال عامر المحاربى :

نُراوِحُ بالصخر الأصم رءوسهم إذا القَلَعُ الرومىُّ عنها تَثَلَّمَا[(١)]

حـ — وأثرت صلة العرب بالروم فى خيالهم ، فمثلا علقمة بن عَبَدَة يشبه استدعاء الظليم النعامة برطانة الروم :

يُوحِى إليها بإنْقاضٍ ونَقْنَقَةٍ كما تَراطَنُ فى أفْدانِها الرومُ[(٢)]

وطرفة يشبه مرفقى ناقته القويين بقنطرة الرومى قد دعمها وشادها :

كقنطرة الرومى أقسم ربُّها لتُكْتَنَفَنْ حتى تشاد بِقِرْمِدِ[(٣)]

ورأت امرأةٌ الزبيرَ فقالت : من هذا الذى كأنه أرقَمُ يتلظّ ؟ ورأت علياً فقالت : من هذا الذى كأنه كُسِر ثم جُبر ؟ ورأت طلحة فقالت : من هذا الذى كأن وجهه دينار هِرَقْلِيٌّ ؟ (٤) .

ى — وهذه قصة عربية نسجت على غرار قصة يونانية سابقة لها :

زعموا أن المنذر بن امرىء القيس الملقب بابن ماء السماء (٥١٤ — ٥٦٣م) الملك اللخمى عرض له فى يوم بؤسه حنظلة الطائى ، فهمّ بقتله ، فاستمهله ريثما يعود إلى أهله

---

(١) المفضليات . السندوبى ٦٥٣ القلع : السيف . المعنى : نضرب رءوسهم بالحجارة الصلدة إذا تكسرت السيوف الرومية .

(٢) المفضليات . شاكر وهارون ٢/٢٠٠ الإنقاض : التصويت . النقنقة : صوت الظليم . الأفدان : ج فدن وهو القصر

(٣) ديوان طرفة ٢٤ (٤) عيون الأخبار ٤/٢٥ والحيوان للجاحظ ٤/٢٥٢

ويصلح شأنهم ، وكفله شريك بن عمرو ، ثم عاد آخر يوم من العام ، في قصة طويلة ، وكان بره بوعده سبباً في إبطال يوم البؤس [١] . وهي تشبه شبهاً قوياً قصة يونانية هي أن دامون كان له صديق اسمه فنطياس ، وكانا معاً على مذهب فيثاغورس ومن أصحابه ، وقد اتهم فنطياس بتهمة ، فحكم عليه الملك ديونيسيوس بالإعدام ، فرجا أن يسمح له بالعودة إلى أهله ، حتى يدبر شئونهم ، ثم يعود ، فطلب الملك من يضمنه ، فضمنه صديقه دامون ، ثم وفى فنطياس بوعده ، وعاد قبل الموعد بيوم واحد ، فأعجب ديونيسيوس بأريحية دامون ووفاء فنطياس ، فعفا عنه ، وقرب الصديقين إليه ، وجعلهما من خاصته [٢] .

ويبدو لي أنهم عزَوْا القصة إلى المنذر اللخمي لا إلى ملك غساني . لأن المنذر هو الذي قتل نديميه في سكره ، فلما أفاق ندم ، وبنى لهما الغريين ، وكان له يومان : يوم بؤس يقتل فيه أول من يراه ، ويطلي بدمه الغريين ، ويوم نعيم يحبو فيه ويكسو أول من يطالعه ، وكان عبيد بن الأبرص من قتلى يوم البؤس [٣] ، فنسبة القصة إليه لبيان السبب في إبطاله يوم البؤس ، ويزيد بعضهم عليها أن الحيرة تنصرت بسبب ذلك ، ناسباً القصة إلى النعمان بن المنذر ، كما في مجمع الأمثال للميداني . ولكن الحيرة كانت قد تنصرت من قبله ، على أن نسبة القصة إلى المنذر ملك الحيرة دليل على أن تأثير اليونان وصل إلى الحيرة أيضاً .

---

(١) الأغاني ١٩/٨٧ — ٨٨ ساسي ومجمع الأمثال للميداني ٦٣ وقد نسب القصة الى النعمان بن المنذر
(٢) العرب قبل الإسلام . جرجي زيدان ٢٠٨
(٣) الأغاني ١٩/٨٨ ومعجم البلدان ٧/٤٢٦ — ٤٢٨

اليهودية

وفود اليهود الى يثرب قبائلهم القبائل العربية التي خالطتهم فى يثرب والحجاز . اليهود فى اليمن . تأثير اليهود فى العرب . تأثروا أكثر مما أثروا . السبب فى ضعف تأثيرهم .

— ١ —

وفد اليهود على يثرب من قديم ، يروى أبو الفرج أن سيدنا موسى عليه السلام كان قد بعث جيشاً من بنى إسرائيل إلى العماليق — سكان يثرب — فانتصر عليهم وأفناهم ، ثم أقام بنو إسرائيل بيثرب بعد وفاة موسى واتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ، ولبثوا فيها زمناً طويلا .

ثم لما ظهر الروم على بنى إسرائيل فى الشام ، فوطئوهم ، وقتلوهم ، واعتدوا على نسائهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بَهْدَل هاربين منهم إلى إخوانهم بالحجاز ، وكان ذلك بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها ، فتوافدوا على يثرب عشائر وأفرادا ، وتكاثروا بها .

ويظهر أنهم اتخذوها مُهاجَراً لهم ، لأن الأوس والخزرج نزلوا بيثرب وفيها قبائل عدة من بنى إسرائيل ، فيها بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو الفصيص ، وهم جميعا من أهل الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .

وكان يساكن اليهودَ بطونٌ من العرب منهم بنو الحرمان من اليمن وبنو مرثد وبنو نيف من بَلِيّ وبنو معاوية من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة ، وبنو الشطية من غسان .

وكان يقال لبنى قريظة وبنى النضير خاصة من اليهود الكاهنان نسبة إلى جدهم الذي يقال له الكاهن بن هارون بن عمران ، كما يقال العمران والحسنان والقمران . قال كعب ابن سعد القرظي :

بالكاهنين قررتم فى دياركم جماً ثراكم . ومن أجلاكم جُدبا

فلما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب وهم الأزد تفرقوا فى البلاد ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، وعاشوا دهراً فى شظف حتى استنجد مالك ابن العجلان بأبى جبيلة الغسانى فقضى على أشراف اليهود ، فصار الأوس والخزرج سادة يثرب.(١)

ويرى ياقوت أن سكان يثرب الأولين من اليهود عرب تهودوا (٢) . وسواء أكانوا عبرانيين استعربوا أم عرباً تهودوا فقد كانت لهم مستعمرات يهودية فى الجزيرة العربية : تيماء وفَدَك وخيبر ووادى القُرى ويثرب .

وهم أهل مدنية وذكاء ، وبراعة فى التجارة وتثمير المال ، سرعان ما اقتنوا الضياع وزرعوا ، واحتكروا تجارة يثرب فاغتنوا ، واشتهروا بصناعتهم كالحدادة والصياغة وصنع السلاح .

« وقد انكمشوا على أنفسهم فى أحياء منعزلة ، ولكنهم استطاعوا من غير شك أن يحملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم ، وكانوا يتكلمون باللغة نفسها التى يتخاطب بها السكان » (٣)

— ٢ —

جدّ اليهود فى نشر دينهم فى جنوبى الجزيرة ، فتهود كثير من اليمن منهم ذو نواس صاحب الأخدود .

ونشروا فى الجزيرة تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير كالتى أدخلها بعدُ من أسلم منهم مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه .

وكثيرا ما جاد لهم القرآن الكريم وسفّه آراءهم ، مما يدل على انتشارها

---

(١) الأغانى ١٩/٩٤ — ٩٨ ساسى
(٢) معجم البلدان ٤/٤٦١
(٣) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٩

وأدخلوا في اللغة العربية كثيراً من الكلمات والمصطلحات الدينية مثل : جهنم والشيطان وإبليس والحج والكاهن وعاشوراء .

وقد تأقلم اليهود الساكنون في الحجاز ، واصطبغوا بالصبغة العربية ، واتخذوا اللغة العربية لغة أدبهم ، وكان منهم شعراء كالسموءل بن غريض بن عادياء ، وأوس ابن دني من قريظة ، والربيع بن أبي الحقيق من أشرافها ، وكعب بن الأشرف من بني النضير

والسموءل صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء ، وهو مضرب المثل في الوفاء وصون الأمانة ، لأنه آثر أن يقتل ابنه ولا يسلم أدراع امرئ القيس إلى الحارث ابن أبي شمر أو الحارث بن ظالم [١] ، ومن شعره في ذلك :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما ذُمّ أقوامٌ وَفَيْتُ
وأوْصَى عادِيا يوماً بألا تُهدِّم ياسموءل ما بنيت
بنى لى عاديا حصناً حصينا وماء كلما شئت استقيت

وقد أشاد الأعشى بوفاء السموءل إذ استجار بشريح ابنه ومدحه [٢] .

ومن غزل أوس بن دني القرظي :

أنَّى تذكّر زينب القلبُ وطِلابُ وصلِ عزيزةٍ صَعْبُ
ما روضةٌ جاد الربيعُ لها مَوْشِيّةٌ ماحولها جَدْبُ
بألَذَّ منها إذ تقول لنا سَيْراً قليلا يَلْحَقِ الركبُ [٣]

والربيع بن أبي الحقيق شاعر حاضر البديهة أجاز أبياتا للنابغة الذبياني حين أقبل النابغة يريد سوق بني قينقاع ، فلحقه الربيع بن أبي الحقيق نازلا من أطمه ، فلما أشرفا على السوق سمعا الضجة ، وكانت سوقا عظيمة ، فحاصت (نفرت) بالنابغة ناقته ، فأنشأ يقول .

---

(١) الأغاني ٩٨/١٩ — ٩٩ ساسي
(٢) الأغاني ٩٩/١٩ (٣) الأغاني ٩٣/١٩

كادت تُهال من الأصوات راحلتى

ثم قال للربيع : أَجِزْ ياربيع . فقال :

والنَّفْر منها إذا ما أوجَسَتْ خُلُق

فقال النابغة : مارأيت كاليوم قط . ثم قال :

لولا أنهنها بالسوط لاجتذبت

أجز ياربيع . فقال :

منى الزمام وإنى راكب لَبِق .

فقال النابغة :

قد ملت الحبسَ فى الآطام واشْتَعَفَتْ

أجز ياربيع . فقال :

إلى مناهلها لو أنها طُلُق .

فقال النابغة : أنت ياربيع أشعر الناس (١)

وكعب بن الأشرف من طيء وأمه من بنى النضير ، وقيل هو من بنى النضير ، وكان شاعراً فارسا ، وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج ، وهو شاعر فحل فصيح كان عدواً للنبى صلى الله عليه وسلم يهجوه ويهجو أصحابه ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم نفراً من أصحابه فقتلوه فى داره (٢)

— ٣ —

ولم تستطع اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية ، لأن كثيراً من أحكامها شاق على العرب لايسلسون لها ، ولأنها لاتبيح الانتفاع بغنائم الأعداء بل توجب

---

(١) الأغانى ٢١/٦٢ اشتعفت : اشتاقت . طلق : مطلوقة

(٢) الأغانى ١٩/١٠٦ ساسى

إحراقها ، والعربي يقاتل ليثأر ويغنم وينتفع بالمال والأسرى .

على أن اليهود كانوا أهل صناعة وزراعة ، والعرب يحتقرون الصناعة ويزدرون الزراعة ، فليس بغريب أن ينفضوا عن دين الصناع والزراع ، يدل على ذلك تعليل الجاحظ لتعظيم العوام للنصارى وازدرائهم لليهود في الإسلام ، وهو صالح أيضاً لتعليل ضعف اليهودية عن النصرانية في الجاهلية « ومما عظم النصارى في قلوب العوام وحببهم إلى الطَّغَام أن منهم كُتَّاب السلاطين وفَرَّاشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة ، ولا تجد اليهودي إلا صبَّاغاً أو دبَّاغاً أو حجَّاماً أو قصَّاباً أو شَعَّاباً ، فلما رأت العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود في الأديان كصناعتهم في الصناعات » . (١)

والذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأنهم لم يميلوا إلى إرغام الأمم على اعتناق دينهم ، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور عليهم .

ثم إن اليهودية هي خلاصة القانون التلمودي بعقائده وتقاليده ، وقد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التي طرأت على اليهود . ونجم عن ذلك أن الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودي وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية . وكان هذا من أهم الأسباب في اعتناق السريان واليونان للنصرانية ... كذلك تأثر كثير من العرب بتعاليم اليهودية وخضعوا لبعض الأصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر ، فلم ترض منهم اليهودية ذلك . وهنالك أمر آخر أن التوراة والتلمود كلفا الإنسان تكاليف صعبة لم يألفها ، فلم يستطع العربي الذي لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة ، وعسر على نفسه أن تقبل التقيد بأغلال لا تحصى (٢)

---

(١) رسالة الرد على النصارى ١٧

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٢ إسرائيل ولفنسون

النصرانية

انتشارها فى بلاد العرب . آثارها . عجزها عن اكتساح الوثنية

— ١ —

انتشرت النصرانية فى شمالى بلاد العرب حيث الغساسنة الخاضعون للروم وهم نصارى ، فكان أكثر ربيعة — وهم يقيمون فى شمالى الجزيرة يدينون بالمسيحية[١] وكانت تغلب مسيحية ، وظلت على مسيحيتها إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد أبوا أن يدفعوا الجزية ، فضاعف عليهم الخراج . وكان بعض البدو مسيحيين إلى زمن عمر بن عبد العزيز .

وانتشرت المسيحية فى شرقى بلاد العرب حيث المناذرة ، الذين تنصروا

، وكان جميع البدو فى الشمال على اتصال وثيق بالسكان الآراميين الذين استوطنوا تلك الديار . والذين لونت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تلوينا تاما . وليس من شك فى أن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال . وليس من شك أيضاً فى أن الرهبان الذين انتثرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير فى تعريف العرب بالنصرانية ، أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية[٢] .

فمن الطبيعى أن يكون فى قلب البلاد العربية نصارى وإن قلوا ، ففى السيرة أن من المحاربين ضد النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة شخصا اسمه عبد عمرو بن صيفى وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح[٣]

---

(١) الأغانى ٢٠/١٢٧ ساسى والعقد الفريد ٢/٢٢٩

(٢) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٩

(٣) ابن هشام ٢/٢١٦

ولكن المسيحية كانت أكثر انتشاراً في شمالى الجزيرة ، لأنها دين اللخميين والغساسنة ، والعرب يدينون لهم ويعظمونهم ، « وكانت تهامة — وإن كانت لقاحا لا تدين لدين ولا تؤدى الإتاوة ولا تخضع للملوك — لا تمتنع من تعظيم ما عظَّم الناس ، وتصغير ما صغَّروا . ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب .. وكانت النصرانية فاشية في العرب إلا مضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد فإنهم كانوا نصارى ... ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاعة ، وطيء . ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس ، وأفناء بكر ، ثم في آل ذى الجدين خاصة » (١)

وانتشرت المسيحية في جنوب بلاد العرب حيث اليمن التي وفدت إليها بعثات تبشيرية .

ففي القرن الرابع الميلادى ذهبت إلى اليمن بعثة للتبشير بالمسيحية وكانت اليمن قد استردت استقلالها ، وكان رئيس البعثة ثيوفيلوس ، وقد أوفده قسطنطين إلى حمير مصحوباً بهدايا ، وربما كان من أغراض هذه البعثة ضمان حرية العبادة للمسيحيين من الرومان في بلاد اليمن ، ونشر المذهب الآريوسى (مذهب ينسب إلى آريوس العالم المسيحى الذى كان يرى أن المسيح مخلوق كسائر البشر وأنه لم يكن منذ البـــدء) كما انتشر في الحبشة المذهب الأرثوذكسى .

وربما كان من أغراضها أيضا الحصول على حماية أمراء اليمن للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون اليمن ببضائعهم في وقت كانت الحرب فيه ناشبة بين الروم والفرس ، وقد استحوذ الفرس على الطرق التجارية البرية مع الهند (٢)

---

(١) رسالة الرد على النصارى للجاحظ ص ١٥ .

(٢) Canti rossini, ja, juil - sept 1921 عن بين الحبشة والعرب ص ٣٩

وأشهر مدن النصرانية نجران ، معقلها وموئلها فى بلاد العرب ، وقد بنيت بها كنيسة كبيرة سميت كعبة نجران تطاولاً إلى الكعبة الشريفة ذات المكانة السامية عند العرب ، وروى أن بناتها هم بنو عبد المسدان الحارثى ، « وكانت قبة من أدم من ثلاثمائة جلد على نهر بنجران (١) » إذا نزل بها المستجير أجير ، أو الخائف أمن ، أو طالب الحاجة قضيت ، أو المسترفد رفد (٢) وقد ذكرها الأعشى فى قوله :

وكعبة نجران حتم عليك ... حتى تُناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح ... وقيسا همُ خيرُ أربابها (٣)

ولما غلب الحبش على اليمن فى القرن السادس الميلادى ٥٢٣م اعتز بهم النصارى وراجت الدعوة إلى النصرانية ، وأراد الحبش أن يجعلوا لدينهم السيادة فى بلاد العرب ، فبنى أبرهة كنيسة صنعاء التى تسمى (القُلَّيْس) وحاول أن يغزو مكة ؛ ليهدم الكعبة ، ويبسط نفوذه على الشمال ، ويصرف العرب عن الوثنية وزيارة الكعبة إلى كعبة نجران وإلى كنيسة صنعاء ، ولكن أصحاب الفيل ارتدوا خائبين .

— ٣ —

(١) وكان من أثر النصرانية فى بلاد العرب أن مال بعضهم إلى الرهبنة ، وبناء الأديرة ، فمثلا حنظلة الطائى فارق قومه ونسك وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات وترهب فيه حتى مات ٥٩٠ م

وقد ذكر ياقوت فى معجمه دير حنظلة وفيه يقول عبد الله بن محمد الأمين وقد نزل به فاستطابه :

ألا يا دير حنظلة المفَدّى ... لقد أورثتنى سقما وكداً (٤)

كما ذكر كثيرا من الأديرة فى الحيرة وغيرها

---

(١) الأغانى ١٠/١٣٧ ساسى ومعجم البلدان . نجران
(٢) الأغانى ١٠/١٣٥ ساسى (٣) الأغانى ١٠/١٣٥
(٤) معجم البلدان ٤/١٣٤ وشعراء النصرانية ١/٩٠

وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلا من الطعام . وأمية بن أبي الصلت كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبدا ، وعدى بن زيد حبب النصرانية إلى النعمان .

(ب) وكان القسس والرهبان يعظون الناس في المجتمعات والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، ومن ذلك خطبة قس التي سمعها النبي عليه الصلاة والسلام في عكاظ ، ورواها (١)

ومما يدل على انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيرا من أقوالهم ويفندها

(حـ) وكان منهم شعراء تجلت مسيحيتهم في شعرهم

ومن الشعراء النصارى أميـــة بن أبي الصلت ، وعدى بن زيد ، وأبو قيس ابن الأسلت ، وقس بن ساعدة ، وسنعرض لآرائهم بالتفصيل في كلامنا على الحياة الدينية ، « وكان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب (٢) وقال فيه الأصمعي : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة » (٣) ومن تعبير أمية الذى تتجلى فيه المسحة النصرانية قوله :

مَجِّدوا الله وهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً (٤)

وقد أُنْشِد النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

الحمد لله مُمسانا ومُصبحنا بالخير صبّحنا ربي ومسّانا

. . . .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنْ كاد أمية ليُسْلِم (٥)

ولذى الإصبع العَدْواني شهرة بالحلم والحكمة ، وله قصيدة جيدة في الشكوى

---

(١) نقد النثر لقدامة بن جعفر ٩٨

(٢) ابن سلام ١٠٣ (٣) الأغاني ١٢٥/٤ الدار

(٤) ديوان أمية ٤٣ (٥) الأغاني ١٢٩/٤ الدار

من ابن عمه يكل فى بعض أبياتها علم السرائر والجزاء إلى الله تعالى :

إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها   إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلمكم والله يعلمنى   والله يجزيكم عنى ويجزينى
والله لو كرهت كفى مصاحبتى   لقلت إذ كرهت قربى لها بينى [١]

ومن استعطاف عدى بن زيد العبادى للنعمان وقد حبسه :

أجل نُعْمى ربها أولكم   ودنوى كان منكم واصطهارى
أجل إن الله قد فضلكم   فوق من أحكأ صُلبا بإزار [٢]

وأبو قيس بن الأسلت الأوسى يقول إن الله هو المعين :

وأحرزنا المغانم واستبحنا   حمى الأعداء ، والله المعين [٣]

وقد سئل يحيى بن متَّى راوية الأعشى — وكان يحيى نصرانيا عباديا معمراً وكان يرى أن الأعشى قَدَرِىٌّ — من أين أخذ الأعشى مذهبه الذى يتبين فى قوله :

استأثر الله بالوفاء وبالعد   ل وولىّ الملامة الرجلا

فقال : من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك [٤] .

(ى) وكثيراً ماشبه الشعراء بدمى الكنائس ، وقناديلها ، ونواقيسها ، ورهبانها الخ ... مما سنعرض له فى الحياة الدينية .

فمثلا يقول المرقش الأكبر إن زقاء البوم فى هَدْء من الليل كدقات الناقوس بعد الهدوء :

وتسمع تزْقاءً من البوم حولنا   كما ضربت بعد الهدوء النواقس [٥]

وجواس بن القعطل يشبه الشعرى العبور بقنديل معلق فى كنيسة :

---

(١) الأمالى ١/٢٥٥ — ٢٥٦ والأغانى ٣/١٠٥ الدار
(٢) البيان والتبيين ٢/٢٨٥ أحكأ : شد   (٣) البيان والتبيين ٣/١٧
(٤) الأغانى ٨/٧٦ ساسى   (٥) المفضليات شاكر وهارون ٢/٢٥

وأعرضَتْ الشعر العبور كأنها معلّق قنديلٍ علته الكنائس (١)

وبشر بن أبي خازم يهجو بني حَدْاء بأنهم عُرْج فأرجلهم كعِصِيِّ الطَّلْح، وعصى الطلح معوجة، ويشبهم بالصُلُب المنصوبة فى البيعة :

لله درُّ بني حَداءَ من نفر وكلُّ جار على جيرانه كَلِبُ

إذا غَدَوْا وعصيُّ الطلح أرجُلُهم كما تُنَصَّبُ وسط البِيْعَة الصُّلُبُ (٢)

وعدى بن زيد العبادى يشبه الحسان بدمى العاج فى المحاريب :

كدمى العاج فى المحاريب أو كالـ بَيْض فى الروض زهره مستنير (٣)

(هـ) وأدخل النصارى ألفاظا وتراكيب لم تكن تعرفها العرب، يذكرون أن أمية بن أبى الصلت علم العرب : (باسمك اللهم) وأن قس بن ساعدة أول من قال (أما بعد)

ويذكرون أن ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة كان قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب (٤)

— ٣ —

وبعد، فإذا كانت اليهودية قد عجزت أن تصرع الوثنية الجاهلية، فكذلك قد عجزت المسيحية، لأنها لا تواتم طباع العرب الميالين إلى الثأر والانتقام، والأنفة من الضيم، وما من عربى يرضى أن يدير لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على خده الأيمن.

بل إن النصارى فى بلاد العرب تأقلموا، فخالفوا تعاليم المسيحية، وشنوا

---

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ٧٤ (٢) البيان والتبيين ٣/٥٤
(٣) البيان والتبيين ١/٥٤ (٤) الأغانى ٣/١٢٠ الدار

الغارات ، وطلبوا الثارات ، ولذلك لما قدم عدى بن حاتم الطائى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أو لم تكن تأخذ من قومك المرباع ؟ فقال : بلى ! فقال له عليه الصلاة والسلام : إن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . فقال : أجل والله ، وأعلن عدى إسلامه (١)

وطبيعى أن الدين الذى لا يحل القتال لا يحل الغنائم .

الاتصال السياسى والحربى بالحبشة

غزوات الأحباش لليمن وكندة . تأثير الأحباش فى اللغة والأدب عن طريق مباشر ، وعن طريق اليمن .

— ١ —

تعددت غزوات الأحباش لليمن ، فكانت الأولى فى القرن الأول قبل الميلاد إذ نصروا بنى همدان على ملك سبأ الشرعى ، فلم يغادر الأحباش اليمن بل اتخذوا لهم قاعدة حربية هناك هى مدينة سحـــرت ، واستقرت جاليات حبشية باليمن منذ ذلك الحين (٢)

ثم حدثت غزوة حبشية لليمن فى نهاية القرن الثالث للميلاد ، لتخليص أهل سحرت من يد شمر يهرعش ملك سبأ وريدان وحضر موت ، لأنه وسع ملكه فى الجنوب ، وحمل على سحرت . ونجحت الغزوة وساد الحبش بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع . ويؤيد ذلك أن النقوش العربية لم تذكر أى خبر عن حكام اليمن فى هذه الفترة ، ولكن النقوش الحبشية تلقب أحد ملوك الحبشة فى هذه الفترة (٣١٧ م) بألقاب منها ملك حمير وريدان وسبأ وسلحين (مأرب) وصيامو (تهامة اليمن)(٣)

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٤٨

(٢) بين الحبشة والعرب . عبد المجيد عابدين ٢٣ — ٢٦ (٣) المرجع السابق ٣٢ — ٣٤

ثم كان تنكيل اليهود بالمسيحيين فى اليمن سبباً فى نشوب حربين:

أما الأولى فقد رووا أن دميانوس أو دمنوس ملك حمير اليهودى أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون اليمن إلى الحبشة، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج (حكم حوالى ٤٨٠م) وأوغر صدر امبراطور الروم، فجردا على الملك اليهودى حملة انتهت بانهزامه وقتله، وولى الأحباش والرومان أميرا نصرانيا على حمير، ولكنه لم يعش طويلا، فانتهز اليهود الفرصة لإقامة يهودى عليهم، وكانوا قد استعادوا بعض قوتهم، فولوا ذا نواس ملكا على حمير حوالى ٥٢٠ م.

وأما الثانية فسببها أن ذا نواس اليهودى قد أغضب النصارى، وعدا عليهم، وتختلف الروايات فى سبب عدوانه، بعضها يرى أنه كان متعصبا لدينه ويريد أن ينشره، فسار بجنوده إلى نجران ودعا أهلها النصارى إلى أن يتهودوا أو يُقتلوا، فاختاروا القتل نخدّ لهم الأخدود وأحرقهم فيه [١]، وبعضها يرى أنه فعل بهم ذلك تأديبا لهم، لأنهم قتلوا ابنين لرجل يهودى من نجران اسمه دوس، واستنصر به دوس هذا [٢].

ومهما يكن السبب، فإن ذا نواس اليهودى نكل بنصارى نجران، فذهب أحدهم إلى ملك الحبشة، وأعلمه ما حل بهم، ولعله أراد أن يستفزه ويستدر عطفه فعرض عليه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه، فكتب الملك الحبشى إلى قيصر وبعث إليه بالإنجيل المحرّق، فأمده بسفن كثيرة. وفى رواية أخرى أن المستنجد من أهل نجران اتجه إلى قيصر أول الأمر فأحاله إلى ملك الحبشة مع وصاة به وأمرٍ بأن ينصره ويطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه [٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٥ وتاريخ الطبرى ٢/١٠٥

(٢) الطبرى ٢/١٠٦ وتاريخ ابن خلدون ٢/٥٩ — ٦٠

(٣) تاريخ الطبرى ٢/١٠٦

ولا يجمع المؤرخون ولا الباحثون على أن ذا نواس هو صاحب الأخدود ، فالنيسابورى يذكر ثلاث روايات آخرها أنه ذو نواس [١]

والطبرى يذكر فى تفسيره روايات كثيرة : منها أن أصحاب الأخدود كانوا أهل الكتاب من بقايا المجوس وأنهم خالفوا ملكهم فى أمر فأحرقهم فى النار ، ومنها أنه ملك — لم يذكر اسمه — أضرم النار فى الأخدود لإحراق قومه المؤمنين بالله .

ومما ذكره الطبرى أن أصحاب الأخدود هم الكفار الذين فتنوا المؤمنين ، ذلك أن طائفة من المؤمنين بالله اعتزلوا الناس فى الفترة ، فأراد جبّار من عباد الأوثان أن يدخلوا فى دينه فأبوا ، فخدّ لهم الأخدود [٢] . ولم يذكر الطبرى فى تفسيره ذا نواس ولا أهل نجران .

وقد أردت بإيراد هذه الآراء أن أقوى الشك فى نسبة الأخدود إلى ذى نواس اليهودى ، لأن القرآن الكريم يورد القصة ثم يعقب عليها بهذه الآية : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » فكيف ينقم ذو نواس اليهودى من نصارى نجران أنهم يؤمنون بالله ، وهو نفسه مؤمن بالله تعالى ؟

وقد اعترض ياقوت مثل هذا الاعتراض ، فعجب من أن ينسب الأخدود إلى ذى نواس ، لأن ذلك يُفضى إلى أن « يكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود ، وأما خبر الترمذى أن الملك كان كافراً وأصحاب الأخدود مؤمنين فصح إذن » [٣]

ويرجح الأستاذ لوث Loth أن السورة لا تشير إلى هذه القصة [٤] ، وأن ما جاء فى تفسير الطبرى مسندا إلى صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم (ملخص ذلك أن

---

(١) تفسير النيسابورى . على هامش الطبرى ٣٠/٦١ — ٦٢
(٢) تفسير الطبرى ٣٠/٨٤ — ٨٦ (٣) معجم البلدان ٧/٢٦٢
(٤) بين الحبشة والعرب ٥٢ عن ZDMG, vol. 35, 1881. PP. 619, 48,63

ملكا كافرا انتقم من رعاياه المؤمنين بإحراقهم فى الأخدود) إنما يعبر عن قصة استشهاد جرجيس Saint George[١] ، والعرب يعرفون هذه القصة من قديم ، وقد ذكرها الطبرى مفصلة فى تاريخه [٢] كما ذكرها مفصلة ابن الأثير[٣]

وفى تفسير الطبرى رواية عن ابن عباس أن أصحاب الأخدود ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدودا فى الأرض ثم أوقدوا فيه نارا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء فعُرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه [٤] .

ويرى الأستاذ جيجر Geiger أن ثمة تشابها بين العبارات التى وردت فى قصة تعذيب أصحاب دانيال فى التوراة وبين ما ورد فى سورة البروج . فكما نجد فى السفر (فى الإصحاح الثالث) عبارة (أتون نورا ياقدتا) أى أتون النار المتقدة ، ولفظ قطل أى قتل مستعملا فى معنى الإحراق (الآية ٢٢ الإصحاح الثالث) فكذلك نجد القرآن الكريم يعبر عن أتون النار المتقدة بقوله (النار ذات الوقود) ويعبر عن الإحراق بقوله (قتل أصحاب الأخدود) [٥] .

وأمام هذا الشك فليس لنا إلا أحد أمرين : إما أن نحكم بأن ذا نواس لم يكن يهوديا بل كان وثنيا ، وبذلك يكون قد انتقم من المؤمنين بالله وهو غير مؤمن ، وإما أن يكون حافر الأخدود غير ذى نواس ، وتكون حملة الحبشة الأخيرة قد نشأت عن انتقام ذى نواس للرجل الذى استنصر به على أهل نجران الذين قتلوا ولديه ، ونشأت أيضا لأن ذا نواس تولى بالرغم من إرادة الرومان والأحباش الذين كانوا قد ولوا أميرا نصرانيا على حمير ، ولكن اليهود انتهزوا موته وولوا ذا نواس اليهودى ، فأحس المسيحيون الذين ينقلون التجارة بالخطر المحدق بهم ، فانقطعت القوافل عن اليمن ، ثم ساءت العلاقة سوءا أدى إلى الغزوة الرابعة .

---

(١) بين الحبشة والعرب ٥٤ (٢) تاريخ الطبرى ٢/٤٨ — ٥٥
(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١/١٢٨
(٤) تفسير الطبرى ٣٠/٨٥ (٥) Was hat Mohammed. p.192

وبذلك تهيأت الأحوال لغزوة رابعة يغزوها الأحباش اليمن

وفد الجيش الحبشي بقيادة أرياط ، وفي جنوده أبرهة ، ولقيهم العرب فانتصر الأحباش ، ولما رأى ذو نواس ما نزل بقومه وجه فرسه إلى البحر وخاض به إلى أثباجه فغرق ، وانتقم أرياط من أهل اليمن شر انتقام ، ولم تسلم قصورها وحصونها من حنقه فقد أخرب سِلْحين وبَيْنُون وغمدان ، وقد تحسر الشعراء على تخريبها ، من ذلك قول ذى جَدَن الحميرى :

هَوْنَكِ ليس يرد الدمع مافاتا ... لاتهلكي أسفا في ذكر من ماتا

أبعد بَيْنُونَ لا عين ولا أثر ... وبعد سِلْحِينَ يبني الناس أبياتا (١)

ويرى هشام بن محمد أن القائد كان أبرهة ، وأنه لما انتصر أراد أن يستقل باليمن ، فبعث إليه ملك الحبشة جيشا بقيادة أرياط ليحاربه ، وتبارزا ، فقُتل أرياط ، وشُرم أنف أبرهة فسمي الأشرم ، ثم استعطف أبرهة الملك واسترضاه فرضي وأقره على عمله (٢) .

وتزوج أبرهة امرأة عربية ولدت له ابنا اسمه مسروق .

ثم إن أبرهة — وكان ورعا في دينه النصراني — بنى القُلَّيْس بصنعاء ،(٣) وهي كنيسة لم يكن لها مثيل ، وأراد أن يصرف الحجيج من العرب إليها ، ولكن رجلا من بني فُقَيم أو من بني مالك بن كنانة أحدث فيها حدثا أغضب أبرهة على أهل مكة ، فسار إلى البيت الحرام ليهدمه . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنه من الطبيعي أن يحاول أبرهة أن يبسط نفوذه على الحجاز كما بسطه على اليمن ، وأن يحاول تنصير أهل الشمال الوثنيين ، نصرة لدينه المسيحي ، وتوسيعاً للأسواق التجارية التي يتنافس الفرس والروم في امتـــلاك نواصيها ، والحبشة كما نعلم رومانية الميول .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ١٠٧ وسيرة ابن هشام ١/ ٣٦ ومعجم البلدان ٢/ ٢٤٣ والأغاني ١٦/ ٧٠ ساسى

(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ١٠٨ـ١٠٩ (٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦١

كانت إذن غزوة الفيل ، وكان من أغراضها أن ينصرف العرب عن الكعبة إلى كعبة نجران أو كنيسة صنعاء . ويختلف المؤرخون فى زمن هذه الغزوة ، فالذين يرون أن النبي عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل يحددون تاريخها بأنها كانت عام ٥٧٠ م ، ولكن فى السيرة روايات أخرى عن مولده صلى الله عليه وسلم ، بعضها يذكر أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وبعضها يرى أنه ولد بعده بثلاث وعشرين سنة ، أو بثلاثين سنة ، أو بأربعين سنة ، وقيل بسبعين سنة (١) .

وكثير من الباحثين على أن غزوة الفيل كانت حوالى ٥٤٠ م ، وأن استيلاء الفرس على اليمن كان فى سنة ٥٧٠ م ، وفى هذه السنوات الثلاثين حكم اليمن يكسوم ومسروق .

* * *

انتهى حكم أبرهة سنة ٥٤٤ م ، فحكم بعده ابنه يكسوم ، فذلت حمير وقبائل اليمن ، ووطئتهم الحبشة ، فنكحوا نساءهم ، وقتلوا رجالهم ، واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب ، ولما هلك يكسوم خلفه أخوه مسروق .

وكان ملك الحبشة باليمن منذ دخلوها إلى أن قتل الفرس مسروقا وأخرجوا الحبشة من اليمن ثنتين وسبعين سنة (٢) .

ثم استنجد سيف بن ذى يزن أو معد يكرب بن ذى يزن بامبراطور الروم فلم ينجده ، فاستنجد بكسرى فأنجده ، وفرض كسرى على سيف جزية وخرجا يؤديه إليه فى كل عام ، وكتب إلى قائده وهرز أن يعود إلى فارس (٣) .

وانتقم سيف من الأحباش شر انتقام ، وأذلهم ، فاغتاله بعض حراسه من الأحباش الذين اتخذهم عبيداً وجمازين يسعون بين يديه بحرابهم (٤) ، فعاد وهرز إلى

---

(١) إنسان العيون ١/٦٥ (٢) تاريخ الطبرى ٢/١١٥ وتاريخ ابن خلدون ٢/٥٩-٦٠
(٣) تاريخ الطبرى ٢/١١٥-١٢١ (٤) تاريخ الطبرى ٢/١٢٠

اليمن ، وقد أمره كسرى ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغيرا أو كبيرا ، ولايدع رجلا جعدا قد شرك فيه السودان إلا قتله ، ففعل وهرز ذلك ، ثم أمره كسرى على اليمن وحكمها الفرس حكما مباشرا إلى أن جاء الإسلام .

— ٢ —

أما تأثير الأحباش فى الأدب الجاهلى فمما لاشك فيه ، ولعل ذلك يتجلى من بعض ما نسوق من شواهد .

ا — أسلفت أن نجران كانت مركز المسيحية الحبشية فى اليمن ، وقد تخرج فى هذه المدينة شعراء وخطباء ، فمثلا قس بن ساعدة كان أسقف نجران وكان خطيباً مشهوراً ، وقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم خطبته فى سوق عكاظ وهو على جمل أورق ، وهى خطبة حافلة بالحكمة ، فى جمل قصار مسجوعة ، ومذيلة بأبيات من الشعر (١)

ولم نعثر على خطبة سابقة لها مذيلة بشعر ، مما يرجح لدينا أن هذا من تأثير الأحباش ، لأن رجال الكنيسة من الحبشة « كانوا يذيلون قصص حياة القديسين والشهداء بمقطوعات شعرية ينشدونها عقب الفراغ من سرد حياة القديس ، ويسمونها سلام ، لأنها تبدأ بلفظ سلام ، وتتناول الإشادة بأعمال القديس أو الشهيد ، وتجرى فى أواخر أبيات المقطوعة قافية واحدة » (٢) .

ب — وكان الأعشى يزور كل سنة بنى عبد المدان فيمدحهم ، ويقيم عندهم يشرب الخمر معهم وينادمهم ، ويسمع من أساقفة نجران قولهم ، وقد أخذ عنهم رأيه هذا :

---

(١) نقد النثر لقدامة بن جعفر ٩٨

(٢) بين الحبشة والعرب ١٢١

استأثر الله بالبقـــاء وبالعد ل وولى الملامة الرجلا (١)

ح — ومن تأثير الحبشة فى الأدب العربى الغزل الفاحش ، لأن الحبشى قد اشتهر بهذا النوع من الغزل الذى ينتهى به إلى المجون ، وهو إذا ما انفعل عبر عن انفعاله فى غير تحرج ، وكان العرب يعرفون فيهم هـذا الطبع ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى عبيد الحبشة : « إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا »(٢) ، وروى أن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى اشترى الشاعر الحبشى سُحَيما ، وكتب إلى عثمان بن عفان إنى قد اشتريت لك غلاما حبشياً شاعراً ، فكتب إليه : « لا حاجة لنا فيه ، إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم(٣) » وفى رواية أخرى أنه قال : « لا حاجة لى به ، إن الشاعر لا حريم له (٤) . »

وفى بعض الأناشيد الدينية الحبشية نوع يسمونه ملكىْ . وهو شعر يصف القديس أو الشهيد وصفا دقيقا من رأسه حتى أظفار أصابع رجليه ، وهو لايتحرج من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الإنشاد فى التوراة (٥) .

وإذا تقصينا شعراء الغزل الفاحش الأولين وجدناهم إما أحباشا وإما عربا تأثروا بالأحباش ، فامرؤ القيس أستاذ هذا الفن الأول من كندة ، وكانت مقصد الغزاة من الأحباش ، غزاها أفلاس فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة ، وولى عليها يزيد بن كبشة فى القرن السادس (٦) ، وعمر بن أبى ربيعة أمه أم ولد من حضرموت أو من حمير أو من الحبشة ، وقيل إن الحبشية أم أخيه ، ويرى الأصفهانى أن الغزل إنما أتاه من اليمن ، فيقال غزل يمان ودل حجازى (٧) ، وسُحَيم عبد بنى الحسحاس عبد حبشى اشتراه أبو سعيد فشبب بابنته عميرة وأفحش فى تشبيبه كقوله :

---

(١) الأغانى ١٠/١٣٦ ساسى
(٢) الأغانى ١/٦٥ الدار
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٢
(٤) طبقات ابن سلام ٧١
(٥) بين الحبشة والعرب ١٢٥
(٦) بين الحبشة والعرب ١٢٣
(٧) الأغانى ١/٦٦ الدار

وبتنا وسادنا إلى عَلَجانة   وحِقْفٍ تهاداه الرياح تهاديا
وهبّتْ شمالا آخر الليل قرّةٌ   ولا ثوب إلا درعها وردائيا
توسّدنى كفا وتثنى بمعصم   علىّ، وتحوى رجلَها من ورائيا
فما زال بُردِى طيبا من ردائها   إلى الحول حتى أنهج البردُ باليا (١)

وهو القائل :

ولقد تحدّر من كريمة بعضهم   عَرَقٌ على متن الفراش وطيب (٢)

وقد قتل اتقاه شره ، وعقابا له على فحشه فى تشبيبه ، ولم ينس هذا الفحش وهو ذاهب إلى مقتله ، فقد رأته امرأة كان بينه وبينها مودة ثم فسدت ، فضحكت شماتة به ، فنظر إليها وقال :

فإن تضحكى منى فيارب ليلة   تركتك فيها كالقَباء المُفَرّج (٣)

وكان العرب ميالين إلى الزواج من الحبشيات والسود عامة ، فقد روى الأصمعى أن رجلا قيل له : أى الرجال أخف أرواحا ؟ قال الذين أعرقت فيهم السودان . وقال على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلىّ مهرها . وكان أبو حازم المدنى ينشد :

ومن يك معجبا ببنات كسرى   فإنى معجب ببنات حام (٤)

ى — وشىء آخر غير الغزل الفاحش هو التغالى فى الفروسية ، لأن الأحباش صُبُر على القتال ، خفاف الحركة ، والعرب يسمون ثلاثة من شعرائهم الفرسان أغربة العرب : عنترة بن شداد ، وخَفاف بن نَدْبة ، والسُّلَيك بن السُّلَكة . أما عنترة فأمه زبيبة أمة سوداء وطالما افتخر بشجاعته ودافع عن سواده

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٧١ والأغانى ٢٠/٥ ساسى وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ٤٣ . علجانة : شجرة معروفة. الحقف : الكثيب من الرمل . أنهج: أخلق وبلى

(٢) ابن سلام ٧١   (٣) الأغانى ٢٠/٥ ساسى وأخبار النساء ٤٣

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٠-٤١

وأما خُفَاف فهو شاعر مخضرم، وأمه نَدْبة حبشية سوداء، قال الأصمعي: خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان. وقد رد على من عيروه سواد لونه بقوله:

كلانا يسوِّده قـــومه على ذلك النسب المظلم

وأما السليك فهو من الصعاليك الفتاكين، وأمه السلكة سوداء، وقد أكثر من الفخر بغزواته وسلبه، واشتهر بالعدو حتى زعموا أنه كان يسبق الخيل.

وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للأحباش بالشجاعة والكرم « وإن فيهم لخلتين حسنتين: إطعام الطعام والبأس يوم البأس »[١]

هـ — على أن الأحباش الذين هاجروا إلى بلاد العرب أحراراً وأرقاء وغزاة، والعرب الذين هاجروا إلى الحبشة تجاراً ومهاجرين، هؤلاء وهؤلاء كانوا حلقة اتصال بين اليمن والعرب وبين الحبشة، فدخلت فى اللغة العربية كلمات حبشية أورد السيوطى منها فى الإتقان نحو ستة وعشرين لفظا فى القرآن الكريم، وأكثرها راجع إلى أمور دينية كالحواريين ومنافق وفطر ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان والجبت والطاغوت وطوبى[٢]

وقد نطق النبي صلى الله عليه وسلم ببعض كلمات حبشية، كقوله وهو يصف أشراط الساعة: (إن بين يديها فتنة وهرجا) ولم يعرف الصحابة معنى الهرج، فسألوه، فقال: هو القتل بلسان الحبش.

وكقوله لأم خالد بنت خالد بن سعيد عندما قدمت من أرض الحبشة وكساها خميصة (كساء له أعلام) وجعل يمسح الأعلام. بيده ويقول: (سَناه، سَناه) أو (سنة سنة) أى حسن حسن بلغة الحبش[٣] وفى الحبشية هرج بمعنى قتل، وشناى بمعنى جميل[٤].

---

(١) الأغانى ١/٦٥ الدار (٢) الإتقان ١/١٣٧

(٣) الطراز المنقوش ١٤ وفتح البارى ٦/١٢٨

(٤) بين الحبشة والعرب ٨٩

واستعار العرب منهم ألفاظا لأسلحة القتال منها : المعابل وهى آلات حربية تشبه السهام والنبال ، فهى فى الحبشية معبلت جمعها معابل ، ومنها الدروع ، والوضف بالوضاف أى الرمى بالقلاع [١] .

ومن الألفاظ التى استعارها العرب الدِّكْر ، ففى لسان العرب : الدِّكْر لعبة يلعب بها الزنج والحبش [٢]

والدِّرْقِلة والدركلة ، جاء فى القاموس : الدركلة كشمرذمة لعبة للعجم أو ضرب من الرقص أو هى حبشيه [٣] ، وفى اللسان قال ابن دريد : أحسبها حبشية معربة ، وذكر الأزهرى أنه قرأ بخط شمر قال : قرىء على أبى عبيد وأنا شاهد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر على أصحاب الدركلة فقال : جدوا يابنى أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة [٤] . وفى المخصص : الدركلة لعبة يلعب بها الصبيان ، وقيل هى لعبة الحبش [٥]

و — ويذكر الدكتور بيرون فى كتابه عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر ١٨٤٨ م أن معظم المشهورين بالغناء كانوا عبيداً ، وأن العبيد قبل الإسلام كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين [٦] .

ولم يكن من الحبشة قيان فحسب ، بل كان منهم من يرقصون ويلعبون بالحراب فى المحافل والأعياد فى الجاهلية وصدر الإسلام .

روى أنهم لعبوا بحرابهم فى المسجد ، وكان النبى يستعرضهم والسيدة عائشة

---

(١) Noldeke, 1,53,55 عن بين الحبشة والعرب ١١٢
(٢) اللسان مادة دكر (٣) القاموس المحيط مادة درقل
(٤) اللسان مادة درقل (٥) المخصص
(٦) بلال داعى السماء . العقاد ١٥٠

متكئة على منكبيه ، وأنهم زفنوا (رقصوا رقصا فيه سرعة وحركة متوالية) بين يدى الرسول ، وأخذ المسلمون عنهم بعض أنواع الرقص وهو الحَجْل الذى صنعه جعفر ابن أبى طالب لما قدم على النبي من الحبشة ، وكان الحبشى إذا سما مركزه يأنف من الرقص ، فقد مر نصيب الشاعر — بعد أن علت مكانته باتصاله بالخليفة عبد العزيز ابن مروان وبعد أن أعتق أمه ثم جدته لأمه ثم ابن خالته سحيم — بابن خالته سحيم هذا وهو يزفن ويزمر مع السودان فأنكر عليه وزجره ، فقال له سحيم : إن كنت أعتقتنى لأكون كما تريد فهذا والله ما لايكون أبداً ، وإن كنت أعتقتنى لتصل رحمى وتقضى حقى فهذا والله الذى أفعله هو الذى أريده ، أزفن وأزمر وأصنع ما شئت [١] .

وفى اللغة القنين من أدوات الموسيقى عند الحبشة ، وآلات الموسيقى وثيقة الاتصال بالرقص كما نعلم .

وقد ذكر الجاحظ فى رسالته « فخر السودان [٢] » كثيراً من ضروب تفوقهم فى الشجاعة والكرم والرقص والغناء ، ومن إقبال اليمنيين على الزواج من النساء الحبشيات « واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات » [٣] .

* * *

وبعد ، فقد رأينا أن العرب كانوا على صلات بالأمم القديمة ، تقوى وتضعف ، ولكنهم لم يمتزجوا بأمة امتزاجا يحدث آثاراً عظيمة عميقة فى عقليتهم وأدبهم أو معارفهم كما امتزجوا بالأمم فى العصر العباسى ، وكما نمتزج بالغرب الآن .

---

(١) الأغانى ١/٣٣٩ الدار

(٢) مجموعة رسائل للجاحظ طبعة ساسى ص ٥٤

(٣) الرسالة السابقة ٧٥

وسبب ذلك أن الصحراء والجبال والبحار والمسافات كادت تفصلهم عن العالم القديم، وأن عاداتهم وحياتهم الاجتماعية كانت تغاير ما كان عليه جيرانهم، ولذا لم تتقارب العقليتان، ولم يكن أثر الاتصال عميقاً، ثم إن الأمية كانت فاشية فاكتفوا بالنقل الشفهي لبعض الحكم والقصص والأمثال والحوادث والكلمات، وهم إذن يتخيرون ما يسرع حفظه ويسهل فهمه، وقد يعتور التحريف بعض ما ينقلون، كالأمثال التي نقلوها ونسبوها إلى سليمان أو لقمان، وكبعض القصص المنقولة عن الفرس والروم.

شاعرية العرب

عوامل شاعريتهم . إعزازهم للشعر والشاعر . أمثلة على مكانة الشاعر وقيمة الشعر .
من الأدلة على شاعريتهم كثرة ما خلفوا من شعر ، وهذا الكثير ضاع أضعافه .

* * *

العرب أمة شاعرة ، ولا نقصد أن كل عربى شاعر ، وإنما نريد أن الشاعرية هبة شائعة فيهم على تفاوت فى عظمتها وضآلتها .

وقد كانت البادية مذْكية لهذه الشاعرية ، فهى — وإن خلت من الجمال المصنوع — غنية بالجمال المطبوع ، فهنالك يبزغ القمر وضاح الجبين بساما ، ويبعث أشعته الفضية للمدلج والساهر والسامر فيخلب لبه ، وتلتمع النجوم سافرات ، وتومض كأنها ماسات فتناغى وتناجى ، وهنالك السكون الرهيب الباعث على التأمل ، والبَراح الفسيح المتكشِّف ، والحرية المطلقة ، وكل ذلك يولد فى نفوس السكان الانطلاق فى التعبير والبَوْح بما فى الضمير .

هنالك تجدب الأرض ، وينبسط الرمل ، ويَصْلُد النجد والتل ، ولكن الطبيعة تجود على بعض البقاع بالمطر والخصب فتنبت الْوَاحُ ، وينزل الغيث فتعشوشب الأرض ، فإذا ما رأى البدوى الأرض اكتست بالخضرة بعد العرى ، وإذا ما أوى بعد جهد الرحلة إلى الظل والماء ملكه الإعجاب والروعة ، وأحس بما لا يحس به من ألف رؤية الخضرة فى الوادى الخصيب .

وبلاد العرب بلاد النور ، حيث تسفر الشمس من المشرق إلى المغرب ، «وللنور أثر فى صفات الإنسان أكثر منه فى جسمه ، وقد كان جوته يقول وهو يجود بروحه : أريد نوراً أريد نوراً .

«ولزوم النور كلزوم الأوكسيجين فى الهواء ، وفى البلاد المنيرة الكثيرة الضوء يتفتق الذهن ويستيقظ التصور ، ويخف العمل ، وفى البلاد المظلمة

يخيم الأسى على القلوب، ولا يجيء الشعراء فيها إلا بأحلام مضطربة متكلفة[١].

ثم إن اللغة العربية لغة شعرية غنائية، لأنها حافلة بمترادفاتها التى تسعف المعبر وتواتيه بالقافية، وهى دقيقة فى دلالاتها، غنية بأساليبها ومجازاتها، ثرية بمفرداتها ومشتقاتها، وفى كلماتها رنين وجَرْس يلائم الشعر والموسيقى.

على أن العربى ذكى سريع البديهة متوفز الحس جياش العاطفة، يحيا حياة قبلية، ينافح عن شرف قبيلته ويذيع محامدها، ويساق خصومها بلسانه الحاد، فهو كالمرصد يسجل مفاخر قبيلته ويجسمها، ويقيد مخازى أعدائها ويضخمها، وحياة القبائل فى عراك لا تخبو ناره إلا ريثما تشتعل.

ثم إنه حساس بأسره الجمال، وليس له فن جميل يودعه أحلامه وآماله، ويسلى به وحدته، ويؤنس وحشته، ويُجَلى عبقريته إلا الشعر، فهو حُداء الرَّكْب. وغناء المائح على البئر، وأهزوجة المنتصر، وأغرودة العاشق، وسلوى المكروب والمحروب، هو مُتَنَفَّس العواطف ومُجْتَلى القرائح، فلا عجب أن كان الفنَّ الجميل الذى اشتهر به العرب، واحتفلوا بقائليه، فرفعوا الشعراء مكانا عليا، وبخاصة أنهم كانوا لسن القبيلة يقومون منها مقام الصحف الحزبية من الأحزاب.

فإذا نبغ فى القبيلة شاعر، أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يُولَد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج»[٢].

« وكان أكثر الناطقين بالضاد يعتبرونه مثلا أعلى فى العظمة والسمو، إذ كان شعراً امتدت جذوره إلى أعماق حياة الناس، وشكَّل أفكارهم دون أن يحسوا، وجدد أخلاقهم، وصاغ منهم من الناحية الأخلاقية والروحية شعبا قبل أن يجدّ

---

(١) مقدمة الحضارات الأولى جستاف لوبون ٩١ (٢) العمدة ٣٧/١

الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيجمع قبائله المتنافرة فى أمة واحدة يتجه بها إلى هدف واحد .

ولم يكن الشعر فى ذلك العصر ترفا لا يتعاطاه إلا قلة من الناس ، بل كان الوسيلة الوحيدة للتعبير الأدبى ، وكانت قصائد الشعراء ـ وهى لم تدون بقلم ـ تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح ، وتحدث أثرها العظيم فى قلوب من يسمعونها . وفى خضم النضال والتفكك كان الشعر يضفى حياة ونشاطا على مثل عالية قائمة على المروءة العربية ، وصارت هذه المثل العالية رباطا بين القبائل ، فصاغت ـــ عن قصد أو غير قصد ـــ وحدة أهلية قائمة على أساس عاطفى »(١) .

والأمثلة كثيرة جداً لشعراء حموا أعراض قبائلهم ، وشعراء تشفعوا لقبائلهم أو لأفراد منها فشُفِّعوا ، ولشعراء حط هجاؤهم من شأن أعدائهم ، وشعراء رفعوا الوضيع ووضعوا الرفيع ، وشعراء سما بهم شعرهم حتى نادموا الملوك وكانوا من خواصهم الخ .

نعم كانت جودة شعر الحارث بن حِلِّزة زُلفى إلى الملك ، فإنه أنشد عمرو بن هند قصيدته التى مطلعها :

آذنتنـــــا ببينهـــا أسمـــاء ... رب ثاو يُمَـــلُّ منه الثَّواء

ويقال إنه ارتجلها بين يديه فى شىء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر برفع الستور عنه استحساناً لها(٢) ثم أدناه وقربه(٣) .

وكانت مِدحة الأعشى للمحلّق تنويها به وتمجيداً له ـ بعد فقر وخمول ذكر ـ ذلك أن الأعشى قدم مكة ، وتسامع الناس به ، فأشارت امرأة المحلق عليه أن يسبق الناس إلى ضيافته ، فنحر له وسقاه ، وبالغ فى إكرامه ومن معه ، فسأله الأعشى عن حاله وعياله فعرف البؤس فى كلامه ، وذَكَرَ البنات ، فقال الأعشى كُفيتَ أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

---

(١) Aliterary History of the Arabs. by Reynold Nicholson P. 72

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٣ (٣) العمدة ١/٢١

أرقت وما هذا السهاد المؤرِّق ... وما بي من سُقْم وما بي مَعْشَق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقفه يستمع وهو لايدرى أين يريد الأعشى بقوله ، إلى أن سمع :

نفى الذَّم عن آل المحلق جَفنة ... كجابية الشَّيخ العراقى تَفْهَق
ترى القوم فيها شارعين ، وبينهم ... مع القوم وِلدانٌ من النسل دَرْدَق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليَفاع تحرَّق
تُشَبُّ لمقرورَيْن يصطليانها ... وبات على النار النَّدى والمحلق
رضيعَى لبان ثدى أمٍّ تحالفا ... بأسحم داج عَوْضُ لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متْنَ الهندوانىِّ رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه يخطبون بناته ، فلم تمس منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف[1] .

وبلغ من تأثير الشعر أنه يستلُّ الضِّغن من قلب القادر على العقوبة يشفى بها نفسه ، فإن الحارث بن أبى شِمر الغسانى لما قتل المنذر الأكبر (ابن ماء السماء) فى يوم أباغ أسر جماعة من أصحابه ، فيهم شاس بن عبدة فى تسعين رجلا من بنى تميم ، فقصده علقمة بن عبدة ، ومدحه بقصيدته التى مطلعها :

طحا بك قلب بالحسان طَروب ... بُعَيْد الشباب عَصْرَ حان مَشيب

وشفع فى أخيه شاس بقوله :

فلا تحرِمَنِّى نائلا عن جناية ... فإنى امرؤ وسط القِباب غريب
وفى كل حى قد خَبَطْتَ بنعمة ... فَحُقَّ لشاس من نَدَاكَ ذَنوب

---

(١) العمدة ١/٢٥ والأغانى ٨/٧٧ ساسى . السيح : الماء الجارى . الجابية : الحوض الضخم ورواية السيح خير من الشيخ . دردق : أطفال . أسحم داج . رماد النار أو الدم وكلاهما كان مما يقسم عليه

فقال الحارث : نعم وأذنبه ، وأطلق شاسا وأسرى بنى تميم ، ومن سأل فيه فيه الشاعر أو عرفه من غير بنى تميم[1] .

ولما هجا قيس بن جروة الطائى — أحد الأحيين — عمرو بن هند لأنه أصاب نسوة وأذواداً من طيء ، وتهدده بقصيدة ، ثم استهان بوعيده بقصيدة أخرى غزا عمرو طيئاً فأسر من رهط حاتم بن عبدالله ، وكان فى الأسرى رجل من الأحيين يقال له قيس بن جحدر ، وهو ابن خالة حاتم وجدُّ الطرماح بن حكيم ، فوفد حاتم على عمرو ابن هند ليشفع فى الأسرى — وكذلك كان يصنع — فسأله إياهم ، فوهبهم له ، إلا قيس بن جحدر لأنه من الأحيين من رهط قيس بن جروة الذى سُمى العارق ، فقال حاتم :

فككت عدياً كلها من إسارها ... فأنعم وشفعنى بقيس بن جحدر
أبوه أبى والأمهات امهاتنا ... فأنعم فدتك اليوم نفسى ومعشرى

فأطلقه[2] .

ثم من تأثيره أيضا أنه يَصِم بصفات أو أعمال قد تكون افتراء وادعاء ولكنها تلصق بالشخص كأنها حقيقة ، أو تعلق بالقبيلة كأنها صدق . من ذلك أن العبسيين والعامريين اجتمعوا عند النعمان بن المنذر ، وكانوا يتنافسون فى الحظوة عنده ، ولكن العبسيين استأثروا بها ؛ لأن الربيع بن زياد العبسى كان يؤاكل النعمان وينادمه ويهوِّن من شأن بنى عامر ، وأحسوا أن النعمان قد استهان بهم وصدَّ عنهم ، وعرفوا أن الربيع هو الموحى بذلك ، وكان معهم لبيد — وهو حَدَثَ — فدبروا مكيدة للانتقام من خصمهم الربيع . فدخلوا على النعمان والربيع يتغدى معه ، فهجاه لبيد هجاء مفحشاً نفَّر النعمان منه ، فأمره بالانصراف إلى أهله[3] . وأخف ما فى الهجاء قوله :

مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه ... إنَّ استهُ من برَصٍ ملمَّعه

---

(١) العمدة ١/٣١ خبط : أعطى . ذنوب : حظ ونصيب (٢) الأغانى ١٩/١٢٨
(٣) أمالى المرتضى ١/١٣٧

وما زال إعزازهم للشعر والشعراء يتمشى مع العصور ، وحسبنا أن الشعر فى صدر الإسلام — وقد انبهر المسلمون بالقرآن الكريم ، وشغلوا بتفهم الدين الجديد وبالجهاد فى سبيل الله — كان عليّ القدر ، وهل أدل على ذلك من أن النبى عليه الصلاة والسلام أذن لحسان بن ثابت أن يهجو كفار قريش ، وقال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك »(١) وقال له مرة : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله »(٢) وبنى له منبراً فى المسجد ينشد عليه الشعر(٣) ، وروى عنه أنه قال : « أمرت عبد الله بن رَواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فَشَفَى واشتفى »(٤) .

وكذلك حرض عبدالله بن رواحة على هجاء المشركين ، ولما سمع منه قصيدته التى يقول فيها :

فَثَبَّتَ الله ما آتاك من حَسَنٍ تثبيت موسى ونصرا كالذى نُصِروا

أقبل على الشاعر بوجه مبتسما ، وقال له وإياك فثبَّتَ الله(٥)

ولم يكن التفقه فى الدين وتقوى الله لتحول بين ابن عباس وطربه لغزل عمر بن أبى ربيعة وإصغائه إليه ينشده إياه فى المسجد الحرام ، فقد أقبل عليه عُمَرُ وعنده نافع ابن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، وأنشده قصيدته التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجّر

فأنصت له حتى انتهى ، فقال له نافع . اللهَ يا ابن عباس ، نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضَتْ فيَخْزَى وأما بالعشِىِّ فيَخسَر

---

(١) الأغانى ١٣٨/٤ الدار
(٢) الأغانى ١٣٤/٤ الدار
(٣) العمدة ٩/١ الدار
(٤) الأغانى ١٤٣/٤ الدار
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٧

فقال ابن عباس : إنه قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال نافع : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال : أجل وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها [١]

* * *

وليس أدل على شاعرية العرب من هذا الفيض الغزير الذى وصل إلينا من شعرهم فى العصر الجاهلى ، على أن مابقى سليما من عوادى الدهر إنما هو بعض ما قرضوا فى زمن لا يبلغ قرنين من الزمان ، ومع هذا فإنه أكثر مما نظمت أية أمة قديمة ، فالإلياذة والأوديسة هما معظم شعر اليونان فى جاهليتهم ولا يزيد عدد أبياتهما على ثلاثين ألفا ، والمهابهاراته عند الهنود لا تعدو عشرين ألفا ، والرامايانة لا تزيد على ثمانية وأربعين ألفا ، وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه فى نهضتهم الأخيرة قبل الإسلام أنه يربى على أضعاف ذلك ، وهم يعدون منظوماتهم بالقصائد لا بالأبيات » [٢]

والحق إن ما خلفوه كثير يبعث الدهشة ، ويبعث الإعجاب بالرواة الحفاظ الذين وعت حوافظهم هذا الفيض الغزير . فمثلا حدثوا أن حمادا الراوية كان يحفظ سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين ألف قصيدة ، قال له الوليد بن يزيد الأموى يوما وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية ؟ فقال بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشد أحد شعراً قديما ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له :

---

(١) الأغانى ١/٧٢ الدار . يضحى : يبرز للشمس . يخصر : يبترد

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ٣/٢٤ بتصرف . فى حضارة الهند لجستاف لوبون صفحة ٤٠٣ أن عدد المهابهارته ٢١٥٠٠٠ بيت

فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قال : سأمتحنك في هذا ، ثم أمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ، فوكل به من يسمع منه ويستوفي عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية ، وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم[1] .

وقالوا إن أبا ضمضم كان يروي لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو ، وأن الأصمعي وخلفاً الأحمر لم يقدرا أن يعدا أكثر من ثلاثين من هؤلاء[2] .

وذكروا أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار الجاهليين أربع عشرة ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات[3] .

ورووا أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[4] وأنه قال : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتي عشرة ألف أرجوزة للأعراب[5] ، وما نشك في أن هـــذه الأخبار وأشباهها تزيداً ومبالغة ، ولكنها — على ما فيها — صورة تقريبية لكثرة ما خلف العرب الجاهليون من شعر .

على أن أكثر ما قالوا قد انطوى مع الزمن وتوارى في رمال الصحراء ، ولم يبق منه إلا ما أمسكته الحافظة ، ووعته الأجيال ، لقرب قائليه ، أو لاتصاله بأحداث ذات خطر ، أو لشهرة الشاعر نفسه الخ . وقد سبق ابن سلام إلى هذا بقوله : « ومما يدل على ذهاب العلم — يقصد الشعر — وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة والمصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة[6]

ويضرب أمثلة أخر ، منها أن الناس أجمعوا على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ،

(١) الأغاني ٥/١٦٥ ساسي ووفيات الأعيان ١/١٦٤
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦ والعقد الفريد ٣/١٠٧ المطبعة العامرية الشرفية
(٣) وفيات الأعيان ١/١٢١ (٤) الوفيات ١/٢٨٨
(٥) العقد الفريد ٣/١٠٧ (٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١٨

والباقى من شعره قليل[١] ، وأن أبا سفيان بن الحارث كان يقول الشعر فى الجاهلية ولكنه سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل[٢] . ويروى عن عمر بن الخطاب أن الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره[٣]

وفى هذا يقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[٤]

* * *

وبعد ، فقد بلغ من إعجاب العرب بالشعر وتقديرهم للشعراء أن عزوا شعرهم إلى شياطين توحى إليهم به ؛ لأنه فى رأيهم فوق قدرة البشر ، وسنتكلم عن هذا فى (العادات والمعتقدات) .

---

(١) الطبقات ص ٩٥
(٢) الطبقات ص ٩٦
(٣) الطبقات ص ١٧
(٤) الخصائص ١/٣٩٢

أولية الشعر العربي

أول شعر قبل مجهول . الشعر الذى وصل إلينا ليس هو أول الشعر . هو شعر ناضج ، ومنقح . تسمية بعض الشعراء بما يدل على مميزات شعرهم . تسمية القصائد بما يدل على مميزاتها . في الشعر الجاهلى نفسه ما يثبت أنه قد سبق بغيره . تنازع القبائل فى أولية الشعر .

* * *

من العبث أن نحاول الكشف عن بداءة هذا الشعر ، وأن ننقب عن أول طلائعه ، فقد توارت هذه الطلائع وراء طبقات من الأحقاب الطوال لا يعلمها إلا الله .

ولكن ذلك لا يمنعنا من تقرير أن أقدم شعر مما وصل إلينا قد قيل قبل الإسلام بنحو مائتى سنة على الأكثر(١) ، وهو شعر مقصد مطول ، فليس بمعقول أن يكون ممثلا لطفولة الشعر وهو على ما نرى من نضج فى الأسلوب والموسيقى والمعنى والتصوير ، بل المعقول أن يكون قد سبق بمحاولات اهتدت بها الأحقاب ، وتعهدها بالكمال جيل بعد جيل ، حتى وصل إلى هذا الكمال الذى نراه .

ونظرة إلى الشعر الجاهلى كفيلة بتوضيح الجهد الذى كان يبذله الشعراء فى إنشاء قصائدهم من وزن واحد وقافية واحدة ، ويطبعونها بطابع أسلوبى من خصائصه التركيز والإيجاز والموسيقى ، وبطابع معنوى من خصائصه الخيال والتصوير ، فالقصيدة موسومة بقيود ، ومصبوغة بصبغة ليست للنثر ، ولذلك يقول جويدى « إن قصائد القرن السادس الميلادى الجديرة بالإعجاب تنبىء بأنها ثمرة صناعة طويلة »(٢) وقد أشار الشعراء إلى أن الشعر فن يفتقر إلى تجويد وتنقيح ، وشبهوا القصائد ببرود العَصْب — ثياب جيدة محكمة النسج من اليمن — وبالحلل والمعاطف والديباج والوشى وأشباهها(٣) قال أبو قُرْدُودة يرثى عمار قتيل النعمان ويصف كلامه :

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٧٤ نشر هارون

(٢) عن الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف

Guidi, l'arabie Anteislamique, P. 47

(٣) البيان والتبيين ١/١٨٩ طبعة السندوبى

يا جفنةً كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وَشْيِ اليَمْنَةِ الحِبَرَه[1]

وكانوا مولعين بتنقيح شعرهم، ومعاودة النظر فيه حتى يبرأ من العيب، وأفرط بعضهم فى ذلك حتى إن الحطيئة قال: خير الشعر الحَوْلِيُّ المحكَّك، وكان الأصمعى يقول: زهير بن أبى سُلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من يُجوِّد فى جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله ويعيد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة[2].

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر مايعانيه فى اختيار أجود ماتفيض به شاعريته، فقال إن الأبيات تنثال عليه، ولكنه يرد بعضها ويتمكن من نفسه فيكبحها كما يكبح جواده، وقد تخير من شعره ست قصائد جياد — وفى رواية عشراً — أو تخير من قصيدة كان يتعاطى نظمها ستة أبيات، وكان يُنَحِّي رديئها ويصطفى جيادها.

أذود القوافى عــنى ذياداً ذِيَادَ غلامٍ جرىءٍ جوادا
فلمـا كـثرن وعنَّينى تخـيرت منهن سِتًّا جيادا
فأعــزل مرجانها جانبـا وآخذ من دُرِّها المستجادا[3]

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلى يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه، ويعدون ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول، قال سويد بن كراع العكلى إنه كان يبيت الليل يتخير شعره ويتصيد المعانى الجيدة والقوافى الرصينة كأنه يصيد قطيعا من الوحش المسرعة فى فرارها، وهو يعانى القريض إلى السحر ثم ينام، ووصف الشعر بأنه عصِى لم يستحوذ عليه إلا بأن يحجزه كما تحجز العصا الإبل فى حظيرتها بضربها على نحورها وقوائمها، وقد دعا إليه القوافى الغُر فاستجابت سالكة إليه طريقا

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩٠

(٢) البيان والتبيين ٢/١١

(٣) ديوان امرىء القيس ٦٣ ورواها الآمدى فى المؤتلف والمختلف لامرىء القيس بن الحارث بن معاوية الكندى، ورواها المرزبانى فى معجم الشعراء لامرىء القيس بن بكر بن امرىء القيس بن الحارث، ورواها بعضهم لامرىء القيس بن عابس الكندى، وكلهم جاهلى.

مهداقد سلكته أخوات لها من قبل ، وهى بعيدة المنال على غيره ، أو عميقة المعنى بعيدة الخيال والتصوير ، يظل ينشئها حتى يجهد ، وإذا ما خاف أن تجيئه أبيات سقيمة حبسها فى صدره حتى لا تبرز للناس ، وقد جهد فى تنقيحها حتى لا يعيبها عدوه سعيد بن عثمان بن عفان ، وقال إنه مكث يعاودها بالتثقيف عاما كاملا وربيعاً من العام التالى :

أبيت بأبواب القوافى كأنما ... أصادى بها سِربا من الوحش نُزَّعا
أكالئها حتى أعرِّس بعدما ... يكونُ سُحَيرٌ أو بُعَيدُ فأهجعا
عواصى إلا ما جعلتُ أمامها ... عصا مِربَدٍ تغْشَى نحورا وأذرعا
أهبتُ بغُر الآبدات وراجعت ... طريقا أقلَّتــــه القصائد أجمعا
بعيـــدة شأوٍ لا يكاد يردها ... لها طالب حتى يكل ويظْلَعا
إذا خفتُ أن تُرْدَى علىَّ رددتها ... وراء التراقى خشية أن تَطلَّعا
وجشمه خوفُ ابن عفانَ ردَّها ... فثقفها حولا جـَـريدا ومَرْبعا
وقد كان فى نفسى عليها زيادة ... فلم أر إلا أن أطيع وأسمعا(١)

* * *

هذا الجهد الفنى الذى يبذله الشاعر يدل على أن الشعر كان قد صار فناً ذا قواعد وأصول وقيود ووسائل تجويد ، ولا ريب أنه لم ينشأ كذلك .

ومما يدل على أن الشعر الذى وصل إلينا قد نضج وصار فنا رفيعا أنهم أطلقوا على الشعراء أحيانا أسماء تدل على خصائصهم وميزاتهم ، فمثلا سُمى طُفيل الخيل (المحبِّر) لأنه يزين شعره(٢) ، وسمى زياد بن معاوية (النابغة) لنبوغه فى شعره لا لقوله : فقد نبغت لنا منهم شئون(٣) ، وسمى عدِى أو امرؤ القيس بن ربيعة (المهلهل) لطيب شعره ورقته(٤) أو لأن شعره مهلهل مثل هلهلة الثوب(٥) ، وهو اضطرابه

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١١
(٢) المفضليات طبعة lyall ١/ ٤١٠ (٣) العمدة ١/ ١٣٧
(٤) الأغانى ٥/ ٧٥ الدار (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٢ ولسان العرب ١٣/ ٢٣١

واختلافه ، أو لأنه أول من أرقّ المراثى[١] ، وسمى علقمةُ (الفحلَ) لجودة أشعاره .

وأطلقوا على القصائد نفسها أسماء تدل على امتيازها ، فسموها اليتيمات[٢] والسُّموط[٣] ، وسموها الحوليات والمقلّدات والمنقّحات والمحكَمَات[٤].

والقصيدة من الشعر ما تم شطر أبياته ، وفى التهذيب ما تم شطر أبنيته . سمى بذلك (١) لكماله وصحة وزنه

(٢) وقال ابن جنى لأنه قصد واعتمد .

(٣) وقيل لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار .

(٤) وقيل لأن قائله جعله من باله فقصد له قصدا ، ولم يَحْتَسِهِ حَسْيا على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره ، واجتهد فى تجويده ، ولم يقتضبه اقتضابا . فهو فعيل من القَصْد[٥] .

ثم إننا نجد فى الشعر القديم نفسه ما يدل على محاكاته لأقدم منه ، فامرؤ القيس يقف على الأطلال ليبكى كما وقف من قبله وبكى ابن خِذام أو حِذام أو حِمام :

عوجا على الطلل المُحِيـــل لعلنا ... نبكى الديار كما بكى ابن خِذام[٦]

وابن خذام هذا شاعر مجهول الزمن والشخصية يقول فيه ابن سلام : هو رجل من طيء لم يسمع شعره الذى بكى فيه ، ولا شَعَر غير هذا البيت الذى ذكره امرؤ

---

(١) الأمالى ٢/١٢٩
(٢) الأغانى ١١/١٦٨ ساسى
(٣) الأغانى ١١/١١٢
(٤) البيان والتبيين ٢/٧
(٥) لسان العرب ٣/٣٥٤
(٦) العمدة ١/٥٤ طبعة هندية والمؤتلف والمختلف ١٠٩

القيس[١] ونسب إليه أبو عبيدة هذا البيت من معلقة امرىء القيس :

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل[٢]

وزهير يتوهم أن مايقوله هو ومعاصروه قد سبقهم إليه أسلافهم ، فهم يكررون ما قد سبقوا إليه :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً[٣]

وعنترة يعلن فى مطلع معلقته أن الشعراء السابقين قد استنفدوا المعانى ولم يدعوا ما يمكن ابتداعه أو الزيادة عليه ، فهو إذن محدث « قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ، ولم يغادروا له شيئاً »[٤]، وذلك إذا فسرنا التردم بأنه الإصلاح ، وإذا فسرناه بأنه الترنم وهو ترجيع الصوت كان المعنى أنهم لم يدعوا غرضاً من أغراض الشعر إلا تغنوا بشعرهم فيه :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

ولبيد يقول إن الشعراء يحاكون المرقش والمهلهل :

والشاعرون الناطقون إذا هم سلكوا طريق مرقش ومهلهل[٥]

* * *

ثم إن القبائل تنازعت أولية الشعر الذى وصل إلينا ، فادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، ادعت اليمانية أن امرأ القيس أول من أطال القصائد ، وقال بنو أسد بل عبيد بن الأبرص ، ونسب التغلبيون الأولية إلى مهلهل ، وعزاها البكريون لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وادعاها الإياديون لأبى دؤاد ، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودى أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصّد القصيدة ، وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم فى الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها[٦]

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٢١
(٢) المؤتلف والمختلف ١٠٩
(٣) الديوان ص
(٤) العمدة ١/٥٧
(٥) البيان والتبيين ٢/١٤٨
(٦) المزهر ٢/٢٩٦ طبعة صبيح

وهم لم يتنازعو فى أول من قال الشعر ، ولا فى قائل البيتين والثلاثة ، لأنهم لا يسمون ذلك شعرا ، وإنما تنازعوا فى أول من نضج الشعر على لسانه ، وصار فناً جميلا واضح الدعائم ثابت الرسوم .

وإذاً فإن لنا أن نشك فى قول ابن سلام إن الشعر قد جعل يكتمل وتطول قصائده فى عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبدمناف ،ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم وعبد مناف ، ومن قديم الشعر الصحيح قول العنبر ابن عمرو بن تميم — وكان مجاورا فى بهراء ، فرابه ريب — :

قد رابنى من دلوى اضطرابها   والنأىُ فى بهراء واغترابها

إلا تجىء ملأى يجىء قِرابها[1]

ويذهب إلى أن المهلهل أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع فى قتل أخيه كليب وائل الذى قتلته بنو شيبان ، وكان اسم المهلهل عديا ، وإنما سمى مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه[2] .

---

(١) طبقات الشعراء ١٨ قراب : ماقارب أن يملأها والسبب في هذا القول أن العنبر بن عمرو بن بهراء انتقل مع أمه أم خارجة صغيرا لما تزوجها عمرو بن تميم ، فولدت ثلاثة اولاد ، فخرجوا جميعا يستقون فأنزلوا ماتحا من تميم فكان يملأ الدلاء للثلاثة ويترك دلو العنبر تضطرب (تهذيب الكامل ١١٧/٢)

(٢) طبقات الشعراء ٢٢

نشأة الوزن والقافية

في الشعر العربي

عربيتها الخالصة . رأى ابن رشيق فى نشأة الوزن والرد عليه . رأيي فى نشأتهما . مراحل هـذه النشأة : السجع ، التغنى بالـكلام المسجوع . علاقة الشعر بالغناء . مظاهر هـذه العلاقة . نشوء الوزن والقافية .

— ١ —

نشأت الموسيقى الشعرية — الوزن والقافية — نشأة عربية خالصة خالية من تأثير أمة أخرى ، لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة ، ولأن السريان القدماء كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة ، والعبرانيين لم يلتزموا الوزن ولا القافية ، وقد يشترطون القافية دون الوزن[١] فيصير شعر العبرانيين فى صورته الأخيرة شبيها بالسجع العربى ، ولهذا لما سمعوا القرآن الكريم — وهو ذو فواصل وتصوير شعرى — زعموا أنه شعر بالقياس إلى تصورهم للشعر .

ولا سبيل إلى احتمال أن الوزن العربى متأثر بالفارسى ، لأن الشعر الفارسى القديم كان مجهولا للفرس أنفسهم حين خالطوا العرب ، بل لا يزال تاريخ الأدب الفارسى إلى اليوم يجهل ما كان عليه الشعر الفهلوى ، ولذا نشأ الشعر الفارسى الجديد فى القرن الثالث للهجرة على غرار الشعر العربى فى موضوعاته وأوزانه وقوافيه مع تحوير يسير ، حتى إن الفرس نقلوا الأوزان العربية وسموها بأسمائها ، ونقلوا مصطلحات العروض كلها . وليس بصحيح ما مال إليه جرجى زيدان من أنه نشأ متأثراً بشعر اليونان أو الرومان إذ قال : « امرؤ القيس أول من أطال القصائد ،

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ٣/٢٣

وافتنّ فى نظمها ، وفتح الشعر ، وبكى ووصف .... ولعله تنبه لهذا الافتنان فى أثناء أسفاره فى بلاد الروم ، فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبيه تتفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختياره ، فأدخل فى الشعر ما أدخله ، وكان الشعراء فى الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم ، وإنما كانوا يقفون على الحدود فى البلقاء عند بنى غسان ، أو فى الحيرة عند بنى لخم المناذرة إلا قليلا »[١] .

وهذا رأى مردود ، لأن امرأ القيس قد افتنّ قبل أن يرحل إلى بلاد الروم افتنانه كله ، ولأنه قضى نحبه وهو عائد فضاع معه ما اقتبسه إن صح أنه اقتبس شيئا ، ولأن القصيدة العربية كانت قد نضجت وكمل وزنها واستوت قافيتها قبل أن يرحل امرؤ القيس إلى قيصر بل قبل أن يولد ، فالمهلهل مثلا خال امرؤ القيس وأسنّ منه وله قصائد جياد طوال (توفى امرؤ القيس ٥٤٨م وتوفى المهلهل ٥٣١م)[٢] . على أن شعر اليونان والرومان خال من القافية ، والأوزان العربية غير أوزان اليونان والرومان ، والموضوعات نفسها متغايرة فليس فى الشعر الجاهلى ملاحم ولا مسرحيات كالتى عند اليونان والرومان .

— ٣ —

وقد قال ابن رشيق فى نشأة الوزن العربى : إن العرب احتاجوا إلى الغناء بمكارم أخلاقهم وطيب أعراقهم ، وذكر أيامهم الصالحة وأوطانهم النازحة ، وفرسانهم الأنجاد وسمحائهم الأجواد ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به أى فطنوا[٣] .

ولكن هذا الرأى يُفضى إلى أن العرب اهتدوا إلى الأوزان عن تعمد وقصد ومواضعة ، وليس هذا بشىء ؛ لأن نتاج الإلهام — والشعر إلهام — لا يخضع إلى

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ٢٤/١ (٢) شعراء النصرانية ١٦٠٤١

(٣) العمدة ٥/١

المواضعة والموافقة ، ثم لماذا توهموا هذه الأوزان عينها ولم يتوهموا غيرها ؟ ولماذ لم يقتصروا على بعضها دون بعض ؟ وكيف تواضعوا عليها واتفقوا مع اختلاف ديارهم وتباعد أوطانهم وتحضر بعضهم وتبدى بعضهم ؟

نحن لا نقبل هذا الرأى ، فهل نستطيع أن نبدى غيره ؟

سنحاول ذلك راجين أن نهتدى إلى صواب .

— ٣ —

١ — ما من شك فى أن الناس تكلموا أولا بالنثر وسيلة للتفاهم وتحقيق المنافع ، ثم تأنق بعضهم فى تعبيره ، تساميا بالقول أو تصويراً لعاطفة جياشة فاتزن كلامه اتزاناً نشأ منه السجع ، فأعجبه وقعه ، فأكثر هو وأمثاله من هذا الطراز ، وحببه إليهم ماله من تأثير فى النفوس ورنين فى الآذان ، ولهذا كان من خصائص الممتازين بالقول الرائع ، والمعبرين عن عاطفة ، والراغبين فى التأثير والاستمالة كالرؤساء والكهان والسحرة ، ليجتذبوا بموسيقاه قلوب الناس ويموهوا عليهم ويتملكوا عواطفهم ويخدروا وعيهم ، وليحدثوهم بما يزعمون أنهم العليمون به ، فيسمع الناس عنهم مصدقين لما يقولون ، غـــير متبصرين فى نقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، ولذلك قد يلجأ السجاعون إلى نوع من الغموض فيحملون الكلمة أو الجملة عدة معان ، ليذهب السامعون فى فهمها كل مذهب ، وقد يقحمون كلمات لا معنى لها ، وإنما جاءوا بها لوزن الكلام وترنيم الوقفة .

وقد اتهم العرب النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »[١] وبأنه كاهن وشاعر « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون »[٢] لأنه يحدثهم بالقرآن الكريم فيسحرهم ببلاغته ، ويبهرهم بموسيقاه ، وفواصله ، فهو فى نظرهم صادر عن قدرة فى النبي فوق قُدَرهم .

---

(١) سورة يونس ٢ (٢) سورة الحاقة ٤١ ، ٤٢

وقد تغنى الناس بهذا الكلام المسجوع ؛ لأنه أكثر ملاءمة للغناء والتلحين من غير المسجوع ، فنشأت الأوزان والقافية . وقبل أن نكشف عن طريقة هذه النشأة نمهد بكلمة فى علاقة الشعر بالغناء عند العرب وغير العرب .

ب — ارتبط الشعر والغناء فى النشأة الأولى ارتباطاً وثيقا ، ولا غرابة فى ذلك ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هى بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى خصيصة فيهما معا ، ففى الغناء موسيقى النغمات والألحان وفى الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان ، ولذلك لا نعرف شعباً تغنى بالنثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأكثر طواعية للتنغيم والترنيم .

وظواهر هذا الارتباط كثيرة فى الأدب العربى القديم وفى غيره من الآداب ، فقد كان شعراء العصر الجاهلى يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، كما روى أن المهلهل شرب خمرا وتغنى بقصيدته التى مطلعها :

طَفْلَةٌ ما ابنة المُحَــلِّ بيضا ءُ لَعُوبٌ لذيذة فى العناق(١)

والسليك بن السلكة غنى بقوله :

ياصاحبَّ ألا لا حىَّ بالوادى سوى عبيد وآمٍ بين أذواد
أتنظران قريبا ريْثَ غفلتهم أم تغدوان فإن الربح للغادى(٢)

وكان الأعشى « يغنى فى شعره ، فكانت العرب تسميه صناجة العرب »(٣) ، وكان يتردد على اليمن ويستمع الغناء ويشرب الخمر يقول لناقته :

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى أبوابها
نزور يزيد وعبــد المسيح وقيساً هم خير أربابها
وشاهدنا الجل والياسميـ ـن والمسمعات بقصابها
وبربطنا دائم معمــلٌ فأى الثلاثة أُزْرَى بها ؟

(١) الأغانى ٥/٥١ دار الكتب (٢) الأغانى ١٨/١٣٤ ساسى
(٣) الأغانى ٩/١٠٩ الدار

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ماشاء ، يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي فإذا انصرف أجزلوا صلته[١] .

ومُزَرِّد بن ضرار الذبياني أو أخوه جَزْء يقول في تهديده أعداءه بالهجاء الممض : إنه يقتحم الخصومة لا يبالي ، لأنه يتعرض في كل شيء ، أو لأنه ذو فنون وذو حذق ، وهو كفيل بأن يرميهم بأهاج مرة يتغني بها الساري ويحدو بها الآبال :

فقد علموا في سالف الدهر أنني　　مِعَنٌّ إذا جدَّ الجِراء ونابل
زعيم لمن قاذفته بأوابد　　يغنِّي بها الساري وتُحدى الرواحل[٢]

وأبو النجم — في العصر الإسلامي — يطلب من قينة أن تغنيه ببعض ما كان يتغنى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنَّيْ فإن اليوم يوم من الصِّبا　　ببعض الذي غنَّى امرؤ القيس أو عمرو[٣]

وظلت اللغة العربية محتفظة بلفظ الإنشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء ، مما يدل على صلة عريقة بين هذين الفنين ، قال حسان بن ثابت :

تغنَّ بالشعر إما كنتَ قائله　　إن الغناء لهذا الشعر مضمار[٤]

وقال ذو الرمة إنه يتغنى باسم حبيبته أي ينشد الشعر فيها :

أحب المكان القفر من أجل أنني　　به أتغنى باسمها غير معجم[٥]

وقال المتنبي في مدح سيف الدولة : إنه طائر غرد ، وإن الدهر يتغنى بشعره ، وإن شعره يغني به من ليس من شأنه الغناء :

---

(١) الأغاني ٦/٦٩ — ٧٠ ساسي . بربط : عود ومعجم البلدان ٤/١٧٩

(٢) المفضليات ١/٩٨ معن : متعرض في كل شيء أو ذو فنون . الجراء : الجرى . النابل : الحاذق أو الرامي بالنبال . أوابد : غرائب القول يريد بها الأهاجي المرة .

(٣) الشعر والشعراء ٤٢

(٤) العمدة ٢/٢٤١ واللاهي للضبي مخطوط بدار الكتب . يقول الضبي « المضمار هاهنا مثل لأن المضمار للخيل إصلاحها وتعريفها ورياضتها حتى تستوى ، فشبه إصلاح الغناء لوزن الشعر بذلك »

(٥) العمدة ٢/٢٤١

أجزنى إذا أنْشِدتَ شعراً فإنما ... أتاك بشعرى المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتى فإننى ... أنا الصائح المحكى والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغنى مغردا(١)

وما زال الناس يطلقون على الرجل الذى ينشدهم فى المحافل قصصاً شعرية كعنترة وأبى زيد اسم للشاعر، وهو لا يلقى شعراً فحسب، بل يتغنى به على الربابة.

قال عمر بن الخطاب للنابغة الجعدى: أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك فأسمعه كلمة له. قال له: وإنك لقائلها؟ قال: نعم. قال عمر: لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب(٢).

«وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن، لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ....»(٣)

يقول المرزبانى: كانت العرب تغنى النَّصب، وتمد أصواتها بالنشيد، وتزن الشعر بالغناء: قال حسان:

تغن بالشعر إما أنت قائله ... إن الغناء لهذا الشعر مضمار(٤)

«ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان، والأشعار معايير الأوتار»(٥)

* * *

على أن شعراء العصر الجاهلى أكثروا من التحدث بالمغنيات، ولا سيما بعد أن قوى اتصال العرب بالفرس والروم والأحباش وكثرت القيان فى بلاد العرب،

---

(١) الديوان ١/١٩٣ شرح البرقوقى
(٢) العقد الفريد ٤/٩٠ الأزهرية
(٣) مقدمة ابن خلدون ٤٨٨
(٤) الموشح للمرزبانى ٢٩
(٥) العمدة ١/٩

قال طرفة فى معلقته إنه شرب الخمر هو وندماؤه وأطربتهم قينة حسناء رخيمة الصوت :

نداماى بيض كالنجوم وقينة ... تروح إلينا بين برد ومجسد

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة ... بجس الندامى بضة المتجرد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروفة لم تشدد

إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها ... تجاوب أظآر على ربع ردى(١)

وقال امرؤ القيس إنه إن صار مكروبا فقد طالما فرج همه بسماع مغنية تعزف على عود :

وإن أمس مكروباً فيارب قينة ... منعمة أعملتها بكران

لها مزهر يعلو الخميس بصوته ... أجش إذا ما حركته يدان(٢)

وهو صاحب أخبار فى اللهو والخمر والغناء ، فقد رووا أنه لما طرده أبوه كان يسير مع جماعة من شذاذ العرب ، فاذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانه »(٣)

وقد افتخر سلامة بن جندل بمغنيتهم البيضاء الحسناء الفلجاء العفيفة :

وعندنا قينة بيضاء ناعمة ... مثل المهاة ، من الحور الخراعيب

تجرى السواك على غر مفلجة ... لم يغرها دنس تحت الجلابيب(٤)

* * *

ويظهر ان الخمر كانت تصحب بالغناء فى الأعم الأكثر ، فهذا عمرو بن الإطنابة يفخر باحتساء الخمر المصفاة وبسماع القيان العازفات على الدفوف لفتيان القبيلة ، حدث أبو الفرج أنه دعا بشرابه وقيانه فغنين له قوله فى رثاء خالد بن جعفر لما قتله الحارث بن ظالم :

---

(١) ديوان طرفة ٢٨ — ٢٩

(٢) ديوان امرئ القيس ١٨٧ السندوبى

(٣) الأغانى ٨٧/٩ الدار

(٤) المفضليات ١١٨/١ لم يغرها : لم يلصق بها

عللانى وعللا صاحبيا واسقيانى من المروّق ريا
إن فينا القيان يعزفن بالدف (م) لفتياننا وعيشاً رخيا(١)

وهذا علقمة يفخر بأنه ينادم على الخمر ويستمع إلى المزهر :

قد أشهد الشَّرب فيهم مزهر رَنِمٌ والقوم تصرعهم صهباء خرطوم(٢)

وعدد عبد يغوث من مفاخره فى ماضيه الذى يتحسر على حرمانه منه وهو فى الأسر أنه كان يطرب فيشق رداءه بين القينتين وينحر للندامى مطيته :

وأنحر للشرب الكرام مطيتى وأصدع بين القينتين ردائيا(٣)

وكان مجلس الشراب والغناء يمتد إلى الهزيع الأخير من الليل ، قال كعب بن الأشرف فى فخره :

ولنا بئر رُواءٌ جَمَّةٌ من يَردها بإناء يغترف
ونخيلٌ فى قلاع جمة تخرج التمر كأمثال الأكف
وصريرٌ فى مجالى خلةٍ آخر الليل أهازيج بدف(٤)

وارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء بالمتعة بالنساء ، فهذا بُرْج بن مِسْهر الطائى يفتخر بالخمر وسماع القيان ، فتتداعى فى ذهنه خواطر اللذات ، فيفتخر بالاستمتاع بالنساء الحسان المنعمات اللائى يغتسلن بالماء الحار :

وفينا مُسمعات عند شَرْب وغزلانٌ يُمدُّ لها الحميم(٥)

ولقد يقال إن القيان كن يغنين حقيقة ، ولكن هل غنين بالشعر ؟ نعم ، فقد فصّل عبدَة بن الطبيب ما أجمله غيره ، فقال إن القينة كانت تطربهم بغناء الشعر الرائع الذائع ، فهم فى نشوة من تطريبها ، وفى طرب من الشعر ، وهم لذلك يمنحونها ويخلعون عليها :

---

(١) الأغانى ٩/١٦٤ الدار (٢) المفضليات ٢/٣٠٢ الخرطوم : أول ما ينزل منها وهى صافية .
(٣) المفضليات ١/١٠٦ (٤) طبقات الشعراء لابن سلام . صرير : صياح . خلة : خمر
(٥) الحماسة ٢/٨٣

ثم اصطبحت كميتا قرقفا أنفا … من طيب الراح ، واللذات تعليل
صرفا ، مزاجا ، وأحيانا يعللنا … شعر كمذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداء آنسة … في صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدو علينا فتلهينا ونصفدها … تلقى البرود عليها والسرابيل[1]

وكان بمكة قينتان فارسيتان لعبد الله بن جدعان تغنيان الناس[2] ، وكان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه[3] ، وكانت هريرة — معشوقة الأعشى — وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو ابن مرثد ، وكانتا تغنيانه بالنصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان[4] .

وقد تحدث حسان عن بعض لياليه عند جبلة بن الأيهم في الجاهلية ، فقال إنه سمع عشر قيان : خمس روميات يغنين بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها[5] .

وكانت الأمهات يغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، من ذلك قول منفوسة بنت زيد الخيل وهى ترقص ولدها :

أشبه أخي أو أشبهن أباكا … أما أبي فلن تنال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا[6]

وهن يبكين على موتاهن بغناء حزين هو النواح ، وكان نواح كثيرات منهن شعراً كما ناحت الخنساء على أخويها ، وكما ناحت هند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها[7] .

وكن يغنين في المعارك ليشجعن الرجال على الاستبسال ، كما غنت إحداهن في يوم ذى قار .

---

(١) المفضليات ١٤٣/١ قرقف : ترعد شاربها وتهزه . أنف : لم يشربها أحد قبله . السمان : وشي مقارب محكم . محمول : مروى . تذرى : ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا . نصفدها : نعطيها

(٢) الأغاني ٣٢٧/٨ الدار

(٣) الأغاني ١٥٧/٩ ساسي

(٤) الأغانى ٧٧/٨ ساسى

(٥) الأغانى ١٤/١٦ ساسى

(٦) الأغانى ٣٨/٣ الدار

(٧) الأغانى ١٢٩/١٣ ساسى

إن تهزموا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق (١)

وطالما غنى الرجال بشعر حماسي وهم يحاربون، كما فعل عُمير بن الحُمام إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين في بدر، ويعدهم الجنة، فقاتل القوم حتى قُتل، وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد (٢)

وكما قال أبو البخترى حين نازله المجذَّر في الغزوة نفسها — وكان المجذر أخبره أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن قتله، ولكنه قاتل دفاعاً عن زميله الذى أبى المسلمون إلا قتله —:

لن يُسلم ابنُ حرة أكيله حتى يموت أو يرى سبيله (٣)

وفى سيرة ابن هشام فى غزوة خيبر أن مَرْحَبا اليهودى خرج من حصنهم قد جمع سلاحه يرتجز بقوله:

قد علمت خيبر أنى مَرْحبُ شاكى السلاح بطل مجرَّبُ
أطعن أحيانا وحينا أضرب وإذا الليوث أقبلَتْ تُحَرَّب
إن حماى للحمَى لا يُقْرب يُحجم عن صولتى المجرِّب

وهو يقول: من يبارز؟ فأجابه كعب بن مالك بقوله:

قدعلمت خيبر أنى كعبُ وأنى متى تُشَبُّ الحرب
ماضٍ على الهول جرىء صلب معى حسام كالعقيق عَضْب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٣ محي الدين والأغانى ٤/٣٤ ساسى
(٢) تاريخ الطبرى ٢/٢٨١ — ٢٨٢ (٣) الطبرى ٢/٢٨١ — ٢٨٢

بكفٍّ ماضٍ ليس فيه عتْبُ ندككم حتى يذل الصعب [١]

وفي غزوة أحد أعلم أبو دجانة نفسه فعصب رأسه بعصابته الحمراء ، وخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكيُّول أضربْ بسيف الله والرسول [٢]

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مر عليها — وهى فى حصن بنى حارثة يوم الخندق وأم سعد معها — وعليه درع مقلّصة قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفى يده حربة يسرع بها ويقول :

لبِّثْ قليلا يشهد الهيجا جملْ لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت أمه : الحق يا بنى فقد والله أخرت [٣] .

ومما يدل على غنائهم أمام الجيش قول درهم بن يزيد فى قصيدة يهدد بها مالك بن العجلان :

لأصبحَنْ داركم بذى لجب جَوْن له من أمامه عَزَفُ [٤]

* * *

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى ويتغنون به جماعات ، فقد روى عن أنس ابن مالك وعن السيدة عائشة أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جعل النساء والصبيان وذوات الخدور يغنين بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيَّات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع [٥]

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والمغازى للواقدى ٣٩٠

(٢) ابن هشام ٣/١١، ١٣ يشير إلى أن الرسول أعطاه سيفا ليحارب به العدو حتى ينحنى

(٣) الطبرى ٣/٤٩ (٤) الأغانى ٣/٢٢ (٥) السيرة الحلبية ٢/٥٨

وبنو النضير لما أجلاهم النبي عن المدينة خرجوا يريدون خيبر وهم يضربون بدفوف ويزمرون بالمزامير(١) .

وفى حفر الخندق رأى النبي عليه الصلاة والسلام ما بالصحابة من تعب وجوع ، لأن الزمن كان عسرة والعام عام مجاعة فقال متمثلا بقول ابن رواحة :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

وأجابه الصحابة بقولهم :

نحن الذين بايعنا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

وقال صلى الله عليه وسلم متمثلا أيضاً بقول ابن رواحة ، وهو ينقل التراب — وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إذ لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان يمد صوته ويكرر أبينا ، أبينا

وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما بدأ الحفر فى الخندق قال :

بسم الإله وبه بَدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا ربّاً وحُبَّ دينا(٢)

ويروى ابن هشام أن المسلمين كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جعيل سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمراً فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا ... وكان للبائس يوما ظهراً

فإذا مروا بعمرو قال رسول الله (عمرا) وإذا مروا بظهر قال (ظهرا)(٣) .

* * *

---

(١) الأغانى ٣٨/٣ الدار
(٢) السيرة الحلبية ٣٢٢/٢
(٣) سيرة ابن هشام ٢٣٢/٣

ولم يكن الشعر العربي وحده هو المتصل بالغناء هذا الاتصال الوثيق فقد كان الشعر اليوناني كذلك ، ولهذا أطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى فى القرن الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، وكان هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية خاصة ، ولم يكن التغنى بالشعر عند اليونان وقفا على نوع معين منه ، فقد تغنوا فى مناجاة الآلهة ، وفى مدح الملوك ، وفى إلقاء القصص ، وكان الشعر التمثيلي يوضع حواراً وأناشيد غنائية . « على أن الشعر الغنائى اكتسب هذه التسمية من نسبته إلى كلمة Lyre وهى آلة موسيقية قديمة ، فسمى Lyric poetry أى الشعر الغنائى[1] وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى[2] .

ثم نشأت بأوروبا فى العصور الوسطى جماعات من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد ويتغنون بشعرهم ، وقد أطلق عليهم فى غربى أوربا ووسطها التروبادور Troubadour وسموا فى شرقيها المنسنجر Minnisinger ، وفى اللغة الإنجليزية كلمة Bard معناها الشاعر المنشد الذى يؤلف الشعر ويغنيه ، وهو يحمل معه أداة موسيقية يعزف عليها حين يلقى شعره ويغنيه .

حـ ــ وما من شك فى أن الغناء يقتضى أن يكون الكلام الذى يغنى موزونا ، لأن الغناء منبعث عن عاطفة ، والمنفعل يتغنى بعاطفته غناء ملائما لها ، ولذا فإن الموسيقى الشعرية لا بد أن تلائم الحالة النفسية للقائل . يقول الناقد الإنجليزى جرينج لامبورن Greenning Lamborn : « إن الموسيقى خارجية وداخلية ، والعروض يتكفل بالخارجية ، أما الداخلية فتتكفل بها مقاييس صوتية فى داخل النفس أكثر مرونة وشمولا من العروض »[3] .

فالوزن ظاهرة طبيعيـــة للعبارة ما دامت تؤدى معنى انفعاليا ، وعلم النفس يقرر أن الإنسان المنفعل تبدو عليه ظاهرات جثمانية عملية كاضطراب النبض

---

(١) أصول النقد الأدبى ٣١٨ (٢) قواعد النقد الأدبى ــ لاسل كرومبى ٧٠

(٣) Rudements of Criticism

وضعف الحركة أو قوتها وسرعة التنفس أو بطئه وحركة الأيدي قبضاً وبسطاً ، وهذه نفسها دليل على ما في النفس من قوة طارئة ، فاللغة التي تصور هذا الانفعال لا بد أن تكون موزونة ، ذات مظاهر لفظية متباينة لتلائم معناها وتكون صداه الصحيح »[١] .

* * *

والغناء كان من دأب العربي وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلته ، تمشي به متئدة أو مرقلة ، وهو على ظهرها يهتز هزات تبطيء وتسرع وتطول وتقصر ، وكان الغناء من دأبه وهو يهجم في الحرب فيجري أو يثب ، ومن دأبه وهو يمتح الماء من البئر فيرتفع وينخفض ، ومن دأبه وهو يرقص ، ومن دأبه وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة وتعوزه التسلية ، تنزل به النازلة فينفس عن نفسه بالغناء وتبسم له الحياة فيصور حبوره في غناء ، وهو إذ يغني يتقطع صوته وفقا لحركات جسمه وهزات نفسه ، وتتقطع كلماته ومقاطعه إلى أجزاء متزنة منسجمة ، لأن صلة الغناء بالشعر من شأنها أن تحدث ذلك .

فهذه اللحمة التي وصلت الغناء بالشعر تخولنا أن نقول إن التغني بالكلام المنثور عسير ؛ لأنه لا يطاوع الترجيع ، ولا يلين للترنيم ، وبذلك لا تستحليه الأذن ولا يستسيغه اللسان . فمن الطبيعي أن يتغنى الناس بكلام موزون يساير ألحان الغناء ، وتطرب له الآذان ، وهم لذلك قد تغنوا بالسجع لما فيه من موسيقى الوقفات ، ثم حاولوا أن يخضعوا هذه اللغة المسجوعة إلى النغمات التي تطابق العاطفة ، وتطاوع التغني ، فتخيروا الكلمات المنسقة مع النغم الذي في النفس . وتصرفوا في بعض الكلمات بتحريك الساكن وتسكين المتحرك ، وقصر الممدود ومد المقصور ، وترخيم بعض الأسماء ، وتنوين ما لا ينون ، إلى غير ذلك مما يعد ضرورات شعرية ،

---

(٢) الأسلوب . أحمد الشايب ٤٩

وتصرفوا أيضاً فى الأوزان نفسها بحذف وزيادة وتحريك وتسكين، مما يعد من الزحافات والعلل العروضية. فصارت اللغة التى يتغنى بها الناس لغة موزونة تلائم حركاتها وسكناتها ومداتها ووقفاتها الأنغام التى يتغنون بها، والألحان التى يرجعونها، والنَّفَس وهو تطول أو يقصر، ويسرع أو يبطىء، فنشأ الوزن منوعاً كتنوع التلحين الفطرى، واستراحت النفس لهذا التقطيع، وجعل المغنى به يوليه من عنايته وتجويده، وجرت به الألسنة محتفية ملتذة، وغبر على ذلك ردحا من الدهر كان كفيلا بنقلته من الطفولة إلى الصبا.

وهنا وفى هذه النقلة نشأ الوزن من الغناء بالكلام المسجوع.

٤ — ونشأت القافية أيضاً هذه النشأة، فهى فى أول أمرها كانت سجعة، ثم التزمت فى آخر الأبيات كلها تمشيا مع الغناء، لأنها قوية الشبه بوقفات المغنين، ونهايات العازفين، وسكنات النافرين على الدف، والمصفقين بالأكف، والموقعين بأرجلهم فى الرقص، فهى نهاية النفس فى البيت، واستراحة من البيت إلى البيت، ولأنها مضافةً إلى الوزن تكسب الشعر رنينا وتزيده موسيقى.

وقد أسْهَلت القافية للشاعر العربى: لغنى اللغة بالمفردات الكثيرة ذات النهايات الواحدة، ففيها من القوافى المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره فى سائر اللغات، فلا يسوغ لها أن تبرز عاطلا مع توفر ذلك الحلْى الشائق، فإذا اقتصر الإفرنجى على صوغ شعره كالرجز العربى، لكل شطرين قافيتان متناسبتان ينتقل منهما إلى غيرهما واضطر إلى تكرارهما بعد حين، أو إذا اختار أن يعرى شعره من القوافى بتاتا فعذره أن لغته هكذا خلقت. بل لو أجهد نفسه فى مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة، والشاعر العربى بخلاف ذلك، فإن كثيراً من ضروب القوافى تنهال عليه انهيال الغيث، وإذا انحبست فلا تنحبس إلا لِقِصَر باع، أو لقَرْع باب ضيق، أو لتجاوزه الحد فى إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة (١).

---

(١) مقدمة ترجمة الإلياذة للبستانى ٩٥

هـ — ثم تنوعت البحور وفق الموضوع ووفق الحالة النفسية للقائل ، لأن الموسيقى الشعرية المعبرة هي التي تساير موضوع القصيدة ، وتوائم التجربة الشعرية ، يقول سبنسر : « إن خير الموسيقى ما تتمشى مع الأفكار وتتساوق مع المعاني ، وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس ، فالشاعر في اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالي النغمة ، وفي حزنه يكون منخفضها ؛ وفي تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافاته الصوتية قصيرة ، وأما في بثه وألمه فتكون مسافاته الصوتية طويلة ؛ وهكذا تساير النغمات حالات النفس كما تساير موضوع القصيدة وفكرته »[١] .

وهذه النشأة الغنائية أو النشأة الموسيقية للوزن هي التي مكنت الخليل بن أحمد أن يهتدي إلى علم العروض ، ولولا علمه بالموسيقى والتوقيع ما تهدّى إلى الكشف عن قواعد هذا العلم ، وحسبنا أنه ألف كتابا في النغم كما ذكر ابن خلكان[٢] ، وكان إخوان الصفا على حق إذ رأوا أن الموسيقى مماثلة لقوانين العروض[٣] .

ومما يعزز هذا الرأي أن الأوزان التي استحدثت بعد العصر الجاهلي كانت أيضا وليدة الموسيقى ، فالموشحات الأندلسية نشأت متأثرة بالغناء والموسيقى لتلائم الأوزان الشعرية الألحان الموسيقية .

ولذلك لم يتصور نقاد العرب الشعر إلا موزونا مقفى ، فمثلا ابن رشيق جعل أركانه أربعة : اللفظ والمعنى والوزن والقافية[٤] ، وأبو هلال العسكري جعل من مراتب الشعر العالية التي لا يلحقه فيها غيره من الكلام أنه منظوم[٥] .

و — ولا يقدح في هذا أن شعر بعض الأمم لا يلتزم الوزن والقافية كالشعر القبطي ، فإنه — على ما وصفه هرمن بونكر — يجري على غرار الشعر الفرعوني ،

---

(١) الشعر المعاصر . مصطفى السحرتي ١١٥ (٢) وفيات الأعيان ١/١٧٢

(٣) الرسائل ١/١٤٤ طبعة مصر (٤) العمدة ١/٧٧ (٥) الصناعتين ١٣١

فلا يراعى الوزن والقافية ، لأنه يستعيض عن هذا النقص بقيم موسيقية يراعيها فى كل بيت ، تكفل انسجام الكلمات وتوقيعها ، وذلك بالتوافق فى جرسها وتتابعها فى ترتيب يحدث نغمة موسيقية ، شأنه فى ذلك شأن الشعر فى اللغة المصرية القديمة(١)

ومع ذلك فإن خلو الشعر من الوزن يحرمه خاصية من خواص جماله وتأثيره .

وإذا كان الكاتب الأمريكى والت وتمان walt witman قد هجر الوزن فى معظم شعره واحتذاه كثير ممن جذبتهم الدعوة إلى التحرر من الأوزان ، وإذا كان أيضا لم يأبه القافية ، « فإنه قد اهتم بالإيقاع ، وقد بلغ شعره درجة إيقاعية عالية »(٢). فهو إذاً يريد أن يعوض ما عمد إلى حذفه ، يريد أن يضفى على شعره المجرد من الوزن والقافية جمالا أسلوبياً آخر ، ولكن هذه الدعوة لم تصادف قبولا .

وكيف تصادف قبولا والوزن من أهم الخصائص التى تميز الشعر من النثر ؟ ولذا قال لاسل إبركرومبى Lascelles Abercrombie فى كتابه (الشعر : موسيقاه ومعناه): « يلزم أن تصبغ الموسيقى كل القصيد فى الشعر الغنائى(٣) » .

* * *

بعد الطبعة الأولى عثرت على نص قديم يعزز ما ذهبت إليه من حيث الصلة الوثيقة بين الشعر والغناء .

روى أبو حيان التوحيدى عن مسكويه : « ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزانا لا تقبلها طباعنا ، ولا تحسن فى ذوقنا ، وهى عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش :

لابنة عجلان بالطَّف رسومْ لم يتعفَّين والعهد قديمْ

وكذلك قد يستعملون من الزحاف فى الأوزان التى تستطيبها ما يكون عند المطبوعين منا مكسوراً وهى صحيحة .

---

(١) مجلة الرسالة المجلد الأول ص ٧١٨ سنة ١٩٣٦ (٢) الشعر المعاصر ص ١١٨ السحرتى
(٣) Poetry, Its Music & Meaning عن الشعر المعاصر . السحرتى ١١٨

والسبب فى جميع ذلك أن القوم كانوا يجبرون بنغمات يستعملونها مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا نحن لا نعرف تلك النغمات إذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن فى طباعنا .

والدليل على ذلك أنا إذا عرفنا فى بعض الشعر تلك النغمة حسن عندنا وطاب فى ذوقنا كقول الشاعر :

إن بالشعب الذى دون سَلْع لقتيـــلا دمه ما يُطَلّ

فإن هذا الوزن إذا أنشد مفككَ الأجزاء بالنغمة التى تخصه طاب فى الذوق ، وإذا أنشد كما ينشد سائر الشعر لم يطب فى كل ذوق

وهذا سبيل الزحاف الذى يقع فى الشعر مما يطيب فى ذوق العرب وينكسر فى ذوقنا . ولولا أن الموسيقى مركوزة فى الطباع ، ووزن النغم ومقابلة بعضه بعضاً مجبولة عليه النفس لما تساعدت النفوس كلها على قبول حركات أخر بعينها . وتلك الحركات المقبولة هى النسب التى يطلبها الموسيقى ويبنى عليها رأيه »(١) .

إن الفزيولوجيا تقرر أن لغة الشعر الموزنة التى تعبر عن الانفعال راجعة إلى الانفعال . فمن المشاهد أن حركاتنا تتزن حين نعانى انفعالا قويا . فقانون (الانتشار العصبى) يجعل التنبه أو التأثر الذى ينشأ فى الدماغ ينتقل قليلا أو كثيراً إلى الأعضاء كما ينتقل الاضطراب على صفحة الماء الذى كان ساكنا .

وقانون (الوزن والإيقاع) الذى يرى تندال وسبنسر أنه يسيطر على جميع الحركات يقلب هذا الاضطراب إلى تموج منتظم .

فإذا كنت فى حالة قلق صغير رأيت ساقك تتحرك وتهتز ، وإذا كنت تعانى ألماً مادياً أو نفسياً رأيت الجسم كله يضطرب ، فاذا لم يكن هذا الألم شديداً جداً رأيت الجسم يهتز إلى الأمام وإلى الوراء ، ورأيت اضطرابه يصير منتظماً . وإذا كنت فى فرح عظيم رأيتك تقفز وترقص

---

(١) الهوامل والشوامل ص ٢٨٢ . لأبى حيان التوحيدى ومسكويه .

وهذه القوانين والظواهر تلاحظ كذلك في أعضاء الصوت ، وها نحن أولاء نصل إلى الحادثة الأساسية ، إن الكلام يكتسب بتأثير التنبه العصبي قوة وإيقاعاً واضحين ، فالخطيب إذا تحمس أدخل في كلامه من الوزن والإيقاع ما لم يكن من قبل ، وكلما ازداد فكره قوة وغنى ازداد كلامه وقعاً وموسيقى .

وما فن الشعر القديم والمعاصر إلا تثبيت موسيقى الانفعال هذه وتحسينها ، فإذا البيت الشعرى يصعد بنا ثانية إلى إيقاع الانفعال ، ولعلنا نصيب فى تعريفنا الشعر بأنه هو الصورة التى تميل إلى اتخاذها كل فكرة تمور بالانفعال .

فليس الشعر إذاً (فى مبدئه الأول على الأقل ، أعنى الوزن والإيقاع) شيئاً مصطنعاً ، فالإنسان لم يصبح شاعراً ، ولا ناظماً بدافع نزوة فكرية عابرة ، بل بحكم طبيعته ووفقاً لقانون علمى .

وإذا كان الإيقاع إشارة طبيعية إلى عمق الانفعال فإن هذا الإيقاع يميل وفقاً لقانون علمى آخر هو قانون العدوى العاطفية — إلى أن ينقل الانفعال إلى قلب السامع ، وهكذا متى تكلم المرء شعراً فكأنه بذلك يقول : إن ألمى أو فرحى من القوة بحيث لا يمكن أن أعبر عنه باللغة العادية . وكأنى بإيقاع الشعر ضربات القلب تسمعها الأذن وتنظم الصوت ، فإذا سمعها الآخرون أخذت قلوبهم تخفق على هذا الإيقاع نفسه .(١)

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ١٣٨ جـ . م . جويو ترجمة سامى الدروبى

المعلقات

ما هي ؟ السبب في تسميتها . مناقشة القائلين بتعليقها على الكعبة . الرأي الذي نرتضيه

ما هي ؟

يكاد رواة الشعر يطبقون على أن المعلقات سبع ، وهي قصائد طوال جياد تتميز بتنوع فنونها ، وجزالة أسلوبها ، وابتكار كثير من معانيها ، وتصويرها شخصية قائليها ، وأصحاب المعلقات هم :

امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد ، والحارث ابن حلزة وروى أبو زيد القرشي عن المفضل الضبي أنه لم يعد عنترة والحارث من أصحاب المعلقات ووضع في مكانهما النابغة والأعشى : « والقول عندنا ما قال أبو عبيدة امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والأعشى ولبيد وطرفة وعمرو ، وقال المفضل هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السّموط فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة[1] » وقصيدة النابغة مطلعها : « يا دارمية بالعلياء فالسند » وقصيدة الأعشى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مطلعها : « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا » وبعضهم يعد هذه التسع ويزيد عليها بائية عبيد بن الأبرص « أقفر من أهله ملحوب » فتصير المعلقات عشراً .

لم سميت بذلك ؟

١ — ذهب أكثر العلماء إلى أنها استمدت تسميتها من تعليقها على الكعبة وأقدم من روى عنه ذلك ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو سنة ٢٠٦ هـ فقد روى عنه :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٤٥

« إن أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس ، فقد علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ثم أحدر ، فعلقت الشعراء كذلك بعده . وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية وعدوا من علق شعره سبعة نفر[١] » .

ومن مشايعي هذا الرأي ومشيعيه ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٧ هـ مؤلف العقد الفريد يقول : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة . فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع يقال لها المعلقات[٢] » .

وهو في رأيه هذا يزيد على رأي ابن الكلبي أنها كتبت بماء الذهب ، وكتبت في القباطي ، وكتبت جملة وعلقت جملة . وتبعه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مؤلف العمدة : يقول : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره[٣] » .

ثم جاء ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وكان معجبا بكتاب ابن رشيق وقد أثنى عليه مرتين في الفصل السابع والأربعين من المقدمة ، فدان برأيه وقال : « إن العرب انتهوا إلى المباهاة بتعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات[٤] » ، وهو يزيد هنا على سابقيه أن

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١٨٧/٣ (٢) العقد الفريد ١١٦/٣ القاهرة
(٣) العمدة ١٦١/١ (٤) المقدمة ص ٥١١

التعليق كان عن قدرة بالعصبية والمكانة . فكأنه لم يكن عن ابتداع وجدارة ، وذكر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ أن العرب كانوا فى الجاهلية « يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده احد حتى يأتى مكة فى موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به » . وأول من علق شعره فى الكعبة امرؤ القيس[١] .

والمؤرخ الفرنسى سيديو يوافق هؤلاء فيما ذهبوا إليه ، ويقول : « وأنشئوا فى عكاظ وذى المجاز ومجنة المفاخرة بالشعر مجالس حافلة خالية من التحكم على النفوس ، يقوم أمامها شجاع يمشى مشية المتكبر والأبصار شاخصة إليه حتى يقف على مرتفع من الأرض فينشد مع إنصاتهم قصيدة بصوت رنان يستعين فيها بحافظته .... وكان المقبول من قصائدهم يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على الكعبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية . فوصلت إلينا المعلقات السبع لامرىء القيس (٥٤٠م) والحارث ابن حلزة (٥٤٠ م) وطرفة (٥٦٤ م) وعنترة (٦٢٢) وزهير (٦٢٧) ولبيد (٦٦٢)[٢]

وهو هنا يزيد أن التعليق كان لحفظ القصائد حتى يطلع الأبناء عليها ولم يكن لتشريفها .

٢ — وقد جال المستشرقون فى تعليل هذا الاسم جولات ، فمثلا قال نيكلسون : « وكلمة المعلقة مشتقة فى الغالب من كلمة علِق أى الثمين النفيس ، وقد يكون المقصود أن الإنسان يَعْلق بها ، أو أنها تعلق فى مكان الشرف أو فى مكان أمين ، وقد وردت تفسيرات أخرى عدة منها أنها الأشعار التى دونت (فون كرامر) ومنها أنها القصائد الجواهر أو السموط (مولر) » .

---

(٢) خزانة الأدب ١/ ٨٧ دار العصور
(٣) خلاصة تاريخ العرب لسيديو

« وبمرور الزمن نسى الناس المعنى الحقيقى للمعلقات وأصبح من الضرورى إيجاد تفسير معقول للكلمة ، ومن هنا نشأت الرواية التى كررت حتى ألفت وهى أن المعلقات استمدت تسميتها من تعليقها على الكعبة لأنها ممتازة . . . ولو كان هذا صحيحا لوجدنا فى النصوص القديمة ما يؤيده ، ولكننا لم نجد شيئا يؤيده فى القرآن (الكريم) أو الحديث (الشريف) أو فى تاريخ مكة القديم أو فى المؤلفات مثل كتاب الأغانى وهى المؤلفات التى تستمد أخبارها من مصادر قديمة موثوق بها .

« وعلى الرغم من أن بعض العلماء أمثال رايشلك وسيديو ، ودى ساسى ... قد قبلوا هذا التفسير فإنه تفسير غير مقبول[١] » .

٣ — ونحن نرفض رأى القائلين بتعليقها على الكعبة جملة وتفصيلا .

(ا) فلو أن التعليق حدث لكان أحق من يقول به ويذيعه حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ فهو الذى جمع هذه القصائد كما ذكر ابن خلكان فى الترجمة له[٢] وكما قال ابن سلام : كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية[٣] ، وقد سماها حماد المشهورات لا المعلقات .

(ب) لم يسم أحد من الثقاة القدماء هذه القصائد بالمعلقات ، ولم يشر أحد إلى هذا التعليق ، كأبى زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب المتوفى ١٧٠ هـ وابن سلام صاحب طبقات الشعراء المتوفى سنة ٢٣٢ هـ والجاحظ صاحب البيان والتبيين المتوفى ٢٥٥ هـ والزوزنى شارح القصائد السبع المتوفى ٢٧٥ هـ وابن قتيبة مؤلف الشعر والشعراء المتوفى ٢٧٦ هـ والمبرد مؤلف الكامل المتوفى ٢٨٥ هـ وابن الأنبارى ٣٠٥ هـ وأبو جعفر النحاس ٣٣٧ أو ٣٣٨ هـ والأصفهانى المتوفى ٣٥٦ هـ والباقلانى مؤلف إعجاز القرآن المتوفى ٤٠٣ هـ .

---

(١) Nicholson. P. 101—102

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٦٤

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٤

وهؤلاء جميعاً قد استشهدوا بأبيات من المعلقات، وذكروا أصحابها، فمثلا ذكر ابن سلام امرأ القيس والنابغة وزهيراً والأعشى ولبيدا وطرفة وعمرا والحارث وعنترة ولم يذكر كلمة معلقة بل ذكر كلمة قصيدة أو واحدة، فمثلا قال: إن الطبقة السادسة أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة، أولهم عمرو بن كلثوم، وله قصيدته التي أولها، ألا هبي بصحنك فاصبحينا »(١) وقال في طرفة: فأما طرفة فأشعر الناس واحدة وهي:

لخـــولة أطلال ببرقة ثهمد وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغد(٢)

وذكر قصيدة عنترة التي يقول فيها: « يا دار عبلة بالجواء تكلمي » وقال. وله شعر كثير إلا أن هذه نادرة فألحقوها مع أصحاب الواحدة(٣)

وذكر الأصفهاني أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيبا في سوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة، فلو كان خبر التعليق صحيحا لذكر أن العرب كتبتها، وعلقتها على الكعبة.

وذكر الجاحظ أن الشعراء كانوا مولعين بتنقيح شعرهم، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلّدات والمنقّحات والمحكّات ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا(٤)، ولم يذكر في أسماء القصائد المعلقات.

وقال ابن قتيبة في ترجمة طرفة إنه أجودهم طويلة، وفي ترجمة عنترة إن العرب كانت تسمى قصيدته الذهبية، ولم ترد كلمة معلقات في كتابه إلا مرة واحدة في ترجمة للحارث بن حلزة، ولكن البغدادي نقل في الخزانة كلمة ابن قتيبة وأسقط منها لفظ المعلقات، فهي إذن من زيادة النساخ في هذا الموضع الوحيد من الشعر والشعراء لابن قتيبة.

وقال القرشي صاحب الجمهرة رواية عن المفضل: « هـــؤلاء هم أصحاب السبع

---

(١) الطبقات ٥٦
(٢) الطبقات ٥٠
(٣) الطبقات ٥٧
(٤) البيان والتبيين ٢/٧

الطوال التى تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة[١]، وقال : « إن النابغة أجودهم واحدة وروى عن عيسى بن عمر أن عمرو بن كلثوم واحدته أجود سبعهم ، وروى عن عمرو بن العلاء أن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدته ولولا أنه افتخر فى واحدته وذكر مآثر قومه ما قالها[٢] » .

وقال الباقلانى فى حديثه عن امرىء القيس إنه لولا جودة شعره ما اختار الأدباء قصيدته فى السبعيات .

وابن الأنبارى يسميها السبع الجاهليات ،[٣] فى شرحه لها ، ويذكر فى نهاية كتابه « تمت قصيدة لبيد ، وتم بتمامها السبع الجاهليات »[٤]، ويقول : تمت قصيدة امرىء القيس[٥] و (تمت قصيدة طرفة)[٦] وهكذا فى كل واحدة .

وأبو جعفر النحاس سماها السبع الطوال وأنكر تعليقها على الكعبة ، وقال فى شرحه لهذه القصائد — وهو مخطوط بدار الكتب — واختلفوا فى جمع القصائد السبع . وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فاذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى . وأما قول من قال أنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة . ويقول إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه القصائد وسماها المشهورات .

والزوزنى ذكر فى مقدمة شرحه أن هذا شرح القصائد السبع

وإذا كان الغلاف مكتوبا عليه المعلقات فإنه من عمل النساخ .

(ح) على أن المذهبات التى يطلقونها على المعلقات بدعوى أنها كتبت بماء الذهب فى القباطى وعلقت على أستار الكعبة قد أطلقها أبو زيد القرشى على قصائد الأوس والخزرج خاصة وهن لحسان وعبد الله بن رواحة وغيرهما[٧] .

---

(١) الجمهرة ٤٥ (٢) الجمهرة ص ٤٠
(٣) ص ٢ مخطوط بدار الكتب ز ١٩٩٠٧
(٤) ص ١١٩ (٥) ص ١٨ (٦) ص ٣٩
(٧) الجمهرة ص ٤٥

(ى) ثم بعد هذا نتساءل : كيف نصدق أن العرب كتبوا هذه القصائد بماء الذهب على القباطي وهم كانوا أمة أمية لم يكثر فيها من يقرأ ويكتب ؟ وهل من المعقول أن ينبغ فيهم من يجيد الكتابة حتى يكتب بماء الذهب على القباطي؟ وماذا يدعوهم لكتابة هذه القصائد وتعليقها على الكعبة ما دامت الأمية فاشية فيهم ؟ وقد هدمت الكعبة وجدد بناؤها واشترك النبي صلى الله عليه وسلم في وضع الحجر الأسود في مكانه ، ثم جاء الإسلام وفتح النبي مكة ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام ، ولم يرد للمعلقات ذكر في هذه المرة أو تلك .

وقد ذُكرت أنواع كسوة البيت الحرام في الجاهلية وهي الأنطاع وحبرات اليمن والبرود وغيرها[١] ، ولم تذكر القباطي إلا في كسوة البيت في صدر الإسلام في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما[٢] .

ثم مَن هؤلاء الذين كانوا يقضون بأن القصيدة جديرة بأن تُعَلَّق ؟ وهل أقفر الشعر القديم كله فلم تكن فيه قصائد جياد تستحق التعليق غير هذه السبع ؟

وقد تساءل نيكلسون هذا التساؤل : « هل من المعقول أن يقبل أبناء الصحراء الأبيون أن يقدموا ثمرات قرائحهم التي تشيد بشرف قبائلهم — وهم جد حريصين عليه — ليحكم فيها محكمون من قبائل أخرى ؟ أو يقبلوا عن طيب خاطر حكم طائفة من الرجال من القبائل المجاورة لمكة من الصعب أن يحكموا حكما عادلا في مصاحة منافسيهم من قبائل أخرى »[٣] .

٤ — ورأينا الذي نطمئن إليه بعد هذا أن التعليق على الكعبة لم يحدث ، وإنما هو رأيٌ عن ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦هـ وقد صنعه ليحبب الشعر الجاهلي إلى الناس حين انصرفوا عنه إلى الشعر الإسلامي ، وقد أخذ هذا من تعليق قريش للصحيفة

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ /١٦٥ — ١٦٧ وصبح الأعشى ٤/٢٧٨ وسيرة ابن هشام ١/٢٠
(٢) صبح الأعشى ٤/٢٧٨ وأخبار مكة للأزرقي ١/١٦٨ والقرى لقاصد أم القرى ٤٧٣ — ٤٧٤ لمحب الدين الطبري
(٣) Nicholson, P. 102

لما اعتز الإسلام بحمزة وعمر ، وتعاهدت قريش على أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم فكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً وتوثيقا من أنفسهم .

وحتى على فرض أن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها علقت فإنها لم تعلق على الكعبة ، فيصح أنها علقت في سقف أو على جدار مطوية على عود أو ما يشبهه ؛ لأن العرب لم يكتبوا قبل القرآن كتابا مدفعا ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة أو سقف الدار حرصاً عليها من الأرضة أو الفأرة كما يفعل سكان الريف الآن في صيانة ما يهتمون به من الأوراق .

ويصح أن التسميه نشأت من تسمية العرب للقصيدة الجيدة سمطا — كما سمت قريش قصائد علقمة — والسمط العقد النفيس الذي يحلى به الجيد وقد سبق قول المفضل الضبي : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط .»[١] ثم أطلقوا على هذه القصائد المعلقات السبع بدل السموط لأن السمط يعلق ، وكانت خفة هذا اللفظ سببا في شيوعه وغلبته للفظ السموط .

وأرجح أنها نشأت من أن الملك أمر بتدوين هذه القصائد وغيرها فأخذت تسميتها من هذا ؛ لأن تدوينها تسجيل لها وتعليق بالورق وبالقلوب . وقد أسلفتُ في كلمة أبي جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي . وابن رشيق يكرر هذا الرأي : (وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزائنه[٢]) ولكنهما لم يذكرا هذا الملك الكلف بالشعر فهل نستطيع أن نقف على اسمه ؟ نرجح أنه النعمان بن المنذر لأن ابن سلام يقول : (وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٤٥ (٢) العمدة ١/٦١

فيه هو وأهل بيته . فصار ذلك إلى بنى مروان . أو ما صار منه)[١] وابن جنى يقول « أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج — وهى الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عبيد قيل له إن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار »[٢]

ويخطىء من يظن أن الشعر لم يدون إلا فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، فقد دُون بعضه فى العصر الجاهلى كما رأينا ، ودون بعضه فى عصر عمر ابن الخطاب نفسه ، ذلك أن عبد الله بن الزِّبَعرى السَّهمى وضِرار بن الخطاب الفهرى أنشدا حسان بن ثابت شعرا حتى فار وصار كالمرجل غضبا ، فشكاهما حسان إلى عمر وقال عمر لمن حضره : إنى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم . فأما إذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به » فدونوا ذلك عندهم ، قال خَلَّاد بن محمد : فأدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بِلاه[٣]

(١) طبقات الشعراء ١٧ (٢) الخصائص ٣٩٣ (٣) الأغانى ٤/١٤١

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية من الشعر

(أولا) الصلات الأسرية

المرأة ومكانتها فى الأسرة والمجتمع . الزواج . الطلاق . تعدد الزوجات . الأولاد

مكانة المرأة فى الأسرة والمجتمع*

إعزاز الرجل لها . إشهادها على مفاخره . الانتساب إليها . مشاركتها فى الحرب وفى السلم . استشارتها فى الزواج

أعز الرجل العربى المرأة ، وأحبها وقدم القصيد بذكرها ، وجزع على هجرها أو ظعنها ، ووقف على أطلالها يندب شجوه ويبكى حظه ويتذكر ماضيه السعيد ، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد على ذلك فهو من الشيوع بحيث لا يفتقر إلى استشهاد .

وخاطب الرجل العربى المرأة فخوراً بشجاعته وكرمه وعالى مقامه ، وأشهدها على حسن بلائه ومحامده .

قال عبد يغوث :

وقد علمت عِرسى مُلَيْكَةُ أننى ... أنا الليث مَعْدُوًّا عَلَىَّ وعاديا
وقد كنت نحار الجزور ومُعْمِلَ الـ ... ـمطىِّ وأمضى حيث لا حىَّ ماضيا
وأنحر للشَّرب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمَّصها القَنا ... لبيقاً بتصريف القناة بنانيا(١)

فأشهد زوجه على شجاعته مُهاجِمًا ومُهاجَمًا ، وعلى كرمه ، وعلى جده فى الرحلة والغارة وقطع القفار التى لم تطأها قدم ، وعلى أنه ينادم الكرام على الشراب وينحر

---

(١) المفضليات . السندوبى ٦٨ عرسى : زوجى . معمل المطى : أجهد الركائب فى السفر والرحلة . أصدع . أشق . شمصها : نفرها وأفزعها

* سنعرض عرضا سريعاً موجزا ما يتصل بالمرأة مرجئين التفصيل إلى بحث آخر نرجو أن يعين الله على انجازه .

لهم مطيته إذا لم يجد غيرها ، وعلى أنه يتخذ مجلسه بين المغنيتين فإذا تملكه الطرب شق رداءه ، أو هو يشقه لتأكيد الحب كما سنعرف فى عاداتهم ، وعلى أنه حاذق بفن الحرب والطعان حتى فى وقت الحرج والضيق وفرار الخيل من رماح الأعداء .

ولقد يشركها معه فى كرمه ، كما قال حاتم لزوجه :

اذا ما صنعْتِ الزاد فالتمسي له أكيلا فإنى لست آكله وحدى
أخا طارقا ، أو جار بيت ، فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا وما فىّ إلا تلك من شيمة العبد[1]

وإذا ما لامته على كرمه أو سَرَفه رد عليها فى غير تحقير أو تجريح ، قال حاتم :

وقائلة أهلكت بالجود مالنا ونفْسَك حتى ضر نفسَك جودها
فقلت : دعينى إنما تلك عادتى لكل كريم عادة يستعيدها[2]

والرجال يستبسلون فى القتال حتى لا ينكسروا فتسبي نساؤهم ، قال عمرو بن كلثوم فى معلقته : إنهم يستبسلون مخافة أن تسبي نساؤهم الحسان ، وإن النساء أنفسهن يحرضن الرجال على الاستبسال ، وأى تحريض أعمق فى نفس الرجل أثراً وأبعد مدى من أن تقول زوجه له : لست زوجى إن لم تحمنى !

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تُقَسَّم أو تهونا
يقُتْنَ جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

وقال الحصين بن الحُمام المُرِّى يفخر بانتصاره فى الحرب ، ويهزأ ببنى محارب الذين أرادوا أن ينتصروا عليهم ليسبوا نساءهم :

ولا غَرْوَ إلا حين جاءت محارب إلينا بألف حاردٍ قد تَكَتَّبَا
موالى موالينا ليسبوا نساءنا أثعلبَ قد جئتم بنكراء ثعلبا[3]

---

(١) الديوان ٩ وشعراء النصرانية ١٣٣/١ والحماسة ٢٩٢/٢ وفى الأغانى ١٤٤/١٢ أنها لقيس ابن عاصم وفى تهذيب الكامل ١٠٢/٢ أنها لقيس بن عاصم

(٢) شعراء النصرانية ١٢٦/١

(٣) المفضليات ١١٧/٢ حارد : غاضب . تكتب : تجمع . نكراء : فعلة شنيعة

وإذا ما عاد الفارس من الحرب تشوّف إلى إعجاب النساء به ، وسؤالهن الصناديد عن إقدامه ، قال عامر بن الطفيل فى يوم فَيْف الريح يخاطب زوجته :

طُلِّقتِ إن لم تسألى : أىُّ فارس ... حليلُك إذ لاقَى صُداءَ وخَثْعَما
أكُرُّ عليهم دَعْلجًا ولَبَانُهُ ... إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما(١)

وهم يخاطبون الزوجة بخير الألقاب وكُنَى التعظيم ، قال حاتم لزوجته معددا حسبها :

أيا بنة عبد الله وابنة مالك ... ويابنة ذى البُرْدين والفرس الوَرْدِ
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلا فإنى لست آكله وحدى (٢)

فذكرها بجدها عامر بن أحيمر الذى أعطاه المنذر بن ماء السماء بُرْدين إعجابا بشرفه وشجاعته .

وكنى عروة بن الورد عن زوجته بأنها أم حسان فى سياق رده على لومها له ومخالفتها إياه ، وهو مقام قد يثير الغضب ، ولكنه فى هذا المقام نفسه كرّم زوجته :

أرى أم حسان الغداةَ تلومنى ... تُخوِّفنى الأعداءَ والنفسُ أخوف (٣)

وكنى عنها فى موضع آخر بأبيها وابنها ، وهو يرد عليها فى لومها أيضا قال :

أقلى على اللوم يابنة منذر ... ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى ... بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبقى والفتى غير خالد ... إذا هو أمسى هامةً فوق صَيِّرِ(٤)

* * *

وقد انتسب بعض الشعراء إلى أمهاتهم مثل شبيب بن البرصاء ، وابن ميادة ومنظور بن حبّة ، وابن زيّابة التيمى ، والسُّليك بن السلكة ، وغيرهم كثير .

---

(٢) ديوان عامر Lyall
(٣) شعراء النصرانية ١٣٣ والحماسة ٢/٢٩٢ وفى الأغانى ١٢/١٤٤ أنها لقيس بن عاصم
(٤) شعراء النصرانية ٨٩٧ صير : قبر
(١) الديوان ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ وشعراء النصرانية ٩١١

بل انتسبت بعض القبائل إلى الأم مثل بجيلة وخندف وطُهيَّة (نسبة إلى طُهيّة بنت عبد شمس ، ومنها أبو الغول الطهوى من شعراء الحماسة)

* * *

ومما يؤكد أن المرأة كانت ذات خطر فى الجاهلية أن التاريخ يحدثنا بنساء اشتهرن بالشجاعة حتى كن يشاركن فى الحرب مشاركة فعلية ، فرقاش قادت قبيلة طيء فى غزواتها [١] ، وفى معركة أحد سقط لواء قريش فى ساحة القتال ولم يزل صريعا حتى رفعته عَمْرة بنت علقمة الحارثية فلاذوا بها وقاتلوا ، وفيها يقول حسان بن ثابت :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون فى الأسواق بيع الجلائب [٢]

وقاتلت أم عمارة — نسيبة بنت كعب المازنية — قتالا شديداً ، وضربت عمرو ابن قمئة بالسيف ضربات ، فوقته درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحا شديدا على عاتقها [٣] ، وقصة هند بنت عتبة وتحميسها الرجال يوم أحد بالغناء والضرب على الدفوف ، ومضغها كبد حمزة مشهورة [٤] —

وكانت لهن مشاركة فى الحرب أخف من هذه ، إذ كن يصحبن الرجال إلى ميادين القتال فيداوين الجرحى ، ويحملن قرب الماء ، ويحمسن المقاتلين ، ومن هؤلاء أم عمارة بنت كعب الأنصارية وأم حكيم بنت الحارث والخنساء [٥]

وقد كانت هند بنت عتبة تحرض مشركى قريش يوم أحد بقولها :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
الدر فى المخانق والمسك فى المفارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق [٦]

---

(١) جمهرة الأمثال لأبى هلال (٢) سيرة ابن هشام ٣/٢٥ — ٢٦
(٣) زاد المعاد ٢/١٣١ (٤) الأغانى ١٤/٢٠ ساسى وسيرة ابن هشام ٣/١٢، ٤١
(٥) ألف باء ٢/٢١٠ (٦) الأغاني ١١/١٢١ ساسى وليس الشعر لها وإنما هى تتمثل به فقد قيل يوم ذى قار وطارق اسم رجل من بنى مالك بن كنانة أو اسم للنجم الأغانى ١١/١٢٠ — ١٢١

وهذه المرأة التي كانت لا تفتأ تحرض على الاستبسال ، وعلى الأخذ بالثأر كما سيجيء ، قد أسهمت أيضا في نشر لواء السلام . من ذلك أن بهيسة بنت أوس الطائي رفضت أن يدخل بها زوجها الحارث بن عوف قبل أن يصلح بين عبس وذبيان ، فتحمل هو وهرم بن سنان من ديات القتلى ما يزيد على ثلاثة آلاف بعير[١]

ولقد يكون في القصة مبالغة وتزيد ، ولكنها على أي حال تشير إلى مكانة عالية للزوجة .

ويروون حكايات كثيرة عن مقدرة المرأة على إشعال الحرب ، وعن استشارتها قبل أن يقضي أبوها في زواجها ، فقد استشيرت الخنساء في الزواج من أمية بن أبي الصلت فرفضت[٢] ، وقد استشيرت بُهيسة بنت أوس الطائي في الزواج من الحارث ابن عوف ، وكانت أمها هي التي زينت لأبيها الرضا بهذا الزوج[٣] .

ولسنا نزعم أن هذا كان عرفا عاما يلتزمه سائر العرب ، فإننا نعلم أن الناس طبقات وذوو منازع شتى ، ولكننا نرجح أن إشادة الشعراء بالمرأة — وهم لسن الأمة — برهان على أن جمهرة الأمة لا تنكر عليهم ذلك ، ولا تخالفهم فيه . وما من شك في أن بعض العرب كان يمتهن المرأة ويراها من سقط المتاع ، وهذا حال بعض الناس في عصرنا ، فبينا نرى المرأة رفيعة المكانة في بعض الطبقات ، إذا بها في درك مُخْزٍ في طبقات أخر .

---

(١) الأغاني ١٤٣/٩

(٢) مقدمة ديوان الخنساء للأب لويس شيخو والأمالي ١٦١/٢

(٣) الأغاني ١٤٢/٩

الزواج

وكان الرجل يتزوج المرأة برضا آلها ، ولم يكن لها أن تنفرد بالأمر دونهم ، وهذا هو النظام الذى شاع عندهم ، وكانت الفتيات يستشرن كما مر .

أما اتصال الرجل بالمرأة بطرق أخرى كالدعارة فقد كان مقصوراً على الساقطات وذوى المجانة من الشبان ، وقد سموهن أصحاب الرايات ، لأنهن كن ينصبن على أبوابهن رايات لتدل عليهن ، وسموهن أيضاً المظلمات ، لأن الفتيان كانوا يتسللون إليهن فى جنح الظلام .

وكانوا يستولدون السبايا ، ولكن لا يلحق نسب الولد بأبيه إلا إذا ادعاه ، ولذا كان من مفاخر الرجل أن أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة . فاذا كانت أمه أَمَةً افتخر بما يعوض نقصه ، فمثلا كانت أم عنترة حبشية سوداء فأكثر من الفخار بشجاعته بدلا من فخاره بأمه وأخواله فى مجال الفخر بأبيه :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا　　　شطرى ، وأحمى سائرى بالمُنْصُل[1]

وقال :

إن كنتُ فى عدد العبيد فهمتى　　　فوق الثريا والسِّماك الأعزل
أو أنكرتْ فرسان عبس نسبْتى　　　فسنان رمحى والحسام يُقرُّ لى
وبذابلى ومهندى نلت العــلا　　　لا بالقرابة والعديد الأجزل[2]

وقد أكثر الشعراء السود من الدفاع عن سواد لونهم ، ولكن لم يجرؤ أحدهم على أن يفضل نفسه على العرب ، قال عنترة :

لله درُّ بنى عبس لقد نســلوا　　　من الأكارم ما قد تنسل العرب
لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب　　　يوم النزال إذا ما فاتنى النسب[3]

(١) ديوان عنترة ١١٩ . المنصب : الأصل . المنصل : السيف
(٢) الديوان ١٢٤ . السماك الأعزل : نجم نير　　　(٣) ديوان عنتره ١٠

وقال :

وإن يعيبوا سواداً قد كُسيت به فالدر يستره ثوب من الصدف(١)

وقال :

سوادى بياض حين تبدو شمائلى وفعلى على الأنساب يزهو ويفخر (٢)

وما زالوا بحاجة إلى دفاعهم عن سواد لونهم إلى ما بعد العصر الجاهلى ، ومن طريف ذلك أن نُصَيْبا خطب جارية حمراء فرفضته قائلة : إليك عنى فوالله لكأنك من طوارق الليل . فقال لها : فأنت والله لكأنك من طوارق النهار . فقالت : ما أظرفك يا أسود ! فغاظه قولها ، فقال لها : هل تدرين ما الظرف ؟ إنما الظرف العقل ! فقالت له : انصرف حتى أنظر فى أمرك . فأرسل إليها هذه الأبيات :

فإن أك حالكا فالمسك أحوى وما لسواد جلدى من دواء

ولى كرم عن الفحشاء ناءٍ كبعد الأرض من جو السماء

ومثلى فى رجالكم قليل ومثلك ليس يُعدم فى النساء

فإن ترضىْ فردى قول راض وإن تأبىْ فنحن على السواء(٣)

فلما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتيان على غيرهما فتزوجته .

* * *

وعرفوا بتجاربهم أن زواج الأقارب يضعف النسل وهذا ما قرره العلم الحديث إذا كان فى الأسرة مرض وراثى . قال الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يَضْوَى علىَّ سليلى

وقال آخر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيَضْوَى وقد يضوى رديد القرائب(٤)

وافتخر الكنانى بابنه لأنه كريم مُسَوَّد ، أمه غريبة ، فلا محابة فيه :

(١) الديوان ١٠٨ (٢) الديوان ٨٢

(٣) الأغانى ١/٣٥٣ الدار (٤) الميدانى ٢/٧٠

تنخبتها للنسل وهى غريبة ... فجاءت به كالبدر خرقا معمما
فلو شاتم الفتيان فى الحى ظالما ... لما وجدوا غير التكذب مشتما[١]

ثم جاء الحديث الشريف مؤيداً لهذه العقيدة : « اغتربوا لا تضووا[٢] » .

الطلاق

وكانوا يطلقون ، يطلق الرجال النساء ، فقد طلق الأعشى زوجه إما لأنها لم تعجبه وإما لأن قومها هددوه بالضرب إن لم يطلقها ، وقال .

فبينى حصان الفرج غير ذميمة ... وموموقة فينا كذاك ووامقة
وذوقى فتى قوم فإنى ذائق ... فتاة أناس مثل ما أنت ذائقة
لقد كان فى فتيان قومك منكح ... وشبان هزان الطوال الغرانقة
فبينى فإن البين خير من العصا ... وألا ترى لى فوق رأسك بارقة
وما ذاك عندى أن تكونى دنيئة ... ولا أن تكونى جئت عندى ببائقة
ويا جارتا بينى فإنك طالقة ... كذاك أمور الناس غاد وطارقة[٣]

وكان الطلاق نظاما عامًّا عند العرب، واليهود ، واليونان ، والرومان ، وقدأباحه الإسلام وإن ضيّق من دائرته ، وبرره ملتن الشاعر الإنجليزى[٤] .

وارتقت مكانة بعض النساء فى الجاهلية إلى أن بعضهن كن يطلقن أزواجهن ، « وكان طلاقهن أنهن إن كن فى بيت من شعر حولن الخباء : إن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن حولنه قبل الشام ، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته فلم يأتها »[٥]

(١) البيان والتبيين ٣/٦٨ . خرق : كريم حسن الخليقة . معمم : مسود
(٢) البيان والتبيين ١/١٦٢
(٣) الأغانى ٨/٨٠ ساسى هزان : قبيلة الزوجة
(٤) المرأة فى مختلف العصور . أحمد خاكى ٨٥ — ٨٦
(٥) الأغانى ١٦/١٠٢ ساسى

ويرى المرحوم الأستاذ محمود جمعة أن مرجع ذلك إلى أن الخباء عند الساميين كان ملكا للمرأة ، والخباء عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر ، ومعنى ذلك أن ملكيته مقصورة عليها ، وأن الرجل هو الذى يدخل عليها ، فإذا دخل ووجدها قد حولت باب الخباء عرف أنها قد أعرضت عنه وطلقته[١] .

ورووا أن ماوية بنت عفزر طلقت زوجها حاتما حين تخرق فى كرمه[٢] . أما المرأة الحضرية فكانت أحيانا تتزوج وتشترط أن يكون الأمر بيدها ، وتكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاما إذا أصبح ، ومن هؤلاء عمرة بنت سعد وعاتكة بنت مرة السُّلَمِيَّة وفاطمة بنت الخُرْشُب وسلمى أم عبد المطلب بن هاشم[٣]

تعدد الزوجات

أما تعدد الزوجات فقد كان شائعا ، ولم يكن لهم عدد ينتهون إليه ، فقد ورد فى الصحيح أن غيلان الثقفى أسلم وتحته عشر نساء .

وقد غاظ جندة الطهوى زوجه بأنه يخشى أن يموت ولم يوجعها بضرة ذات شراسة وخصومة وصخب تباكرها بالسباب إذا سرحت الطير تبتغى طعامها ، وتسمعها الفاحش من القول ليسمع الحى كله :

لقد خشيت أن يقوم قابرى ولم تمارسكِ من الضرائر
ذاتُ شَذاةٍ جمةُ الصراصر حتى إذا جرَّسَ كل طائر
قامت تُعَنْظِى بك سَمْعَ الحاضر تَصِرُّ إصرار الْعُقاب الكاسر[٤]

والتعدد نظام شاع عند العرب والرومان حتى عصر جستنيان ، وعجز عن محوه

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٨٧
(٢) الأغانى ١٦/١٠٢ ساسى (٣) ذيل الأمالى ١٥٣ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٣١٨
(٤) طهارة العرب ، الشنقيطى ٣٢

بالقوانين الصارمة التي سنها ، وكان نظاما اجتماعياً فى القبائل الجرمانية ، وبعض أباطرتهم تزوجوا غير واحدة وأقرتهم الكنيسة[١] ، وكان مباحا الى حد ما عند المصريين كما يحدثنا ديودورس[٢] ، وكان نبلاؤهم يمارسونه فى نظام الإماء وما ملكت اليمين[٣] ، ويظن رولنسن أنه كان مباحا عند الأشوريين ، وقد مارسه الإغريق والرومان والتيوتون الغربيون وخاصة فى الشمال . وقد نصت عليه شريعة مانو ولم تقيده ، وأباحته التوراة ، وكان اليهود يمارسونه فى أوربا فى القرون الوسطى ، وما زالوا يمارسونه فى البلاد الإسلامية[٤] .

الأولاد

تربيتهم . تسميتهم . الوأد وبواعثه . حب بعضهم للبنات . احياء الموءودات .

وكانوا يربون أبناءهم على البطولة والمحامد ، وأرادوا أن يوحوا إليهم بالقوة والشدة ، أو هم تفاءلوا أن يكون بنوهم أقوياء أشدة ، فتخيروا لهم أسماء فيها قوة ورهبة مثل أسد وثور وفهد وصخر .

ولقد يكون الغرض من الأسماء القوية المرعبة أن يخيفوا بها أعداءهم ، فقد سئل أبو العرفيش الأعرابى : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إننا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا[٥] ويرى الجاحظ أنهم كانوا يتفاءلون بأسماء كلب وحجر وحنظلة الخ[٦]

وكانوا يعزون الذكور أكثر من الإناث ، وهذا طبيعى فى بيئة قائمة على الصيد والغزو والحروب ، لأن الذكر يغنى حيث لا تغنى الأنثى .

---

(١) المرأة في مختلف العصور . أحمد خاكى ٨٢ — ٨٥

(٢) Diodorus, Bk,Ich,80

(٣) Wilkinson, The manners and Customs of the Ancient Egyptians
عن النظم الاجتماعية والسياسية

(٤) النظم الاجتماعية والسياسية ، جمعة ٦٨

(٥) حياة الحيوان للدميرى ٢٤٢/٢ بولاق

(٦) الحيوان

وقد وأد بعضهم البنات ، وأسباب الوأد شتى :

١ — قالوا إن من أسبابه الغيرة على المرأة ومخافة العار إذا تسبي ، ورووا أن بنى تميم كانوا قد منعوا الإتاوة عن النعمان ، فحاربهم وانتصر عليهم ، واستاق نعمهم ، وسبي ذراريهم ، وفى ذلك يقول أبو المشمرج اليشكرى ،

لما رأوا راية النعمان مقبلة قالوا : ألا ليت دارنا عدن

يا ليت أم تميم لم تكن عرفت مُرًّا وكانت كمن أودى به الزمن

ووفدت على النعمان وفودهم ، وكلموه فى الذرارى ، فحكم بأن تخيير النساء، فمن اختارت زوجها رُدَّت إليه ، وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم اختارت سابيها على زوجها ، فنذر قيس أن يدس فى التراب كل بنت تولد له ، فوأد بضع عشرة بنتاً (١) . ولهم فى منشأ الوأد رواية أخرى ملخصها أن المشمرج اليشكرى سبى من نساء بنى سعد وفيهن بنت أخت قيس بن عاصم ، فرحل قيس وسأل القوم إياها فخيروها فاختارت عمرو بن المشمرج ، فانصرف قيس فوأد كل بنت ، وجعل ذلك سنة كل بنت تولد له واقتدى به العرب (٢)

٢ — ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شَيْماء (بها علامة قبيحة) أو برشاء (بها نقط بيض) أو كسحاء (قعيدة) تشاؤما وكان يفعل ذلك قليل منهم (٣)

٣ — ومنهم من كان يئد خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وفيهم نزل قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » (٤)

وهذا نوع ألجأت إليه البيئة المجدبة ، والمراد بالأولاد هنا البنات .

٤ — ومنهم من زعم أن الملائكة بنات الله — سبحانه وتعالى عما يقولون — فألحقوا الإناث به لأنه أولى بهن « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » .

ويرى نيكلسون Nicholson أن الوأد يعود إلى سببين اثنين هما : المجاعات التى كانت كثيرة الحدوث فى بلاد العرب القليلة الأمطار ، والتغالى الشاذ فى المحافظة على

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٤١ — ٦٦ (٢) الأغانى ١٢/١٤٤ ساسى

(٣) بلوغ الأرب ٣/٤١ — ٥٦ (٤) سورة الإسراء الآية ٣١

الشرف ، فقد كان الآباء يخشون أن يضطروا لإطعام أفواه لا ترتجى من أصحابها فائدة أو أن يصيبهم العار إذا وقعت بناتهم أسيرات[١]

(٥) ومنهم من كان ينذر أن يذبح واحداً من بنيه إذا بلغوا عشرة كما فعل عبد المطلب في قصته المشهورة[٢] .

وقد أبطل الإسلام هذه العادة ، وسفه الذين يحزنون إذا رزقوا بنتا ، كما بين للوائدين مخشاة الفقر أنه هو الرزاق « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » ، وقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »[٣] .

* * *

ويرى الدكتور على عبد الواحد أن الوأد الناشيء عن الخوف من الفقر لم يكن فيه تمييز بين ذكور وإناث ، ولذلك عبر القرآن الكريم بكلمة الأولاد « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » ، وأن وأد البنات كان أمراً دينياً لأنهم اعتقدوا أن البنت رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم فيجب التخلص منها[٤]

ولم يكن قتل الأولاد بدعة عربية ، فقد فعلت بعض الأمم القديمة ما هو أشنع منه ، فإسبرطة كانت تقضى بإعدام الأولاد الضعاف أو المشوهين عقب ولادتهم ، أو تركهم في القفار طعاما للوحوش والطيور ، وكانت الأم تغمس الوليد في دن من النبيذ مدة ، فإن عاش دل هذا على قوته وصلاحيته للحياة ، وإن مات تخلص المجتمع من عضو ضعيف ، وهذا النظام نفسه أو ما يقرب منه كان منتشراً في أثينا وروما ، وقد أقره فلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو .

---

(١) Nichelson.P.90-91
(٢) سيرة ابن هشام ١/١٦٤ — ١٦٧
(٣) الأنعام الآية ١٥١
(٤) الأسرة والمجتمع ١٢٠ — ١٢٣

وكان يجب على الآباء فى كثير من الشعوب البدائية وغيرها قتل أولادهم أو بعضهم لاعتبارات دينية أو اقتصادية ، فيستحيا البنات ويقتل البنون ، أو يستحيا البنون وتقتل البنات ، أو يقتل الأولاد بدون نظر إلى ذكورة وأنوثة[١] . وفى المنطقة المتجمدة الشمالية حياة شظف قائمة على الصيد ، ولذا فإن بعض جماعات الإسكيمو يئدون بناتهم بعد الولادة بزمن قصير[٢] .

وكان الفينيقيون يقدمون النساء قرابين للإلهة عشتروت (الزهرة) ، وفى عبادة مولوخ (إله النار) يضحون بالأولاد إحراقا فى النار الملتهبة[٣] .

* * *

وما من شك فى أن القبائل التى أودت كانت تكره البنات ، سواء أكان ذلك لأنهن لا يساهمن فى كسب الرزق ولا فى الدفاع أم لعقيدة دينية .

وقد هجر أبو حمزة الضبى امرأته لأنها ولدت بنتاً ، فمر بخبائها يوما وإذا هى ترقصها وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا   تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا
فنبت ما قد زرعوه فينا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وبنتها[٤]

على أن الوأد لم يكن عاما ، قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدهم فى هذا تميم ، زعموا أنه خوف الفقر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن . وقد خطب إلى عقيل بن علّفة ابنته الجرباء فقال :

(١) الأسرة والمجتمع ١١٨   (٢) Rivars, The Todas P,190
(٣) المرأة فى التاريخ والشرائع ـ جميل بيهم ٤٤
(٤) البيان والتبيين ١٦٣/١

إني وإن سيق إليّ المهر ألف وعبدان وخورٌ عشر

أحبّ أصهاري إليّ القبر[١]

ورويت الأبيات منسوبة إلى عمرو بن أبي علقمة المرى مع وضع كلمة ذود بدلا من خور[٢].

وقيل إن القبائل التي كانت تئد ربيعة وكندة وتميم وأفراد مغمورون[٣].

* * *

لكن الكثرة الكثيرة لم تئد ، بدليل بقاء النساء يلدن ، وبدليل حب الشعراء والرجال للمرأة وفخارهم بها . قال حسان بن الغدير :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكي والجيوبُ والنواصح[٤]

وروى أبو الفرج أن معن بن أوس كان مئناثا وكان يحسن صحبة بناته وتربيتهن ، وولد لبعض عشيرته بنت فكرهها أبوها وأظهر جزعا ، فقال معن :

رأيت أناسا يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكْذَبْ نساء صوالح

وفيهن والأيام تعثر بالفتى نوادب لا يمللنه ونوائح[٥]

* * *

على أن بعض سادات بني تميم كانوا يعيبون وأد البنات ، وينقذونهن من هذا الظلم الوحشي ، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، حتى لقد سمي محيي الموءودات ، وكان السبب الذي حفزه إلى ذلك أنه مر يوما برجل يحفر ليئد ابنته وامرأته تبكي ، فسأل الرجل عن سبب عمله فأجابه بأنه الفقر ، فعرض عليه أن يستبقي ابنته ويمنحه ناقتين يتبعهما أولادهما ، ليعيشوا من ألبانهما ، فقبل الرجل

---

(١) تفسير القرطبي ١١٧/١٠ الخور : الغزيرات اللبن

(٢) طهارة العرب الشنقيطي ٣٦ (٣) بلوغ الأرب ٤٢/٣

(٤) المؤتلف والمختلف . الآمدي ١٦٤ الجيوب النواصح : القلوب المخلصة

(٥) الأغاني ١٥٦/١٠ ساسي

فأعطاه صعصعة ناقتين وجملا ، ثم قال فى نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها ، فجاء الإسلام وقد فدى ستاً وتسعين موءودة ، وقيل ثلاثمائة ، وقيل ثلاثمائة وستين ، وقيل أربعمائة ، وقد فخر الفرزدق بذلك كثيراً كقوله :

أبي أحد الغيثين صَعْصَعَةُ الذى ... متى تُخْلِف الجوزاء والدلو يُمطِر
أجار بنات الوائدين ومن يُجِر ... على الفقر يعلم أنه غير مُخْفِرِ
على حين لا تحيا البنات ، وإذ هم ... عكوفا على الأصنام حول المدوّر (١)

وقال :

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالبٌ ... وعمرو ومنا حاجب والأقارع
أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقد شركه فى هذه المأثرة زيد بن عمرو بن نفيل ، ففى صحيح البخارى أنه كان يحيى الموءودة بأن يكفى أباها مئونتها إذا كان فقيرا (٢)

---

(١) الأغانى ١٩/٢ — ٤ ساسى مخفر : ناقض للعهد غادر
(٢) تيسير الوصول ٣/١١٣

(ثانيا) الصلات القبلية

الحرب . الثأر . الحلف والجوار . الغنى والفقر

الحـــــرب

بواعث الحروب . طريقة المقاتلة . زمن القتال . أدوات الحرب . الأسرى والسبايا . الصلح

١ — بواعث الحروب

أما الصلات القبلية فقد أسست على العداء والحروب المتوالية ، أو على المحالفة والنصرة .

وبيئتهم الطبيعيه والاجتماعية مؤرثة لهذه الحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسيمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفئون به ظمأهم فى بلاد شحيحة بالكلأ ضنينة بالماء ، لا ملكية فيها لأحد وكثيرا ما كانت الحرب تبدأ بنزاع بين الرعاة على الماء أو المرعى فيشترك معهم ساداتهم وأقرباؤهم . وهذا شبيه بما يحدث فى ريف مصر ولا سيما فى أيام الرى بنظام (المناوبات) الآن .

وقد تشتعل الحرب لتنازعهم على شرف أو رياسة ، وهم قوم كلفون بالشرف وبالرياسة كما حدث بين هاشم وأمية بمكة ، وبين عبس وذبيان من قيس ، وبين بكر من ربيعة ، وبين دارم ويربوع من تميم .

على أن بعض الحروب كان رغبة فى السلب والغارة ، لأن أرزاقهم فى رماحهم ، ومعاشهم فى أيدى غيرهم ، ونجد تصوير ذلك فى أبيات للقطامى ـ شاعر مخضرم ـ إذ يتحدث عن الخيل والخيالة وديدنهم فى السلب والغارة :

وكن إذا أغرن على جَنَاب   وأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيث كانا

أغرن من الضباب على حلائلهم وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا(١)

على أن الحرب قد تثور لأسباب أخر ربما كانت أقل تهييجا ، من ذلك أن يتنافر خصمان إلى حَكَمٍ ليقضى بينهما فاذا حكم لأحدهما زاد العداء اشتعالا ، وإذا كان الحكم عدلا خبيراً بما يجره حكمه من تصدع وتشتيت شمل سوى بين المتنافرين ، كما فعل هرم بن قطبة حينما سوى بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابنى العم بقوله : أنتما كركبتى البعير(٢) . وعاش هرم حتى أدرك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسأله عمر : أى الرجلين كنت مفضلا لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ، فأعجب عمر بحكمته وبعد نظره ، وقال : لمثل هذا العقل تحاكمت إليه العرب .

على أن ألسنة الشعراء كانت سلاحا ماضيا فى قطع الأواصر ، كل منهم يعدد مفاخر قبيلته ، ويبالغ فى تصيد مثالب لخصومها .

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ، لأن شعارهم : انصر أخاك ظالما أو مظلوما . ومن يتخلى منهم عن نصرة قريبه يعير ويعاب . وربما عير الشاعر قبيلته كلها من جراء تخليها عن نصرته ، قال قُرَيْط بن أُنَيْف — وكان بعض بنى شيبان أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم ينجدوه فلجأ إلى بنى مازن فأنجدوه ، والمراد هنا مازن تميم — :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنَصْرى معشرٌ خُشُنٌ عند الحفيظة إن ذو لُوثَةٍ لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذَيْهِ لهم طاروا إليه زَرافات ووُحْدانا

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١٨١/١
(٢) راجع تفصيل المنافرة فى بلوغ الأرب ٣١١/١ — ٣٢٤

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومى وإن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا
يجْزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا ... شدُّوا الإغارة فُرْسانا ورُكْبانا(١)

وكثير من الحروب كانت تنشأ لأسباب توافه فى ظاهرها ولكنها وليدة ضغن قديم وقرته الصدور، كحرب الفجار أو حرب عبس وذبيان، والعربى لا ينسى هزيمة ذاق مرارتها ولا إساءة نزلت به، قال زفر بن الحارث الكلابى مصوراً هذا الشعور:

لعمرى لقد أبْقَتْ وقيعة راهط ... لمروانَ صَدْعاً بيننا متنائيا
وقد ينبُتُ المرعى على دِمَنِ الثرى ... وتبقى حَزازاتُ النفوس كما هيا(٢)

ب — طريقة المقاتلة

١ — كان قتالهم فى الجاهلية بالكر والفر أحياناً، يهجمون ويرتدون، وقد يتخذون وراءهم مصاف ثابتة يلجئون إليها فى كرهم وفرهم، كأن يضربوا وراءهم حواجز من الظعائن أو الإبل وهذا هو النظام الغالب فى معارك البادية القائمة على الاشتجار بالسيوف والرماح والقسى وغيرها، لأن معاركهم لا تستمد من نظام معلوم مدروس، أو فن يتلقاه جيل عن جيل، وهى أشبه بأن تكون حرب عصابات.

على أن هذه العصابات المتغاورة كانت تعتمد على التجارب، وعلى المفاجأة والاستطلاع والخديعة والتبييت، وعلى الفرار أحيانا لتعاود الهجوم.

٢ — ولكنهم فى جاهليتهم عرفوا أيضا الحروب المنظمة والجيوش المعدة. والطرق الفنية المرسومة، فقد كان جيش الحارث الأعرج الغسانى الذى حارب المنذر

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/٥ والرواية الصحيحة للبيت الأول بنو الشقيقة لا بنو اللقيطة كما فى الديوان والشقيقة هى بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان. لوثه: ضعف
(٢) حماسة البحترى ١٧

بن ماء السماء مؤلفا من نحو أربعين ألف مقاتل ، فيهم الفرسان وراكبو الإبل ، والضاربون بالسيوف ، والطاعنون بالرماح ، والضاربون بالسهام والنبال وبالحراب والحجارة . ولم يكن هذا عن مقدرة الملك وغنى الدولة فحسب ، لأن بعض القبائل البدوية كانت تفعل مثله ، فقد روى أن مذحج جمعت لقتال تميم يوم الكلاب الثانى ثمانية آلاف ، وسُبقت المعركة بالاستطلاع والمخاتلة ، ثم قامت على المهاجمة والمطاردة وفى غزوة أحد جاءت قريش فى ثلاثة آلاف رجل ومائتى فارس .

وجدير بنا ألا ننسى أن صلة المناذرة بالفرس علمتهم تعبئة الجيوش ، فقد كانت عندهم كتيبتان هما الشهباء والدوسر وهذه فارسية ، وكذلك الغساسنة على صلة بالروم يساعدونهم فى حروبهم ، ويقبسون من نظمهم

لذلك لم يكن غريبا من العرب فى يوم ذى قار أن هزموا الفرس ، لأنهم كانوا أبرع قيادة وأشد حماسة ، وأحكم خطة ، فقد بثوا طلائعهم ، وقسموا جموعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل ، وميسرة تولاها بنو شيبان ، وقلب تولته بطون من بكر ، وبعثوا إلى العرب الذين فى الجيش الفارسى من يصرفهم عن مساعدة الفرس حين يلتحم الجيشان ، فلما التحما تخلت إياد عن الفرس ، وخذلتهم حيث يُنتظر العون والنصر .

وفى غزوات النبى صلى الله عليه وسلم تجلت خطط العرب فى القتال من مباغتة ، ومبادرة ، واستطلاع واختيار للمكان المناسب ، وحفز للهمم ، وتخذيل للعدو .

فمثلا فى غزوة أحد صف المشركون صفوفهم ، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، وكانت لهم مجنبتان مائتا فارس ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص ، وعلى الرماة عبدالله بن أبى ربيعة وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبى طلحة ، وصاح أبو سفيان : « يا بنى عبد الدار نحن لا نعرف أنكم أحق باللواء منا ، وإنما أُتينا يوم بدر من اللواء ، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم ، فالزموا لواءكم ، وحافظوا عليه ، وخلوا بيننا وبينه ، فانا قوم مستميتون موتورون نطلب ثأرا حديث العهد » . فغضبت بنو عبد الدار

وقالوا : لا نسلم لواءنا ، وأما المحافظة عليه فسترى ، ثم أسندوا اللواء إليه ، وأحدقت به بنو عبد الدار ، وأغلظوا لأبي سفيان ، فقال : نجعل لواء آخر . قالوا : نعم ، ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار[١]

وجعل رسول الله يصف أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلا ، عليهم عبدالله بن جبير وقيل سعد بن أبي وقاص ، وجعل جبل أحد خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، ونهاهم أن يقاتلوا حتى يأمرهم ، وصار يمشي بين الصفوف ويبوىء أصحابه مقاعد للقتال ، ويقول : تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، حتى أنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره ، فهو يقومهم كأنما يقوم القداح .

وتقدم رسول الله إلى الرماة فقال : احموا لنا ظهورنا ، فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وارشقوا خيلهم بالنبل فإنها لا تقدم على النبل .

وعمل لنفسه ميمنة وميسرة ، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير ، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى سعد بن عبادة[٢]

٣ — كان نظامهم في الجاهلية أن يلتقي كل محارب بآخـــر أو بآخرين ، وكانت المبارزة تسبق الحرب أحيانا . قال عنترة :

سأخرج للبَرَازِ خـــلِيَّ بال بقلبٍ قُدَّ من زُبَرِ الحديد[٣]

وربما أغنَتْ هذه المبارزة عن التحام الجيشين ، فقد تحرك المنذر بن ماء السماء بجنده لملاقاة جيش الحارث الأعرج بن جبلة ملك الشام ، فأرسل إليه الحارث أن انظر

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٢ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٣٦٥
(٢) شرح نهج البلاغة ٣/٣٦٦ وسيرة ابن هشام ٣/١٠
(٣) ديوان عنترة ٥٤

ننظر فى أمرنا ، وخرج بجيشه ، وأرسل إليه يقول . إنا شيخان كبيران فلا تهلك جنودك وجنودى ، ولكن يخرج رجل من ولدى ورجل من ولدك ، فمن قتل خرج عوضه آخر ، وإذا فنى أولادنا خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك وتعاهدا على ذلك [١].

وفى غزوة أحد تقدم على بن أبى طالب بالراية متحدياً المشركين . وخرج إليه أبو سعد بن أبى طلحة ليبارزه ، فضربه على فصرعه [٢] .

وكانوا يسبقون المعركة برمى معسكر الأعداء بالنبل ، وقد يقصدون قائد الجيش وسيد القوم ليقتلوه فيثبطوا من معه ، وكثيراً ما افتخر فرسانهم بذلك . قال عنترة :

وإنا أبدْنا جمعهم برماحنا ... وإنا ضربنا كبشهم فتحطما [٣]

وكانوا يقلون من الصياح حتى لا يدلوا العدو على مكانهم ، فقد استشار قوم أكثم ابن صيفى فى حرب أعدائهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : «أقلوا الخلاف على أمرائكم واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل . . .» [٤].

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر يصف للمشركين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ألا ترونهم جُثِّيا على الركب كأنهم خرس ، يتلمظون تلمظ الحيات ؟ [٥]

وقد يتصرفون فى نظام الهجوم كما فعل خالد بن الوليد بالمسلمين فى أحد ، فقد استدار من حولهم وطَوَّقهم بخيله من خلفهم بعد أن ازدهاهم النصر الأول ومالوا إلى العسكر وقد انكشفوا وولت النساء هوارب [٦] .

وفى شعرهم ما يدل على التنظيم والتعبئة والهجوم ، فمثلا عمرو بن كلثوم فى معلقته يشير إلى تقسيم المحاربين إلى ميمنة وميسرة :

---

(١) أيام العرب ٥١
(٢) سيرة ابن هشام ١٩/٣
(٣) الديوان ١٦٨
(٤) عيون الأخبار مجلد ١٠٨/١
(٥) عيون الأخبار مجلد ١٠٨/١
(٦) سيرة ابن هشام ٢٤/٣

وكنا الأيمنين إذا التقينا   وكان الأيسرين بنو أبينا

٤ — وكانوا يستوحون فطرهم وتجاريبهم فى تدبير هزيمة العدو ، قال الأحوص ابن جعفر فى يوم جبلة لقيس بن زهير : ما ترى ؟ فإنك تزعم أنه لم يعرض لك رأيان إلا وجدت الفرج فى أحدهما . فقال قيس : « الرأى عندى أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل شِعب جبلة فنقاتل القوم دونها من جهة واحدة ، فإنهم داخلون علينا الشعب ، وإن لقيطا رجل فيه طيش فسيقتحم عليك الشعب ، فأرى لك أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تُسقى وتُعقل ، ثم نجعل الذرارى وراء ظهورنا ، ونأمر الرجال فتأخذ بأذناب الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشعب حلت الرجال عُقُلها ثم لزمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتحن إلى مرعاها ووردها ولا يَرُدُّ وجوهها شىء ، وتخرج الفرسان إثر الرَّجالة الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت »[1] . فهذه خطة موفقة مبنية على استغلال طيش قائد الأعداء ، وعلى استغلال حنين الإبل الجياع العطاش إلى مرعاها وموردها ، ولا شك أن انفلاتها من عقلها وتخليتها وهى جائعة ظمأى سوف يحدث دويا وجلبة ورعبا فى قلوب الأعداء فيتفرقون مذعورين .

وقد تحقق هذا لأن الأعداء « ظنوا أن الشِّعب قد تهدم عليهم فولوا منهزمين بين قتيل وجريح وأسير ، وقتل لقيط بن زرارة وأسر أخوه حاجب »[2]

ومن خططهم المحكمة أنهم كمنوا للفرس فى يوم ذى قار ، وحملت ميمنة بكر على ميسرة الفرس ، وخرج عليهم الكمين فحملوا على قلب الجيش الفارسى فهزموه[3]

٥ — وما دامت الحرب مبنية على الحيلة والخدعة والمكيدة ، فلا مندوحة من الاعتماد على العيون يستطلع بها المحاربون حال أعدائهم ليعرفوا عَددهم وعُددهم وخططهم الخ . . فيقدموا على بصيرة أو يرجعوا إن لم يكن لهم بملاقاة خصومهم طاقة .

---

(١) العقد الفريد ٣/٦٣ — ٦٤   (٢) العقد الفريد ٣/٦٣ — ٦٤
(٣) أيام العرب ٣٣

وقد كان العرب يبثون العيون ، من ذلك أن قبيلة خزاعة من جُشم بن بكر أغاروا على إبل لبني كعب بن أبي بكر بن كلاب فانطلقوا بها ، وخرج بنو أبي بكر في طلبها حتى إذا دنوا منهم قال عمرو بن أبي سفيان الكلابي — وكان حازما عاقلا — : امكثوا . . . ومضى هو متنكراً حتى لقي رجلا من بني خزاعة فسلم عليه واستسقاه فسقاه ، وانتسب له هلاليا ، فسأله عن قومه وأين مرعى إبلهم ، وأعلمه أنه رائدٌ لقومه يريد مجاورتهم ، فخبره الرجل بكل ما أراد ، فرجع إلى قومه وقد نال ما يبتغي ، فصَبّح القوم ، فظفرت بهم بنو كلاب ، وقتلوا قيس بن الصمة ، وذهبوا بإبل خزاعة وارتجعوا إبلهم[١] .

وفي يوم الفَلج بعث بكر بن وائل عيناً على بني كعب بن ربيعة حتى جاء الفلج — وهو ماء — فوجد النعم بعضه قريبا من بعض ووجد الناس قد احتملوا ، فليس في النعم إلا من لا طَبَاخ به — القوة والسمن — من راع أو ضعيف ، فجاءهم عينهم بذلك ، فركبت بكر بن وائل يريدونهم ، حتى إذا كانوا منهم بحيث يسمعون أصواتهم سمعوا الصهيل وأصوات الرجال ، فقالوا لعينهم : ما هذا ويلك ؟! قال : والله ما أدري وإن هذا لما لم أعهد . فأرسلوا من يعلم علمهم ، فرجع فأخبرهم أن الرجال قد رجعوا ، وأنه رأى جمعاً عظيما وخيولا كثيرة ، فكروا راجعين من ليلتهم[٢] .

٦ — وكانو يستصحبون نساءهم في الحروب لسقي الماء ، وتضميد الجراح وبعث الحمية ، قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بني جُشَمَ بنِ بَكْرٍ ... خلطن بِمِيسَمٍ حَسَباً ودينا
يَقُتْنَ جيادنا ويقلن لستم ... بُعولتنا إذا لم تمنعونا
أخذن على بعولتهن عهداً ... إذا لاقوا كتائب مُعْلِمينا

(١) الأغاني ١٠ / ١٤ الدار
(٢) الأغاني ٢٠ / ٢٢ الدار

ليستلبن أفراساً وبيضاً وأسرى فى الحديد مقرنينا
إذا لم تمنعوهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا (١)

وفى غزوة أحد خرجت قريش بحدها وحديدها . . . وخرجوا معهم بالظُّعن التماس الحفيظة وألا يفروا ، فخرج أبو سفيان بن حرب — وهو قائد الناس — بهند ابنة عتبة ، وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان ابن أمية بِبَرْزَة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية ، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت مُنبِّه بن الحجاج ، وخرج طلحة بن أبى طلحة — وأبو طلحة عبد الله بن عبد العُزّى ابن عثمان بن عبد الدار — بسُلافة بنت سعد بن شُهَيْد الأنصارية ، وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرّب مع ابنها أبى عزيز بن عُمَير ، وخرجت عَمرة بنت علقمة الحارثية ، وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشىّ أو مرَّ بها قالت : وَيْهاً أبا دَسمة ، اشف واشتف(٢) .

ولم يكن استصحاب الظعائن عرفا عاما عند العرب ، يدل على ذلك ما دار من حوار بين دريد بن الصِّمة ومالك بن عوف النصرى قائد هوازن يوم حُنَين ، قال دريد : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار — صوت — الشاه ؟ قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم . قال : ولم ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل مع كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فزجره ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يردُّ المنهزمَ شىء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك ! ويحك . إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن — جماعتهم —

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٤٧
(٢) سيرة ابن هشام ٣/٥ — ٦

إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمنّع بلادهم ، وعلْيا قومهم، ثم الق الصُّبّاء — جمع صابيء ، يريد المسلمين وقد كانوا يسمونهم بهذا الاسم لأنهم في نظرهم صبئوا عن دينهم — على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك . قال : لا والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وذهل عقلك . قال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني(١) .

فلو أن اصطحاب الظعائن كان نظاما عاما مُطّرداً ما عابه دريد بن الصمة وما قال لمالك إنك راعي ضأن ، أي لا خبرة لك بالحرب ، وإنما أنت حريص على المال .

٧ — ولحكمائهم المجربين للحرب وصايا مستمدة من طول ممارستهم لها وخبرتهم بها ، فقد استشار قوم أكثم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين ، ورب عجلة تهب ريثا ، واتّزروا للحرب ، وادّرِعوا الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلِف عليه(٢) .

حـ — زمن المقاتلة

١ — تقاتلوا بالليل ، وتقاتلوا بالنهار ، ويظهر أن أكثر الإغارات كان ليلا والقوم رقود، فهي مفاجأة فيها غنائم بأقل الخسائر ، قال سعد بن مالك في قتل كعب بن مُزَيْقِيا الملك الغساني يتحدث بالهجوم ليلا .

وليلة تُبّعٍ وخميس سعد أتونا بعد ما نمنا دبيبا
فلم نهدأ لبأسهم ، ولكن ركبنا حد كوكبهم ركوبا
بضرب تُفْلَقُ الهاماتُ منه وطعنٍ يَفْصِلِ الحلَقَ الصليبا(٣)

---

(١) العقد الفريد ١٥٦/١ — ١٥٧ وسيرة ابن هشام ٦٦/٤
(٢) عيون الأخبار مجلد ١٠٨/١ والعقد الفريد ١١٣/١
(٣) البيان والتبيين ١٥/٣

وتحدث أيضا عياض الأسدى بهجوم الليل :

ومنا حماة الجيش ليلة أقبلت ... إيادٌ يزجّيها الهُمام مُحَرِّقُ(١)

وافتخر عنترة بكتيبة من أصحابه الأباة الشجعان جمعهم للإغارة وقد تمايلت أعناقهم من النوم ، وقادهم فى ظلام الليل حتى انقضت الضحوة وأقبل الهجير فطعن عدوه :

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ... ليلا وقد مال الكرى بِطُلاها

وسريت فى غلس الظلام أقودهم ... حتى رأيت الشمس زال ضحاها

ورأيت فى كبد الهجير فوارساً ... فطعنت أول فارسٍ أولاها(٢)

وأبيات عنترة هذه صالحة أيضا للدلالة على حرب النهار لأنه سار بصحبه ليلا وقاتل أعداءه نهارا .

١ — وأحياناً كانوا يغيرون نهاراً أو صباحا ، قال عامر بن الطفيل إنهم هجموا على أعدائهم صبحا بكل حصان ضامر عال ، ومعهم رماح قصار تقد الحديد ، وما لبثوا أن لقوا أعداءهم فتفرقوا أمامهم كأنهم شاء بغتها ذئب :

صبحناهم بكل أقبَّ نَهْـدٍ ... ومِطْرَدٍ له يَقِدُ الحديد

لقينا جمعهم صبحا فكانوا ... كمثل الضأن عاداهن سِيد(٣)

وقال عروة بن الورد :

ونحن صَبَحنا عامراً إذ تَمَرَّسَتْ ... عُلالَةَ أرماح وضربا مُذَكَّرا

بكل رُقَاقِ الشفرتين مهند ... ولَدْنٍ من الخطّىّ قد طُرَّ أسمرا(٤)

وقال البرّاق :

صَبَحناهم على جُرْدٍ عتاق ... بأسياف مهندة قوارى

وقد زرنا الضُّحاة بنى هُمَيْم ... فأحدرناهمُ فى كل عار(٥)

(١) البيان والتبيين ٣/١٥ (٢) ديوان عنترة ١٨٤ أولاها : أول طعنة

(٣) ديوان عامر وعبيد . lyall . ١١ أقب : دقيق الخصر ضامر البطن . مطرد : رمح قصير

(٤) شعراء النصرانية ٩٠٩ تمرست : تعرضت . علالة : طعنا بعد طعن . رقاق : رقيق

(٥) شعراء النصرانية ١٤٣ قوارى : قار الشىء : قطعه من وسطه خرقا مستديراً

وفى لسان العرب : « ياصباحاه كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ما يغيرون وقت الصباح ، فكأن القائل يا صباحاه يقول : قد غشينا القوم صبحا »[١]
ويقول الفخر الرازى : كانت الخيل تغير على العدو وقت الصبح ، وكانوا يغيرون صباحا لأنهم فى الليل لا يبصرون ، ولأن الأعداء فى النهار مستعدون للدفاع والحرب ، أما الصباح فهو وقت الغفلة[٢] ، وكانوا لا يستطيعون أن يغزوا فى القيظ ، لأنه لا يستطيع أحد أن يقطع تلك الصحارى لبعد مسافتها وشدة حرها[٣].

٣ — وكانوا إذا اجتمعوا للحرب دخَّنوا بالنهار وأوقدوا بالليل ، ليعلموا العشائر والأحلاف ويجمعوهم ، قال عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ونحن غداةَ أُوقِدَ فى خَزَازى رَفَدْنا فوق رِفْد الرافدينا

وقال خمخام السَّدوسى :

نُدَخِّنُ بالنهار ليبصرونا ولا نَخْفَى على أحد أتانا[٤]

٤ — هدنة إجبارية :

وكانوا لا يقاتلون فى الأشهر الحرم ، ويحرمون فيها القتال والعدوان الفردى والجماعى ، حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له . وهذه الأشهر الحرم هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وقد كان هذا النوع من المهادنة ذا حكمة بالغة فى أمة دأبها شن الغارات والثورات واعتياد السطو والسلب ، لأن الهدنة تهيء مجالا للعقلاء والحكماء أن يصلحوا ذات البين ، ولأنها تخفف من وقدة العداء بين الأفراد والجماعات فلا يسترسلون فى التفانى والانقياد لنوازع الشر ، ولأنها تكفل لكل إنسان وقتا يأمن فيه على نفسه وماله ، فيتنقل ها هنا أو هاهنا راعيا أو تاجراً أو حاجًّا .

---

(١) لسان العرب مادة صبح
(٢) الفخر الرازى ٨/٦٥٩
(٣) أيام العرب ١٢٦
(٤) البيان والتبيين ٣/١٦

وكان الفرسان إذا أتوا عكاظ فى الأشهر الحرم تقنعوا حتى لا يعرفوا ، ولعل هذا لئلا يهيجوا فى النفوس ذكرى الإحن ، أومخافة أن يغتالهم مغتال تتغلب شهوته للانتقام على رعاية الشهر الحرام ، إلا ما كان من أبى سليط طريف بن تميم فإنه كان يرد سوق عكاظ غير متقنع ، كما سيجىء .

ى — أدوات القتال

كانوا يحرصون على أدوات القتال ، لأنهم بها يحمون حياتهم ، ويغيرون على أعدائهم ، ويكسبون أرزاقهم ، ويثأرون ويغنمون . وكل منهم يحمل سلاحه لا يفارقه ، ليكون أقرب إليه إذا حزب الأمر ، قال أبو دلف العِجْلى :

إنى امرؤ عَوَّدَنى مُهْرِى ركوبَ الغَلَسِ
يَحْمَدنى سيفى كما يحمد كرى فَرَسى
سيفى بلَيْلٍ قَبَسى وفى نهارى أَنَسى (١)

وأدوات الحرب عندهم كثيرة :

١) السيوف :

السيوف أحسن آلاتهم ، وأشهرها ذكراً وأكثرها أسماء وصفات ، وكانت أحياناً تصنع بالمدينة ، صنعها بعض القيون ، وقد اشتهر بصناعتها اليهود ، وقالوا إن أول من صنعها من العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة ، ولذا قيل لبنى أسد (القيون) وقيل لكل حداد (هالكى)(٢) .

على أنهم استوردوها من بلاد أخر كالهند ، فعنترة يقول :

أكر على الفوارس يوم حرب ولا أخشى المهنَّدة الرقاقا
وتطربنى سيوف الهند حتى أهيم إلى مضاربها اشتياقا (٣)

---

(١) العقد الفريد ١/ ١٢٠ لجنة التأليف
(٢) القاموس المحيط مادة هلك (٣) ديوان عنترة ١١٤

وأحيانا نسبوها إلى الروم ، قال عامر المحاربى :

نزاوج بالصخر الأصم رءوسهم إذا القَلَعُ الرومىُّ عنها تثلما(١)

وإلى مشارف الشام وهى قراها :

نجيد الطعن بالسُّمْر العوالى ونضرب بالسيوف المشرفيَّة

وإلى اليمن ، قال عنترة فى رثاء صديقه مالك بن زهير العبسى :

كنت أسطو حينما جَدَّت الْعِـدا غداةَ اللقا نحوى بكل يمانى(٢)

وقال :

بأسمر من رماح الخط لَدْنٍ وأبيض صارم ذكر يمان(٣)

والمشرفية أجود سيوفهم ، وقد اختلفوا فى هذه النسبة ، قال البكرى فى معجم ما استعجم : إن المشارف قرى من قرى العرب تدنو من الريف ، واحدها مشرف وقال فى موضع آخر : وهى مثل خيبر ودومة الجندل وذى المروة والرحبة . وقال فى (مؤتة) وكان لقاء المسلمين بالروم فى قرية يقال لها مشارف من تخوم البلقاء .

فالسيف المشرفى إن كان منسوباً إلى الأول فالنسب قياسى لأن الجمع يرد إلى الواحد فينسب إليه ، وإن كان منسوبا إلى الثانى فالنسب على خلاف القياس .

وقال أبو عبيدة . هى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، يقال سيف مشرفى ولا يقال مشارفى، لأن الجمع لا ينسب إليه إذا كان على هذا الوزن .

وقال صاحب المصباح — وقد نقل هذا — : وقيل هذا خطأ بل هى نسبة إلى موضع من اليمن .

وقال ابن الأنبارى : المشرفى منسوب إلى المشارف ، وهى قرى للعرب تدنو من الريف ، ويقال بل هى منسوبة الى مشرف وهو رجل من ثقيف .

---

(١) المفضليات ١٥٣ السندوبى . القلع : السيوف

(٢) الديوان ١٧٩

(٣) الديوان ١٧٧

وفى القاموس المحيط : ومشارف الشام قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية .

وفى العمدة : سيف مشرفى منسوب إلى مشرف وهى قرية باليمن كانت السيوف تعمل بها ، وليس قول من قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف بشىء عند العلماء وإن قاله بعضهم(١)

وقد برعوا فى وصف السيوف والفخار بها ، فهذا أوس بن حجر يصف سيفه بأنه هندى يتلألأ حده كما يتلألأ البرق فى سحاب كثيف ، وإذا ماسله من غمده خيل للرائى أن فرنده يتساقط كأنه سُحَالة الفضة تتساقط على المبرد ، وفرنده يشبه طرائق النحل فى الربا ، أو طرائق صغار النمل اللاجىء إلى السهل :

وأبيض هنديا كأن غِراره ... تلألؤ برق فى حَبِىّ تَهَلَّلا
إذا سُلَّ من غمد تأكّل أُثْرُه ... على مثل مِسْحاة اللجين تأكُّلا
كأن مَدَبَّ النحل يَتْبع الربا ... ومَدْرَجَ ذَرّ خاف برداً فأسهلا
على صفحتيه بَعْدَ حينِ جلائه ... كَفَى بالذى أُبْلِى وأَنْعَت مُنْصُلا(٢)

٢) الرماح :

كانوا يستوردونها من الهند إلى الخَطّ على ساحل البحرين ، فقالوا خَطِّى وخطية ، قال الأصمعى : ليست تنبت الرماح ولكن سفن الرماح ترفأ الى هذا الموضع فقيل للرماح خطية(٣)

ويُعْطَى القنا الخَطِّىُّ فى الحرب حقه ... ويُبْدَى بحد السيف عَرْضُ المناكب

واشتهرت من العرب رُدَيْنة بتقويم الرماح وإصلاحها قال عنترة :

إذا خصمى تقاضانى بدَيْنى ... قضيت الدين بالرمح الردينى(٤)

---

(١) العمدة ٢/١٧٩

(٢) الديوان ٢٠ وشعراء النصرانية ٤٩٥ الغرار : الحد . الحبى : السحاب . الأثر بالفتح والكسر : الفرند . المسحاة : المبرد . الذر : صغار النمل . المنصل : السيف

(٣) العمدة ٢/١٨١ ... (٤) ديوان عنترة ١٧٢

ونسبوها أيضا إلى سمهر ، زوج ردينة ، وهو رجل يبيع الرماح بالخط قال عنترة :

وأطعن فى الهيجا إذا الخيل صدها غداة الصباح السمهرى المقصد (١)

ونسبوها أيضا إلى ذى يزن الملك فقالوا : اليزنية ، والأزانية ، واليزانية (٢) .

ومن أنواعها القعضبية وهى ضرب منها ينسب إلى قعضب رجل قشيرى كان يعملها ، وكذلك الشرعبية أيضا قال الأعشى :

ولدن من الخطى فيها أسنة ذخائر مما سن أبزى وشرعب

وفى رأى أبى عبيدة أن أجود السهام سهام بلام وسهام يثرب ، وهما بلدان قريبان من حجر اليمامة ، وأنشد للأعشى :

بسهام يثرب أو سهام بلام (٣)

ولكن البيت فى ديوان الأعشى :

منعت قياس الماسخية رأسه بسهام يثرب أو سهام بلاد (٤)

وقد أجاد أوس بن حجر وصف رمحه ، قال إن كعوبه ضامرة صلبة كنوى التمر اليابس ، وإنه لدن مهتز ، وفى طرفه نصل لامع كمصباح النصرانى الذى أوقده فى عيد الفصح وملأه زيتا :

وإنى امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها نابا من الشر أعصلا

أصم ردينيا كأن كعوبه نوى القسب عراصا مزجى منصلا

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ، ويحشوه الذبال المفتلا (٥)

ووصف راشد بن شهاب اليشكرى رمحه بأنه لدن يضطرب كله إذا هزه ، على أنه صلب :

---

(١) الديوان ٤٧ المقصد : المكسر ، أى حين يشتد القتال وتتكسر الرماح فى صدور الخيل

(٢) العمدة ١٧٩/٢ (٣) العمدة ١٨٠/٢ (٤) الديوان ٩٨

(٥) ديوان أوس ٢١ وشعراء النصرانية ٣٨٠ أعصل : معوج صلب . أصم : رمح متين . كعوبه : عقد أنابيبه . القسب : التمر اليابس . العراص : المهتز . الفصح : عيد للنصارى .

ومُطَّرِدُ الكعبين أسمرُ عاترٌ ... وذاتُ قتيرٍ فى مواصلها دَرَمْ(١)

وهذا المزرِّد بن ضرار يبدع فى وصف عدده الحربية ، ومنها الرمح فهو لين مهتز كأنما سقاه زيت سائل لا ينقطع عن سقيه ، وهو مصمت إذا ماهزه من مقبضه اهتز أعلاه كأنه ثعبان خدر ، وله سنان حاد مشرق كأنه هلال يتلألأ فى ظلام الليل :

ومُطَّرِدٌ لدنُ الكعوب كأنما ... تَغَشَّاهُ مُنْبَاعٌ من الزيت سائل

أصَمُّ إذا ما هُزَّ مارت سَرَاتُهُ ... كما مار ثعبانُ الرمال المُوَائل

له فارطٌ ماضى الغِرَار كأنه ... هلال بدا فى ظلمة الليل ناحل(٢)

٣) القسى :

أعواد من خشب لين منثن قوى تقوس كالهلال ، ويثبت فيها وتر من جلد الإبل ترمى به السهام ، وكانت السهام تراش لتكون أسرع مضيا ، وأعدل اتجاها إلى الهدف .

وأجود القسى العصفورية منسوبة إلى رجل يسمى عصفوراً والكنائن، محافظ النبال ، والكنائن الزُّغَرية منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام كانت تصنع به كنائن حمر مذهبة ، أو إلى زُغَر وهى قبيلة كانت تصنع هذه السهام(٣) .

قال الشنفرى : فى وصف قوس :

وإنى كفانى فَقْدَ من ليس جازيًا ... بحُسْنَى ولا فى قربه مُتَعَلَّلُ

ثلاثةُ أصحاب : فؤاد مُشَيَّع ... وأبيض إصْليتٌ ، وصفراء عَيْطَل

هَتُوفٌ من الملس المتون يَزِينها ... رَصَائعُ قد نيطت إليها ومِحْمَلُ

(١) المفضليات ٢/١٠٨ الكعبين : أراد بهما أعلاه وأسفله . عاتر : صلب . ذات قتير : درع والقتير رءوس مسامير الدرع . الدرم الاستواء

(٢) المفضليات ١/٩٧ مطرد : لين مهتز . منباع : سائل . أصم : ليس بأجوف . سراته : أعلاه . موائل : محاذر . فارط : سنان . غرار : حد

(٣) القاموس المحيط مادة زغر

إذا زل عنها السهم حنتْ كأنها مُرَزَّأةٌ ثكلى تَرِنُّ وتُعول (١)

وقد تناول أوس بن حجر وصف القوس منذ كانت غصنا فى شجرة ، فقال إن الشجرة التى أخـــذت منها القوس كانت نابتة على جبل أشم يجلله السحاب ، وهذا الجبل أملس كأن صخوره أرويت بدهن تزلج منه قدم من يصعد إلى الجبل ، يريد بذلك أن الشجرة بعيدة المنال ، وأن القوس المأخوذة منها نادرة المثال ، فهى أحسن الأقواس المعروضة للبيع أو المعدة للحرب . وقد أبصرها من أبصرها ورأى فى جانب الجبل صدعا ورأى لقدمه فى كل مكان مرتفع موضعاً ومنزلا ، فجشم نفسه أن يصعد إليها ، فصعد متحملا الندوب التى يحدثها الصخر بأصابعه ، ومتحملا أن يأكل الصخر أظفاره ، وما زال كذلك حتى وصل ، وقطع الغصن وصقله ، وقد اعتاد أن يصقل القسى ويبرى أعوادها ، وأخرجها صفراء وسطا بين الطول والقصر ، ملء الكف ، إذا ما استعملت سمعت لها صوتاً هو النئيم والأزمل ، وإذا شد وترها تقارب قاباها حتى يتصل السهم بمقبضها ، ثم ينطلق إلى غايته البعيدة :

ومبضوعة من رأس فَرْع شَظِيَّةٍ بطَوْدٍ تراه بالسحاب مُجَلَّلا (٢)

على ظهر صَفْوانٍ كأن مُتونه عُلِلْنَ بدُهْنٍ يُزْلِقُ المتنزِّلا

يُطيف بها راعٍ يُجَشِّم نفسَه ليكلأ فيها طَرْفه متأمِّلا

على خير ما أبصرتَها من بضاعة لملتمس بَيْعاً بها أو تَبَكُّلا (٣)

فُوَيق جُبيل شامخ لن تناله بقنته حتى تَكِلَّ وتُعْمِلا

فأبصر ألهابا من الطود دونه يرى بين رأسى كل نِيقَيْن مَهْبِلا (٤)

فأشْرَط فيها نفسه وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وتوكَّلا

وقد أكلت أظفارَه الصخرُ كلما تَعَيَّا عليه طول مَرْقًى تسهَّلا

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب . الزمخشرى ص ١٥ مشيم : شجاع . أبيض إصليت : سيف صقيل . صفراء عيطل : قوس طويلة . حنت : صوتت . مرزأة : مصابة

(٢) مبضوعة : مقطوعة (٣) التبكل : الغنيمة

(٤) الألهاب : جمع لهب : الصدع فى الجبل النيق : المكان المرتفع . المهبل : المنزل

فما زال حتى نالها وهو مشفق ... على موطن لو زل عنه تفصلا
فلما قضى مما يريد قضاءه ... وحل بها حرصا عليها فأطولا
أمر عليها ذات حد، غرابها ... رقيق بأخذ بالمداوس، صيقلا (١)
على فخذيه من براية عودها ... شبيه سفا البهمى إذا ما تفتلا (٢)
فجردها صفراء لا الطول عابها ... ولا قصر أزرى بها فتعطلا
كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ... ولا عجسها من موضع الكف أفضلا (٣)
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها ... إذا أنبضوا عنها نئيما وأزملا (٤)
وإن شد فيها النزع أدبر سهمها ... إلى منتهى من عجسها ثم أقبلا (٥)

ووصف راشد بن شهاب اليشكرى نباله بأنها متشابهة، وطوال، ووصف قوسه بأنها فرع من أعلى شجرة مصونة، وليست هذه الشجرة نابتة على سيف نهر فتكون ريآ دائما فتضعف أغصانها، وليست شجرة ضعيفة كالجيز مثلا:

ونبل قران كالسيور سلاجم ... وفرع هتوف لا سقى ولا نشم (٦)

٤) الدروع:

الدروع أردية من الحديد المنسوج حلقات متصلة، تلبس لتغطى الظهر والصدر ونصف الذراعين تقريبا، فترد الطعنات وتقى لابسها السهام.

ولم يكن لبسها والاتقاء بها جبنا وتهربا من الموت، بل كان حافزا على الصبر فى المواقع والثبات فى المقاتلة. وكان بعض الشجعان يلبس درعين لأنه هدف الأعداء. يقول علقمة بن عبدة فى مدح الحارث بن جبلة:

(١) غرابها: حدها. صيقل: صقال (٢) البهمى: نبات، وأسفت البهمى سقط سفاها
(٣) كتوم: لا صدع فى نبعها. طلاع الكف: ملء الكف. العجس: مقبض القوس
(٤) أنبضوا عنها: حركوا وترها: النئيم والأزمل: صوت القوس
(٥) الديوان ٢١ وشعراء النصرانية ٤٩٥ النزع: شد القوس
(٦) المفضليات ١٠٨/٢. قران: متشابهة. سلاجم: طوال. السقى: ما نبت على النهر. النشم: الشجر الضعيف

مظاهر سربالى حــــديد عليهما　　عقيلا سيوف مخذم ورسوب[١]

وفى يوم أحد كان على النبى صلى الله عليه وسلم درعان[٢]، وكانت درع على رضى الله عنه صدراً لا ظهر لها ، وقيل له فى ذلك فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبقِ[٣]

وقد نسبوها إلى فرعون وداود وسليمان وتُبَّع ومُحرق يريدون أنها قديمة جيدة الصنعة[٤]، فقد كان الناس وما زالوا يتخيلون أن القديم أجود صناعة وأشد إحكاما من الجديد . قال بشامة بن الغدير :

وحَشُوا الحرب إذا أوقدتْ　　رماحا طوالا وخيلا فحولا

ومن نسج داودَ موضونةً　　ترى للقواضب فيها صليلا[٥]

وقال طرفة :

وهُمْ ما هُمْ إذا ما لبسوا　　نسج داود لبأسٍ مُحتضَر[٦]

وقال سلامة بن جندل :

لبسوا من الماذى كل مُفاضة　　كالنهى يوم رياحه الرقراق

من نسج داود وآل محرق　　غال غرائبهن فى الآفاق[٧]

ونسبوها أيضا إلى سَلُوق — قرية اليمن — قال النابغة فى وصف سيوف الغساسنة :

تقد السَّلُوقىَّ المضاعفَ نسجه　　وتوقد فى الصُّفاح نار الحُباحب[٨]

ونسبوها أيضا إلى الفرس ، قال عمر بن امرىء القيس إنهم يمشون فى الدروع الفارسية كأنهم فحول الإبل :

---

(١) المفضليات ٢/١٩٤ مخذم : قاطع . رسوب : غائص فى الضريبة وكان الحارث يحمل سيفين أيضا

(٢) عيون الأخبار ١/١٢٨

(٣) المرجع نفسه ١/١٣١　　(٤) العمده ٢/١٧٩

(٥) المفضليات ١/٥٧　　(٦) ديوان طرفة ٥٨　　(٧) ديوان سلامة بن جندل ١٤

(٨) العقد الفريد ١/٢١٥ الصفاح : حجارة رقاق عراض . نار الحباحب : ما اقتدح من شرر النار من اصطكاك الحجارة ، أو نار ذباب يطير بالليل له شرر كالسراج

إذا مشينا في الفارسيّ كما ... تمشي جمال مصاعب قُطُف

نمشي إلى الموت من حفائظنا ... مشيا ذريعا وحكمنا نَصَف(١)

وقال دريد بن الصِّمَة في رثاء أخيه :

نصحتُ لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بني السوداء والقوم شهّدى

فقلت لهم ظنوا بألفْيّ مدجَّج ... سَرَاتهم في الفارسيّ المسَرّد(٢)

ونسبوها إلى عاد ، قال راشد بن شهاب اليشكري بعد أن افتخر بسيفه ونبله وقوسه ورمحه ودرعه :

لعاديّةٍ من السلاح استعرتها ... وكان بكم فقر إلى الغدر أو عَدَم(٣)

ونسبوها إلى تُبَّع . قال المزرد بن ضرار الذبياني في وصف سلاحه ، إن له درعا ضافية واسعة منسوبة إلى تبع ملك اليمن ، وقد شدت المسامير حلقاتها وأحكمت اتصالها ، ولذا تتهيبها السهام الطوال ذات النصل العريض ، وهي درع لينة ملساء تشبه ظهر السمكة لينا وملاسة ولذا تعجز عن قطعها الرماح والسهام ، وفيها طرائق كالوشاح ، سابغة ضافية تزيد على أنامله ، ذات صيت يدوى ، فإذا اجتمعت القبائل للذياد عن المحارم أشارت الأيدي إليها .

وَمَسْفُوحَةٌ فضفاضة تُبَّعِيَّة ... وآها القتير تجتويها المعابل

دِلاصٌ كظهر النون لا يستطيعها ... سِنانٌ ولا تلك الحِظاء الدَّواخل

ومُوَشَّحَةٌ بيضاء دانٍ حبيكها ... لها حَلَقٌ بعد الأنامل فاضـــل

مُشَهَّرَةٌ تُثْنَى الأصابعُ نحوها ... إذا جُمِعَتْ يوم الحِفاظ القبائل(٤)

وقد أعجبوا بسبوغ الدرع وافتخروا به ، قال امرؤ القيس في قصيدة يهدد بها بني أسد بقوته وعدده الحربية .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٦٢ (٢) جمهرة أشعار العرب ٢٢٥

(٣) المفضليات ٢/١٠٩

(٤) المفضليات ١/٩٦

وَمَسْرُودة السَّك موضونة تَضَاءلُ في الطي كالمِبرد
تَفِيضُ على المرء أردانُها كفيضِ الأتيِّ على الجَدْجَد (١)

ووصف راشد بن شهاب اليشكري درعه بأنها ذات رءوس من المسامير تصل الحلقات وأنها مستوية المواصل ، ومنسوجة حلقتين حلقتين نسجا محكما ، وأنها قديمة منسوبة إلى حُطَمة بن محارب بن عبد القيس وكان صانع درع ، ثم هي ضافية سابغة تغطي الكف والأصابع والقدم :

ومُطَّرِدُ الكعبين أسمر عاترٌ وذات قتير في مواصلها دَرَم
مضاعفة جدلاء أو حُطَمية تُغَشّي بنان المرء والكف والقدم (٢)

وقد افتخر عمرو بن كلثوم في معلقته بعددهم الحربية ومنها الدروع السوابغ ، قال ان دروعهم كاسية ضيقة الحلق محكمة النسج خفيفة حتى إنها تتغضن ، وإنهم قد ألفوا لبسها حتى إنها سَوَّدت جلودهم ، وعاد إلى تغضنها فشبهها بسطح الغدير إذا مرت به الريح :

علينا كل سابغة دِلاصٍ ترى فوق النطاق لها غضونا
إذا وُضعت عن الأبطال يوما رأيت لها جلود القوم جُونا
كأن غضونهن متُون غُدْرٍ تُصَفِّقها الرياح إذا جَرينا

وكانوا معجبين بالدروع الخفيفة التي تبدو غضونها ، وكلفين بتشبيه غضونها بتجعدات الماء إذا ما صفقه النسيم ، فهذا أوس بن حجر يصف درعه بهذا كما وصف عمرو بن كلثوم ، ويزيد عليه أن درعه وضاءة كأن أشعة الشمس تنبعث منها ، وهو معجب بها ، يقي بها نفسه ، ويتحصن ، ويتزين :

وأمْلَسَ حَوْلِيّاً كنِهْيٍ قرارُه أحَسَّ بقاعٍ نَفْحَ ريح فأجفلا
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طَلْقًا من النجم أعزلا

(١) شعراء النصرانية ٤١ الأتي : السيل . الجدجد : الأرض الصلبة المستوية
(٢) المفضليات ٢/١٠٨ درم : استواء .

تردد فيه ضوؤها وشعاعها ... فأحصن وأزين لامرئ أن تسربلا (١)

وافتخر عنترة بأن وسادة درعه وسيفه ، وبأن مقيله ظهر حصانه :

أيا عبلُ ما كنت لولا هواك ... قليل الصديق كثير الأعادى
وحقك لا زال ظهر الجواد ... مقيلى ، وسيفى ودرعى وسادى (٢)

وافتخر بأن سنان رمحه كثيراً ما اخترق الدروع فوصل القلوب بالدروع :

ولو أن السنان له لسان ... حكى كم شكَّ درعا بالفؤاد (٣)

٥) البيضة :

القونس أو المغفر أو البيضة غطاء الرأس فى الحرب ، كانوا يقون بها رءوسهم من السيوف ، قال عباس بن مرداس :

فلم أر مثل الحى حيا مُصَبَّحًا ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرّ وأحمى للحقيقة منهم ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا (٤)

وقال الأخنس بن شهاب بن شريق إنهم يضربون رئيس القوم وحاميهم وهو يلبس البيضة ضربا تسيل منه الدماء طرائق على وجهه :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه ... على وجهه من الدماء سبائب (٥)

وقال المهلهل فى رثاء كليب ووعيده بالانتقام من بكر :

وترى سباع الطير تنقر أعينا ... وتجر أعضاء لهم وضلوعا
والمشرفية لا تعرج عنهم ... ضربا يقُدُّ مغافرا ودروعا (٦)

٦) الترس :

المجن والترس والدَّرقة بمعنى واحد ، وهو ما يعمل من بعض الجلود للوقاية من وقعات السيوف على الأبدان .

---

(١) الديوان ٢١ وشعراء النصرانية ٤٩٤ النهى : الغدير . الطلم : المكان المرتفع . النجم : النبات . أعزل : متجرد . تسربل : لبس

(٢) ديوان عنترة ٥٣ (٣) الديوان ٥١ (٤) الحماسة ١/١٧٥

(٥) المفضليات ٢/٧ سبائب : طرائق (٦) شعراء النصرانية ٢/١٧٢

وقد عدد المزرّد بن ضرار عدده الحربية ومنها الترس اللامع كأنه الشمس فى طبقات الغمام :

وجَوْبٌ يُرَى كالشمس فى طَخْية الدجى وأبيض ماض فى الضريبة قاصل (١)

وعدد أيضا أبو قيس بن الأسلت عدده التى يخوض بها الحروب ومنها الترس :

أحفزها عنى بذى رونق مهند كالملح قطّاعِ

صَدْقٍ حسام وادقٍ حده ومُجْنأ أسمر قرّاعِ (٢)

٧) اللواء :

علم يمسكه رئيس المحاربين ، ثم صار يحمله على رأسه . وقال أبو بكر بن العربى : اللواء غير الراية لأن اللواء ما يعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفعه الرياح ، وقيل اللواء دون الراية ، وقيل اللواء العلم الضخم . والعلم علامة على محل الأمير يدور معه حيث دار . والراية يتولاها صاحب الحرب .

وكانت عاداتهم اتخاذ اللواء فى حروبهم ، ومن عاداتهم جعل الرايات فى أطراف الرماح ، ومن هنا نعرف الحكمة فى إضافة الظل إلى الرمح فى قوله صلى الله عليه وسلم : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » .

وبعض اللغويين لم يفرق بين العلم والراية واللواء ، قال الفيروزابادى : العلم : الراية وما يعقد على الرمح ، وقال : اللواء : العلم (٣)

ولقد تتعدد الألوية فى الجيش الواحد ، ففى غزوة أحد خرجت قريش وحلفاؤها ومعهم ثلاثة ألوية عقدوها فى دار الندوة ، لواء يحمله سفيان بن عويف لبنى كنانة ، ولواء الأحابيش يحمله رجل منهم ، ولواء قريش يحمله طلحة بن أبى طلحة . ويقال خرجوا جميعا بلواء واحد يحمله طلحة (٤)

(١) المفضليات ١/٩٧ جوب : قوس

(٢) المفضليات ٢/٨٤ مجنأ : معطوف منحن أراد به الترس وجعله أسمر لأنهم كانوا يتخذون الترس من جلود الإبل . القراع الصلب

(٣) القاموس المحيط مادة علم ولوى

(٤) شرح نهج البلاغة ٣/١٥٩

وكان لواء المسلمين مع مصعب بن عُمير ، ولما قتل أعطاه رسول الله على بن أبي طالب(١)

وكان حامل اللواء يختار شديداً شجاعا ، روى ابن هشام أن عثمان بن أبي طلحة كان يحمل لواء المشركين يوم أحد ويقول :

إن على أهل اللواء حقا ... أن يَخْضبوا الصَّعْدة أو تَنْدقَّا(٢)

٨) الخيل :

أعزوها ، وحدبوا عليها . وافتخروا بها ، لأنهم كانوا يمتطونها في كرهم وفرهم ، وكانوا في طريقهم إلى المعركة يركبون الإبل ، ويقودون الخيل ليريحوها ، فإذا قربوا من عدوهم نزلوا عن الإبل وامتطوا الخيل ، لأنها أكثر عونا وأسرع حركة ، وكذلك فعلت قريش في غزوة أحد ، فقد تعبأت في ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فارس قد جَنَبوها ، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل(٣) .

وكثيراً ما كانوا ينزلون عن الخيل ويقاتلون على أقدامهم ، ويتداعون : نَزَالِ ، كما قال ربيعة بن مقروم الضبي :

ولقد شهدت الخيل يوم طِرادها ... بسليم أَوْظِفَةِ القوائم هيكل
فدعوا نَزَالِ فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل(٤)

وقال مهلهل .

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا ... وأخو الحرب من يطيق النزولا(٥)

وكان الرجل منهم يبيت طاويا ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وولده ، من ذلك قول ربيعة بن مقروم الضبي :

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٠
(٢) سيرة ابن هشام ٣/٢٠
(٣) سيرة ابن هشام ١/١١
(٤) بلوغ الأرب ٢/٨٥
(٥) بلوغ الأرب ٢/٨٥

وثَغْرٍ مَخُوفٍ أقمنا به ... يَهَابُ به غيرنا أن يُقيما
جعلنا السيوفَ به والرماحَ ... معاقلنا والحديدَ النَّظِيما
وجُرْداً يُقرَّبْنَ دون العيال ... خلال البيوت يُلُكْنَ الشكيما
تَعوَّدُ في الحرب أن لا براح ... إذا كُلِمَتْ لا تَشَكَّى الكُلُوما(١)

وكانوا يخصونها بلبن الإبل، تقوية لها وإعزازاً. قال المتلمس في تهديده عمرو ابن هند:

أبقت لنا الأيام والـ ... ـأزْبات والعانى المرهق
جُرْداً بأطناب البيو ... ت تُعلّ من حَلَب وتُغْبَق(٢)

وقال الأعرج المَعْنِيُّ:

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّع ... تلوم وما أدرى علام تَوَجَّع
تلوم على أن أعطى الوَرْد لِقْحة ... وما تستوى والوَرْد ساعة تفزع
إذا هى قامت حاسراً مشمعِلّةً ... نَخِيبَ الفؤاد رأسها ما تُقَنَّع
وقمت إليه باللجام مُيَسَّراً ... هنالك يجزيني الذى كنت أصنع(٣)

وقال عنترة لامرأته، وكانت لا تفتأ تلومه فى فرس يؤثره على خيله:

لا تذكرى مهرى وما أطعمته ... فيكون جلدك مثلَ جلد الأجرب
إن الغَبُوقَ له وأنت مَسُوءةٌ ... فتأوهى ما شئت ثم تَحَوَّبى(٤)

فأنذرها أن يهجرها كأنها جرباء، وأصر أن يكون اللبن شراب فرسه فى كل مساء، وإن حزنت زوجته وتألمت.

---

(١) المفضليات ١/١٨٣

(٢) ديوان المتلمس ص٩ مخطوط بدار الكتب الأزبات: السنون الشداد. العانى: الأسير. المرهق: الذى أعجلته الخيل فرهقته

(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ٢٥١ وشرح ديوان الحماسة المرزوقى ١/٣٤٩ الورد: اسم فرسه. لقحة: لبن الناقة. مشمعلة: مسرعة. نخيب الفؤاد: طائرة اللب. ميسرا: مهيئا

(٤) ديوان عنترة ١٩

وقد صور حاجب بن حبيب الأسدى حواراً دار بينه وبين زوجته فى شأن فرسه ، تريد الزوجة أن يبيعه لينتفعوا بثمنه وقد راجت سوق الخيل ، ويأبى الزوج ويزداد إعزازاً لفرسه واعتزازاً به ، ويحدثها بميزاته والحاجة إليه فى الحرب والسلم :

باتت تلوم على ثادِقٍ   لِيُشْرَى فقد جَدَّ عصيانُها
ألا إن نجواكِ فى ثادق   سواءٌ علىَّ وإعلانُها
وقالت : أغثنا به إننى   أرى الخيل قد ثاب أثمانها
فقلت : ألم تعلمى أنه   كريم المَكَبَّة مِبْدانُها
كُمَيْتٌ أُمِرَّ على زَفْرَةٍ   طويلُ القوائم عريانها
تراه على الخيل ذا جرأة   إذا ما تقطع أقرانها
وهن يَرِدن ورود القَطَا   عُمَانَ وقد سَدَّ مُرَّانُها
طويل العنان قليل العثا   ر خاظى الطريقة رَيَّانها
وقلت ألم تعلمى أنه   جميل الطَّلالة حُسَّانها
يَجُمُّ على الساق بعد المِتان   جموماً ويُبْلَغ إمكانها(١)

وأكثروا من الحديث عنها ، وعن الجراح التى تصيبها من رماح الأعداء وسيوفهم وافتخروا بثباتهم بها فى اللقاء وهجومهم بها على الأعداء ، ومن أبدع ما قيل فى ذلك قول عنترة فى معلقته :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررتُ غيرَ مذمَّم
يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لَبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثُغْرة نحره   ولَبانه حتى تسربل بالدم

---

(١) المفضليات ٢/١٦٨ ثادق اسم فرسه . يشرى : يباع ثاب أثمانها : زادت . كريم المكبة نافع فى كب الأعداء والحمل عليهم ، مبدان : سمين . كميت : شديد الحمرة أو يخالط حمرته سواد . أمر فتل كالحبل ، الزفرة : واحدة الزفير أى كأنه زفر وصار على حاله وهو زافر ، عريان القوائم : معروق لا ترهل فى قوائمه ، المران : الرماح ، سد مرانها : المراد سدد أو سد الأفق : خاظى الطريقة : مكتنز الظهر ، الطلالة : ما برز منه ، حسانها : كامل الحسن ، يجم يكثر جريه ، المتان : البعد فى الغاية ، يبلغ إمكانها : تنال ساق منه ما تريد من الجرى أى أحركه بساقى فيزداد جريه

فازورّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلّمى

وقال إن حبيبته عبلة تمسى وتصبح على فراش وثير ، ولكنه يبيت فوق ظهر فرس أدهم ملجم ، وهو يستلين السرج كأنه حَشية ، ووصف فرسه بأنه غليظ القوائم منتفخ الجنبين سمينهما ، وهو فرس ضخم مشرف ، عظيم موضع الحزام :

تمسى وتصبح فوق ظهر حَشِيَّةٍ ... وأبيت فوق سَراةِ أدهم ملجم

وحَشِيَّتى سرجٌ على عبْل الشَّوى ... نَهْد مَرَاكِلُه ، نبيل المحْزِم

وقد اشتهر وصف امرىء القيس لحصانه ، وهو فى وصفه قد عزا إلى حصانه كل المزايا الجسدية التى تصوره قويا سريعا خفيفا ، فهو قصير الشعر ضخم الهيكل ، بارع فى الجرى إلى الأمام وإلى الوراء ، سريع كأنه صخرة تنحدر من أعلى الجبل يدفعها السيل . لونه بين السواد والحمرة ، وظهره أملس حتى لينزلج عنه اللبد ، وينزلق عنه الغلام الخفيف والرجل الثقيل المجرب للخيل ، وهو ضامر مندفع جياش كأن ضباحه إذا اشتد جريه غليان مرجل ، سبوح لا يكاد يطأ الأرض إذا ما أثارت الخيل البطاء الغبار لأنها تتلبث على الأرض . ويخيل لمن يراه يعدو أنه خذروف يدور فى عجلة وسرعة ، وشبهه فى بيت واحد بعدة تشبيهات : فخاصرتاه خاصرتا ظبى لضمورهما ، وساقاه ساقا نعامة لخفتهما وقلة لحمهما ، وجريه كجرى الذئب وإسراع الثعلب ، وهو عظيم الأضلاع طويل الذيل ، لامع الظهر ، كأن عليه طيب عروس أو دهن حنظل ، وقد اصطبغ صدره بدماء الصيد فكأنه شيب مصبوغ :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

كُمَيْت يزلُّ اللِّبْدُ عن حال متنه ... كما زلَّت الصفواءُ بالمتنزَّل

يزِل الغلام الخِفُّ عن صَهَواته ... ويلوى بأثواب العنيف المثقَّل

على الذَّبْل جياشٍ كأن اهتزامه ... إذا جاش فيه حَمْيُه غَلْىُ مِرْجل

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى ... أثرن الغبار بالكَدِيد المركَّل

دَرِيرٍ كخذروف الوليد أَمَرَّه ... تتابع كفيه بخيط موصَّل

له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سِرْحَانٍ وتقريب تتفل

ضليعٍ إذا استدبرته سد فرجه ... بضافٍ فويق الأرض ليس بأعزل

كأن على المتنين منه إذا انتحى ... مَدَاكُ عروس أو صلاية حنظل

كأن دماء الهاديات بنحره ... عصارةُ حِنَّاءٍ بشيب مُرَجَّل(١)

وبلغ من إعزازهم للخيل أن رفض أحد فرسانهم عبيد بن ربيعة التميمى أن يعطى أحد ملوكهم فرسه التى تسمى سكاب حين طلبها منه، وتوعد الملك أن يحاربه إذا ما حاول أن يأخذها عنوة :

أبيت اللعن إن سكاب عِلْقٌ ... نفيس، لا يعار ولا يباع

مُفَدَّاة مكرمة علينا ... يجاع لها العيال ولا تجاع

سليلة سابقَيْن تناجلاها ... إذا نُسبا يضمهما الكراع

ففيها عزة من غير نَفْرٍ ... يحيدها إذا حَرَّ القراع

فلا تطمع ـ أبيت اللعن ـ فيها ... ومنعكها بشىء يستطاع

وكفّى تستقل بحمل سيفى ... وبى ممن تَهَضَّمنى امتناع

وحولى من بنى جحفان شيب ... وشبان إلى الهيجا سراع

إذا فزعوا فأمرهم جميع ... وإن لاقوا فأيديهم شَعَاع(٢)

وهم على حق فى حرصهم على الخيل وفى إعزازها والفخار بها، لأنها تعينهم على النصر وتحميهم من الأعداء . قال عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وتحمينا غداة الروع جُرْدٌ ... عُرِفن لنا نقائذ وافتُلِينا

وردن دوارعا وخرجن شُعْثًا ... كأمثال الرصائع قد بلينا

(١) شرح القصائد العشر ٤٠

(٢) بلوغ الأرب ٢/ ٩٠ الكراع : مستدق الساق . القراع : الحرب . شعاع : متفرقة سريعة

ورثناهن عن آباء صـــدق ونورثها إذا متنا بنينا[1]

ومن إعزازهم للخيل واعتزازهم بها أنهم سَمّوها ونسبوها كما يسمون أبناءهم وينسبون رجالهم .

وقد مر بنا بعض أسمائها على ألسنة الشعراء ، ومن ذلك ما يذكره ابن هشام فى غزوة ذى قَرَد أن اسم فرس سعد بن زيد (لاحق) وفرس المقداد (بَعْزَجَة) أو (سَبْحة) وفرس عُكَّاشة بن مِحْصن (ذو اللِّمة) وفرس أبى قتادة (حَزْرة) وفرس عبَّاد بن بشر (لمَّاع) وفرس أُسَيْد بن ظُهَيْر (مسنون) وفرس أبى عيَّاش (جُلْوة)[2]

وكان لزيد الخيل — الذى سماه النبى زيد الخير — خيل كثيرة منها ستة ذكر أسماءها فى شعره ، فمثلا يقول فى الهطَّال :

أُقرِّبُ مربط الهطَّال إنى أرى حربا ستَلْقَح عن حِيال

ويقول فى الورد :

أبت عادة للورد أن يكره القَنا وحاجةُ نفسى فى نُمَيْرٍ وعامر

ويقول فى دوول :

فأقسم لا يفارقنى دوول أجول به إذا كثر الضِّراب[3]

وأحيانا كانوا يضطرون إلى التقاتل بالحجارة إذا فقدت الأسلحة أو لم توجد .

وكثيراً ما كانت النساء يساعدن رجالهن برمى الأعداء بالحجارة

قال عامر المحاربى :

نراوح بالصخر الأصم رءوسهم إذا القلع الرومى عنها تثلما[4]

وقال بعضهم :

---

(١) المعلقات الشنقيطي ١٠٦ النقائذ : جمع نقيذة : الفرس التي أنقذتها من العـدو والدرع أيضا ، افتلين : اخترناهن ، دوارع : عليهن الدروع ، شعث : مغبرة ، الرصائع : عقد اللجام

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٦/٣ (٣) الأغانى ٤٦/١٦

(٤) المفضليات ١١٩/٢

جلاميدُ أملاءُ الأكفِّ كأنها رءوسُ رجالٍ حلِّقت في المواسم [١]

وقال الأعشى :

ولا نقاتل بالعصـ ـىّ ولا نرامى بالحجارة

إلا عُلالة أو بُدا هة سابحٍ نهْدِ الجُزارة [٢]

وفى غزوة أحد قاتل أبو عامر والأحابيش الأوس بالحجارة قبل الموقعة [٣]

(هـ) الأسرى والسبايا

١ — الأسير من وقع فى قبضة الأعداء من الرجال المحاربين ، والسبية من وقع فى يدهم من النساء والأطفال ، والأسير والسبيُّ أيضا بمعنى واحد .

وطالما فخرُ الشعراء بأخذ الأسرى ، لأنه برهان عملى محسوس على النصر المبين ، ولذلك يقول أكثم بن صيفى فى إحدى خطبه : « وأهنأ الظفر كثرة الأسرى » [٤] .

ومن المفاخر التى شاد بها المهلهل أنهم أسروا أعداءهم :

فجاءوا يُهرَعونَ وهم أسارى نَقُودهم على رغم الأنوف [٥]

وافتخر عمرو بن كلثوم بعودتهم من الحرب ظافرين ، معهم الأسلاب والسبايا والأسارى وبعض الأسارى ملوك :

وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا

فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا

فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مصفَّدينا [٦]

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/١١٨ (٢) ديوان الأعشى ١١٤ العلالة : بقية السير . بداهة : مفاجأة (٣) سيرة ابن هشام ٣/١٢ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٦٦

(٤) أيام العرب ١٢٦ (٥) شعراء النصرانية ٢/١٨٠

(٦) المعلقات العشر الشنقيطى ١٠٥

٣) معاملتهم :

وكان الأسرى يساقون سوقاً فيه امتهان ، وهذا شأن الغالب والمغلوب ، وكان الأسير يُصَفَّدُ بغُل يمنعه من الحركة ويقيده فى تنقله :

أبلغ سَرَاةَ بنى شيبانَ مَألُكَةً — أنى أبأتُ بعبد الله بسْطَامَا
قاظ الشُّرَبَّةَ فى قيد وسلسلة — صَوْتُ الحديد يُغَنِّيه إذا قاما (١)

وقال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا — وأُبنا بالملوك مصفَّدينا

وفى بعض الأحيان كانوا يسخرونهم عبيداً ، فيستخدمونهم فى الخدمة ، قال المنخل اليشكرى :

ولقد شربت الخمر بالـ — عبد الصحيح وبالأسير

وفى بعض الأحيان كانوا يوردونهم حتفهم ، فقد أغار المنذر بن النعمان بن امرىء القيس على امرىء القيس بن حجر وإخوته وهم فى صيد ، فأصاب منهم اثنى عشر رجلا من بنى حجر بن عمرو لثأر كان له عند أبيهم ، ثم أمر بضرب أعناقهم (٢).

وفى يوم أوارة الأول أسر المنذر بن ماء السماء من بكر أسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل أوارة وأمر بالنساء أن يحرقن (٣).

وكان بنو سهم — بطن من هذيل — أسروا عمرو بن عاصية السلمى فى حرب كانت بينهم ولم يعرفوه ، فلما عرفوه قتلوه ، وكان قد عطش فاستسقاهم فمنعوه وقتلوه على عطشه . فقالت أخته ترثيه وتذكر ما صنعوا به :

هلا سقيتم بنى سَهْمٍ أسيركم — نفسى فداؤك من ذى غُلَّة صاد
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها — مُضَرَّجٌ بعد ما جادت بإزْباد (٤)

ولما أسر بنو تيم عبد يغوث بن صلاءة قال قبل مقتله قصيدة منها .

---

(١) قاظ : أقام وقت القيظ . الشربة : موضع ، أى أقام بهذا المكان
(٢) مهذب الأغانى ٧٥/١ (٣) أيام العرب ٩٩ (٤) الأغانى ١٣/١١ ساسى

أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا   فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلونى تقتلوا بى سيدا   وإن تطلقونى تَحْرُبونى بماليا

ولكن قتل الأسير كان فى أحوال شاذة ، لأن العرب كانوا يستقبحون قتل الأسرى ، يدل على ذلك قول ابن جفنة لعامر بن مالك : ما قتلنا أسيرا قط (١) .

٣) إطلاق الأسير .

وبعضهم كان يمن على الأسرى فيطلقونهم .

وأحيانا يجزون نواصيهم ، تشهيرا بهم ، وتوكيدا للذلة ، لذلك كان الآسر يخير أسيره بين جز الناصية والتخلية ، وبين الأسر ، فإن اختار جز الناصية جزها وخلى سبيله وجعل شعره فى كنانته ، وأخرجه فى المفاخرة (٢) .

ولما أسر زيد الخيل الحطيئة الشاعر جز ناصيته وأطلقه (٣) ، وكذلك فعل بعامر ابن الطفيل (٤) .

وكانوا يفاخرون بذلك ، كقول الخنساء :

جززنا نواصى فرسانهم   وكانوا يظنون أن لن تجزا (٥)

وكانوا يحرصون على جز ناصية الأسير الشريف ، ذلة له ، واعتزازا بالعفو عنه بعد المقدرة ، فمثلا بعد هزيمة الفرس وحلفائهم فى يوم ذى قار جاء أسود ابن بجير بن عائذ بن شريك العجلى إلى النعمان بن زرعة يستنجد به فجز ناصيته وخلى سبيله (٦) .

وكان إطلاق الأسير نعمة جديرة بأن يفخر بها صاحبها ، وأن يُمدح وقد أكثرت الخنساء فى رثاء أخيها صخر من مدحه بإطلاق الأسرى :

---

(١) المفضليات ١٥٥/١   (٢) مهذب الأغانى ٧٥/١
(٣) نهاية الأرب للنويرى   (٤) الأغانى ٥١/١٦   (٥) ديوان الخنساء ١٤٥
(٦) الأغانى ١٣٧/٢٠   (٧) الأغانى ١٣٧/٢٧ ساسى

إنى قد علمت وَجَدكَ باجـ ــد وإطلاقك العُنَاة الجناحا[1]

وقالت أيضاً :

رَدّادُ عادية فَكّاك عانيــــة كضيغم باسل ، للقرن هصّار[2]

وقالت :

ورب نُعمى منك أنعمتها على عُنَاة غُلُق فى الإسار[3]

وافتخر لبيد باطلاقهم الأسرى بغير فداء :

وعان فككناه بغير سوامة فأصبح يمشى فى المحلة جاذلا[4]

ولقد يطلقون الأسير مكرما إذا شفع فيه شاعر ذو مكانة أو عظيم فى قومه ، كما حدث لبنى تميم حين أسرهم الحارث بن أبى شمر الغسانى وفيهم شاس بن عبدة ، فقصده علقمة بن عبدة ومدحه وتشفع فى أخيه بقوله :

فلا تحرمنّى نائلا عن جناية فإنى امرؤ وسط القباب غريب

وفى كل حى قد خبطت بنعمة فَحُقّ لشاس من نداك ذنوب

فقال الحارث : نعم وأذنبه ! وأطلق شاساً وأسرى بنى تميم ، ومن سأل فيه الشاعر أو عرفه من غيرهم[5] .

ولما غزا عمرو بن هند طيئا وأسر منها ، وكان فى الأسرى قيس بن جحدر — جد الطرماح بن حكيم ، وابن خالة حاتم — وفد حاتم إلى عمرو — وكذلك كان يصنع — وسأله أن يطلقهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، فقال حاتم :

فككت عديًّا كلها من إسارها فأنعم وشفّعنى بقيس بن جحدر

أبوه أبى والأمهات امهاتُنا فأنعم فدتك اليوم نفسى ومعشرى

فأطلقه[6] .

---

(١) ديوان الخنساء ٣٥ العناة : الأسرى . الجناح الذين يجنحون الى الإطلاق

(٢) الديوان ١٣٦ (٣) الديوان ١٢٩ (٤) ديوان لبيد ٢٦

(٥) العمدة ٣١/١ خبطت : أعطيت . ذنوب : نصيب

(٦) الديوان ١٥ والأغانى ١٢٨/١٩ ساسى

وفى حديث بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومتمم بن نويرة عن أخيه مالك: «ولقد أسرنى بنو تغلب فى الجاهلية، فبلغ ذلك مالكا فجاء ليفتدينى، فلما رآه القوم أعجبهم جماله، وحدثهم فأعجبهم حديثه، فأطلقونى له بغير فداء»(١).

وفى أخبار الأعشى أنه هجا رجلا من كلب وعيره الناس بهجائه، فتغيظ منه، ثم أغار على قوم قد بات عندهم الأعشى فأسر نفراً وأسر الأعشى وهو لا يعرفه، فجاء حتى نزل بأسراه عند شريح بن السموءل، فمر شريح بالأعشى فنادى به الأعشى مستغيثا:

شريح لا تتركنّى بعد ما علقتْ   حبالك اليوم - بعد القِدِّ - أظفارى
قد جُلت بين بانقيا إلى عدن   وطال فى العجم تردادى وتسيارى
فكان أكرمهم عهداً وأوثقهم   عقداً أبوك بعُرْف غير إنكار

فطلب شريح من الكلبى أن يهب له هذا الأسير، فقال: هو لك، فأطلقه شريح، وحباه وأكرمه(٢)

ولقد يطلق الآسر أسيره أيضا جزاء مدحة يسمعها، ويؤثرها على الفداء، فقد أسر صعصعة بن محمود أحمر بن جندل، فبعث إليه سلامة بن جندل أبياتاً منها:

فإن شئتَ أهدينا ثناء ومِدْحةً   وإن شئت عدّيْنا لكم مائة معا

فأطلقه وقال: المدحة والثناء أحب إلينا(٣)

وقد ذكر كثيراً أنهم كانوا يشدون لسان الأسير إذا كان شاعراً حتى لا يهجوهم لأن عبد يغوث يقول:

أقول وقد شدوا لسانى بنِسْعَةٍ   أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا

---

(١) عيون الأخبار ٤/٣٢
(٢) الأغانى ٨/٧٩ ساسى
(٣) ديوان سلامة بن جندل ٢٣

ولست أعقل هذا ، لأن الأسير لا يستطيع أن يهجو ، وإن هجا فمن يروى هجاءه ؟

على أن القالى فسر بيت عبد يغوث بما يعزز هذا الاستبعاد ، فقال : هذا مثل ، لأن اللسان لا يشد بنسعة ، وإنما أراد افعلوا بى خيرا ينطلق لسانى بشكركم ، فإن لم تفعلوا فلسانى مشدود لا يقدر على مدحكم (١) .

٤) فداء الأسرى :

وأحيانا كانوا يفدون الأسرى فقد أسر رجل من هوازن فذهب أخوه مستشفعاً له ، فلم يفلح ، فذهب إلى عكاظ ينشد شعراً لعله يطلقه فأخفق ، ثم ذهب إلى أحد وجوه القوم فقال له : اشتر أخاك وعلىّ الثمن ولا يمنعك غلاؤه ، ثم أحاله على آخر .. فقال له : فإن وهب لى أخاك شكرته ، وإلا أغرت عليه حتى يتقينى بأخيك فإن نلتها وإلا دفعت إليه كل أسير من بنى تميم فاشتريت أخاك ، (٢) وهذا الشراء هو المفاداة ، من ذلك أن بنى عامر لما أسرهم زيد الخيل وطال عليهم الأسر قالوا : يا زيد فادنا (٣) .

وقد أسرت بنو شيبان الشنفرى الأزدى ولم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلا منهم ففدته بنو شيبان بالشنفرى (٤) .

وأكبر قيمة دفعت فى فداء أسير ثلاثمائة بعير ، فقد دفعتها أم بسطام بن عبد الله فداء لأبنها (٥) .

وقيل إن الأشعث بن قيس الكندى غزا مذحجا فأسر ففداى نفسه بألفى بعير وألف من الهدايا والطرف قاله الشاعر :

فكان فداؤه ألفى بعير وألفا من طريفات وتلد (٦)

---

(١) ذيل الأمالى ١٣٣

(٢) مهذب الأغاني ١/٩/٤٩

(٣) الأغانى ١٦/٥٤

(٤) الأغانى ٢١/٨٧

(٥) أيام العرب ٢٠٠

(٦) الميدانى ٢/١١

ودفع هوذة الحنفي ثلاثمائة بعير فداء لنفسه لما أسره بنو سعد ، وفي ذلك يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا ... بهوذة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانيا ... عليه وثاق القدّ والحلق السمر [1]

٥ — الزواج بالسبايا :

وأحيانا كانوا يستولدون السبايا ، وبعضهم كان يعتقهن ويتخذهن زوجات لهم ، ولكن السبايا ما كن لينسين قومهن ، فهن وإن طال العهد بهن يحنن للرجوع ، لأن العربية حرة أبية لا تتحمل السباء ولا طاقة لها بتعيير النساء لها ، فقد أصاب عروة ابن الورد امرأة من بني هلال اسمها ليلى بنت شعواء ، فمكثت عنده زمانا تظهر له إعجابا به وحبا له . ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع ، وتوعده قومها بالقتل ، وندم على أنه سكر وأجابهم إلى ما طلبوا وتحسر على زوجته في قصيدة طويلة [2] .

ولقد تبخع السبية الحرة نفسها حتى لا يستذلها الإسار ، كما فعلت فاطمة بنت الخرشب أم الربيع بن زياد وإخوته ، ذلك أن حمل بن بدر أغار على بني عبس فظفر بفاطمة راكبة على جمل لها ، فقادها بجملها ، فقالت : أي رجل ضل حلمك . والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك وراءنا لا يكون بينك وبين بني زياد صلح أبدا ؛ لأن الناس يقولون في هذه الحالة ما شاءوه ، وحسبك من شر سماعه . قال : إني ذاهب بك حتى ترعى على إبلي . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير ، فماتت ، خوفا من أن يلحق بنيها عار [3] . وقد أسرت امرأة من طسم يقال لها عنز ، وحملها آسروها في هودج وألطفوها بالقول والفعل ، فقالت : « شر

---

(١) الأغاني ١٦/٧٦ ساسي

(٢) الأغاني ٣/٧٦ الدار ، والشعر والشعراء ٢٦٠ (٣) الأغاني ١٦/٢١

يوميا وأغواه لها ، أى شر أيامى حين صرت أكرم وأناسبية [١] .

على أن أنفة المرأة من السبي ليست دليلا على سوء معاملة العرب للسبايا ، فقد كانوا يكرمونهن ويخالطونهن بنسائهم إلا فى حالات قليلة يتملك فيها الحقد والتشفى .

وكانوا يتزوجونهن كما قدمنا . وكثير من ساداتهم أبناء سبايا ، مثل دريد ابن الصمة ، فأمه ريحانة بنت معد يكرب ، أسرها الصمة بن عبدالله ثم تزوجها فأنجبت دريداً وإخوته ، وهى التى يقول أخوها عمرو فى حديث إسارها :

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع
سباها الصِّمة الجُشَمي غصبا ... كأن بياض غُرتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس ... تَكَشَّفُ عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع [٢]

(و) الصلح

تشتعل الحرب ، فتزهق الأرواح وتوتم الأطفال ، وترمل النساء ، وتثكل الأمهات ، وتخرب وتدمر ، فتستيقظ فى نفوس المتحاربين أحيانا نوازع الخير والسلام والأمن . ويأسى بعض عقلائهم وأشرافهم مما يرى من دماء تراق ، وصلات تنقطع ، وذعر يقض المضاجع ، فتنازعهم نفوسهم إلى الصلح ، على أن تقدر ديات للقتلى من الفريقين ، أو تسلم القبيلة القاتل للقصاص .

رووا أن سيار بن عمرو بن جابر الفزارى احتمل دية شرحبيل بن الأسود ابن المنذر ألف بعير — وهى دية الملوك — فانفض النزاع الذى كان بين القبيلتين [٣] .

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٣٢٨

(٢) الأغانى ٩/٢ ساسى الصديع : الصبح

(٣) العقدالفريد ٦/١٥

ووساطة الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرى بين عبس وذبيان واحتمالهما ديات القتلى — مشهورة ، وقد أشاد بها زهير فى معلقته :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وُجدتما ... على كل حال من سَحيل ومُبرَم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم

وللحلحلة بن قيس الكنانى قصيدة جيدة تحدث فيها أنه نهى أبا عمرو عن الحرب ، وبين له جناياتها حتى على المنتصرين ، فلما يئته وتمادى فى شره قابل شره بمثله ، فنكب الجميع بجرحى وموتى وبكاء .

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى ... برأى رشيد أو يؤول إلى عزم
وقلت له دع عنك بكراً وحربها ... ولا تركبَنْ منها على مركب وخْم
ومهلا عن الحرب التى لا أديمها ... صحيح ولا تنفك تأتى على سُقْم
فإن يظفر الحزب الذى أنت فيهم ... وآبوا بِدُهْم من سِباء ومن غُنْم
فلا بد من قتلى ، وعلَّك فيهم ... وإلا فجرح ليس يَكْنى عن العظم
دعانى يَشُبُّ الحربَ بينى وبينه ... فقلت له : لا ، بل هلم إلى السلم
فلما أبى أرسلت فضلة ثوبه ... إليه فلم يرجع بعزم ولا حزم
وأمهلته حتى رمانى بجَرِّها ... تغلغل من غَى غوىٍّ ومن إثْم
فلما رمانيها رميت سواده ... ولا بد أن ترمى سواد الذى يرمى
فبتنا على لحم من القوم غودرت ... أسنتنا فيه ، وباتوا على لحم
وأصبح يبكى من بنين وإخوة ... حسان الوجوه طيبى الجسم والنَّسْم
ونحن نبكِّى إخوة وبنيهم ... وليس سواء قتل حق على ظلم (١)

(٢) حماسة البحترى ٧٣ـ٧٤

وكذلك كان يتوسط الأشراف فى الصلح فيحتسبون دماء القتلى من الفريقين ، ومن زاد قتلاهم أخذوا ديتهم : للصريح ديته وللحليف ديته ، كما حدث يوم سمير ، فقد أرسل الأوس إلى ثابت بن المنذر بن حرام فقالوا له : إنا حكمناك . فقال : أخاف أن تنقضوا حكمى كما رددتم حكم عمرو بن قيس . فقالوا : إنا لا نرد لك حكما فاحكم بيننا . قال : لا أحكم حتى تعطونى موثقا وعهدا أن ترضوا بحكمى وما قضيت ، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم ، فحكم بأن يودى حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة بينهم على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى الذين أصاب بعضهم من بعض فى حربهم ، ثم يكون بعضهم ببعض ، ثم يعطوا الدية لمن كان له فضل فى القتلى من الفريقين [١] .

وفى المفاخرة التى كانت بين طريف بن العاص والحارث بن ذبيان عند بعض مقاول حمير قال الحارث إن سبب خروجهم عن قومهم ولحاقهم بالنمر بن عثمان أن هجينا لقوم طريف قتل هجينا لنا وعرضوا علينا أن نأخذ ديته نصف دية الصريح فأبينا إلا دية الصريح ، وأبوا إلا دية الهجين ، فتظاهروا علينا حسدا فلحقنا بأمنع بطن من الأزد وثأرنا لصاحبنا [٢] .

ولم تكن شهوة الانتقام والثأر والكلف بالحروب لتحجب عنهم شرورها ، ففى كلامهم ما يدل على معرفتهم بويلاتها ، قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب : صف لنا الحرب ، قال : مُرّة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عُرِف ، ومن نكل عنها تَلِف ، ثم أنشأ يقول :

الحرب أوّلَ ما تكون فتيّةً ... تسعى بزينتها لكل جَهُول
حتى إذا حَميتْ وشب ضرامُها ... عادت عجوزا غيرَ ذات خليل
شمطاءَ جزّت رأسها وتنكرت ... مكروهةً للشّم والتّقبيل

---

(١) أيام العرب ٦٦ (٢) الأمالى ٧٢/١

وقيل لعنترة الفوارس : صف لنا الحرب ، فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بَلْوى(١) .

وقد أجاد زهير فى التنفير من الحرب إذ يقول : لقد جربتم الحرب وذقتم ويلاتها ، وما أحدثكم عنها حديثاً مكذوبا ، وإنكم لتعلمون أنكم إذا أشعلتموها احترقتم بآثارها وذممتم عواقبها ، وإذا أهجتموها استشرت وافترست ، وأهلكتكم وحطمت قواكم كما تحطم الرحى ما تطحنه . ثم إن الحرب تلد الحرب لأن العداء يورِّث جيلا عن جيل ، والحرب تلد توءمين ، يقصد أن شرورها تتضاعف ، ولن يكون المولودون والناشئون فى بيئة تضطغن بالعداء والبغضاء إلا موتورين ناقمين مشائيم يجدون فى الثأر وتأريث الشر ، كأن كلا منهم أحمر عاد الذى عقر الناقة فأهلك القوم ، وسخر زهير وتهكم إذ قال لقومه إن شرور الحرب ستفوق فى كثرتها خيرات العراق ، أو أن الديات التى تتقاضونها ستنافس فى الكثرة هذه الخيرات :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتَضْرَ إذا ضرَّيتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم تُرضع فتَفْطم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها ... قُرًى بالعراق من قفيز ودرهم(٢)

ويقول النابغة الجعدى :

ألم تعلموا ما تورث الحرب أهلها ... وعند ذوى الأحلام منها التجارب
لها السادة الأشراف تأتى عليهم ... فتهلكهم والسابحات النجائب
وتستلب المالَ الذى كان ربه ... ضنينًا به والحرب فيها الحرائب

ويقول معن بن أوس :

---

(١) العقد الفريد ١/١٠٩ ورواها جامع شعراء النصرانية لامرىء القيس ١/٦٢
(٢) المعلقات العشر . الشنقيطى ٨٣

دعانی أشب الحرب بینی و بینه فقلت له لا بل هلمّ إلى السلم
وإياك والحرب التی لا أدیمها صحیحٌ ولا تنفك تأتى على رغم
فلما أبی خلیتُ فضل عنانه إلیه فلم یرجع بحزم ولا عزم
فکان صریع الخیل أول وهلة فبعداً له مختارَ جهل على علم[1]

(٢) الثأر

١ — ولا بد أن تنجلی الحرب عن جرحى وقتلى وأسرى ، وعن تخریب وتدمیر ، ولا بد أن یُعقب هذا فی نفس المهزوم والموتور حفیظة وموجدة لا یطفئها إلا أن یثأر لقتلاه .

وبلغ من کلفهم بالثأر أنهم کانوا یتجافون النساء والخمر والطیب ، لأنها ضرب من التنعم والبهجة لا یلیق بحزین موتور ، أو لأنها قد تلهی وتشغل عن الجد فی الثأر . قال المهلهل :

خذ العهد الأکید علیّ عمری بترکی کلَّ ما حوت الدیار
وهجری الغانیات وشربَ کأس ولُبْسی جبة لا تستعار
ولستُ بخالع درعی وسیفی إلى أن یخلع اللیلَ النهارُ
وإلا أن تبید سَراةُ بکر فلا یُبْقَى لها أبداً آثار[2]

وقال قیس بن الخطیم :

ومنا الذی آلى ثلاثین لیلة عن الخمر حتى زارکم بالکتائب
ولما هبطنا الحرث قال أمیرنا حرام علینا الخمر ما لم نحارب
فسامحه منا رجال أعزة فما برحوا حتى أُحلَّتْ لشارب

---

(١) جمهرة الأمثال لأبی هلال ٩٣
(٢) شعراء النصرانیة ١٦٤ وأخبار المراقسة وأشعارهم ٤٩

ويظهر أن الخمر كانت أهم ما يصدون عنه، ولهذا فقد أكثروا من التحدث بتركها حتى يثأروا، قال دريد بن الصمة:

شَلَّتْ يميني ولم أشرب مُعَتَّقَةً إن أخطأ الموتُ أسماء بن زنباع

وحدثوا أن امرأ القيس حلف ألا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأر أبيه، فلما أدرك بعض ما يشفيه قال:

حلت لى الخمر وكنت امرأ عن شربها فى شُغُل شاغل
فاليوم أُسْقَى غير مستحقب إثماً من الله ولا من واغل (١)

وقال تأبط شرّاً:

حلت الخمر وكانت حراما وبِلَأْيٍ ما أَلَمَّتْ تحـــل
فاسقنيها يا سوادُ بنَ عمرو إن جسمى بعد خالى لخَلّ (٢)

وقد فصّل المثلم بن عمرو التنوخى آلامه إن لم يثأر: فى صدره هم راسخ كالجبل لا يحس للخمر ولا لأى شراب لذة وإن كان العسل، ولن يزول همه إلا إذا ثأر:

إنى أبى الله أن أموت وفى صدرى همٌّ كأنه جبـل
يمنعنى لذةَ الشراب وإن كان قطابا كأنه العســـل
حتى أرى فارس الصَّمُوت على أكْسَاءِ خيل كأنها الإبل
لا تحسبنِّى مُحَجَّلًا سَبِطَ السا قين أبكى أن يَظْلَعَ الجمل
إنى امرؤٌ من تنوخَ ناصرُهُ محتمِلٌ فى الحروب ما احتملوا (٣)

---

(١) الديوان ١٥٢

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٦٠ خل: ضعيف هزيل

(٣) المؤتلف والمختلف ١٨١ وشرح الحماسة ٢/١٨ قطاب: ممزوج بغيره. فارس الصموت: يريد به نفسه والصموت اسم فرسه أو حيه. أكساء خيل: على مآخيرها المفرد كسء وشبهها بالإبل لعظمها وطولها. محجل: مقيد أو ذو حجلة كالنساء والمعنى أنه لا يبكي إذا مس الظالم جمله خوفا من أن يمنى أو لا يجزع من النازلة الصغيرة كما يجزع الرجل من ظلع جمله. سبط: رخو

وكان عصمة بن حدرة اليربوعي قد نذر ألا يطعم لحما ، ولا يشرب خمراً ، ولا يقرب امرأة ، ولا يغتسل ، حتى يقتل من بني عبس سبعين رجلا بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكنني من عبس   ساغ شرابي وشفيت نفسي
وكنت لا أقرب طهر عرس   وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالوخاف رأسي(١)

٢ ـ الثأر من الأقارب :

ولم تكن القرابة الآصرة لتحول بين الأكثرين وبين الاشتفاء بالثأر من أقاربهم ، قال قيس بن زهير بن جذيمة العبسي في قتله حمل بن بدر يوم جفر الهباءة ثأراً لأخيه مالك الذي قتل في أول الحرب :

شفيت النفس من حَمَل بن بدر   وسيفي من حُذَيفة قد شفاني
فإن أك قد بردت بهم غليلي   فلم أقطع بهم إلا بناني

فهو يصور عاطفة راحته بالانتقام مشوبة بعاطفة الأسى والندم ، لأنه ثأر من قريبه وهما منه كالإصبع من كفه ، ضروريان لا غنى عنهما وبترهما موجع .

فالقرابة ما كانت لتكفكف من حفيظة غير الحكماء ، ولم يكن يشفيهم إلا أن تنهل رماحهم من دماء أقاربهم الذين قتلوا من هو أقرب منهم ، وإذا ما ذكرهم بعض العقلاء بحق القرابة اتهموا مذكريهم بأنهم لا يحسون إحساسهم ، ولو أحسوه ما حاولوا أن يثنوهم ، قال زيادة الحارثي :

أبعد الذي بالنَّعف نَعْف كويكب   رهينة رمس ذي تراب وجندل
أُذَكَّر بالبقيا على من أصابني   وبقياي أني جاهد غير مؤتلي
فإن لم أنل ثأري من اليوم أو غد   بني عمنا فالدهر ذو متطوَّل

---

(١) معجم الشعراء ٢٧٤ الوخاف : الخطمي يغسل به الرأس

فلا يدعُنى قومى ليوم كريهة ... لئن لم أعجّل ضربة أو أعجل
أنختم علينا كلكل الحرب مرة ... فنحن مُنيخوها عليكم بكلكل
يقول رجال ما أصيب لهم أبٌ ... ولا من أخٍ : أقبل على المال تُعْقَل
ذكرتُ أبا أروَى فأسبلتُ عبرة ... من الدمع ما كانت عن العين تنجلى (١)

وقال أبو سفيان فى غزوة أحد :

ولو أننى لم أشف نفسى منهم ... لكانت شجاً فى القلب ذات ندوب (٢)

ولقد تصطرع فى نفس ولى الدم عاطفة الثأر للعزيز القتيل ، وعاطفة الحب للقريب القاتل ، فتتغلب الثانية ، ويقنع بالأسى والحسرة ، ويبقى على واتره ، قال أعرابى قتل أخوه ابناً له :

أقول للنفس تأساء وتعـــزية ... إحدى يدَىَّ أصابتنى و لم تُرِد
كلاهما خَلَفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى (٣)

وقال الحارث بن وَعْلة الجَرْمى ، وقد فجعه قومه فى أخيه ، إنه إذا ثأر منهم أصاب نفسه وأوهن عظمه ، ولكنه سيعفو عنهم ، والعفو إذاً عظيم :

قومى هم قتلوا أُمَيْمَ أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفونْ جللا ... ولئن سطوت لأوهِنَنْ عظمى (٤)

ولقد يجدُّ الرجل ليثأر لقريب له ، وهو على ثقة أنه إن قتل فسيثأر له قريبه ، فمثلا تأبط شراً كان يثأر لخاله ، وتوقع أن يثأر له ابن أخته إذا ما هلك :

إن بالشِّعب الذى دون سَلْع ... لقتيـــلا دمه ما يُطَلّْ
خَلّف العبء علَىَّ وولّى ... أنا بالعبء له مستقلّْ
ووراء الثأر منى ابن أخت ... مَصـــعٌ عقدته ما تُحَلّْ

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/ ١٣٠ النعف : مقدم الجبل . كويكب : جبل . البقيا : الإبقاء . مؤتلى : مقصر . متطول : طول . تسقل : تقدم لك الدية . أبو أروى : كنية أبيه زياد الحارثى

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٢ . (٣) الحماسة ١/ ٧٣ (٤) الحماسة ١/ ٧٢

مطرق يرشح سمًّا كما أطرق أفعى ينفث السمَّ صلُّ (١)

٣ ــ النساء والثأر :

وكانت النساء يؤججن الصدور حفيظة ويلهبن النفوس حمية للأخذ بثأر القتيل ، قالت الخنساء فى رثاء صخر :

ولن أسأل قوما كنت حربهم   حتى تعود بياضاً جُؤْنَةُ القار (٢)

وقالت تحرض قومها :

لا نومَ حتى تعود الخيل عابسة   يَنْبِذْنَ طرحا بمهرات وأمهار
أو تَحْفِروا حَفْرَةً والموت مكتنع   عند البيوت حُصينا وابن سيار
فتغسلوا عنكمُ عاراً تجللكم   غسل العوارك حيضاً بعد أطهار (٣)

فى لا تقر ولا تريد أن يقر قومها حتى يهجموا على الأعداء هجمة قاسية صارمة تعبس منها الخيل وترمى ما فى بطونها ، وتنجلى الغزوة عن قتل واتريها ، وعن غسل العار الذى لصق بقومها .

ومن التحريض العجيب للأخذ بالثأر ما يروى أنه كانت لبنى رئام عجوز تسمى خويلة ، وكان يدخل عليها أربعون رجلا كلهم محرم ، بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ــ وهم جميعاً من قضاعة جيران بين الشحر وحضرموت ــ فقتلوا من بنى رئام ثلاثين رجلا ، وأقبلت خويلة مع الصباح فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها قلادة وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمَرْضَاوَى بن سَعْوَة المهرِىّ وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه وأنشأت تقول :

---

(٥) الحماسة ١/٣٤٨ الشعب : الطريق في الجبل . سلم : مكان . بطل : بهادر . مصمم : ثابت شديد في القتال . مطرق : ناظر بعينيه الى الأرض . صل : خبيث من الأفاعى

(١) ديوان الخنساء ١١٢ . جؤنة : سواد

(٢) الديوان ١١٧ تحفروا : تطعنوا . مكتنم : دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريان قاتلا صخر .

يا خير معتمد وأمنع ملجأ | وأعز منتقم وأدرك طالب
جاءتك وافدة الثكالى تغتلى | بسوادها فوق الفضاء الناضب
هذى خناصر أسرتى مسرودة | فى الجيد منى مثل سمط الكاعب

. . . .

فابرد غليل خويلة الثكلى التى | رميت بأثقل من صخور الصاقب
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه | علق بثوبى داهن أو ناعب

فخرج فى منسر من قومه، فطرق ناعبا وداهنا فأوجع فيهم (١).

ولم تتحرز المرأة من تشبيه قومها — إذا لم يثأروا لأخيها — بالنساء العواهر، فلم يكفها أن يكونوا نساء فزادت هذا الوصف المنفر، قالت هند بنت حذيفة فى رثائها لأخيها حصن :

فإن أنتم لم توطئوا القوم غارة | يحدث عنها وارد بعد صادر
وترموا عقيلا بالتى ليس بعدها | بقاء فكونوا كالنساء العواهر(٢)

٤ — أثر البيئة فى أهمية الثأر :

والثأر نظام بدوى حيث لا حكومة ولا محاكم ولا سلطة تحول بين الموتور والواتر، وقد كان هناك شيوخ القبائل، ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة التنفيذية التى بها يقتصون من الجانى، لأن القبيلة لم يكن لها قانون جنائى، فليس أمام الموتور إلا أن ينتقم من واتره.

وكان الثأر واجبا على أقرب الناس للقتيل، وكانت عشيرة الجانى لا تخذله أو تسلمه إلى الموتور بل كانت تحميه وتؤازره، فإذا ما قتل جدت عشيرته لتثأر له أيضا وبذلك تجددت الحروب والمنازعات وسفك الدماء وتطاولت.

« صحيح أن من واجب الزعماء فى القبيلة أن يعملوا على إيجاد تسوية بين المتخاصمين

(١) الأمالى ١/١٢٧ — ١٢٨ السمط : العقد
(٢) بلاغات النساء ١٧٤ الصاقب : جبل معروف

من دون أن يملكوا حق فرضها عليهم ، ولكن العشائر كثيرا ما كانت لا تنتهى إلى الأخذ بهذه التسويات إلا بعد أن تكون قد تفانت ودقت بينها عطر منشم . أما إذا أسلم القاتل طوعا لا كرها إلى الفريق الآخر لينتقم منه فعندئذ لا يبقى مجال الثأر ، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة ، فهى تفضل أن تقتل الجانى على أن تسلمه طوعا ويلحق بها العار . إن حاسة الشرف السامية هذه التى تسم جميع أعمال البدوى هى الأساس الذى ينهض عليه صرح الأخلاق عنده[١]

وكان للثأر بعض النفع لأنه يكبح من جماح بعض الحمقى الذين تسيرهم شهوات القتل والقسوة « ولولاه لانغمسوا فى إجابة غرائزهم وخروجهم على القانون دون خوف أو رهبة من عقاب[٢] » .

٥ — وكما كان تسليم القاتل عاراً كان قبول الدية عارا أيضا ، لأنه سمة الضعف والعجز والهوان ، قال مرة بن عداء الفقعسى :

فلا تأخذوا عقلا من القوم إننى أرى العار يبقى والمعاقل تذهب[٣]

وقالت امرأة من ضبة لقومها : لا تأخذوا نوقا ولكن رووا سيوفكم من دماء أعدائكم ، فإن لم تثأروا فلا درت نياقكم لبنا :

ألا لا تأخذوا لبنا ولكن أذيقوا قومكم حد السلاح
فإن لم تثأروا عمـــراً بزيد فلا دَرّتْ لبون بنى رباح[٤]

ومن ذلك أن العباس بن مرداس حرض رجلا من خزاعة اسمه عامر على أن يطلب يثأر بجاره هريم بن مرداس قتله رجل من خزاعة :

إذا كان باغ منك نال ظلامة فإن شفاء البغى سيفك فافصل
ونبئت أن قد عوضوك أباعرا وذلك للجيران غزل بمغزل

---

(١) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ١٧ — ١٨ (٢) Nicholson .P. 94
(٣) الحماسة ١/٧٧ . المعاقل : الديات (٤) حماسة البحترى ٧٣

فخذها فليست للعزيز بنصرة   وفيها متاع لامرىء متذلل

فلما بلغته الأبيات آلى ألا يصيب رأسه ولا جسده ماء بغسل حتى يثأر بهم[1]

وكانوا يؤخرون البكاء على القتيل حتى يثأروا له . فإذا ما ثأروا بكت النساء قتيلهن وندبنه . قال الشاعر :

من كان مسرورا بمقتل مالك   فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسرا يندبنه   يلطمن حُرَّ الوجه بالأسحار[2]

ومن أعظم الديات ما فُدى به حاجب زرارة وهو خمسمائة من الإبل ، وفى الوقت نفسه فدى عمرو بن عمر بمائتين[2]

(٣) الحلف والجوار

١ — فى هذه البيئة الحربية لم يكن بد من محالفات بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والقبيلة ، وبين القبيلة والقبيلة ، لتعزيز القوة وتقوية الحماية ، وذلك لكثرة الحروب وتوجس الإغارات ، واعتمادهم على أنفسهم فى حماية العرض والمال والروح ، فلا جيش يحمى ، ولا شرطة تحفظ ، ولا قانون يعصم .

ولقد تخلع العشيرة أحد أفرادها فيلحق بعشيرة أخرى ويستجير بأحد رجالها فيجيره ، ومن أمثلة ذلك أن البرّاص بن قيس بن رافع أحد بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة كان سكيرا فاسقا خلعه قومه وتبرءوا منه ، فشرب فى بنى الديل فخلعوه ، فأتى مكة وأتى قريشا فنزل على حرب بن أمية فحالفه فأحسن حرب جواره ، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه ، فقال لحرب : إنه لم يبق أحد ممن يعرفنى إلا خلعنى سواك ، وإنك إن خلعتنى لم ينظر إلى أحد بعدك ، فدعنى على حلفك وأنا خارج عنك . فتركه وخرج فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة[4]

---

(١) الأغانى ١٣/٦٦ ساسى

(٢) صبح الأعشى ١/٤٠٥

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١/٢١٣

(٤) الأغانى ١٩/٧٥ ساسى

وكانت العشيرة إذا خلعت رجلا منها أشهدت على ذلك فى المواسم والأسواق لتكون فى حل من جناياته كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية إذ خلعته بسوق عكاظ وأشهدت الناس على أنها خلعته فلا تحمل عنه جريرة ولا تثأر له[١].

وكذلك كانت تفعل إذا أجارت، وكانت أحيانا تعطى حليفها براءة بأنه جارها فتدفع إليه سهما مكتوبا عليه فلان جار فلان، كما كان يفعل بنو غَنْم بن عوف من الخزرج بالمدينة، وهم كانوا يدفعون إلى حليفهم المستجير بهم سهما ويقولون له: قوقل به بيثرب حيث شئت[٢]. والقوقلة ضرب من المشى، ولذا سموا بالقواقل، والقاموس يسميهم القواقلة.

وكثيرا ما كان يعقد الحلف بين القبائل لجلب نفع اقتصادى، من غارة على أعداء أو لدفع عدوان مترقب، لأنهم كانوا «ينتسبون إلى الأعز، لحماية الحمية وإباء الدنية، وسكون النفوس إلى نفيس الكثرة والعصبية»[٣]

٢ – توثيق الحلف :

ورغبة فى توثيق الحلف كانوا يحتالون على ربط النسب بين القبيلتين المتحالفتين إن لم تكونا من أصل واحد، فيعقدون الحلف على دم الذبائح التى تنحر للآلهة، وهذا الدم يرمز إلى أن العلاقة بين الحليفين هى كعلاقة الدم الذى هو أساس القرابة الدموية، فقد كانوا يعبدون الأنصاب ويَعْترون عندها – يذبحون – ويقطعون العهود ويحلفون، وفى ذلك يقول عمرو بن جابر الحارثى ثم الكعبى :

حلفت غُطَيْفَ لا تُنَهْنِهُ سِرْبَهَا ... وحلفتُ بالأنصاب ألا يُعْدَوا

ويقول رشيد بن رميض من عنزه :

حلفت بمائرات حول عَوْضٍ ... وأنصابٍ تُرِكْنَ لدى السعير[٤]

---

(١) الأغانى ١٣/٢ ساسى
(٢) سيرة ابن هشام ٢/٤٠ (٣) نهاية الأرب ٢/٢٦٧
(٤) الأصنام ٤٢ . عوض : صنم كان يعبده حلفاه عنزة من بكر بن وائل . سعير : صنم لعنزة

ومن تقاليد الحلف لعق الدم ، يغمس كل فريق يده فى جفنة ملأى بالدم ثم يلعق كل رجل ما علق بيده ، وكانوا يسمون هؤلاء لعقة الدم(١)

ومن شأنهم إذا تحالفوا أن يلمسوا أيديهم فى الدم وما زالوا على ذلك إلى أن كان الحلف الذى شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حلف المطيبين(٢)

وأطلقوا على دم الحلف (الأسحم) قال الفيروزابادى : « الأسحم : الدم تغمس فيه أيدى المتحالفين » وقال بن منظور فى قول الأعشى :

رضيعىْ لبان ثدى أم تحالفا بأسحم داج عَوْضَ لا نتفرق

الأسحم فى قول الأعشى : الدم تغمس فيه اليد عند التحالف(٣)

وكان الغرض الذى يهدفون إليه من ذلك توثيق الحلف ، وكما وثقوه بلعق الدم فى حياتهم الأولى وثقوه فيما بعد بسوائل أخرى مثل الرب — عصارة بعض الثمار — ومن ذلك حلف الرباب الذى عقد بين أحياء من ضبة ، وسمى بذلك لأنهم غمسوا أيديهم فى الرب وتعاقدوا عليه(٤) . ولعلهم اختاروا الرب لأنه أحمر كالدم الذى كانوا يتعاقدون عليه ، ومن ذلك دلت كلمة الربيب على المعاهد ، ودلت كلمة الرباب والربابة على العهد(٥)

وقد وثقوا العهد بالماء فى حلف الفضول ، وسببه أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل من بنى سهم ولم يعطه الثمن . فقام فى الحجر قائلا :

يا لَقُصىٍّ لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنَّفَر

وأشعث مُحْرِم لم يقض حرمته بين المقام وبين الركن والحجر(٦)

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردَّا عليه ، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا على رد الظلم بمكة وألا يظلم رجل بمكة إلا منعوه وأخذوا له بحقه ، وكان حلفهم فى دار

(١) الأغاني ٧/٣٦ (٢) أعان العرب للنجيرى مخطوط وسيرة ابن هشام ١/٢١٣
(٣) القاموس المحيط ولسان العرب مادة سحم (٤) العقد الفريد ٢/٣٩ — ٤١ بولاق
(٥) القاموس المحيط مادة رب (٦) الأغاني ١٦/٦٣ — ٦٥ ساسى

ابن جدعان ، وحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : لقد شهدت حلفاً فى دار ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به لأجبت . . . ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم فجعلوه فى جفنة ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه ثم أتوا به فشربوه . ولم يتعاقدوا على ماء معتاد بل تعاقدوا على ماء من زمزم ، وقد غسلت به الكعبة ، ثم شربوه ، كأنما يريدون أن يسرى العهد فى كيانهم .

وهذا نوع آخر من توكيد الحلف ، لا تغمس فيه الأيدى فى دم ولا رب ولا ماء ، وإنما تغمس فى الطيب ثم تمسح بها الكعبة ، ذلك كان فى حلف المطيبين .

فقد اختلف بنو عبد مناف بن قُصى وبنو عبد الدار بن قصى فى الحجابة واللواء والسقاية والرِّفادة — وكانت بأيدى بنى عبد الدار — فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا مابلّ بحر صُوفَةً ، فأخرج بنو عبد مناف جَفْنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسموا المطيبين[1] .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسموا الأحلاف[2] .

وأحيانا كانوا يتحالفون على النار ، ولعل ذلك سرى إليهم من المجوسية الفارسية ، فقد كان من العرب من يعبد النار ، وعبادها يفضلونها على التراب ، ويصوبون رأى إبليس فى امتناعه عن السجود لآدم ، ولا شك أن عبادة بعضهم للنار ذات صلة وثيقة بالتحالف عليها ، وقد كانوا يضعون فيها الملح والكبريت للتهويل ، ولذا سموها المهولة ، وسموا القيم عليها المهوِّل ، وسنفصل القول فى ذلك فى الحياة الدينية . قال أوس بن حجر فى وصف ثور وحشى :

---

(١) سيرة ابن هشام ١٤٢/١ — ١٤٣

(٢) المرجع السابق ١٤٣

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه ... كما صد عن نار المهوِّل حالف[1]

وقال الكميت :

كهولة ما أوقد المحلفون ... لدى الحالفين وما هوّلوا

وقال :

وما ضرب الأمثالَ فى الجور قبلنا ... لأجورَ من حكامنا المتمثلُ

هم خوفونا بالعمى هوة الردى ... كما شب نار الحالفين المهوِّل[2]

وهم إنما يريدون من مصاحبة الدم والرب والماء والطيب للحلف والتمسح بالكعبة توكيده والإشهاد المادى على عزيمة الوفاء ، والنص على الدوام والاستمرار ، قال الحارث بن حلزة فى معلقته :

واذكروا حلف ذى المجاز وما ... قدِّم فيه العهودُ والكفلاء

حَذَرَ الجَوْر والتعدى وهل يَنْ ... قضُ ما فى المَهَارق الأهواء؟[3]

ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يوثقون العهد بالتماسح بالأكف والتحالف على النار ، والتعاقد على الملح ، وباليمين الغموس مثل قولهم : ماسرى نجم ، وهبت ريح ، وبل بحر صوفة ، وخالفت جرة درة[4].

ويذكر الميدانى أنهم كانوا يقولون الدمَ الدمَ ، والهدمَ الهدم يعنى أبايعك على أن دمى فى دمك وهدمى فى هدمك[5]

٣ — إعزازهم للحليف والجار وحمايتهم له :

وقد أعزوا الحليف حتى إن قريشا كانت تترفع عن تزويج بناتها من غيرها إلا إذا كان من حلفائها .

---

(١) البيان والتبيين ٣/٦

(٢) البيان والتبيين ٣/٦ — ٧

(٣) المعلقات العشر الشنقيطى ١٢٨

(٤) البيان والتبيين ٣/٦

(٥) مجمع أمثال الميدانى ١/٢٤٣

وقد كانت السنة الشائعة بينهم أن للحليف نصف دية الصريح ، وإن كان مالك ابن العجلان قد رفض أن يأخذ من بنى عوف فى جاره إلا الدية كاملة فرفضوا ، فنشبت حرب بين الأوس والخزرج ، إلى أن احتكموا إلى ثابت بن المنذر — والد حسان — فحكم بأن يؤدى حليف مالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم على ما كانت عليه : للصريح ديته والحليف نصفها . وفى ذلك يقول حسان بن ثابت مفتخراً بقضاء أبيه :

وأبى فى سميحة القائل الفا صل حين التفت عليه الخصوم[١]

وبلغ من مكانة الحليف أنه كان يُعَدُّ من العشيرة ، ولذا كان المجير يرثه فى ماله[٢]

وتمادوا فى حماية الجار إلى حد أن حموه من الموت ، وذلك أنه إذا مات دفع حاميه ومجيره ديته إلى أهله ، فقد رووا أن الأعشى خاف بنى عامر على ما معه من عطايا الأسود العنسى فأتى علقمة بن علاثة فقال له : أجرنى ! فقال : أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : لا . فأتى عامر بن الطفيل فقال : أجرنى ، قال : قد أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : نعم ، قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية . فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت ، فمدح عامرا وهجا علقمة[٣] :

بل بولغ فى التنويه بحمايتهم للجار واللاجىء ، حتى قالوا إن مدلج بن سويد الطائى خلا يوما فى خيمته فاذا هو بقوم من طىء ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه ، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته ، إنكم رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه ،

---

(١) الأغانى ٢/١٧٠ — ١٧١ ساسى (٢) البخارى ٦/٨٩ بولاق
(٣) الأغانى ٨/٨٠

فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار ، فقال : شأنكم الآن ، فقد تحول عن جواري ، وضربوا به المثل فقالوا : أحمى من مجير الجراد ، ويقال إن المجير كان حارثة ابن مر الطائي أبا حنبل وفيه يقول شاعر طيء :

ومنا ابن مُرٍّ أبو حنبـــل أجار من الناس رَجْلَ الجراد

وزيد لنـا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد[1]

ولقد كان الحليف ينصر حليفه على بني عمه ، يقول أحد شعراء الحماسة وقد اعتدى بنو عمه على حليفه حوشب :

سآخذ منكم آل حَزْنٍ لحوشب وإن كان مولى لى وكنتم بنى أبى

فقل لبنى عمى فقد — وأبيهم — مُنُوا بهريت الشدق أشوس أغلب

أفيقوا بنى حزن وأهواؤنا معا وأرحامنا موصولة لم تَقَضَّب[2]

لكنهم لم يجيروا على الملوك ، فقد أوصى حصين بن حذيفة بن بدر أولاده وهو يحتضر ، وجاء في نصحه لهم : « ولا تجيروا على الملوك فإن أيديهم أطول من أيديكم »[3] .

٤ — وافتخروا بحمايته ، قال عبيد بن الأبرص :

إنا لعمرك لا يضا م حليفنا أبداً لدينا[4]

وقال :

تحمى حقيقتنا ونمنع جارنا ونلفُّ بين أرامل الأيتـــام[5]

ومن مفاخرهم أن جيرانهم محتمون بهم ، وأنهم لا يهابون شيئا ، قال عَون بن عطية التيمي :

---

(١) الميداني ٢٠٢/١ (٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٣١٢/١ هريت الشدق : واسعه ، وهي من صفات الأسد

(٣) أمالي المرتضى ١٦٨/٢ (٤) ديوان عبيد قصيدة ٧ Lyall

(٥) الديوان ٤

وتنزل أحياء وراء بيوتنا   حذر الصباح ونحن بالمستمطر (١)

وكان الاعتداء على الجار مثيراً لحفيظتهم كأنه اعتداء عليهم ، فيمتشقون الحسام للذب عن الشرف الممتهن والانتقام من المتجرئ على الجار المحمى ، ولذا مدحوا بالذب عن الجار ، فقالوا : فلان منيع الجار حامي الذمار . . . حتى كان فيهم من يحمى الجراد إذا نزل في جواره فسمى مجير الجراد(٢) كما سبق

اعتدى قوم من سعومة في الجاهلية على جار لأسد بن كرز فأوقع بهم وافتخر بحماية جاره .

وما جار بيتي بالذليل فترتجي   ظلامته يوما ولا المتهضّم(٣)

وافتخر حسان بن نُشْبة العدوى أو جساس بن نشبة التيمى بأنهم حاربوا حمير وقد أتت برماحها لتحارب كلبا ، وقد انتصروا على حمير نصراً مؤزراً فارتدت مكلومة مهزومة تسوق مطاياها الذليلة :

نحن أجرنا الحىَّ كلباً وقد أتت   لهما حمير تُزْجى الوشيج المقوّما

تركنا لهم شِق الشمال فأصبحوا   جميعاً يزجون المطىّ المخزّما(٤)

وكانت حماية الجار دليلا على القوة والرهبة وإن قل عدد أفراد القبيلة ، قال السموءل أو ابنه شريح أو غيرهما :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل(٥)

ولم يقتصر فخرهم على حمايتهم للجار ، بل تعدى ذلك إلى تنعمه بخيراتهم ، قال لبيد بن ربيعة العامرى فى مجال الفخر :

وهم ربيع للمجاور فيهم   والمرملات إذا تطاول عامها(٦)

---

(١) المفضليات ١٢٨/٢   (٢) العقد الفريد ١٥٩/١
(٣) البيان والتبيين ٢١٧/٢   (٤) الحماسة ١٣١/١
(٥) البيان ١٢١/٣
(٦) المعلقات العشر ٩٦ الشنقيطي . المرملات : القبائل الفقيرة

ومدح عدى بن زيد السكونى بنى شيبان فى حديثه عن يوم ذى قار ، بأنهم يخلطون جارهم بأنفسهم . ويكرمونه ويحمونه :

إنى حمدت بنى شيبان إذ خمدت ... نيران قومى وفيهم شبت النار
ومن تكرمهم فى المحل أنهم ... لا يعلم الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزا من نفوسهم ... أو أن يبين جميعاً وهو مختار
كأنه صدع فى رأس شاهقة ... من دونه لعتاق الطير أوكار[1]

ولم يكن من السهل المحتمل أن يخيس حليف بعهده ، أو ينقض حام ذمة عقدها لجار ، فإنهم كانوا إذا غدر منهم أحد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به ، وفى ذلك يقول قطبة بن أوس بن محصن بن جرول (الحادرة) :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة ... رفع اللواء لنا بها فى مجمع ؟[2]

(٤) الغنى والفقر

مظاهر الغنى · مظاهر الفقر · سخط بعض الفقراء · نشوء الصعلكة والصعاليك · حياة الصعاليك وأدبهم ومذهبهم

١ — عاش العرب كما عاش غيرهم متفاوتى الغنى والفقر ، لكن الفقر كان أكثر شمولا وأوسع دائرة ؛ لأن بيئتهم — ولا سيما الصحراء — غير ذات زرع يمونهم ، ولا صناعة ينشرونها فى الآفاق فتكسبهم مالا .

على أن أطراف الصحراء — الحيرة والشام واليمن — كانت أكثر خيرات لأنها أخصب وأعظم حضارة وأشد بالأمم اتصالا ، وقد وضحنا هذا فى الحديث عن هذه الإمارات . وبحسبنا هذه الصورة التى يصور بها النابغة ترف بنى غسان ، يصورهم لابسين نعالا رقاقا لا هى مخصوفة ولا هى غليظة كنعال البدو ، تحييهم الوصيفات

---

(١) الحماسة ١/١١٤ (٢) المفضليات ١/٤٣ وحماسة البحترى ٢١٦ وديوان الحادرة ص٧

بالرياحين فى يوم الشعانين ، وملابسهم من الخز الأحمر شعار الملوك ، وإذا ما نضوها علقوها على المشاجب ، وهم منعمون من عهد بعيد :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يُحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريج فوق المشاجب

يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب[١]

ولم يكن الغنى والترف مقصوراً على اليمن والحيرة والشام ، بل كان فى الصحراء نفسها غنى وترف ، وهل أدل على الغنى والرفاهية من إفاضة المسك على الأجسام بعد الاستحمام؟ يقول ابن عنقاء الجهنى فى مدح بنى غطفان :

إذا جاورت فى غطفان طرا فعند الأكرمين بنى رياح

هما جارا الملوك فبوآها بأرض سهلة رُدُح المراح

إذا غسلا جلودهما أفاضا فتيت المسك عن أُدُم صحاح[٢]

وطرفة بن العبد يتحدث بأن الإماء شوين لهم ولد الناقة فى النار ، وبأن الخدم سعوا عليهم بقطع السنام السمين :

فظل الإماء يمتللن حوارها ويُسعَى علينا بالسديف المسرهد[٣]

وقال :

تبيت إماء الحى تطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتحرّف[٤]

ولست بحاجة إلى الإفاضة فى علاقة الخمر والغناء بغنى المدمنين على الشراب والسماع فى الصحراء نفسها وفى الأطراف ، فقد سبق هذا فى مواطن أخر ، ولكنى أدلل على غنى بعض الناس بشىء آخر هو وصف الشعراء لحلى بعض النساء ، فالمرقش يقول إنهن تحلين بالياقوت وباللؤلؤ أو حبات الذهب ، وبالخرز اليمانى منظوما فى عقود :

---

(١) الديوان ص٨

(٢) المؤتلف والمختلف ١٥٩ . ردح المراح : واسعة المجال والمرعى (٣) ديوان طرفة ٣٥

(٤) الديوان ٤٤ الأشعث : المغبر الرأس . المتحرف : الذى أكل الدهر ماله .

تحلين ياقوتا وشذراً وصيغة ... وجزعا ظفاريا ودراً توائما (١)

ويقول إنهن يلبسن أقراطا مذهبة لها عذبات مدلاة :

يهدلن في الآذان من كل مذهب ... له ربذ يعيا به كل واصف (٢)

والمثقب العبدى يقول إنهن حلين بالذهب ترائبهن التي تشبه العاج لونا وملاسة :

أرين محاسناً وكنن أخرى ... من الأجياد والبشر المصون

ومن ذهب يلوح على تريب ... كلون العاج ليس بذي غضون (٣)

وفي الإسلام كانت حبيبة المرار بن منقذ تجرر في تبخترها ثوبا سابغا يلامس البلاط ، وتمشي على طنافس من الحرير غير مبالية بنفاستها ، وتلبس نفيس الثياب حتى في تبذلها ، فلا تصونها بل تبدلها ثوبا بعد ثوب :

لا تمس الأرض إلا دونها ... عن بلاط الأرض ثوب منعفر

تطأ الخز ولا تكرمه ... وتطيل الذيل منه وتجر

وترى الربط مواديع لها ... شعراً تلبسها بعد شعر (٤)

ثم هي تتطيب بالعنبر والمسك حتى ليكاد ينعصر من أكمامها :

عبق العنبر والمسك بها ... فهي صفراء كعرجون العمر

وهي لو يعصر من أردانها ... عبق المسك لكادت تنعصر (٥)

وامرؤ القيس يتحدث بأن المسك كان يضوع من صاحبتيه كأنه النسيم المعطر برائحة القرنفل :

إذا قامتا تضوع المسك منهما ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

---

(١) المفضليات ٢/٥٤ (٢) المفضليات ٢/٣١

(٣) المفضليات ٢/٨٩

(٤) المفضليات ١/٨٩ الريط : الملاءة . مواديع : جمع ميدع : الثوب الذي يصون غيره . شعر جمع شعار : ما يلي الجسد

(٥) المفضليات ١/٩٠ العمر : نخلة السكر وهو تمر جيد

وبأن صاحبة أخرى كانت تنهض من نومها ضحا فإذا فتيت المسك على فراشها .

وتُضحي فتيت المسك فوق فراشها ‏ ‏ ‏ ‏ تؤوم الضحا لم تنتطق عن تفضل (١)

ما من شك إذن فى غنى بعض القاطنين فى الصحراء ، وفى ترف بعضهم ، وما من شك فى أنه لولا هذا الغنى لما استطاع بعض سادتهم أن يجزلوا العطاء للشعراء ، وأن يتحملوا ديات القتلى إذا ما سعوا أن تضع الحرب أوزارها .

٢ — ومهما يكن من شيء فقد كان الفقراء أكثر عددا . وكان بعض الفقراء أدق حسا وأبعد أملا من بعضهم الآخر ، فتبرموا بالشظف والحرمان ، فهذا أعرابى افتقر وفقد فى الحرب يداً ورجلا فتنكر له قومه ، فعز عليه أن يتنكروا ، فصور شعوره هذا التصوير الحزين :

الله يعلم أنى من رجالهم ‏ ‏ ‏ ‏ وإن تخدَّد عن متنىَّ أطمارى

وإن رُزئت يدا كانت تجملنى ‏ ‏ ‏ ‏ وإن مشيت على زُجٍّ ومسمار (٢)

وإذا كان هذا الأعرابى قد أقام مع من أنكروه ساخطا عليهم فإن غيره لم يطق أن يقيم بين من يزدرونه لفقره ، فيهزءون بقوله إن تكلم ، ويصمونه بالعى إن صمت ، وهو لهذا سيرتحل حتى يغتنى أو يموت :

سأُعمل نَصَّ العيس حتى يَكُفَّنى ‏ ‏ ‏ ‏ غنى المال يوما أو غنى الحدثان

فلَلْموتُ خير من حياة يُرَى لها ‏ ‏ ‏ ‏ على الحر بالإقلال وَسْمُ هوان

متى يتكلم يُلْغَ حكم كلامه ‏ ‏ ‏ ‏ وإن لم يقل قالوا عديم بيان

كأن الغنى فى أهله — بورك الغنى — ‏ ‏ ‏ ‏ بغير لسان ناطق بلسان (٣)

ويضجر عروة بن الورد من تنكر الناس للمقِلِّ ، ويزيده ضجرا أن تجتوى الروح زوجها الفقير ، لأن هذا أشد مرارة :

ذرينى للغنى أسعى فإنى ‏ ‏ ‏ ‏ رأيت الناس شرهم الفقير

---

(١) المعلقات للشنقيطى ٥٩، ٦٤

(٢) البيان والتبيين ٤٨/٣ ‏ ‏ ‏ ‏ (٣) البيان والتبيين ١٨٩/١

وأهونُهم وأحقرُهم لديهم ... وإن أمسى له نسبٌ وخِيرُ
ويُقصَى في النديّ وتزدريه ... حليلته ، وينهره الصغيرُ
ويُلفَى ذو الغنى وله جلالٌ ... يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبه والذنب جمٌّ ... ولكن للغنى ربٌّ غفورُ (١)

ويشتد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل بفراق زوجته التي قلته لفقره وأساءت معاشرتها له :

تلك عِرسي غضبى تريد زيالي ... ألبين تريد أم لدلال ؟
إن يكن طِبُّك الفراق فلا أحـ ... فل أن تعطفي صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهاة وإذ ... آتيك نشوان مرخيا أذيالي
فاتركي مَطَّ حاجبيك وعيشي ... معنا بالرجاء والتأمال
زعمت أنني كبرت وأني ... قل مالي وضن عني الموالي (٢)

ومَنَّى سعيد بن عمرو بن نفيل زوجتيه — وقد سألتاه الطلاق لما افتقر — بأن ماله قد يكثر ، فيقتني العبيد والإماء والخدم ويمتعهما ويكسوهما مطارف ذوات ذيول :

تلك عِرْساي تنطقان على عمـ ... د لي اليوم قول زور وهتْر
سألتاني الطلاق أن رأتا ما ... لي قليلا ، قد جئتما بنكر
فلعلي أن يكثر المال عندي ... ويعرَّى من المغارم ظهري
وتُرَى أعبُدٌ لنا وإماء ... ومناصيف من خوادم عشر
وتجرا الأذيال في نعمة زو ... ل ، تقولان : ضع عصاك لدهر
وَيْ كأنْ من يكن له نشب يحـ ... بَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنَّبْ سِرَّ النجيِّ ولـ ... كن أخا المال مُحضَرٌ كل سر (٣)

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩٨ وشعراء النصرانية ٨٨٨ والديوان ٣٠

(٢) البيان والتبيين ١/١٩٩ وديوان عبيد القصيدة ١١ ll٧٥

(٣) البيان والتبيين ١/٩٩ ورواها الأغاني لنبيه بن الحجاج السهمي ١٦/٦٠ ، ونسبها الزمخشري عن ابن الأعرابي إلى زيد بن عمرو بن نفيل . مناصيف : جمع منصف وناصف وهو الخادم . زول : ظريف

ونُبيه بن الحجاج بن عامر يتحسر لأنه معدم فليس من حوله أشياع وخلان ، وليس من حوله من يمدحه ويتملقه ويحبه ، ولأنه عاجز عن بذل المعروف للناس . ولو أنه كان غنيا لفاقهم في عطائهم .

قصّر العدم بي ولو كنتُ ذا ما ل كثير لأجلب الناسُ حولى
ولقالوا أنت الكريم علينا ولحطوا إلى هواى وميلى
ولكِلْتُ المعروف كيلا هنيا يعجُز الناسُ أن يكيلو ككيلى [١]

وقد تنوع تصوير الألم من الفقر حسب ظروف الفقير ، فهذا شاعر يتحسر على أن أمطرت السماء وليس عنده ناقة ترعى البقل :

ثم مُطِرْنا مَطْرَةً رَوِيَّة فنبت البقل ولا رَعِيَّة

وقال آخر :

أمرعت الأرض لَوَ انَّ مالا لَوَ انَّ نوقًا لك أو جمالا
أو ثُلَّةً من غنم إمَّا لا [٢]

الصعلكة والصعاليك

في هذه البيئة التي ينعم فيها بعض الناس ويشقى الأكثرون ويحس بعض الفقراء أنهم مَهينون مبعدون عن المشاركة في الحياة الاجتماعية الراقية ليس بعجيب أن ينقم بعض الفقراء ذوى الطامحية والحس المرهف والشجاعة على تحقيق ما يبتغون — على نظام المجتمع المالي ، وكان هذا سببا في نشأة الصعلكة والصعاليك في مجتمع لا تحميه شرطة ولا يخضع لقانون ولا يلجأ إلى محاكم ، بمجتمع يدين للقوة ويمجد الأقوياء .

وهل كان الصعاليك فقراء ؟ نعم كانوا من الفقراء ، فلسان العرب يقول إنهم الفقراء [٣]

---

(١) الأغاني ١٦/٦١
(٢) البيان والتبيين ٢/١٣١ — ١٣٢ (٣) اللسان مادة صعلك

والقاموس المحيط يقول : صعلكه : أفقره ، والصعلوك : الفقير ، وتصعلك : افتقر ، وعروة الصعاليك هو ابن الورد . لأنه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[١] . ويقول : ذؤبان العرب : لصوصهم وصعاليكهم[٢] .

وحاتم بن عبد الله يقول .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكُلًّا سقاناه بكأسيهما الدهر

يعنى بالفقر والغنى[٣] ، وقد جعل التصعلك مقابلا للغنى .

وقال أوس بن حجر :

يا عين جودى على عمرو بن مسعود أهل العفاف وأهل الحزم والجود

أودى ربيع الصعاليك الأولى انتجعوا وكل ما فوقها من صالح مود[٤]

وكذلك يقول الاعشى :

على كل أحوال الفتى قد شربتها غنيا وصعلوكا وما إن أقاتها[٥]

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر بفقرائهم[٦] .

والصعلوك الذى لا مال له . قال الشاعر (جابر بن ثعلبة الطائى) :

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ما تمولا[٧]

وهذه النصوص لا تدع مجالا للشك فى أن الصعلكة هى الفقر ، وإن كان قد تطور مدلول الكلمة فيما بعد .

ولكن الصعاليك ليسوا الفقراء فحسب ، فهم فقراء يدركون ما بينهم وبين الأغنياء من فوارق فى النعمى والبؤس ، فيمضهم هذا الإدراك ، ويمضهم خلاء أيديهم ومَعْجزتهم

---

(١) القاموس مادة صعلك (٢) القاموس مادة ذئب

(٣) ديوان حاتم ١٢ والأمالى ٢٨٢/٢ (٤) مراث وأشعار لليزيدى مخطوط (٥) ديوان الأعشى ٦١

(٦) الأمالى ٢٨٢/٢ (٧) تهذيب الكامل ٩٨/٢ وشرح ديوان الحماسة المرزوقى ٣٠٥/١

وسوء حظهم ، ثم هم تواقون إلى أن يحيوا حياة أرقى مما يحيون ، فماذا يعملون ؟ إن فى قلوبهم شجاعة وفى أجسامهم قوة وفتوة ، وهم لهذا كله يثورون على النظام المالى ، ويغنمون عنوة ما قد حُرموه ، ويجدون سعادة أن يثأروا لأنفسهم من ذوى الجدة. وقد وحد بينهم الحرمان والألم فعطف بعضهم على بعض وتقاسموا ما غنموا ، ولقد تهز بعضهم الأريحية والإشفاق فيؤوى الصعاليك العاجزين عن السلب ويكفل لهم أسباب الحياة . كهذا كان يفعل عروة بن الورد ، « فقد لقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى »[١] وكان هذا كرماً من عروة حببه إلى الصعاليك حتى لقب بأبى الصعاليك ، وبعروة الصعاليك .

وخير ما يمثل منهج عروة قوله إن المرء إن لم يكن ذا مال ويحبو بامن أقاربه فموته خير من حياته ، ولقد تسأله زوجه عن وجهته ومسلكه فلا يستطيع أن يجيبها ، لأن الصعلوك لا يعرف لنفسه وجهة ولا مسلكا ، فالأرض كلها مسالكه . وهو شفيق بإخوانه الصعاليك محب لهم فلا يدعهم للجوع ، وإنه فى حبه لهم يشبه الظمآن المحب للماء ، ومن طبعه أن يحميهم ويحمى جاره ويفى لصديقه :

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يُرِحْ ... عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته ... فقيراً ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة أين الرحيل ، وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشت للردى ... كما أنه لا يترك الماء شاربه
ولا يستضام الدهرَ جارى ولا أُرى ... كمن بات تسرى للصديق عقاربه[٢]

---

(١) الأغانى ٣/٧٣ الدار

(٢) الديوان ٤ وشعراء النصرانية ٦/٩٠٥ وفى شرح ديوان الحماسة المرزوقى والأغانى ١١/٤٢ ساسى أن الأبيات لأبى النشناش من لصوص بنى تميم فى الإسلام

ولهذا المنهج ، ولهذا الخلق ذاعت شهرة عروة ، وجرى تقديره على ألسنة السادة ؛ قال عبد الملك : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد »[1] ، وقال : ما كنت أحب أن أحداً ولدنى من العرب إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى ... بجسمى مَسَّ الجوع والجوع جاهد

لأنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسوا قراح الماء والماء بارد[2]

كان أمل الصعاليك أن يعيشوا فى غنى ، فيقضوا حاجاتهم ، ولا يشعروا بمرارة الحرمان ، ولذلك يغامرون ليثروا أو ليهلكوا فيتخلصوا من شقوة الفقر ، قال عروة :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ... ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى

ذرينى ونفسى أم حسان إننى ... بها قبل ألا أملك البيع مشتر

أحاديث تبقى والفتى غير خالد ... إذا هو أمسى هامة فوق صَيِّر

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى ... أخليك أو أغنيك عن سوء محضر

فإن فاز سهم للمنية لم أكن ... جزوعا ، وهل عن ذاك من متأخر

وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد ... لكم خلف أدبار البيوت ومنظر[3]

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون بأنهم على حق فيما يصنعون ، فيزعمون أن المال مال الله ، فليأخذوا منه ما يشاءون ، فهم إذاً أوغل فى الاشتراكية من الاشتراكيين وقد عبر الأحيمر السعدى فى الإسلام عن هذه الفكرة بقوله إنه يخجل من الله أن يراه يجر حبلا لا بعير فيه ، وأن يسأل اللئيم الشحيح بعيراً وقد خلق الله بعرانا كثيرة ، فلما لا يأخذ منها ما يشاء ؟ ثم أفصح عن بغضته للمجتمع بقوله إنه يأنس إلى عواء الذئب ويفرق من صوت الإنسان ، وأشهد الله على كراهيته للناس حتى لتتأذى عينه وقلبه برآهم :

---

(١) الأغانى ٣/ ٧٤ الدار

(٢) الديوان ٧ والعقد الفريد ١/ ٢٧٥ والماء بارد أى فى فصل الشتاء أو لأنه يشربه على جوع فيحس برده .

(٣) الديوان ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ صير : قبر

وإنى لأستحيي من الله أن أرى أجرر حبلا ليس فيه بعير
وأن أسأل الخِبّ اللئيم بعيره وبعران ربى فى البلاد كثير
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير
يرى الله أنى للأنيس لشانىء ويبغضهم لى مقلة وضمير[١]

وخاطب عروة بن الورد زوجته بأنه يجوب البلاد ليغتنى فيتحمل حقوقا يعجزه الفقر عن تحملها ، وأنه ليتألم أن تنزل نازلة بمن يُعنَى بهم ولا يستطيع أن يقدم إليهم مساعدة . ونظرته هنا إلى الصعلكة نظرة من يراها وسيلة شريفة لأنها تيسر عليه أن يقضى حقوقا ويقوم بعمل عظيم :

دعينى أطوِّف فى البلاد لعلنى أُفيد غنى فيه لذى الحق مَحْمِل
أليس عظيما أن تلم ملمة وليس علينا فى الحقوق معوَّل[٢]

الصعاليك مغامرون شجعان ، يعتمدون فى حماية أنفسهم وفى نيل مآربهم على الفتك والجراءة والسلاح . وهم ذوو أنفة لا يرضون ذلة ولا يخضعون لتهديد . حدث المفضل أن رجلا من همدان يقال له حريم أغار على إبل لعمرو بن براق وخيل فذهب بها . وعزم عمرو على أن يغير على حريم ، فقالت له امرأة كان يتردد عليها ويحك لا تتعرض لتلفات حريم فإنى أخافه عليك ، فخالفها وأغار عليه ، فاستاق كل شيء له . فأتاه حريم بعد ذلك يطلب إليه أن يرد عليه ما أخذه منه ، فقال : لا أفعل ، وأبى عليه ، فانصرف وقال فى ذلك حريم :

تقول سليمى لا تعرض لتلفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
صموت إذا عض الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين ملازم
نقدت به إلفا وسامحت دونه على النقد إذ لا يستطاع الدراهم

---

(١) معجم الشعراء ٣٧
(٢) الديوان ٣١ وشعراء النصرانية ٩١٦/٦

ألم تعلمى أن الصعاليك نومهم قليل إذا نام الدثور المسالم
إذا الليل أدجى واكفهرت نجومه وصاح من الإفراط هام جوائم
ومال بأصحاب الكرى غالياته فإنى على أمر الغواية حازم
كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمةً ما دام للسيف قائم
كأن حريما إذ رجا أن يضمها ويذهب مالى يا ابنة القوم حالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم
ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعش ذا غنى أو تخترمه المخارم(١)

وكانت الصعلكة مفخرة لأنها شيمة الأقوياء الشجعان ، قال الأحيمر السعدى فى الإسلام إن سيفه كفيل بأن يستولى على مال التجار :

تعيرنى الإعدام والبدوُ معْرِضٌ وسيفى بأموال التِّجار زعيم

ولما تاب كاد لا يطيق صبراً وهو يرى القوافل محملة بالطعام والمتاع :

أشكو إلى الله صبرى عن زواملهم وما ألاقى إذا مروا من الحَزَنِ
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بَزَّ العراق وينسوا طرفة اليمن
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القِطار بلا نقد ولا ثمن(٢)

وكان الأحيمر هذا يستبشر إذا ما سمع نهيق حمار ، لأنه يؤذنه باقتراب التجار :

نهق الحمار فقلت أيمن طائر إن الحمار من التِّجار قريب(٣)

وقال عمرو بن براقة :

متى تطلب المال الممنع بالقنا تعش ماجداً أو تخترمك المخارم

* * *

وهم لشجاعتهم وقوتهم لا ينامون إلا غرارا ، يتسمعون سَيْر الناس وأصواتهم لعلهم أن ينالوا منهم شيئا ، قال عمرو بن براقة الهمدانى :

---

(١) الأغانى ٢١/١١٣
(٢) الأمالى ١/٤٩ . اللخناء : التى لم تختتن . القطار : جماعة الإبل المقطورة
(٣) معجم الشعراء ٣٧

وكيف ينام الليلَ من جُلُّ ماله ... حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا عض الكريهة لم يدع ... له طمعاً ، طوعَ اليمين ملازم
ألم تعلمى أن الصعاليك نومهم ... قليل إذا نام الخليُّ المسالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم
متى تطلب المال الممنع بالقنا ... تعش ماجدا أو تخترمك المخارم (١)

ثم هم ذوو أنفة يسلبون ولا يطلبون ، وإذا عضهم الجوع صبروا ولم يطلبوا ، حتى لقد وصف الشنفرى نفسه بأنه يديم الصبر على الجوع حتى يذهبه ويذهل عنه ويفضل أن يستف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه ، ولولا هذا لعاش فى رغد ، ولكن نفسه أبية لا ترتضى المذلة :

أُديم مطَالَ الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحًا فأذهل
وأستفُّ تربَ الأرض كى لا يرى له ... علىَّ من الطَّوْل امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذم لم يُلْفَ مشرب ... يعاش به إلا لدىَّ ومأكل
ولكن نفساً حُـرَّةً لا تقيم بى ... على الضيم إلا ريثما أتحول (٢)

ولذا ذم عروة بن الورد الصعلوك المتكاسل الخامل الذى يقنع بأن يعرق العظم ويجلس حول المجازر ، ويقنع بأنه يملأ بطنه وينام نوما عميقا ، ويخدم نساء الحى لأنه لا عمل له ، فإذا ما أتى الليل صار هزيلا منكسرا . ومدح الصعلوك المشرق الوجه الذى يغامر ، فإن قتل كان مشكورا مذكورا بالجرأة ، وإن غنم كان بالغنيمة جديرا :

لحا الله صعلوكا إذا جَنَّ ليله ... مُصَافى المشاش آلفاً كل مَجْزِرِ
يعدُّ الغِنى من نفسه كل ليلة ... أصاب قِراها من صديق ميسر
ينام عِشاء ثم يُصبح ناعسا ... يحتُّ الحصا عن جنبه المتعفِّر

---

(١) الأمالى ٢/١٢٢ والأغانى ٢١/١١٣
(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب . محمود الزمخشرى ٢٥ ــ ٣٠

يُعين نساء الحي ما يستعنّه ويمسي طليحاً كالبعير المحسَّر
ولكنَّ صعلوكاً صفيحةُ وجهه كضوء شهاب القابس المتنوِّر
فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجْدِرِ[1]

وقال حاتم إنه يجوس في ظلمات الليل مدّرعاً بالظلام إذا تخوف الجبان أن يجوس خلال الصحراء، وإن الصعلوك لن يكتسب ثناء ولا مالا إذا هو لم يقتحم المخاطر، ودعا بالهلاك للصعلوك الضعيف العزيمة الذي لا أمل له إلا أن يأكل ويلبس، وأعجب بالصعلوك البعيد الهمة، المقدام على الأحداث:

وليل بهيم قد تسربلت هَوْلَهُ إذا الليل بالنِّكْس الضعيف تَجَهَّما
ولن يكسب الصعلوك حمدا ولا غنى إذ هو لم يركب من الأمر مُعْظَمَا
لحا الله صعلوكاً مُناه وهمُّه من العيش أن يَلْقَى لَبوساً ومطعما
ولله صعلوك يساور همَّه ويمضي على الأحداث والدهر مُقْدِما[2]

* * *

ومما يدل على أن الصعلكة كانت فتوة وقوة أن لقيط بن زرارة لما قتل أشيم بن عوف من قيس بن ثعلبة ثأرا لأخيه علقمة افتخر بأنه ثأر من مأوى الصعاليك، وبأنه قطع بقتله أنف اليمامة كلها، وخير رجالها:

فإن تقتلوا منا كريما فإننا قتلنا به مأوى الصعاليك أشيما
جدعنا به أنف اليمامة كلها فأصبح عرنين اليمامة أكشما
قتلنا به خير الضُّبَيْعات كلها ضبيعة قيس لا ضبيعة أضجما[3]

وقد سبق إعجاب عبد الملك بن مروان بعروة وجعله عِدْلا لأبيه.

* * *

(١) الديوان ١٥ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ والحماسة ١/١٩٥

(٢) شعراء النصرانية ١١٩ (٣) المؤتلف والمختلف ١٧٥ ومعجم الشعراء ٢٢٢

والصعاليك كثير ، أشهرهم عروة بن الورد ، وتأبط شرا ، والشنفرى ، والسليك ابن السلكة ، وعمرو بن براقة ، والأحيمر السعدى ، وهم جميعاً يمتازون بسرعة الحركة والخفة والعدو والخبرة بدروب الصحراء ، وقد رووا عن تأبط شراً والشنفرى والسليك أعاجيب فى ذلك .

وموجز مذهبهم :

(١) أنهم يهجمون على أموال البخلاء ، أما الكرماء فإنهم يعفون عن مالهم

(٢) أنهم كانوا يقتسمون ما يغنمون ، وكانوا ديموقراطيين فى اقتسامهم ، فليس للرئيس نصيب أعظم من غيره ، فقد أغار عروة وغنم كثيراً ذات مرة ، وكان فى غنائمه امرأة ، فأراد أن يستأثر بها ويقوم أصحابه ثمنها عليه ، فرفضوا ، وقالوا نقومها بإبل ثم يكون كل منا حراً فى أن يأخذها إذا شاء .

(٣) كانوا ذوى نجدة وعطف على الفقراء العاجزين عن الكسب والغارة ، لذلك كانوا يعطونهم من الأسلاب أنصبة مثل أنصبتهم

(٤) لم يجدوا معرة فى عملهم ، بل إنهم فاخروا به ، ورأوه نوعا من الفتوة والاقتصاص من البخلاء ، والاشتراكية العادلة ، والتضامن الاجتماعى . لذلك شاد بذكر عروة عبد الملك بن مروان كما سبق .

أما أدبهم فيمتاز بخصائص .

١ — إنه يصور ضربا من ضروب الحياة العربية لا نجده فى غيره .

٢ — أكثره مقطعات لا قصائد ، ولعل مرد هذا إلى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس ، لم يألفوا التمهل والتروى والتنميق ، فجاء شعرهم صورة من حياتهم .

٣ — ويتميز شعرهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه غزل وبكاء أطلال ووصف للرحيل والرواحل ، لذلك كانت مقطعاتهم موحدة الموضوع .

٤ — شعرهم يصور أعمالهم ونفسياتهم ، فهو صدى للواقع ، لهذا لا نجد فيه غزلا . وكيف يتغزل من يقضى نهاره يترقب ، وليله يترصد ، ولا يستقر فى مقام ؟

الباب الثالث

الحياة الخلقية من الشعر

الكرم

بواعثه . مظاهره . أوقاته وأنواعه . هداية الضيف . فخر بالكرم ومدح به

١ — بواعثه

كانوا يحيون فى بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوال ، فكل واحد منهم مُعرّض لأن ينفد زاده ، فهو يَقرى ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن يضاف فى يوم ، ثم هم يكرمون لكلفهم بحسن الأحدوثة وطيب الثناء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، وكان المال فى نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحياة الشريفة وإلى كسب المحامد ، ولهذا عاب بعضهم قيس ابن عاصم « لأنه أوصى بنيه فكان أكثر وصيته أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحا »[١]

وكان كرم العربى من وسائل سيادته قال حاتم :

يقولون لى أهلكت مالك فاقتصد   وما كنت لولا ما تقولون سيدا[٢]

وكتب الأدب والتاريخ حوافل بأخبار كرمهم وقصص كرمائهم ، ولسنا نشك فى أن كثيراً منها قد تطرق إليه الخيال والمبالغة ، ولكنها على ما فيها من خيال ومبالغة صورة لأصالة الكرم فى نفوسهم وشيوعه بينهم .

ومما يدل على أن الكرم أثيرٌ عندهم أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثريائهم إذا اشتد البرد وكَلب الزمان ، ليطعموا ذوى الحاجة الجزور الذى تياسروا عليه ، قال لبيد فى معلقته : رب جزور مما يذبح أصحاب الميسر دعوت ندمائى لنحرها بسهام الميسر المتشابهة الأجسام ، وأنا أدعو بالقداح لنحر هذه الناقة سواء أكانت عاقراً أم ذات ولد ، وأبذل لحمها للجيران جميعاً ، فالضيوف والجيران يشبعون كأنهم نزلوا بوادى تبالة الخصيبة سهوله .

---

(١) الأغانى ١٢/١٥٠ ساسى   (٢) الديوان ٨ وشعراء النصرانية ١/١٢٠

وجَزُورِ أيسار دعوت لحتفها ... بمغَالقٍ متشابهٍ أجسامها
أدعو بهن لعاقر أو مطفلٍ ... بُذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تَبالةَ مُخصبًا أهضامها(١)

ب — مظاهره

١ — فرحوا بالضيف وأعزوه ، وبالغ الكرماء فى الحفاوة به والتمهد له حتى صاروا له كالعبيد ، ولكنهم شرفوا بهذه العبودية ، قال حاتم :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا ... وما فىّ إلا تلك من شيمة العبد(٢)

وافتخروا بتقديمهم للضيف أشهى ما يملكون ، قال مُضَرِّس بن ربعى إنه يقدم لضيفه دهن سنام البعير وهو أنفس ما فيه :

وإنى لأدعو الضيف بالضوء بعدما ... كسا الأرض نَضّاحُ الجليد وجامده
لأكرمه إن الكرامة حقه ... ومثلان عندى قربه وتباعده
أبيت أعشيه السَّديف وإننى ... بما نال حتى يترك الحىَّ حامده(٣)

وأشهدوا نساءهم على إكرامهم لضيفانهم كما أسبقنا .

ومن صنوف الحفاوة بالضيف أن يتلقاه المضيف ببشر وإيناس ويتبسط معه فى الحديث ، قالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة ، قال حاتم :

سلى الجائع الغرثان يا أم منذر ... إذا ما أتانى بين نارى ومَجْزرى
هل أُبسط وجهى إنه أول القِرَى ... وأبذل معروفى له دون منكر ؟(٤)

وقال عروة بن الورد العبسى أو عتبة بن بجير :

---

(١) تبالة : موضع ببلاد اليمن يضرب المثل بخصبه وهى غير تبالة الحجاج — بلدة مشهورة من أرض تهامة فى طريق اليمن — معجم البلدان ٢/٣٥٧

(٢) ديوان حاتم ٩ ... (٣) الحماسة ٢/٣٠٢

(٤) البيان والتبيين ١/٢٣ وفى الحماسة ٢/٢٤٦ وشعراء النصرانية ٦/٩٢١ أنها لعروة بن الورد

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع(١)

وقال عمرو بن الأهتم :

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا مبيت صالح وصديق(٢)

٢ — وسخوا على الأرامل واليتامى والبائسين والسائلين . قال أوس بن حجر في رثاء فَضالة بن كَلَدة :

أبا دُلَيجة من يُوصَى بأرملة أم من لأشعث ذى هِدْمين طملال(٣)
يجعله ملجأ الأرامل وموئل الفقراء

وقالت ابنة وثيمة فى رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه يهب المال التليد العزيز عليه ، ويجود إذا اشتد البرد وقل المطر واشتد القحط ولم يجد الناس طعاما خيرا من هشيم الشجر ، وهو فى هذا الجدب نادى الأرامل واليتامى :

الواهب المال التلا د لنا ويكفينا العظيمة
واحمرّ آفاق السما ء ولم تقع فى الأرض ديمة
وتَعذّرَ الآكالُ حتى كان أحمدَها الهشيمة
لا ثَلَّةٌ ترعى ولا إبلٌ ولا بَقَرٌ مُسيمة
ألفيته مأوى الأرا مل والمدَفَّعةِ اليتيمة(٤)

٣ — ومن أنواع كرمهم صلة الأرحام وإعطاء السُّؤّال ، قال ابن ربع الهذلى فى رثاء رُقيبة :

أعينى ألا فابكى رُقَيبة إنه وَصُولٌ لأرحام ومِعْطاء سائل
فأقسم لو أدركتُه لحميته وإن كان لم يترك مقالا لقائل(٥)

---

(١) الديوان ٢٢ وشعراء النصرانية ٩١٣/٦ والحماسة ٣١٤/٢ والبيان والتبيين ٢٤/١
(٢) البيان والتبيين ٢٤/١
(٣) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١٥٩/١ هدم : بال . طملال : فقير
(٤) البيان والتبيين ١٦١/١ (٥) البيان والتبيين ١٨٢/١

ومن عجيب شأنهم فى الكرم أن بعضهم كان يؤثر المحتاجين على نفسه وأولاده ، فقد حدثت امرأة حاتم أن سنة جدبة أصابتهم ، وفى ليلة كان صبيتهم يتضاغون جوعا ، فجهد حاتم وزوجه فى إسكاتهم ، ثم علل زوجه بالحديث فعرفت أنه يسرى عنها فتناومت . وفى آخر الليل جاءت إلى حاتم جارة تشكو إليه جوع بنيها ، فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت تحمل اثنين ويمشى إلى جانبيها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه فذبحه ، ونادى فى الحى فهبوا جميعا ، واجتمع القوم على اللحم يشوون ويأكلون ، أما حاتم فقد التفع فى ثوبه وجلس فى ناحية ينظر وما ذاق قطعة مما ذبح ، وقال :

مهلا نوارُ أقلى اللوم والعذَلا ... ولا تقولى لشىء فات ما فعَلا

ولا تقولى لمال كنتُ مهلكه ... مهلا وإن كنت أعطى الإنس والخبَلا

يرى البخيلُ سبيل المال واحدة ... إن الجواد يرى فى ماله سُبُلا[1]

حـ — أوقاته وأنواعه

وهم كرماء فى كل وقت ولكنهم يشيدون بالكرم إذا أجدبت الأرض وكفت السماء ، لأنه كرم تحرص النفوس فيه على البقاء والاحتفاظ بالمال ، فهو كرم جدير بالثناء . قالت الخنساء فى رثاء صخر :

وإن صخراً لكافينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحار[2]

وقال ابن أحمر بن العَمَرد :

وكم حلَّها من تيِّحَانٍ سَمَيْذع ... مُصَافى النَّدَى ساقٍ بَسَهْمَاءَ مُطْعِم

طَوِىِّ البطن متلاف إذا هبت الصَّبا ... على الأمر غواص وفى الحى شَيْظَم[3]

---

(١) الديوان ١٩ والعقد الفريد ١/٣٣٤ وأمثال الميدانى ١/١٢٣ الخبل : الجن . وفى الديوان (البحر والجبلا) . (٢) ديوان الخنساء ٧٩

(٣) البيان والتبيين ١/٢٢٠ التيحان : الكثير الحركة . السميذع السيد الكريم . السهماء : السنة الشديدة المهزلة للاجسام . شيظم : فتي جسيم طويل

وقد أكثروا من الافتخار بالكرم ، وأكثروا من المدح به إذا ما هبت ريح الشمال ، لأنها لا تهب إلا فى الجدب ، قالت بنت لبيد بن ربيعة العامرى :

إذا هبت رياح أبى عقيل ذكرنا عنـد هبتها الوليدا
أشم الأنف أبيض عبشميا أعان على مروءته لبيـدا[١]

وهذه الريح مهبها من كرس بنات نعش إلى مغرب الشمس صيفا ، وكانوا يكرهونها لبردها وذهابها بالغيم والحيا والخصب فى زعمهم ، وهى عندهم الشامية ، وكانوا يمدحون بالإنفاق والكرم إذا هبت هذه الريح[٢]

وهى غير ريح الصَّبا التى تهب من المشرق إلى المغرب ، وكانوا يحبونها لرقتها ولأنها تجىء بالسحاب والمطر والرى والخصب[٣].

وهم يقدمون اللبن قرى للضيف ، قال الحارث بن حلزة : لا تترك فى ضروع النوق بقايا لبن ، وصب لضيفانك ألبانها ، فإن شر اللبن الذى يدخر فى البيت :

لا تَكْسَع الشُّول بأغبارها إنك لا تدرى من الناتج
واصبب لأضيافك ألبـانها فإن شر اللبن الوالج[٤]

ويقدمون اللحم ، ويفخرون بتقديم شحم السنام ، قال محلم بن فراس يرثى منصورا وهماما ابنى المسجاح :

ومن فتى يملأ الشِّيزى مكللة شحم السَّديف نَدِىِّ الحمد مطعام[٥]

كما يفخرون بسعة الجفان لأنها تدل على كثرة الآكلين ، قال أبو قردودة يرثى ابن عمار :

يا جفنةً كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشى اليُمْنَةِ الحَبِرَة[٦]

---

(١) بلوغ الأرب ٩٣/١ (٢) بلوغ الأرب ٣٧٣/٣
(٣) نهاية الأرب ٩٧/١ وبلوغ الأرب ٣٧٣/٣
(٤) البيان والتبيين ١٨٤/٣ الأغبار : بقايا اللبن . الشول : النوق . الوالج : المدخر فى البيت
(٥) المرجع السابق ٢١٥/٢ (٦) المرجع السابق ١٩٠/١

وقال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان .

له داعٍ بمكة مشمعلٌ   وآخر فوق دارته ينادى
إلى رُدُحٍ من الشيزى عليها   لباب البر يُلْبَك بالشِّهاد (١)

وصور الأعشى جفنة المحلق ممتلئة فياضة في قوله :

تروح على آل المحلّق جَفنة   كجابية السَّيح العراقى تَفْهَقُ

وكان أبو محرز خَلَف يروى البيت هكذا ، ويقول (كجابية الشيخ) تصحيف ، والسيح الذى يسيح على وجه الأرض ويجرى ، والجابية الحوض الذى يجمع فيه الماء (٢)

وخير ما يمثل نهجهم في الكرم قول المتنخل الهذلى إنه لا يستحق الخير إن أطعم ضيفه قشر المقل (الدوم) وهو يستطيع أن يقدم قمحا :

لا دَرَّ درِّى إن أطعمت نازلهم   قِرْفَ الحَتِىِّ وعندى البُرُّ مكنوز (٣)

وأى عمل أدل على الكرم ورعاية الغريب من أن يَفْتَظَّ الرجل إبله ليأخذ ما بقى في كروشها من الماء فيؤثر به الغرباء فيحفظ بهذا الماء حياتهم وإن لم يكن فيه رى لهم ، قال زيد الخيل :

نصول بكل أبيض مشرفى   على اللاتى بَقِىَ فيهن ماء
عشية نؤثر الغرباء فينا   فلا هم هالكون ولا رِواء (٤)

ولم تكن مفخرة العربى بأن يقدم لضيفه طعاما عظيما لتزيد على مفخرته بأنه جاد بأنفس ما يملك ، وقد علمت أن حاتما وكعبا وهرما لم يجعلوا أمثالا فى الجود لعظم عطياتهم فى القدر ، لأن الواحد منهم إنما كان يقرى ضيفا أو يهب بعيرا أو عددا من الشاء قليلا ، ولكن ذهب صيتهم فى السماح وبعد ذكرهم فى الجود لأنهم كانوا يعطون وهم محتاجون ويبذلون وهم مختلون ، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون

---

(١) المرجع السابق ١/٣١   (٢) الأمالى ٢/٢٩٦
(٣) البيان والتبيين ١/٣٠   (٤) الأمالى ١/١١٧

والأمين فى اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك فى جميع أيامهم ؛ ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضرب بأولئك ، فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنوا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم وقلة ذات أيديهم ، فجعلوهم أمثالا مضروبة لكل من استغربوا فعله »[1] .

و — هداية الضيف

ولقد يسدل الليل أستاره والغرباء يضربون فى الصحراء رجالا وعلى كل ضامر ، وهم فى حاجة إلى زاد أو ماء أو مبيت ، فما الذى يهديهم إلى محلة أو نجع ؟ تهديهم النار التى يوقدها الكرام لهداية الضيفان واجتذابهم ، وتهديهم النار التى يوقدها العرب لإنضاج الطعام أو للاستدفاء ، وقد أكثروا من التحدث بنار القرى ، قال عمرو بن عبد الله العجلى :

إذا أخمد النيران من حذر القِرى   رأيت سنا نارى يُشَبُّ اضطرامها[2]

وقال حاتم إنه يأمر غلمانه بإيقاد النار إذا ما أطفأ البخيل ناره ، وإنه يأمر من يوقدها أن يتوسع فيها لتكبر وتعلو ، فإن جلبت ضيفا كان خيراً ، وإلا فقد أدوا ما رأوه واجبا عليهم ، وإن حاتما ليصف غلامه الذى يسبق الآخرين بإيقاد النار بالعفة وبأنه يستحق الثناء :

إذا ما البخيل الخب أخمد ناره   أقول لمن يصلى بنارى أوقدوا

توسع قليلا أو يكن ثَمَّ حسبنا   وموقدها البادى أعف وأحمد[3]

ويقول لغلامه فى ليلة باردة الريح : أوقد ليرى نارك من يمر ، وإن جاءنا ضيف فأنت حر :

أوقد فإن الليل ليل قَرُّ   والريح يا غلام ريح صِرُّ

---

(١) الكرماء لأبى هلال العسكرى ٣٠ـ٣١

(٢) معجم الشعراء ٢٢٣   (٣) شعراء النصرانية ١١٣/١

عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فأنت حر[1]

وكانوا يوقدونها على المرتفعات لتكون أبين وأوضح « وربما أوقدوها بالمندل الرطب — وهو عطر ينسب إلى مندل بلد بالهند — ونحوه مما يتبخر به ليهتدى إليها العميان »[2].

ولا نوافق على أن إيقاد النار بالشجر العطر الرائحة كان لهداية العميان إليها ، ونرى أنه نوع من الترف وإظهار المقدرة ، والتباهى بالثراء ، ورغبة أن يشموا هم رائحته الطيبة ، قال عدى بن زيد إن ناره كانت تحرق الشجر الطيب الرائحة :

رُبَّ نارٍ بتُّ أرمقها تَقْضِمِ الهندىَّ والغارا[3]

وقال الأعشى فى مدح المحلِّق :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تَحَرَّقُ
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

وقد هدوا الغرباء إلى منازلهم فى الليل بنباح الكلاب أيضا ، وكنوا عن كرم الرجل بجبن كلبه لأنه ينبح فى الليل فاذا ما رأى الغرباء كف لأنه قد اعتاد أن يطرق الدار غرباء ، قال أحدهم فى كلب له .

أوصيك خيراً به فإن له خلائقا لا أزال أحمدها
يدل ضيفى علىَّ فى غسق الليل إذا النار نام موقدها[4]

وإذا ضل السارى ليلا وتحير فلم يدر أين البيوت نبح فتسمعه الكلاب فتنبح فيقصد أصواتها ، وهذا الذى تقول له العرب (المستنبح) قال الشاعر لقد ضل مستنبح فى ظلمات الليل ، فرفع له ناره وتلقاه بهشاشة ، وإن كانت نياقه قد ذعرت من مقدمه لأنها تخوفت العقر :

(١) شعراء النصرانية ١/١١٦ (٢) بلوغ الأرب ١/٧٠
(٣) الأمالى ١/٦٠ (٤) بلوغ الأرب ١/٧٠

ومستنبح باتت الصدى يستتيهه ... فتاة وجوز الليل مضطرب الكسر
رفعت له ناراً ثقوباً زنادها ... تليح إلى السارى : هلم إلى قدرى
فلما أتى والبؤس رادف رحله ... تلقيته منى بوجه امرىء بشر
فقلت له : أهل كأهل ، فلم يجر ... بك الليل إلا للجميل من الأمر
وكانت تطير الشول عرفان صوته ... ولم تمس إلا وهى خائفة العقر(١)

وهذا عتبة بن بجير الحارثى يقص قصة ضيف مستنبح ، أضله صدى الصوت فسمع بجير رغاء ناقته وسمع نباح كلاب الحى ، فسأل أهله فقالوا إنه غريب طوحت به الصحراء والخطوب ، فنهض بجير إلى نجدته ولقائه ، ولم تقعده معاذير تختلقها النفس الشحيحة ، ونادى ابنه شبلا فلبى نداءه لأن المكرم سجية لها ، وربما أكرما من يعاديان ، وقام متهللا فنحر من نوقه الباقيات ، وطالما نحروا من نوقهم وأهانوها ليصونوا أعراضهم . وجميل منه أن يسمى نفسه أبا الضيف :

ومستنبح بات الصدى يستتيهه ... إلى كل صوت فهو فى الرحل جانح
فقلت لأهلى : ما بغام مطية ... وسار أضافته الكلاب النوابح ؟
فقالوا : غريب طارق طوحت به ... متون الفيافى والخطوب الطوائح
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم ... مع النفس علات النفوس الشحائح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ... ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه ... وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه ... وأعراضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه ... إذا عد مال المكثرين منائح(٢)

ومن هذا القصص المصور للكرم قول المثقب العبدى إنه رأى سارياً أعياه المبيت ولم يجد فى الظلماء طريقا ، ولكنه رأى على البعد كوكبا فظنه نارا فأسرع إليها

---

(١) الأمالى ١/٢١٠ تليح : تشير . وجه بشر : وجه منطلق
(٢) الكرماء ١٠، والحماسة ٢/٢٤٠

ليجد قراه ومبيته وأمانه ، فلما تبين أنه واهم رفع له المثقب ناره ، وأمر عبديه أن يشعلاها ، فقدم الضيف إليها مبتلا من المطر فرحب به أيما ترحيب ، ونهض إلى إبله الراقدة فتخير منها أسمنها ، ونحرها ، وأنضج له لحمها وقراه :

وسارٍ تَعَنَّاه المبيتُ فلم يَدَعْ له طامسُ الظلماء والليل مذهبا

رأى ضوء نار من بعيد فخالها لقد أكذَبَتْه النفس بل رأى كوكبا

فلما استبان أنها إنسيه وصدّق ظنا بعد ما كان كذبا

رفعت له بالكف نارا تُشُبُّها شآمية نكباء أو عاصف صَبَا

وقلت ارفعاها بالصعيد كَفَى بها منادٍ لسارٍ ليلةً إن تأوّبا

فلما أتانى والسماء تبُلُّه فلقيته أهلا وسهلا ومرحبا

وقمت إلى البَرْكِ الهواجد فاتّقَتْ بكوماء لم يذهب بها النِّىُّ مذهبا

فرجّتُ أعلى الجنب منها بطعنة دعَتْ مستكنّ الجوف حتى تصببا

تسامَى بناتُ الغَلْىِ فى حَجَراتِها تسامى عتاق الخيل وَرْداً وأشهبا(١)

هـ — فخر بالكرم ومدح به

وإذا كانوا قد افتخروا بالشجاعة فقد افتخروا أيضا بالكرم ، وكان فخرهم بالكرم دليلا على أنهم قمعوا شرة نفوسهم وتغلبوا على شحها ، وآثروا غيرهم على أنفسهم أو أشركوه فى خيرهم .

وقد مر بنا طرف من فخارهم بهذا ، ومن ذلك فخر حاتم بأنه سيد ماله ينفقه ويهينه فليس لماله عليه سلطان كسلطانه على بعض الناس ، وهو ينفق ماله فى الخير فيفك به الأسرى ، ويقدمه طعاما للآكلين ، ويغيث به السائلين والمحتاجين إذا بخل الناس :

إذا كان بعض المال ربا لأهله فإنى بحمد الله مالى مُعَبَّد

---

(١) ديوان المثقب العبدى ١٨ مخطوط . تعناه : أتعبه . البرك الهواجد : الإبل النائمة . كوماء : سمينة . النى : السمن . تسامى : ترتفع . بنات الغلى : قطع اللحم . حجراتها : نواحى القدر

يفك به العاني ويؤكل طيبا ... ويعطي إذا من البخيل المصرّد[1]

وقال الشمخي الفزاري :

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني ... كريم على حين الكرام قليل

وأني لا أخزى إذا قيل مقتر ... جواد وأخزى أن يقال بخيل[2]

وقد تبرأ طرفة بن العبد من أن يكون نزوله إلى مسايل الماء والوهاد تهربا من القرى :

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد[3]

وقد رووا عن سلمى بن ربيعة أو علباء بن أرقم قصيدة ، يقول في بعض أبياتها إن العذارى ينضجن له اللحم على عجل فيدور به على الطالبين في مغالق :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت ... واستعجلت هزم القدور فملّت

دارت بأرزاق العفاة مغالق ... بيديّ من قمع العشار الجلة[4]

* * *

وكانت لبعضهم فلسفة عملية صائبة مبنية على بعد النظر والتجربة ، فهم لا يرون مدعاة للبخل ، لأنهم لن يموتوا جوعا ، ولأن المال الذي يخلفونه سيرثه غيرهم ، وقد يكون من الورثة عدو يتلهف ويتشوف ، ثم هم سيموتون وخير لهم أن يخلفوا ذكرا طيبا . قال طرفة :

أرى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غويّ في البطالة مفسد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد[5]

وفي هذا المعنى قال حاتم :

أماويُّ إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

---

(١) شعراء النصرانية ١١٢

(٢) البيان والتبيين ٣/١٥٤ (٣) ديوان طرفة ٢٧

(٤) الأمالي ١/٨١ ، ونوادر أبي زيد ١٨٤

(٥) ديوان طرفة ٣١ . يعتام : يصطفي . الفاحش : البخيل

أداوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر[1]

وتبدو العزيمة على بذل المال فى قوله :

أهِنْ للذى تهوى التلادَ فإنه إذا مت كان المال نهبا مقسما

ولا تشقينْ فيه فيسعدَ وارث به حين تخشى أغبر اللون مُظلما

يقسمه غنما ويشرى كرامة وقد صرت فى خط من الأرض أعظما

قليل به ما يحمدنك وارث إذا ساق مما كنت تجمع مغنما[2]

حاتم هنا ساخط ناقم حزين ، يتمثل الموت والوارثين ، وبعضهم يتشوفون موت الغنى ليرثوا ، لذا يوصى حاتم الغنى أن ينفق ماله فى الكرم حتى لا يستمتع به شانئه ، ولقد يشترى هذا الوارث الشانىء محامد ومفاخر لنفسه بالمال الذى ورث .

« ولعلهم بكرم حاتم أكثر احتفاء من كرم غالب بن صعصعة ، لأن الناس بمآثر الجاهلية أشد كلفا . وإلا فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر فى النفوس وأحل فى الصدور من رجال الجاهلية ، مع قرب العهد ، وعظم خطر ما ملكوا ، وكثرة ما جادت أنفسهم ، ومع الإسلام الذى شملهم ، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم »[3]

ورثوا الكرماء فأشادوا بكرمهم فى حياتهم ، قال مُعَية بن الحُمام فى رثاء أخيه حُصَين:

نعيتَ حيا الأضياف فى كل شَتْوة ومدره حرب إذ تخاف الزلازل

ومن لا ينادى بالهضيمة جاره إذا أسلم الجارَ الألفُّ المواكل[4]

وأشاد السفاح بن بُكير بن معدان اليربوعى بسعة وعمق القصاع التى كان يقدمها لضيوفه يحيى بن شداد بن ثعلبة بن بشر :

والمالىء الشيزَى لأضيافه كأنها أعضادُ حَوْض بقاع

لا يخرج الأضيافُ من بيته إلا وهم منه رواء شباع[5]

---

(١) شعراء النصرانية ١/١٠٩ (٢) شعراء النصرانية ١/١١٩

(٣) الحيوان للجاحظ ٢/١٠٨ تحقيق هارون

(٤) الأمالى ١/٦٣ الألف : العاجز العيي بالأمور (٥) المفضليات ٢/١٢٣

وود حازم بن أبي طرفة أن ترثيه ابنته بالكرم إذا ما مات ، فتعدد من مآثره أنه كان معطاء جوادا ، وأنه كان مأوى الجياع والبائسين :

بنيةُ إن الموت لا بد لاحق   يشيخك ماضى الأنام المودعُ
فإن قمت تبكيني فقولى أبو الندى   ومأوى رجال بائسين وجوّعِ (١)

ومن رثاء شداد بن الأسود — أبي بكر بن الأسود — لقتلى بدر :

فماذا بالقَليب قليب بدر   من القينات والشَّرب الكرام
وماذا » » »   من الشِّيزى تكلل بالسنام (٢)

البخـــل

بعض الرجال بخلاء . بخل النساء ولومهن على الكرم . لماذا بخلت النساء ؟

١ — على أن شيوع الكرم فيهم ، وتقديرهم للكرماء لا ينفى أن بعضهم كان على بخل ، يضن بماله على السؤال ، ويتهرب من النوال ، وقد هُجى بالبخل بعض رجالهم ، وسنرى أن نساءهم كن أبخل من الرجال . قال الأعشى :

تبيتون فى المشتى ملاءً بطونُكم   وجاراتكم غَرْثَى يبتن خمائصا

وعير عروة بن الورد خصمه بالبخل ، وافتخر بالكرم فى قوله :

إنى امرؤ عافى إنائى شركة   وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى   بوجهى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد (٣)

على أن تنفيرهم من البخل دليل على وجوده ، وإلا فلماذا يهجونه وينفرون منه ؟ إن الداعين إلى الخير والمنفرين من الشر إنما ينفرون من شر واقع فى المجتمع ويريدون أن يطهروا المجتمع منه ، أقول ذلك لأثبت أن بعض العرب كان بخيلا ، غير مجتزىء

---

(١) المؤتلف والمختلف ١٠٠   (٢) سيرة ابن هشام ٢/٤٠٠
(٣) شعراء النصرانية ٣/٨٨٧

بأهاجي الشعراء وتعييرهم خصومهم بأنهم بخلاء ، فقد يقال إن الشعراء يلصقون بأعدائهم ما ليس فيهم .

فمثلا يرى الهذلي أن طريق السيادة صعب المرتقى ، وأصعب ما فيه أن يكسر الراغب في السيادة من حرصه على المال :

وإن سيادة الأقوام فاعلم ... لها صُعَداء مطلبها طويل

أترجو أن تسود ولن تعنَّى ... وكيف يسود ذو الدعة البخيل؟[١]

وحذر رجل بنت عمه من أن تتزوج ببخيل جبان ، وإن قدم مهراً مغريا ؛ ستين ناقة سمينات وغيرها من عبيد ورضاً بما يريدون :

لا تقربي يا بنت عمي بُوهَةً ... من القوم دِفْناسًا غبيا مُفَنَّدا

وإن كان أعْطَى رأس ستين بَكرة ... وحكما على حكم وعبدا مُوَلَّدا

ألا فاحذري لا تُوردَنَّك هَجْمَةٌ ... طوال الذُّرى جِبسا من القوم قُعْدُدا[٢]

وقد استرعى انتباهي وأنا أنقب في الشعر القديم فيضٌ من شكاية الرجال من نسائهم المانعات من الكرم اللائمات على الإسراف ، فمثلا حاولت امرأة حاتم أن تغل يده عن العطاء بدعوى أنه بسخائه قد أضر بنفسه وبها ، فعصاها ؛ لأن الكرم عادة راسخة عنده لا يستطيع أن يبطلها :

وقائلة أهلكت بالجود مالنا ... ونفسَك حتى ضر نفسَك جودها

فقلت دعيني إنما تلك عادتي ... لكل كريم عادة يستعيدها[٣]

وضاق المثلم بن رباح المري بلائماته على كرمه ، لأنهن جاهلات بما يثمر الكرم من محامد ، ويدعين أنه إسراف وطيش ، وما الطيش إلا البخل والأمر بالبخل :

---

(١) البيان والتبيين ٢٢٥/١

(٢) المرجع نفسه ٢٠٧/١ بوهة : أحمق . دفناس : بخيل حقير . بكرة : ناقة فتية . هجمة : قطيع من الإبل من أربعين إلى ما بعده . جبس : ثقيل . قعدد : جبان خامل

(٣) شعراء النصرانية ١٢٦/١

بكرَ العواذل بالسواد يلمنني جهلاً ، يقلن : ألا ترى ما تصنع ؟
أفنيتَ مالك في السفاه وإنما أمرُ السفاهة ما أمرنكَ أجمع (١)

وردُ حطائط بن يعفر النهشلي رداً مفحماً على زوجه رُهم التي زعمت أن جوده أهلكهم ، لأنه كلما اقتنوا إبلا بذلها كما يصنع أخوه الأسود . فقال لها غير عاجز عن الجواب : تبصري ، فهل ترين أن الهزال هو الذي أمات زيداً وأربد ، وإنك لتعجزين أن تسمى لى كريما مات من الهزال ، وتعجزين أن تسمى بخيلا قد تخطاه الموت ، فلا الكرم يميت ، ولا البخل يبقى :

تقول ابنة العباب رُهمٌ حَرَبتنا حُطائطُ لم تترك لنفسك مقعدا
إذا ما أفدنا صِرمة بعد هَجمة تكون عليها كابن أمك أسودا
فقلت – ولم أعيَ الجواب – تبيني أكان الهزال حتف زيد وأربدا
أريني جواداً مات هزْلًا لعلنى أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا (٢)

ويسلك المخبل السعدى مسلكا آخر فى الرد ، حين تدعى عاذلته التى لا تعلم الغيب ولا تعرف ما يجيء به الغد أن الغنى يخلد صاحبه ، وأن الفقر يجلب المصائب ، فكأنها تقول إنه ينقص العمر ويسرع بالأجل ، فيقول لها : أقسم أنى لو ملكت مائة من الإبل الخالصة البياض التى طار وبرها من سمنها ما نجوت من الموت :

وتقول عاذلتى وليس لها بغــد ولا ما بعده علم
إن الثراء هو الخلود وإن (م) المرء يُكرب يومَه العدمُ
إنى وجدكِ ما تخــلدنى مائة يطير عِفاؤها أُدُم
ولئن بنيت لى المشقّر فى هَضْب تقصر دونه العُصُم
لتنقبَنْ عنى المنية إن (م) الله ليس كحكمه حكمُ (٣)

---

(١) الحماسة ٢/٢٨٦
(٢) الحماسة ٢/٣٢٠ . حربتنا : سلبتنا مالنا الذى نعيش به . صرمة : جماعة من الإبل من عشرة الى أربعين . هجمة : من الأربعين الى ما بعدها (٣) المفضليات ١/١١٦

وإذا كان الشعراء السابقون قد ردوا على العاذلات ردودا شتى ، فإن أوجعها رد معاوية بن مالك العامرى ، فقد اتهمته زوجه بالسفه والضلال لما رأت الناس يقصدونه فقال لها : ليكن على ضلالا ، فسأفعله دائما لأنى تعودته ، وهو بهذا يغيظها مرتين :

قالت سُمية : قد غويتَ بأن رأت حقا تناوبَ مالَنَا ووفودُ
غَيٌّ لعمركِ لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجود[1]

ولبعض الرجال أقاصيص مع نسائهم البخيلات ، كهذه التى رووها عن حجية ابن المضرب ، فقد رأى جاريته ومعها قعب من لبن فقال : أين تذهبين ؟ قالت : إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه ، فلما أراح راعيه إبله عليه قال لعبديه : أريحا هذه الإبل على أولاد أخى ، فأراحاها كلها عليهم ، فغضبت امرأة حجية غضبا شديدا ، فقال :

لججنا ولجت هذه فى التغضب ولَطَّ الحجاب دوننا والتنقب
تلوم على مال شفانى مكانه فلومى على مافاتك اليوم واغضبى
ولا تحسبينى مِلْدَمًّا إذ نكحته ولكننى حُجيةُ بن المضَرَّب
فإن تجلسى فأنت أقْنَى عيالنا وإن تكرهى هذى المعيشة فاذهبى
وخطت بعود إثمد فوق عينها لتذهب عقلى بالنَّواكة زينبى
رحمت بنى مَعْدان إذ ساف مالُهم وحُق لهم منى وربِّ المحصَّب
ولما رأيت النفس ألا تُقرها هدايا لهم فى كل قَعْب مُشَعَّب
رثيت لهم لما رأيت سَوَامهم عطاءَ الموالى من أفيلٍ ومُصعَب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم سأجعل بيتى مثل آخر مُعْزِب
وقلت خذوها واعلموا أن عمكم هو اليوم أولى منكم بالتكسب

---

(١) المفضليات ٢/١٠٦

أحابي بها قبر امرىء لو أتيته حريبا لآسانى على كل مركب
اخوك الذى إن تدعه لملمة يجبك وإن تغضب الى السيف يغضب (١)

فهو هنا يصور زوجه غضبى لأنه أنف أن تُهدى إلى أولاد أخيه لبنا فى قعب كما يهدى إلى الصيد والبائسين ، فأمر عبديه أن يريحا الإبل على أولاد أخيه ليحتلبوا ما يشاءون ، ولم يعبأ بلومها وغضبها لأن هذا العمل قد أراح نفسه ؛ وهو ليس بليد الحس حتى ينصاع للومها ، وليس أحمق حتى تخدعه بكحلها فتنسيه ما وجب عليه ، ولكنه رجل يحتفظ لنفسه بحقوقه ، فلتعش معه على مايريد وهى إذن موضع رعايته كأنها أعز بنيه وإلا فلتفارق ، ثم صور الباعث له على عطفه .

وشبيه بهذا قول ضَمْرة بن ضمرة ان زوجه عجلت بلومه بعد موهن من الليل ، لأنه أعان ابن عمه بلبن من إبله ، فقال لها : كيف أبقى اللبن فى أضراعها وابن عمى جائع ؟ هل ترين انى إذامت تخمش علىّ الإبل وجوهها أو تعصب رءوسها ؟ :

بَكَرَتْ تلومك بعد وهن فى النَّدى بَسْلٌ عليك ملامتى وعتابى
ولقد علمت فلا تظنى غيره أن سوف تَخْلِجنى سبيل صحابى
أأصرُّها وبُنَىُّ عمى ساغب فكفاكِ من إبَةٍ علىَّ وعاب
أرأيت إن صرخَتْ بليل هامتى وخرجتُ منها باليا أثوابى
هل تَخْمِشَنْ إبلى علىَّ وجوهها أم تعصبَنَّ رءوسها بسِلاب (٢)

ويظهر أن عذل النساء كان شائعا معتادا ، حتى ان بعض الشعراء المادحين تحدثوا به ، فزهير فى مدحه لحصين بن حذيفة يقول انه رآه صباحا والعواذل يلمنه تارة ويتوسلن اليه تارة ولكنه أعجزهن فى كلتا الحالتين :

---

(١) المؤتلف والمختلف ١٨٣ اط : لزم . ملدم : أحمق ثقيل لحيم . أقفى عيالنا : خيرهم . النواكة : الحمق . صاف مالهم : نفد . أفيل : ولد الناقة . مصعب : فحل من الإبل . حريب : فى شدة

(٢) الأمالى ٢/ ٢٨٠ ° بكرت : المراد هنا عجلت . البسل : الحرام هاهنا . تخلجنى : تجذبنى ° الإبة : الحياء ° السلاب : خرقة سوداء تتقنع بها المرأة فى المأتم

وأبيض فياض يداه غمامة ... على معتفيه ما تغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرأيته ... قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفدينه طوراً وطوراً يلمنه ... وأعيا فما يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزأ ... عزوم على الأمر الذى هو فاعله
أخى ثقة لا تتلف الخمر ماله ... ولكن قد يتلف المالَ نائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ب — وبعد ، فيحق لنا أن نقف هنا وقفتين :

أما الأولى فهى أن الشعر الجاهلى ليس كله يمثل العرب أجواداً كراما كما ذهب الدكتور طه حسين « يمثل لنا العرب أجواداً كراما مهينين للأموال مسرفين فى ازدرائها ، ولكن فى القرآن إلحاحا فى ذم البخل وإلحاحا فى ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الجاهلية » .(١) وهو يبنى على هذه الدعوى وأمثالها أن الشعر الجاهلى مصنوع منحول ، لأنه لا يصور الحياة الجاهلية ، وإنما يصورها القرآن الكريم .

وقد رأينا أن الشعر الجاهلى تحدث بالبخل كما تحدث بالكرم ، وأن بعض الناس عُيروا بالبخل ، وأن بعض الناس نفّروا منه ، ولم ينفروا من رذيلة غير موجودة فى المجتمع ، ثم رأينا أن النساء أبخل من الرجال أو هن حقا بخيلات .

وأما الوقفة الثانية فهى تتصل بالمرأة البخيلة ، لماذا نجد كثيرا من الشعراء حين يفخرون بالكرم أو يمدحون به يصورون النساء عاذلات لائمات ؟ حتى قالوا إن حاتما طلقته امرأته ، أو طلقها لأنها ألحت عليه أن يبخل .

ولماذا خصوا الزوجات بهذا العذل واللوم ؟

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٨٥

نستطيع أن ندعى أن هذا تخيل من الشاعر أراد به أن يعظم من عزيمته ومروءته، لأنه يكرم حتى حين يلام، والشاعر أدار هذا الخيال على زوجته ولم يدره على أمه أو أخته أو ابنته لأن الزوجة ليست من قرابته، ولكننا نرد على هذه الدعوى بأن من دواعى شرف الرجل أن تكون زوجته كريمة مثله لأنها من أصهار كرماء، أو لأن كرم زوجها أعداها، فليس مما يشرف الزوج أن يتخيل اللوم من الزوجة لا من أمه أو أخته.

ولم يبق فى نظرنا إلا أن الشعراء صوروا حقيقة واقعة هى أن النساء بخيلات أو على الأقل أبخل من الرجال، فهن لا ينفتأن يلمن على الكرم ويسمينه سفها، ويعذلن على مساعدة الضعاف، ويدعين أنها تجلب الفقر والهلاك .. ولعل بخلهن راجع إلى ظروف خاصة بهن، منها أنهن بعيدات عن المجتمعات التى يفتخر فيها بالكرم، وأنهن ربات البيوت والحريصات على زاد الأسرة، والمباشرات لما تحتاجه من طعام، على أنهن عمليات أكثر من الرجال، فلا يعبأن بثناء يجر نقصا فى الأموال أو فقراً وحاجة.

وإذا صح هذا فإن ألصق الناس بالرجل زوجته، فهى تلومه وتغضب من سخائه، وهو يصور هذا اللوم وهذا الغضب، ويرد على زوجته بما ترتضيه نفسه.

الشجاعة

١ — بواعثها

مفخرة العربى وحِلْيته شجاعته، يلبسها وتلبسه سواء أكان غنيا أم فقيرا، ذا قبيل أم وحيداً، وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع، بعيدون عن الحامية، يعيشون فى العراء غير محتمين بأسوار أو جدران أو أبواب، فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم ولا يكلونه إلى سواهم، يحملون السلاح دائما، ويتلفتون عن كل جانب «ويتجافون عن الهجوع، ويتوجسون للنبآت والهيعات، ويتفردون فى البيداء، مدلين ببأسهم، واثقين بنفوسهم، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية» (١).

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٥

وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه، وأنه شب وكبر وهي تتمشى في دمه، وكيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام، وحسن البلاء في حماية الذمار والأخذ بالثأر، وبالعدوان في كثير من الأحيان، وطالما فزع طفلا على قعقعة السلاح وصيحات المتقاتلين، وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها، وردوا المغيرين عليها، أوهجموا على أخرى وأجلوها، ثم شب فرأى الرماح تشتبك والسيوف تتقارع والأبطال في ميدان الوغى تتنازع، ثم كبر فشارك في المواقع، وأفنى العمر في المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب. «وقد كانت شجاعة العرب تشبه شجاعة قدماء الإغريق تعتمد على الحماسة وتختفي سريعاً أمام الفتور والتأخير»(١).

وكان العربي يَتَشجّع إلى أن يلقي بنفسه في التهلكة راضياً مختاراً إذا كان بذلك يحمي المرأة ويصونها من الأسر أو المهانة، وقد علمنا أن النساء كن كثيراً ما يصحبن المقاتلين، قال عمرو بن معد يكرب إنه لما رأى نساءهم يجرين خائفات فتؤثر أقدامهن في الأرض الصلبة، وبدت حبيبته لميس كالبدر، وكشفت عن محاسنها — التي كانت تخفيها من قبل — هلعاً وذعراً، لما رأى الشاعر ذلك هجم على رئيس كتيبة الأعداء، ولم يجد وسيلة غير ذلك:

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمَعْزاء شدًّا
وبدت لَمِيسُ كأنها بدر السماء إذا تبدى
وبَدَتْ محاسنها التي تخفي وكان الأمر جدا
نازلتُ كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدًّا(٢)

ب — مظاهرها

وقد تنوعت مظاهر شجاعتهم، فمدحوا الموت في ظلال السيوف والبنود،

---

(١) Nicholson. P. 81

(٢) الحماسة ١/٥٩

وهجوا بالموت على الفراش ، وسموه الموت حَتْفَ الأنوف . قال السموءل ابن عادياء :

وإنا لَقومٌ ما نرى القتل سُبَّةً إذا ما رأته عامر وسلول
يُقَرِّبُ حبُّ الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيدٌ حَتْفَ أنْفِه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تَسيل على حد الظُّباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل(١)

وقال عمرو بن شماس :

لسنا نموت على مضاجعنا بالليل بل أدواؤنا القتل

ورأوا أن الإقدام لا يدنى الأجل ، وأن الحياة الجديرة بالبقيا إنما هى حياة الفتوة والمجد والشجاعة ، فمن العار أن يفر المحارب من لقاء أعدائه ، لأن فراره موت.
قال الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما(٢)

وفى هذا يقول عنترة :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنى الحتوفَ كأننى أصبحتُ عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنية مَنْهَلٌ لا بد أن أُسْقَى بكأس المنهل
فاقْنَى حياءك — لا أبالك — واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أُقتل
وإذا حُملت على الكريهة لم أقل بعد الكريهة : ليتنى لم أفعل(٣)

وشعارهم أن الإقدام حياة ومجد والفرار معرة وموت حقير ، قال الأسدى :

فإن السنان يركب المرءُ حدَّه من العار أو يعدو على الأسد الورد(٤)

---

(١) الحماسة ١/٣٨
(٢) الحماسة ١/٦٢ وفى عيون الأخبار ١/١٢٥ نسب الشعر الى يزيد بن المهلب
(٣) ديوان عنترة ١٢٠ والعقد الفريد ١/١٢٤ (٤) البيان والتبيين ٣/٢٥

وافتخروا بصبرهم عند اللقاء وإن كان لقاء عنيفا ، حتى ينتصروا ، قال نهشل ابن حرى :

ويوم كأن المصطلين بحره — وإن لم تكن نار — قيام على جمر
صبرنا له حتى يبوخ وإنما تفرّج أيام الكريهة بالصبر[1]

وذلك أنهم استطابوا الموت فى المعارك واستطابهم الموت، قال حارثة بن بدر:

وشيّب رأسى واستخف حلومنا رعودُ المنايا فوقنا وبُروقها
وإنا لتستحلى المنايا نفوسَنا وتترك أخرى مُرّةً ما تذوقها
رأيت المنايا بادئات وعُوّدا إلى دارنا سهلا إليها طريقها[2]

وقد أسلفت أن الفرسان والشجعان كانوا يزدهون ببسالتهم فى حديثهم إلى حبيباتهم وزوجاتهم ، ومن ذلك قول عامر بن الطفيل لزوجته :

طُلّقتِ إن لم تسألى أىُّ فارس حَليلُكِ إذ لاقى صُــداء وخثعما
أكر عليهم دَعْلَجًا ، ولَبانُهُ إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما[3]

٣ — وإذا ما تاقت القبيلة إلى أن يشيد شاعرها بمحامدها فلتَشْجُعْ قلوبها ولتَقطعْ سيوفُها ، عندئذ يحق للشاعر أن يملأ الأسماع فخاراً ، قال شاعر لقومه وقد افتخر عليهم أعداؤهم بالنصر :

وقافية قيلت لكم لم أجد لها جوابا إذا لم تضربوا بالمناصل
فأنطق فى حق بحق ولم يكن ليرْحَضَ عنكم قالة الخزى باطلى[4]

ولذلك اعتذر عمرو بن معد يكرب عن سكوته بأن قومه لم تنطقه شجاعتهم بفخر:

فلو أن قومىَ أنطقتنى رماحهم نَطَقْتُ ولكن الرماح أَجَرَّت[5]

وكان من محامد القبيلة أن يكثر فى الحروب قتلاها لأن هذا دليل عملى على أنهم

---

(١) عيون الأخبار ١/١٢٥
(٢) الأغانى ٢١/٢٠ ساسى
(٣) الحماسة ١/٥١
(٤) البيان والتبيين ١/١٨٣
(٥) المرجع السابق ١/١٨٤ . أجرت : أسكتت

ألفوا الحروب وألفتهم ، وزبنوها وزبنتهم ، قال بشامة بن حزن النهشلي أو المرقش الأكبر :

إنى لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيلُ الكماة : ألا أين المحامونا ؟
لو كان فى الألف منا واحدٌ فدعوا ... مَنْ فارسٌ ؟ خالهم إياه يعنونا
إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم ... حدُّ الظباة وصلناها بأيدينا
ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم ... مع البكاة على من مات يبكونا
ونركب الكره أحيانا فيفرجه ... عنا الحفاظ وأسياف تواتينا[1]

وقال دريد بن الصمة إنهم يأبون إلا أن يموتوا فى الوغى ، وإنهم دائما على وتر ، وحياتهم كلها إما أن يثأروا لأنفسهم وإما أن يثأر منهم :

أبى القتلُ إلا آلَ صمَّةَ إنهم ... أبوا غيره والقدْر يجرى إلى القَدْر
فإما ترينا لا تزال دماؤنا ... لدى واتر يسعى بها آخر الدهر
فإنا لَلَحْمُ السيف غيرَ نكيرة ... ونُلْحمُهُ أحيانا وليس بذى نُكْر
يُغار علينا واترين فيُشتفَى ... بنا إن أُصبْنا ، أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهرَ شطرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحن على شطر[2]

ولقد يقال إن شجاعتهم تهور ، ولكننا نقول إن هذا الذى نسميه تهوراً كان هو الشجاعة فى أعلى مراتبها فى نظر أولئك الشجعان ، والشعر السابق يفتخر بالهجوم على الأعداء إذ يتهيب الأبطال أن يهجموا ، ويفتخر بالتنافس على الإقدام وكثرة القتلى فى الحروب ، وتلك فى نظرهم هى الشجاعة .

٤ — ونكاد نوقن بأن بعض شجعان العرب كانوا ينفرون عن الموت تنفيراً حين لا يتصونون من مظان الحتوف ، وإلا فما بال أبى سليط طريف بن تميم يأنف أن

---

(١) الحماسه ١/٣٤ وشعراء النصرانية ٣/٢٨٨ (٢) الحماسة ١/٣٤٧ والقدر تجرى إلى القدر : القتل مقدر لهم وهم مقدرون له . نكيرة : عيب ومنكر .

يتقنع فى المواسم والجموع كما يفعل الناس مخافة أن يغتالهم الأعداء ؟ وما باله لا يبالى أن يعرفه جميع فرسان العرب ؟ ولما أقبل خصيصة الشيبانى يتأمله قال طريف :

أَوَ كلما وَرَدَتْ عكاظَ قبيلةٌ بعثوا إلىَّ عريفهم يتوسم ؟
فتوسمونى إننى أنا ذاكم شاكٍ سلاحى فى الحوادث مُعْلِمُ
تحتى الأغرُّ وفوق جلدى نَثْرَةٌ زَغْفٌ ترد السيف وهو مُثَلَّمُ(١)

وقد عير درهم بن يزيد بن ضبيعة مالك بن العجلان ، لأنه كان إذا شهد الحرب يغير لباسه ويتنكر لئلا يعرف فيقصد :

إنك لاقٍ غدا غُواةَ بنى عمى فانظر ما أنت مُزْدَهِف
فأبد سيماك يعرفوك كما يبدون سيماهم فتعْتَرِف(٢)

فالشجاع الصنديد يُعْلِم نفسه بشارة كأنه يتحدى أعداءه ويقول لهم هاأنذا ، وكان حمزة بن عبد المطلب يوم بدر مُعْلِمًا بريشة نعامة حمراء ، وكان الزبير بن العوام معلما بعمامة صفراء(٣)

ومن ضروب بسالتهم فخرهم بأنهم يخطون إلى الأمام ليدركوا العدو إذا ماقصرت سيوفهم عن أن تصل إليه ، قال الأخنس بن شهاب بن شَرِيق التغلبى :

وإن قَصُرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى القوم الذين نضارب(٤)

وقال آخر :

إن لقيس عادةً تعتادها سَلَّ السيوف وخُطًى تزدادها(٥)

ومن ذلك أن الفارس ربما زاد فى طول رمحه ليخبر عن فضل قوته ، ويخبر عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجدته ، قال كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قَصُرن بخطونا قُدُما ونُلْحِقُها إذا لم تُلْحَق

(١) البيان والتبيين ٣/٦٩ والأصمعيات من مجموعة وليم البروسى ١/٦٧ نثرة : درع متينة . زغف : لينة واسعة محكمة . (٢) الأغانى ٣/٢١ الدار . مزدهف . مقتحم : نعترف : تعرف
(٣) البيان والتبيين ٣/٧٠ (٤) المفضليات ٢/٧ (٥) البيان والتبيين ٣/٢٠

وقال رجل من بني تيم بن نمير :

وصلنا الرقاق المرهفات بخطونا   على الهول حتى أمكنتنا المضارب[١]

٥ — ولم تكن النساء لينحن على قتيل في الحرب ، لأن قتله يجد وشرف ، ولأنهن تعودن أن يفقدن أعزاءهن في الحرب ، ولأن النواح عليه يشيء أن دمه مطاول ، قال عمرو بن كلثوم :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا   على هالك أو أن تضج من القتل[٢]

وقد اصطحب المحاربون نساءهم ليبعثن الحمية والحماسة والبسالة فيهم ، كما فعلت مذحج يوم فيف الريح ، فقد كانت معهم « النساء والذراري حتى لا يفروا ، فإما ظفروا وإما قتلوا جميعاً »[٣]. وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان   نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهداً   إذا لاقوا كتائب معلمينا

ليستلبنّ أفراسا وبيضاً   وأسرى في الحديد مقرنينا

يقتن جيادنا ويقلن لستم   بعولتنا إذا لم تمنعونا[٤]

وقد مر بنا أن بعض حكمائهم عاب هذا وعده مجازفة[٥]

٦ — ونحن نعلم كلفهم بالخمر ، وسنتحدث عن هيامهم بها وإعزازهم لها ، ولكنهم رأوا أن الخمر لا يجدر بها غير الشجاع المقدام ، أما الرعديد الجبان فغير خليق بأن يشرب إلا المرق ، قال عمرو بن جبلة بن باعث بن صريم في يوم ذي قار يحضض قومه على القتال :

يا قوم لا تغرركم هذي الخِرَق   ولا وبيص البيض في الشمس بَرَق

من لم يقاتل منكم هذا العُنُق   فجنبوه الراح واسقوه المرَق[٦]

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٩   (٢) الحماسة ١/١٨٨   (٣) أيام العرب ١٣٢

(٤) شرح القصائد العشر للتبريزي   (٥) العقد الفريد ١/١٥٧

(٦) معجم الشعراء ٢٢٥ وبيص : لمعان . العنق : بضم العين والنون أو فتح النون الجماعة من الناس

وإذ كان الأسد أشجع الوحوش وملكها وأعظمها رهبة ألحقوا الرجل الشجاع به في جراءته وغلبه، وكذلك شبهوا الشجاع بالنمر لقوته وبسالته، قال امرؤ القيس.

قولا لدودانٍ عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل ؟ (١)

وقال عَوْف بن عطية بن الخَرِع :

ألم تر أنا رِدَى حروب نسيل كأننا دُفّاع بَحْر
ونلبس للعدو جلود أُسْدٍ إذا نلقاهم وجلودَ نُمْر (٢)

وقال البراق في رثاء ظليل بن الروحان أخيه :

عين تجود وقلب والهٌ كمد لما ثوى في الثرى الضرغامة الأسد (٣)

وفي قصيدة المهلهل بعد مقتل أخيه كليب وانتقامه من قاتليه يمدح بني شقيق الذين أقبلوا لنصرته بأنهم أسود الغاب :

فدى لبني شقيق حين جاءوا كأسد الغاب تُجلب بالزئير (٤)

وقد صور خِداش بن زهير بن ربيعة شجاعتهم وشجاعة أعدائهم حين التحموا في عراك بأنهم كانوا جميعاً نموراً وأسوداً :

فعانقنا الكماة وعانقونا عراكَ النُّمْر واجهت الأسودا (٥)

٧ — إنصاف الأعداء :

وبلغ من حبهم للشجاعة أن شهدوا بها لأعدائهم، فأنصفوهم اعترافا بشجاعة الخصم . قال مالك بن حِطّان ـ في يوم قُشاوة وقد انهزم :

وما ذنبنا أنا لقينا قبيلةً إذا واكَلَتْ فُرسانُنا لا تُواكِل
يساقوننا كأساً من الموت مُرة وعَرَّد عنا المقرنون الحَنَاكل (٦)

(١) البيان والتبيين ٥٦/٣
(٢) المفضليات ١٢٨/٢ النمر . جمع نمر
(٣) شعراء النصرانية ١٤٤/٢
(٤) شعراء النصرانية ١٧٠/٢
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٣
(٦) النقائض ٢٣ الحناكل : القصار الأفعال .

وقال عباس بن مرداس السلمى يصف أعداءه ويشيد بطولتهم :

فلم أر مثل الحى حيا مُصَبَّحاً ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرَّ وأحمى للحقيقة منهم ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا ... صدور المذاكى والرماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها ... عليهم فما يرجعن إلا عوابسا (١)

ومن المنصفات قول خداش بن زهير بن ربيعة :

فأبلغ إن عرضت بنا هشاما ... وعبد الله أبلغ والوليدا
أولئك إن يكن فى الناس خير ... فإن لديهم حسبا وجودا
هم خير المعاشر من قريش ... وأوراهم إذا قَدَحَتْ زنودا
بأنا يوم شمط قد أقمنا ... عمود المجد إن له عمودا
فجاءوا عارضا بردا وجئنا ... كما أضرمت فى الغاب الوقودا
فعانقنا الكماة وعانقونا ... عراك النُّمْر واجهت الأسودا
فلم أر مثلهم هُزموا وفلوا ... ولا كذيادنا عنقا مجودا (٢)

وليس الغرض من الشهادة للعدو بالشجاعة أن يتخذها الشاعر سلما للفخار المضاعف، لأنهم هزموا الشجعان ، وإنما هى شهادة منبعثة عن إعجاب بالشجاعة وتقدير للشجعان ، فى المثالين السابقين إقرار بشجاعة الخصوم ، وفى المثال الثالث إقرار بأنهم خير قريش ، وأن الشاعر لم ير مثلهم فى قتلهم وشجاعتهم، ولو أنه أراد الفخار بالنصر ووصف خصومهم بالشجاعة كذبا لقال إنهم كثير وإنهم شجعان .

ومن أحسن ما قيل فى إنصاف العدو الشجاع قصيدة لعبد الشارق بن عبد العزى الجهنى ، منها :

تنادَوْا يا لَبُهْثَةَ إذ رأونا ... فقلنا : أحسنى ضرباً جُهينا

---

(١) الحماسة ١/١٧٥ والأغاني ١٣/٦٨ ساسى. مصبحا : أغرنا عليه صبحا . القوانس : البيضات .
المذاكى : الخيل التامة السن والقوة . المداعس : الطاعنات (٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٣

سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم ارعوينا
فلما أن تواقفنا قليلا أنخنا للكلاكل فارتمينا
فلما لم ندع قوسا وسهما مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألؤ مزنة برقت لأخرى إذا حجلوا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية ، وقتلت قينا
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جوينا
وكان أخى جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا
فباتوا بالصعيد لهم أحاح ولو خفت لنا الكلمى سرينا[1]

فهذا شاعر أشاد ببطولة أعدائه ، وقال إن هؤلاء الأعداء قد رجعوا برماحهم مكسرة من أجسامنا ودروعنا ، وإننا رجعنا بسيوفنا منحنية من دروعهم وبيضاتهم . وانجلت المعركة عن جرحى من الأعداء يئنون ، وعن جرحى منا عاجزين عن السرى معنا إلى قومنا .

ويفصل المفضل العبدى بلاءهم وبلاء أعدائهم تفصيلا لاتحيز فيه ، يقول فى ختامه :

بكل قرارة منا ومنهم بنان فتى وجمجمة فليق
وكم من سيد منا ومنهم بذى الطرفاء منطقه شهيق
فأشبعنا الضباع وأشبعوها فراحت كلها تثق يفوق
فتلفى الحارث الوضاح منهم كأن سواد لمته العذوق
وقد قتلوا هم منا غلاما كريما ما تخونه العروق[2]

واعترف عمرو بن معد يكرب بأن نساءهم ولولن كما ولولت نساء أعدائهم :

عجت نساء بنى زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[3]

---

(١) الحماسة ١٧٧/١ تلألؤ مزنة : شبه لمعان السلاح الكثيف بالمزنة البارقة . حجلوا : خطوا خطواً متقاربا . ردينا : أسرعنا . قين : اسم فارسهم .

(٢) حماسة البحترى ٦٢ تثق : ملآن . العذوق : العناقيد . العروق : الأصول .

(٣) المرجع السابق ٦٣

الجبن

وفي بعض الهزائم اعترف الشاعر بجبن حلفائه وضعف قومه ، وتحسر لأن جبنهم عقل لسانه عن مدحهم والفخار بهم ، قال عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

لحا الله جَرْماً كلما ذرَّ شارق
وجوهَ كلاب هارشتْ فازبأرّتِ

فلم تُغْنِ جَرْمٌ نَهْدَها إذ تلاقتا
ولكن جرما فى اللقاء ابذعرّتْ

ظللت كأنى للرماح دريّةٌ
أقاتل عن أبناء جرم وفرت

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم
نطقت ولكن الرماح أجرّت (١)

وذلك أن جرما قتلت رجلا من بنى الحارث وارتحلت إلى بنى زبيد قوم الشاعر ، وهب بنو الحارث للثأر ، فعبأ عمرو قبيلة جرم لقتال بنى نهد حلفاء بنى الحارث ، وتعبأ هو وقومه لقتال بنى الحارث ، ففرت جرم من قتال بنى نهد وانهزمت زبيد ، فلام الشاعر جرما ولام قومه أيضا . ورواية البيت الثانى فى الحماسة (فلم تغن) ولكن المعنى لا يستقيم إلا بتصحيحها كما صححناها .

ولقد صرح كثير من الشعراء بفرارهم ، وتلمسوا المعاذير لنفوسهم ، وتنوعت معاذيرهم ، ولا يعنينا صدقهم أو كذبهم فى تبرير فرارهم ، وإنما يعنينا أنهم اعترفوا بالفرار ولم يكتموه .

فر أوس بن حجر ذات يوم من جموع بنى عبس وغيرهم ، واعتذر بأنه لما شهد الجموع خاف ، لأنهم شجعان ، ودافع عن نفسه بأن فراره اليوم لا معرة فيه إذ أن شجاعته مشهورة وبلاءه محمود من قبل .

---

(٢) الحماسة ١/٢٥ هارشت : احترشت . ازبأرت : تهيأت للشر ، والمهارشة والاحتراش ، يقال فى الكلاب . ابذعرت : فرت .

أجاعلة أم الحصين خزاية علىَّ فرارى إذ لقيت بنى عبس ؟
ورهطَ أبى شهم وعمرو بن عامر وبكراً ، فجاشت من لقائهم نفسى
مطاعين فى الهيجا مطاعيم للقِرى إذا اغبرَّ آفاق السماء من القَرْس
كأن جلود النُّمْر جيبت عليهم إذا جعجعوا بين الإناخة والحبس
فضموا علينا حَجْرتينا بصادق من الرأى حَشّ النار فى الحطب اليَبْس
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى إذا جربت منه الشجاعة بالأمس (١)

وفى يوم بدر فر الحارث بن هشام وترك أخاه أبا جهل ، فعيره حسان بن ثابت بقوله من قصيدة طويلة :

إن كنتِ كاذبةَ الذى حدثتنى فنجوتِ منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبـــة لم يقاتل دونهم ونجـا برأس طِمرَّةٍ ولجام
ملأتْ به الفرجين فارمدَّت به وثوى أحبتـــه بشرِّ مُقام (٢)

فأجابه الحارث بهذه المعاذير — وكان ذلك قبل إسلامه — :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مُزْبِد
وشممت ريح الموت من تلقائهم فى مأزق والخيل لم تتبـــدد
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا أقتلْ ولا يَضْرُرْ عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مُرْصِد (٣)

وقد فر حيان بن الحكم الذى سمى (الفَرَّار السُّلَمى) وحسَّن فراره تحسينا ، واعتذر عنه اعتذاراً لا يخلو من طرافة ، قال إنه خالط الكتيبتين فلما اختلطتا نفض يده منهما

(١) ديوان أوس ص ١٠ وحماسة البحترى ٥٢ ورواها صاحب العقد الفريد ١ / ١٧٢ لعمرو بن معديكرب مع تغيير كثير . القرس : البرد . النمر : جمع نمر . حجرتينا : ناحيتينا

(٢) العقد الفريد ١ / ١٧٠ وسيرة ابن هشام ٢ / ٣٨٢ الطمرة : الأنثى الوثابة من الخيل . ملأت به الفرجين : كناية عن سرعة عدوها حتى لا تترك سعة بين قوائمها . ارمدت : أسرعت

(٣) الحماسة ١ / ٦٤ والعقد الفريد ١ / ١٦٥ وسيرة ابن هشام ٢ / ٣٨٥ . أشقر مزبد : دم أحمر مجمد . مرصد : معد للشر .

وتركهما تتكسر الرماح ظهورهم من فيهما ؛ فهم بين قتيل ومن شك أن يموت ، وظرف في اعتذاره بقوله : وأي خير لي في أن تقول نساؤهم لي بعد قتلي : ليتك لم تمت؟!

وكتيبة لبستها بكتيبة ... حتى إذا التبست نفضت لها يدي
وتركتهم تقبص الرماح ظهورهم ... من بين مقتول وآخر مسند
هل ينفعني أن تقول نساؤهم ... - وقتلت دون رجالها - لا تبعد(١)

وإذا كان الفرار السلمي قد تظرف في تبرير فراره ، فإن خبيب بن عوف فر يوم مرداء هجر ، وبرر فراره بسبب آخر هو أن له روحا واحدة يحرص عليها ، ولو أن له روحين لجاد بإحداهما وضن بالأخرى :

بذلت لكم يا قوم حولي وقوتي ... ونصحي وما ضمت يداي من التبر
فلما تناهى بي الأمر من عدوكم ... إلى مهجتي وليت أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفل ملامة عاجز ... يتيم لأطراف الردينية السمر
فلو كان لي روحان عرضت واحداً ... لكل رديني وأبيض ذي أثر(٢)

وما من شك في أن الفرار عار ، والفار يجد في تبرير فراره صادقا أو كاذبا ، وهذا عذر آخر لقبيصة بن النصراني يلقي فيه التبعة على حصانه ، ويقول إنه نفر فباعد بينه وبين الحرب ، فباعه أو أهمله عقابا له :

ألم تر أن الورد عرد صدره ... وحاد عن الدعوى وضوء البوارق
وأخرجني من فتية لم أرد لهم ... فراقا وهم في مأزق متضايق
وعض على فأس اللجام وعزني ... على أمره إذ رد أهل الحقائق
فقلت له لما بلوت بلاءه ... وأبنا : تمتع من خليل مفارق
أحدث من لاقيت يوما بلاءه ... وهم يحسبون أنني غير صادق(٣)

---

(١) العقد الفريد ١٦٤/١ وشرح ديوان الحماسه للمرزوقي ١٩١/١

(٢) العقد ١٧٧ الأثر : فرند السيف وجوهره

(٣) الحماسه ٢٥٢/١ الورد : اسم فرسه . عرد : انحرف . الدعوى : قول الكماة . من يبارز ؟ البوارق : السيوف والسلاح . عزني : غلبني . رد أهل الحقائق : أرجع المدافعون عن الحمى خيلهم للقاء الأقران . بلاءه : سوء بلائه .

وبعد .. فهذا شاعر ومحارب آخر اسمه عُتَيبة بن الحارث بن شهاب فر يوم ثَبْرة عن ابنه حَزْرة ، وتحسر ولكن حسراته لم تغنه شيئا :

يا حسرتا لقد لقيت حسرة   يالتميم غَشِيَتْنى غمـــرة
نعم الفـــتى غادرته بثبرة   نجيت نفسى وتركت حزرة
وهل يترك الحسر الكريم بكره(١)

ولقد يفر المحارب لأنه يتحقق من الهزيمة ، قال هبيرة بن أبى وهب يعتذر عن فراره ويبكى عمرو بن عبدود :

لعمرى ما وليت ظهرى محمدا   وأصحابه جبنا ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد   لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلما لم أجـــد لى مقدَّما   صدرت كضرغام هزبر أبى شبل(٢)

* * *

ولعله قد استبان من فخر الشعراء بشجاعتهم ، واعتذار آخرين عن جبنهم أو فرارهم أن الشعر الجاهلى صادق فى تصوير الحالين ، وصحيح النسبة إلى العصر الجاهلى ، فقد قيل إن من بواعث الوضع والاختلاق فى الشعر الجاهلى رغبة الشعراء فى أن يرفعوا من شأن قبائلهم وعشائرهم ، فينسبون إليهم محامد لم تكن ، ومفاخر لم يتصفوا بها ، من كرم وشجاعة وغيرة وقوة الخ .. ولكننا نقول إن هذا الشعر الذى يصرح بجبن العشيرة ، ويعترف بالفرار ، ويشهد للأعداء بحسن البلاء ، صحيح الانتساب إلى العصر الجاهلى ، ودليل على أن الشعر الجاهلى لم يكن مجال الوضع فيه رحبا سهلا إلى هذا الحد ، ولو أن الوضع كان شائعاً هذا الشيوع الذى يتصوره ويصوره بعض النقاد ما بقى هذا الشعر الذى يجافى الفضائل العربية ، وينافى الطبائع البدوية .

---

(٣) العقد الفريد ١/١٧٦   (٤) سيرة ابن هشام ٣/٢٠١

الطيش وسرعة الانفعال

كان الطيش خلقاً شائعاً فى البادية ، وذلك طبيعى حيث لا حكومة تردع ، ولا قوانين تمنع ، وحيث يعتقد كل امرىء فى نفسه السمو والسيادة والقوة وعراقة المحتد ، ويتوقع كل فرد أن تنصره قبيلته وعشيرته فيثور معتمداً على أسناده وأعوانه ، ولا يتبلد حسه إذا سمع ما يزرى به ، ثم يثور أيضا لنصرة قريب أو حليف .

ولمَ يحبس العربى عواطفه وهو ربيب الحرية والانطلاق وحليف الصراحة واتضاح الأخلاق ؟

العربى سريع الانفعال ، عصبى المزاج ، تثيره كلمة ، وتهيجه إشارة أو حركة ، إذا ظن أن شرفه قد مُس غضب غضبة الأسد ، وطاوع هياجه واستسلم لثورته واستمرأها دون أن يفكر فى عاقبة ، يمثل نفسيته قول سعد بن ناشب المازنى مفتخرا بنفسه :

إذا همَّ لم تُردَع عزيمةُ همه ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا(١)

وأى دلالة على الجهل والطيش أقوى من قول عمرو بن كلثوم إنهم يبطشون بالناس عن قدرة وعن عدوان ، وإن لم يمسسهم عدوان ، فهم يبدءون بالظلم ، وإن لم يلحق بهم ظلم :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظُلِمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا(٢)

وفى قصيدة لقُريط بن أنيف شكوى من قومه وتهكم بهم لضعفهم وتخليهم عن نصرته ، ومدح لبنى مازن الذين نصروه ، مدح لهم بالإسراع إلى الشر والتسابق اليه ، ومدح لهم بنصرة أخيهم دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحق النصرة :

---

(١) الحماسه ١/٢٤

(٢) المعلقات العشر . الشنقيطى ١٠٩

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووُحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[١]

وقد تهكم بحلم قومه وصفحهم عن المسيء ، وعجب من خلقهم هذا وسماه ضعفاً ، وعجب من اتصافهم وعدهم بالضعف ، كأن الله لم يخلق للخوف منه أحداً غيرهم :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم في جميع الناس إنسانا[٢]

ومن مفاخر القبيلة ومفاخر الشعراء بها أن تنجد بنيها وتنصرهم ، قال أدهم ابن أبي الزعراء الطائي :

وليس أخونا عند شرٍّ يَخافه ولا عند خير ـ ان رجاه ـ بواحد
إذا قيل من للمعضلات ؟ أجابه عظام اللُّهى منا طِوال السواعد[٣]

وما من شك في أن هذا الخلق مضافا إلى أخذهم الثأر كان له بعض الأثر في كبح العدوان ، لأن الضعيف مركب ذلول ، قال النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتحتمي مَرْبَض المستأسد الحامي[٤]

وقال زهير في معلقته :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ومن لا يظلم الناس يُظْلَم

الحلم

١ ـ ليس طبيعيا أن يكون العرب كلهم حمقى أو طائشين ثائرين ، بل الطبيعي أن تختلف طباعهم بعض الاختلاف ، فيكون فيهم الأحمق لا يتروى ولا يتدبر ولا يرعوى ، ويكون فيهم القريب إلى الحلم ، وبين هذين درجات مختلفات ، ويكون

---

(١) الحماسه ١/١٤
(٢) الحماسه ١/١٤
(٣) معجم الشعراء ٣١
(٤) حماسه البحترى ٢٦٤

فيهم الحليم ، وإن كان الحلماء قلة . وكان الحلم فضيلة فى نظرهم وإن خالف السائد من أخلاقهم . مدح خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة قوما من العرب بالحلم وإن حدث ما يثيرهم ، فإذا ثاروا كانت ثورة عارمة :

عليهم وقار الحلم حتى كأنما ... وليدهم من أجل هيبته كهل
إن استجهلوا لم يَعْزُبِ الحلم عنهم ... وإن آثروا أن يجهلوا عَظُم الجهل (١)

ولم يتصف بالحلم إلا بعض الطاعنين فى السن المجربين الذى أطفأت السنون حدتهم ،وإلا بعض الأقارب الذين يحتملون مساءة القريب الأحمق ، وقد صور ذو الإصبع العدوانى تحلمه على ابن عمه تصويراً رائعاً بارعاً مثل فيه تناقض خلقيهما ، وصبره على زراية ابن عمه به وعدوانه عليه ، من ذلك قوله :

ولى ابن عم على ما كان من خلق ... مختلفان فأقليه ويقلينى
فإن ترد عَرَضَ الدنيا بمنقصتى ... فإن ذلك مما ليس يُشجينى
ولا تُرى فىَّ غيرَ الصبرِ مَنقصةٌ ... وما سواه فإن الله يكفينى (٢)

وفى إحدى مراثى المهلهل لأخيه كليب يعدد من مناقبه أنه حليم وعفوٌّ مع قدرة على العقاب والانتقام :

وإنك كنت تحلم عن رجال ... وتعفو عنهمُ ولك اقتدار
وتمنع أن يمسهم لسان ... مخافة من يُجير ولا يجار (٣)

ومع حمقهم كانوا كثيرا ما يحلمون على القريب والصديق ، لأن الحلم عليه لا يعد فى نظرهم مذلة . ولمعن بن أوس قصيدة فى الحلم على صديقه واستعطافه أملتها عليه عاطفة حارة صادقة ، قال لصديقه : وحياتك ما أدرى أينا يموت قبل الآخر أنا أم أنت ؟ فلماذا الهجر والقطيعة يا صديق والموت سَيفْرقنا لا محالة ؟ وأنا أخوك الثابت الود لم أخنك حين بطش بك عدو أو عاكسك الحظ ،كنت حربا على من

(١) بلوغ الأرب ١/١٠٣
(٢) المفضليات ١/١٦٠
(٣) شعراء النصرانية ٢/١٦٣

حاربوك ، وكنت أعينك بمالى ، وكنت أصفح عن إساءتك أملا فى أن تثوب إلى رشدك . فلماذا تصر على إساءتى كأن فى نفسك داء قديما تشفيه بها ؟

ثق أنك إن قطعتنى فقد قطعت يمناك ، فمن أين لك ببديل منى ؟ على أنى لن أعدم غيرك بفى ويخلص ولن أعدم داراً غير الدار التى تقيم فيها أنت :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول
وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن ... إن ابزاك خصم أو نبا بك منزل
أحارب من حاربت من ذى عداوة ... وأحبس مالى إن غرمت فأعقل
وإن سؤتنى يوما صفحت إلى غد ... ليعقب يوما منك آخر مقبل
كأنك تشفى منك داء مساءتى ... وسخطى ، وما فى ريبتى ما تعجل
وإنى على أشياء منك تريبنى ... قديماً لذو صفح على ذاك مجمل
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أى كف تبدل ؟
وفى الناس إن رثت حبالك واصل ... وفى الأرض عن دار القلى متحول(١)

ويصور أوس بن حجر حلمه على ابن عمه وإن كان ظالما بأنه لا يشتمه ، ويصفح عن عدوانه ، وإن استشاره هذا المعتدى وجده قريباً محبًّا له عطوفا ظريفا :

لا أشتم ابن العم إن كان ظالما ... وأغفر عنه الجهل إن كان جاهلا
وإن قال لى ماذا ترى ؟ يستشيرنى ... يجدنى ابن عم مخلط الأمر مزيلا(٢)

ب — وقد رويت عن بعض حكمائهم قصص تبعث العجب والإعجاب ، وإن صحت أو صح بعضها كانت دليلا على عزيمة راسخة كالجبال ، وضبط للنفس عز أن يكون له مثال ، فمثلا قيس بن عاصم كان شريفا فى قومه وكان حليما ، « وكان الأحنف ابن قيس يقول : إنما تعلمت الحلم عن قيس بن عاصم ، أُتى بقاتل ابنه فقال : رعبتم الفتى ،

---

(١) الحماسة ٢/٢ أبزاه : بطش به وغلبه
(٢) حماسة البحترى ٢٨٣ . مزيل . ظريف لطيف . مخلط : مجرب

وأقبل عليه وقال : يا بنى ، نقصت عددك ، وأوهنت ركنك ، وأشمت عدوك ، وأسأت بقومك ، خلوا سبيله . وما حل حبوته ولا تغير وجهه »[١]

وفى رواية الميدانى : سئل الأحنف بن قيس هل رأيت أحلم منك ؟ قال : نعم ، وتعلمت منه الحلم ، قيل : ومن هو ؟ قال : قيس بن عاصم المنقرى حضرته يوما وهو محتب يحدثنا إذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف ، وقالوا : إن هذا قتل ابنك هذا ، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال : أين ابنى فلان ؟ فجاءه ، فقال له : يا بنى قم إلى ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفنه ، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة ، لعلها تسلو عنه[٢]

وقيس هذا هو الذى سئل : بم سدت قومك ؟ قال ببذل الندى ، وكف الأذى ونصر المولى .[٣] ولما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الرسول إليه وقال : هذا سيد أهل الوبر[٤] :

أما تلميذه الأحنف فقد سأله رجل : دلنى على حمد بلا مَرْزِئة ، قال : الخلق السجيح ، والكف عن القبيح ، ثم اعلموا أن أدوى الداء اللسان البذىء والخلق الردىء[٥] .

الحرية والإباء

١ — وإذا كان العربى قد عاش فى بيئة مجدبة قليلة الضرع نادرة الزرع شحيحة بالخير عامة ، فإنه قد استعاض عن هذا الفقر المادى بأعظم الغنى وأكثره إمتاعا وإسعادا ، ذلك هو الحرية والإباء ، قست عليه الطبيعة فحرمته كثيراً من الوسائل المادية الحسية التى يترفّه بها المتحضرون ، ولكنه استمتع بخيرٍ مما يستمتعون به ،

---

(١) أمالى المرتضى ٧٦/١ والأغانى ١٤٠/١٢ ساسى
(٢) الميدانى ٢٠١/١
(٣) البيان والتبيين ٩٣/٢ — (٤) المرجع السابق ٢٦/٢
(٥) المرجع السابق ٩٤/٢

فعاش فى الصحراء حراً كالهواء ، طليقا كالطير ، أبياً كالأسد ، قوى القلب كالصخر ، منبسط النفس كالبطحاء ، صافى المشاعر كالشمس المشرقة والبدر السافر .

وكانت الحرية طبيعة العرب منذ أقدم عصور التاريخ ، « فقد روى ديودورس الصقلى أن الأنباط وهم من أعراب بلاد الحجر العربية (بطرا) كانوا ممتنعين من بذر القمح وغرس الأشجار المثمرة وبناء البيوت ، لما فى هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعا ، والأعراب لذلك لم يستذلهم أحد ، وهم الذين لم يعطوا الفرس الجزية ، وقد أعطاها أهل فينيقية وفلسطين كما ذكر هيرودوتس »(١)

ولما قسمت دولة الإسكندر بعد موته أضحت البقاع القريبة من حدود مصر وفلسطين والتى كان العرب يسكنونها من نصيب بطليموس ، وشايع الأنباط بطليموس على أنتيغون الذى فتح أحد قواده الماهرين بلاد الحجر بغتة بعد أن أصبح سيد سورية وفينيقية ، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أنتيغون المؤلف من ٦٤٠٠ جندى ، فساق إليهم جيشاً آخر بقيادة ابنه ديمتريوس ، ولما بلغ ديمتريوس بلادهم خاطبوه بما رواه ديودورس : « لماذا تحاربنا أيها الملك ديمتريوس ؟ ونحن من سكان الصحارى التى لا تُسَدُّ فيها خَلة . تَرانا نقطن فى هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية ، فاقبل هديتنا وارجع إلى حيث كنت فستكون من أوفى الأصدقاء لك . ولكنك إذا رغبت فى حصرنا حُرمت كل هناءة ، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التى تعودناها منذ نعومة أظفارنا ، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التى ألفناها » .

فرأى ديمتريوس أن يقبل هدية الأنباط ، وأن يرضى بالمآب خاتما بالسلم حربا أبصرها محفوفة بالمصاعب(٢) .

---

(١) حضارة العرب . جوستاف لوبون ٩٣

(٢) حضارة العرب . جوستاف لوبون ١١٤

وقد اشتهر فتك عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند لأنه بغى وتملكه الزهو ، واستعلت أمه على ليلى أم عمرو بن كلثوم ، وأرادتها أن تقوم منها مقام الوصيفة ، فصاحت : واذلاه ! يالتغلب ، فسمعها عمرو بن كلثوم فثار ، ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند(١) ، وكانت هذه الحادثة سبب قوله معلقته المليئة بالفخر التي يقول فيها :

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرَو بن هند ... نكون لقَيْلِكم فيها قَطينا ؟
بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددْنا وأوعدنا . رويدا ... متى كنا لأمك مقْتَوينا ؟
فإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا
ونحن التاركون لما سخطنا ... ونحن الآخذون لما رضينا
وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا العاصمون إذا أُطِعنا ... وأنا العارمون إذا عُصينا
إذا ما الملْكُ سام الناس خسفاً ... أبينا أن نقر الذل فينا(٢)

وكيف يقيم العربى على ضيم أو يحبس نفسه فى مذلة ، وقد علم أنه لا يرضى بالضيم إلا الحمار ووتده ؟ قال المتلمس الضبعى :

ولا يقيمُ على ضيم يراد به ... إلا الأذلان عَيرُ الحى والوتد(٣)

ثم هو شجاع كما قدمنا ، لا يتهيب الموت وإنما يقدم عليه ويقبل ، والحياة الجديرة بالحفاظ فى نظره إنما هى حياة البطولة والفتوة والقوة ، فلماذا يقبل العبودية ؟ إن الناس تستعبدهم الشهوات والمطامع والبقيا على الحياة وإن كانت مرنقة مقيدة ، والعربى بعيد عن ذلك كله .

---

(١) الأغانى ٩/١٨٢

(٢) شرح القصائد العشر القيل : الملك . القطين : التابع والخادم . مقتوين : خدام . العارمون : أصحاب الشراسة .

(٣) حماسة البحترى ١٩

كل عربي معتز بنفسه ، يأنف أن يخضع لغيره ، فلا يدين لرئيس أو حاكم إلا إذا كان من القبيلة نفسها وذا مميزات يمتاز بها كالشجاعة أو الحسب أو الذكاء أو السن ، وهم يخضعون لمشايخهم خضوع عصبية وائتلاف لا خضوع تملك وسلطان .

ثم لماذا يخضع العربي لغيره وليس له مأوى يلزمه فلا يريم عنه ؟ فحياته متنقلة لا تناسبها أحكام ملزمة ، استعاض بالمدن ظهور الإبل والخيل ، واستبدل بالقوانين والشرطة العصبية والنصرة والشجاعة .

ب — وكان من آثار الشعور بالحرية والإباء أن ملأ العربي الصحراء فخاراً بقوته وعدته ، وهل يفخر بالقوة إلا الحر ؟ إنه يرضى كبرياءه بهذا الفخر ، وإنه يخيف أعداءه منه ، يقول طرفة بن العبد إنه رجل نشيط ماض في أموره مُخوف كالحية وإنه لا يفتأ يحمل سيفه القاطع ، وإذا ما انتصر به أو انتقم كفته ضربة ، حتى إن الذي يحجزه عن الضربة الثانية يقول له كفاك كفاك ، وإذا ما حمل القوم سلاحهم فإنه مسلح منيع إذا ما ظفرت يده بقائم سيفه :

أنا الرجل الضَّرْبُ الذي تعرفونه خَشَاشاً كرأس الحيـــة المتوقد
فآليت لا ينفك كَشْحِي بطانةً لأبيضَ عَضْبِ الشفرتين مُهنَّد
حُسامٌ إذا ما قمتُ منتصراً به كفى العودَ منه البدء ليس بِمِعْضَد
أخي ثقة لا ينثني عن غواية إذا قيل مَهْلاً قال حاجزه : قدِي
إذا ابتدر القومُ السلاح وجدتني منيعاً إذا بُلَّتْ بقائمه يدي (١)

وكأنهم لم يكفهم التفاخر بالقوة والشجاعة والبأس على أنه بين أفراد أو قبائل ، بل أبوا إلا أن يفخروا بتعاليهم على الملوك كما قدمنا في معلقة عمرو بن كلثوم ، وكما قال أعشى بنو حنورة عبد الله بن سنان ، أو أبو الحويرث :

---

(١) ديوان طرفة ٣٣ — ٣٤ الضرب : الخفيف القليل اللحم . خشاش : الرجل الماضي في الأمور . المعضد : الرديء الممتهن . بلت : ظفرت . قائم : مقبض

أباح لنا ما بين بُصْرَى ودُومة   كتائبُ منا يلبسون السَّنَوَّرَا
إذا هو ساماناً من الناس واحد   له المالك خلّى ملكه وتقطرا
نفت مُضَرَ الحمراءَ عنا سيوفُنا   كما طرد الليلَ النهارُ فأدبرا(١)

وهذا جابر بن حنى التغلبي يوبخ الملوك الذين لا يستحون منهم ويتقون محارمهم مخافة أن ينتقموا منهم ، ويقول إنهم يسالمون الملوك ماسالموهم وما عدلوا ، ولكنهم يقتلونهم إن جاروا ، وليس قتل الملوك عندهم حراما ولا محالا ، وهم بهذه الصورة أنداد الملوك ونظراؤهم ، وطالما أنزلوا الحتف بالملوك الذين احتقروا قومهم ولم يحسنوا السيرة :

ألا تستحي منا ملوك وتتقي   محارمَنا ، لا يبوء الدمُ بالدم
تعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا   وليس علينا قتلهم بمحرّم
وكائِنْ أزرنا الموتَ من ذي تحية   إذا ما ازدرانا أو أَسَفَّ لمأثم(٢)

ومثله قول الشَّدَّاخ بن عوف الكناني :

أبينا فلا نعطي مليكا ظُلامةً   ولا سُوقَةً إلا الوشيجَ المقوّما
وإلا حساما يبرق العينَ لمحُه   كصاعقة في غيث مزن تركما(٣)

العربي أبيّ يؤثر الموت على حياة الذلة ، قال المتلمس الضبعي :

لا تأخذَنْ ضيما ولا تقبلْ ضُئولة   وموتَنْ بها حراً وجلدك أماس(٤)

وهو الذي ينفر من المرضاة بالضيم بقوله إن الضيم لا يصلح به إلا اثنان : الحمار والوتد :

إن الهوان حمار الأهل يعرفه   والحر ينكره والرِّسلة الأُجُد
ولا يقيم على خسف يراد به   الا الأذلان عَيْرُ الحي والوتد
هذا على الخسف معقولٌ برمته   وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أحد(٥)

---

(١) معجم الشعراء ١٥
(٢) شعراء النصرانية ٢/١٩٠
(٣) حماسة البحتري ٢٣
(٤) حماسة البحتري ١٨
(٥) حماسة البحتري ١٩

وشعار كل عربى يتمثل فى قول عمرو بن براقة :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم(١)

حـ — وقد تمادى العرب فى حب الحرية تماديا أخرج بهم عن معنى الحرية وحدودها ، لأنهم فهموها حرية مطلقة من القيود التى تتنافى وطبائعهم ، وكان لهذا الفهم آثار سيئة بجانب آثاره الحسنة ، فلم يكد العرب يخضعون للقانون العام المنظم للعلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا لينفلتوا منه ، ذلك أن هذا التمادى فى حب الحرية أو هذا التصور الخاطىء للحرية كان من أسباب ردة بعض المسلمين عن الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ رفضوا أن يخضعوا لسلطان أبى بكر ، وامتنعوا من أداء الزكاة ، مدعين أنها إتاوة لأبى بكر ، جاهلين حكمتها وآثارها الاجتماعية والروحية ، وكان أبو بكر حازما إذ صمم على قتالهم لأن الإسلام وحدة لا تتجزأ ، وأقسم أن لا بد من حربهم إذا منعوه عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله .

الوفاء

ا — فى العالم المتحضر يُلزِمَ الناسَ بالوفاء ما يتعارفون عليه من عهود وصكوك ووثائق مدونة وشهود وعقود مسجلة الخ . . . ولكن البيئة البدوية كانت خلواً من هذه الضمانات المسجلة والوثائق المدونة، فكانت الكلمة ينطقها الرجل عهداً يجب عليه أن يفى به وإلا عرض شرفه للتجريح .

كان الوفاء إذاً من أخلاق العرب ، وقد أسلفت فى الحياة الاجتماعية أنهم كانوا يتعاقدون فى المحالفات على الدم والرب والماء والطيب ويتمسحون بالكعبة ، يريدون توكيد الحلف ومصاحبته بعمل مادى يذكر بالوفاء ، وكان الغدر معرة يتجافونها ،

---

(١) حماسة البحترى ٢٠

وإذا ماغدر أحدهم رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به ، وفى ذلك يقول قطبة ابن أوس بن محصن بن جرول إنهم لم يغدروا ، وإنهم لا يأتون مايشكك حليفهم فيهم :

أسُمَىَّ ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها فى مجمع ؟
إنا نعِفُّ فلا نُريب حليفَنا ونكُفُّ شحَّ نفوسنا فى المطمع[1]

وافتخر عَوْف بن الأحوص بأنهم ملوك ولكنهم لا يتكبرون على الناس ولذا يحييهم الناس بتحية العامة ، وهم يفون بأيمانهم وبنذورهم :

ملوك على أن التحية سُوقَةٌ أَلَايَاهم يُوفَى بها ونذورها[2]

ب — وقد ضربوا المثل فى الوفاء بالسموءل بن عادياء ، وكان امرؤ القيس قد أودعه مائة درع ، « فأتاه الحارث بن ظالم ويقال الحارث بن أبى شمر الغسانى ليأخذها منه ، فتحصن منه السموءل ، فأخذ الحارث ابنا له غلاما وكان فى الصيد فقال : إما أن سلمت الأدراع إلىّ وإما أن قتلت ابنك ، فأبى السموءل أن يسلم إليه الأدراع ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين ، وقال السموءل فى ذلك :

وَفَيْتُ بذمة الكندى إنى إذا ما ذُمَّ أقوام وفَيْتُ
وأوصى عادِيَا يوما بألا تهـدم يا سموءل ما بنيت
بنى لى عادياً حصناً حصيناً وماء كلما شئت استقيت

وقد أشاد الأعشى بهذه الأريحية فى مدحه لشريح حين وقع أسيراً فى يد رجل كلبي كان الأعشى قد هجاه ، ومر به شريح فاستغاث به ليخلصه ، فذكره أولا بكرم أبيه السموءل ، ثم عرض لوفائه فقال :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به فى جحفل كهزيع الليل جرار
إذ سامه خطتى خسف فقال له قل ما تشاء فإنى سامع حار

(١) المفضليات ١/٤٣ وحماسة البحترى ٢١٦
(٢) المفضليات ١/١٧٦ . ألاياهم . أيمانهم جمع ألية .

فقال : غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له ... اقتل أسيرك إنى مانع جارى
فاختار أدراعه كى لا يُسَبَّ بها ... ولم يكن وعده فيها بختّار (١)

ويروون قصة أخرى كهذه بطلها هانىء بن مسعود ، فقد وفى للنعمان وفاء أغضب كسرى وأنشب حربا ، وقد تقدمت فى صلة العرب بالفرس .

وقد ضرب المثل فى الوفاء بقوس حاجب بن زرارة التى رهنها عند كسرى ، ذلك أنه أتى كسرى فى جدب أصابهم ، وسأله أن يأذن له ولقومه أن يصيروا إلى ناحية من نواحى مملكته حتى ينتجعوا ، فقال كسرى : إنكم معشر غدر ، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على الرعية وآذيتموها . قال حاجب : فإنى ضامن الملك ألا يفعلوا ، قال : فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال : أرهنك قوسى ، فضحك من حوله ، فقال كسرى : ما كان ليسلمها أبدا فقبلها منه ، وأذن لهم أن يدخلوا الريف .

ولما مات حاجب شخص ابنه عطارد إلى كسرى يطلب قوس أبيه ، فردها عليه ، وكساه حلة ، فلما وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى تميم وأسلم أهدى الحلة إلى رسول الله ، فباعها بأربعة آلاف درهم (٢) . وإلى قوس حاجب يشير أبو تمام فى قوله :

إذا افتخرَتْ يوما تميمٌ بقوسها ... فخاراً على ما وطّدَتْ من مناقب
فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم ... عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب

وبسبب الوفاء نصروا الحلفاء ، وذبوا عن الجار ، وقد تقدم ذلك .

حـ — وأعظم الوفاء ما كان لعظيم مات أو لمذهب مضطهد ، وقد رويت عن العرب فى ذلك أعاجيب ، وأعجبها ما يتصل بالنساء ، فقد كانت أم الخير بنت الحُرَيْش

---

(١) الأغانى ٨/٧٩ و٦/٨٥ ساسى وحماسة البحترى ٢١٥ وطبقات الشعراء لابن سلام ١٠٩ .
(١) المعارف ٢٦٢

البارقية تحرض المسلمين على قتال جند معاوية يوم قتل عمار بن ياسر ، ولما آلت الخلافة إلى معاوية بعث إليها وحدثها وقص عليه أحد جلسائه خطبتها ، فقال لها معاوية: والله لو قتلتك ما حَرِجْتُ فى ذلك ، فقالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يجرى الله ذلك على يدىْ من يسعدنى الله بشقائه(١) .

ومثلها سودة بنت عمارة ، كانت تحرض المسلمين يوم صفين على قتال معاوية بأبيات منها :

شمر كفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان

. . . .

ثم وفدت على معاوية فى خلافته فذكرها بما قالت ، فقالت : أى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب(٢)

وقد روى كثير من أشباه هذا ، وقد يكون التعصب الحزبى قد صاغه أو شكله أو لونه أو تزيد فيه ، ولكنه دليل على الوفاء للمذهب المضطهد ، وإذا كان العصر إسلامياً فإن الأخلاق الجاهلية التى لا تناقض الإسلام قد ظلت حية قوية .

وهذه قصة يرويها الأصمعى عن رجل من بنى ضبة ، تصور وفاء زوجة عربية من بنى سليم مازالت حالية بخلق البادية فى العصر الجاهلى : « ضلت لى إبل فخرجت فى طلبها حتى أتيت بلاد بنى سليم ، فلما كنت فى بعض أحومها إذا جارية تغشى بصرى إشراق وجهها ، فقالت : ما بغيتك ؟ إنى أراك مولها قلت : إبل ضلت لى فأنا فى طلبها قالت : فتحب أن أرشدك إلى من هى عنده ؟ قلت : نعم ، قالت : الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فإن شاء ردهن، فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار ،

---

(١) بلاغات النساء ٤١ والعقد الفريد ٢١٧/١
(٢) العقد الفريد ٢١١/١ وبلاغات النساء ٣٥

فأعجبنى ما رأيت من جمالها وحسن منطقها ، فقلت لها : هل لك من بعل ؟ قالت : كان والله ، فدُعى فأجاب إلى ما منه خلق ، ونعم البعل كان ! قلت لها : فهل لك فى بعل لا تذم خلائقه ولا تخشى بوائقه ؟ فأطرقت ساعة ثم رفعت رأسها وعيناها تذرفان دموعا ، وأنشأت :

كنا كغصنين من بانٍ غذاؤهما ماء الجداول فى روضات جنات
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه دهر يكر بفرحات وترحات
وكان عاهدنى إن خاننى زمن ألا يضاجع أنثى بعد موتاة
وكنت عاهدته أيضا فعاجله ريب المنون قريبا مذ سنيات
فاصرف عتابك عمن ليس يصرفه عن الوفاء له خلب التحيات

قال : فانصرفت وتركتها[1] .

٤ — على أن الاستمساك بالعهد كان يُؤَوَّلُ فى بعض الأحوال بالضعف والجنوح إلى الهوينى ، ولم يكونوا فى تأولهم هذا إلا كالأقوياء فى زماننا ، فطالما مزقوا معاهدات فى العصر الحاضر ، وقد استمسك بها الضعفاء نصّاً وروحا ، ولكن الأقوياء تنكروا لها وعدوها قصاصة ورق ، ولذا هجا العربى أحياناً بعدم الغدر :

قَبَّحَ الإله بنى كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

وافتخروا بالغدر كما افتخروا بوثاقة العهد :

فما يستطيع الناس عقداً نشده وننقضه منهم وإن كان مُبْرَما[2]

---

(١) أخبار النساء . ابن قيم الجوزية ٦١ وعيون الأخبار ٣١/٤
(٢) المفضليات ١٢١/٢

العفة والغيرة

ا — فى هذه البيئة التى قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف وحسن الأحدوثة كان لا بد للرجال والنساء من العفة ومن التعفف ، لأن العدوان على عرض الغير يجر ويلا وحربا كما سبق . وكان لا بد من الغيرة على العرض أن يمس أو يخدش

ولم تكن الخلاعة والمجانة مما يتغاضون عنه ، فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعته ، والمنافرة التى كانت بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة له : « إنك أعور البصر عاهر الذكر ، وأنا عفيف »[1] . فتنافرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب ، فقال لعلقمة : « بأى شىء أنت أسود من عامر ؟ » قال : « أنا بصير وهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر »[2]

والعفة شرط من شروط السيادة فهى كالشجاعة والكرم ، لذلك كانت أحد أسباب ثلاثة فى تفضيل بسطام بن قيس على منافسيه .

« ومما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب أن بسطاما كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلا ، وكان عامر فارساً جواداً عاهراً ، فاجتمعت فى بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلهما »[3].

وقد لقبوا حسان ملك حمير وهو أحد الأذواء بلقب (ذو معاهر) لأنه كان يرمى بالفجور[4].

ب — ولذا كثر الفخر بالعفة والمدح بها ، فقد افتخر بَرْذع بن عَدِى الأوسى بأنه لم يخن زوجته ولم يخاتل زوجة جاره :

لعمر أبيها لا تقول حليلتى   ألا إنه قد خاننى اليوم بَرْذع
وأحفظ جارى أن أخاتل عرسه   ومولاى بالنكراء لا أتطلع[5]

---

(١) طهارة العرب ١٢   (٢) أخبار النساء ٨٦   (٣) أخبار النساء ٨٦
(٤) طهارة العرب ١٢   (٥) مجالس ثعلب ٣٥٣/١

وافتخر شاعر آخر بأنه لا يعود من بيت جاره وهو يشعر بحاجة ملحة إلى العودة ، كالحمار الوحشى الذى لم يَرْوَ وبه حاجة إلى معاودة الماء ، وهذه كناية لطيفة عن عفته ، ثم كرر المعنى بطريقة ثانية أنه لا يسأل جاراته عن أزواجهن ورجالهن أهم حاضرون أم غائبون ؟ ثم إنه لا يلهى الصبى ليخلو هو بأمه :

ولست بصادر عن بيت جارى ... صدور الْعَـــير غَمَّره الورود
ولست بسائل جارات بيتى ... أغُيَّابٌ رجالك أم شهود
ولا أُلْقِى لذى الوَدَعَات سَوْطِى ... لألهيـــه وريبَتَهُ أريد[١]

حـ — ولم تكن العفة حلية العاجزين أو تعلة المحرومين ، وإنما كانت حلية الرجال ومفخرة من مفاخر الأبطال ، هذا عنترة بن شداد يفخر بأنه لم يراود أنثى عن نفسها وإنما يتزوجها من وليها بمهرها ، وبأنه يرى جاراته ويغشى دور جيرانه ما دام الرجال مقيمين ، فإن سافروا للغزو كف عن التردد ، وبأنه يغض نظاره إن مرت به جارته حتى يواريها بيتها :

ما استَمْتُ أنثى نفسَها فى موطن ... حتى أوفِّى مَهْرَها مولاها
أغشى فتاة الحى عند حليلها ... وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها
وأغض طرفى ما بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها[٢]

ولم يندفع الشاعر وراء اللجاجة والادعاء وهو يغرى حبيبته ، فيدعى أنه قد تيم أمثالها ، بل إنه قصر هؤلاء الأتراب على البعيدات الطليقات ، فهن لا زوجات ولا جارات ، قال قيس بن الخطيم :

ومثلك قد أصبيتُ ، ليست بكَنَّة ... ولا جارة أفضَتْ إلىَّ خباءها[٣]

وكانت الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر حفية بعفته واستحيائه أن يفعل الفاحشة أو يتتبع بنظراته النساء :

---

(١) الأمالى ١/٤٥ تغمر . لم يرو وبه حاجة إلى ورود الماء (٢) ديوان عنترة ١٨٥
(٣) طهارة العرب ٣٣

لم ترد جارة يمشي بساحتها لريبة حين يُخلي بيته الجار[1]

وقالت :

ولا يقوم إلى ابن العم يشتمه ولا يدب إلى الجارات تخويدا[2]

على أنه أكثر حياء من فتاة مخدرة وأعظم شجاعة من أسد فاتك :

وأحيي من مخبأة كعاب وأجرأ من أبي شبل هزبر[3]

كذلك رثت خِرْنَق بنت هَفّان أخت طرفة بن العبد لأمه ، رثت قومها بفضائل، العفة إحداها :

النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر[4]

ورثى أعشى باهلة المنتشر بن وهب بأنه عفيف النظرات :

لا يهتك الستر عن أنثى يطالعها ولا يَشُدُّ إلى جاراته النظرا[5]

ى ــ وأما عفة نسائهم فكانت مثلا أعلى ، وهذا حديث هند بنت عتبة مع النبي صلى الله عليه وسلم على وجازته دليل على هذه العفة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليها قوله تعالى : «ولا يسرقن ولا يزنين » قالت : ما أقبحه حلالا فكيف به حراما ؟ ![6]

وهم جميعاً أشادوا بعفة الحبيبات وتمنعهن وبخلهن بحيث لا ينوّلن شيئا ، قال علقمة بن عَبَدَة بن النعمان بن قيس :

مُنعَّمةٌ ما يستطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تُفْشِ سره وتُرضي إياب البعل حين يئوب[7]

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

تسمع الحُداث قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يُسْتَمع[8]

(١) الديوان ٨٢ وبلاغات النساء ١٦٨

(٢) الديوان ٦٨ (٣) الديوان ٧٠ (٤) ديوان الخرانق ٢١

(٥) طهارة العرب ٣٤ (٦) طهارة العرب ١٢

(٧) المفضليات ١٩١/٢ (٨) المفضليات ١٩٠/١

فالأولى لا سبيل إلى محادثتها ، وليس ذلك لأن على بابها رقيبا ، فإن العفة طبيعة فيها ، على أنها لا تبوح بسر زوجها الغائب ، وإذا ما عادسره أنها حفظته . والثانية تجود على جلسائها بحديث حسن ولا أمل لهم فى غير الحديث .

ولم يكن الحديث محظورا دائما ، وإنما كان يباح كثيرا ، لما كانوا يرون من النقص فى الريب ، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران وما يعرف بعضهم عن بعض من الوفاء والتحرز من العار ، لأن الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت ، والزوجة ولا يرى أحد منهم لنفسه رخصة فى إضاعة ذلك . وإنما يتحمل الغدر ويرخص نفسه فيه من باين البوادى وخالط الحضر ، لأنه رأى أجناس العبيد وأخلاط العوام وقد نشئوا على عادة جروا عليها . . . »[١]

هـ — وهؤلاء المتمدحون بالعفة لا بد أن يكونوا غُيُراً على النساء ، وغيرة العربى مازالت مضرب الأمثال ، ولذا قالوا : « كل شىء مهه ماخلا النساء وذكرهن » أى كل شىء يسير جميل سهل يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم فإنه يمتعض منه[٢] .

وقد مر بنا أن من الأسباب التى عُزى الوأد إليها تفضيلُ سبيةٍ آسرها على أبيها . ورووا أن آكل المرار قتل امرأته هنداً لما سباها ابن الهبولة فى غيابه ، فلما قدم تبعه وقتله وأنقذها منه . وربطها فى أذناب الخيل حتى تقطعت أوصالها ، ولم يرض أن يمسكها بعد أن نال منها ابن الهبولة وطره[٣] .

ورووا حادثة أخرى : كان القتّال — عبد الله بن المضرحى — يتحدث إلى ابنة عمه عبد الله ، فقدم أخوها ورآهما فنهى القتال وحلف لئن رآه ثانية ليقتلنه ، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها فأخذ السيف وبصر به القتال فخرج هارباً ، فخرج فى إثره فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم فلم يلتفت إليه ، فبينا هو يسعى وقد كاد يلحقه وجد رمحاً مركوزاً أو سيفا فأخذه وعطف على زياد فقتله ، وقال :

---

(١) أخبار النساء ٨٦ (٢) أمثال الميدانى ٢/٧٠

(٣) الأغاني ١٥/٨٢ وطهارة العرب ٦

نسيت زياداً والمهامهُ بيننا وذكّرته أرحام سعد وهيثم
فلما رأيت أنه غير منته أملت له كفى بلدْن مقوّم
ولما رأيت أنى قد قتلته ندمت عليه أى ساعة مندم(١)

وغار العربى من الغزل فى المرأة التى يحميها ، لأنه جرح لشرفه . علم الإصبع بن محصن بحب مالك بن الصمصامة لأخته جنوب ، فآلى يميناً لئن عرض لها أو زارها ليقتلنه ، ولئن عرض بها فى شعره أو ذكرها ليأسرنه ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه ، فبلغ ذلك مالكا فقال قصيدة طويلة منها :

فما الحلق بعد الأسر شرٌّ بقيةً من الصد والهجران وهى قريب
أحب هبوط الواديين وإننى لمشتهر بالواديين غريب
أحقا عباد الله أن لست خارجا ولا والجاً إلا علىّ رقيب
ولا زائرا وحدى ولا فى جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة إلى إلفها أو أن يحن نجيب(٢)

وكان الغزل بالمرأة أحياناً يتخذ وسيلة للإغاظة فحسب ، كما فعل قيس بن الخطيم فى يوم بعاث ، إذ غاظ عبد الله بن رواحة بالغزل فى أخته عَمْرة بقصيدة مطلعها :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب لعَمْرةَ قَفْراً غير موقف راكب(٣)

وكان هذا الغزل الانتقامى سبباً فى هلاك الشاعر أحيانا ، كما حدث لكعب بن الأشرف ، فإنه بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المسلمين ، فأمر رسول الله محمد بن مسلمة ورهطاً معه من الأنصار بقتله فقتلوه(٤)

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٩ ساسى
(٢) الأغانى ١٩/٨٣ ساسى
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٩
(٤) ابن سلام ١١٠

أما فحش امرىء القيس ومن شاكله فإنه يمثل أخلاق قلة من العرب ثائرين على العرف خارجين على التقاليد منبوذين من المجتمع . وهذه القلة من ذوى الدعارة كانوا يقصدون المظلمات أصحاب الرايات ، قالت العوراء بنت سبيع فى رثاء أخيها عبدالله :

أبكى لعبد الله إذ حُشْتْ قبيل الصبح ناره
طيان طاوى الكشح لا يُرْخَى لمظْلمة إزاره [1]

(١) مراثى شواعر العرب ١٤٧ لويس شيخو . حشت : أوقدت

الباب الرابع

الحياة الدينية من الشعر

نريد أن نقف وقفات نستشف منها عقائد العرب الدينية ، ونعرف إلى أى حد يستطيع ما بقى من شعرهم أن يصور هذه العقائد .

ووجهتنا فى ذلك أن ندرس ونستنبط لا أن نستهجن ونبرر ، لأن دراستنا « يجب أن تقوم على إيراد ما كان يعتقده العرب ، وهذا أولى من بذل الجهد فى نقد ما كانوا يعتقدون »[1] .

ولسنا ننتظر أن يحدثنا هذا الشعر حديثاً مستفيضاً مفصلا يوقفنا على دقائق الحياة الدينية ، بل ليس من حقنا أن ننتظر هذا التفصيل ، لأن الشعر إنما يتناول الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية بطريقة فنية وجدانية ، تمس التفاصيل مساً رفيقا أو لا تمسها ، وهو من هذه الناحية لا يتقيد بما يتقيد به النثر من طرائق وبراهين وتفاصيل .

وثمة شيء آخر نريد ألا نعتسفه ونركب العنت من ورائه ، ذلك أنه لا يصح لنا أن نتوقع باباً خاصاً فى الشعر الجاهلى يدور حول الدين كالأبواب الأخرى من مدح وهجاء ورثاء ، فإن النزعة الدينية مبثوثة فى أبواب شتى ، فقد تكون فى الغزل أو فى الفخر أو فى وصف الحرب إلخ . . . كما سيجيء .

ولا أن نتوقع كثرة من الشعراء تغلب النزعة الدينية على شعرهم كما غلبت على شعر أمية بن أبى الصلت ، وبحسبنا أن يكون فى شعراء الجاهلية شاعر واحد يسم الطابع الدينى شعره ، حتى لنسميه شاعراً دينيا . بحسبنا هذا الشاعر الواحد ، فإننا لا نجد فى العصور الإسلامية المتعاقبة المتطاولة إلا قلة من الشعراء الدينيين بين آلاف من الشعراء .

---

(1) Lit. Hist. of Arabs. P. XX

وليس من الطبيعي أن نرتقب من كل شاعر جاهلي أن تكون له في الدين جولة، فإن كثيراً جداً من الشعراء المسلمين على فحولتهم وعظم مكانتهم لم يقصروا على الدين بعض شعرهم، حتى ليصعب على الباحث أن يستشف من خلال قصائدهم عقيدة دينية متميزة، كالمتنبي والبحتري وابن الرومي.

هل عجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية؟

اعتمد الدكتور طه حسين على أسباب في رفض الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، منها «أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب، فهو يبطل منها ما يبطل، ويؤيد منها ما يؤيد، وهو يلقى في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس، وإذاً فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الأدب الذي يضاف إلى الجاهليين ونتيجة البحث عنها في القرآن. فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياه العملية. وإلا فأين تجد شيئاً من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟ أو ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين؟»[1]

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٨٠

مناقشة هذا الرأى :

١ — ضياع شعر كثير

أما أن الشعر الجاهلى تحدث عن الأديان فهذا مما لا ريب فيه ، ولكن الشعر الذى سلم من العوادى ووصل إلينا أقل مما كان ينتظر ، ولا عجب ، فإن الشعر الجاهلى قد فُقد كثير منه فى تخطيه الأحقاب الطوال حتى عصر التدوين ، قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .(١) وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره »(٢) .

٢ — تناسى كثير من شعر الوثنية وأديان الجاهلية :

ثم إن الشعر الدينى أقدم آداب الأمم كلها كإلياذة هوميروس ، ومهابهارتة الهند فلا بد أن نظم العرب كثيراً فى آلهتهم ، خاطبوها ، وتوسلوا إليها واستعطفوها ، ولكن قصائدهم توارت مع الزمن ، لعدم تدوينها ، ولانصرافهم إلى الفخر والحماسة وما يتصل بالحرب ، فلما أنعم الله عليهم بالإسلام وشرح له صدورهم تناسوا كثيراً مما كان لهم من شعر وثنى ثم نسوه فلم يجد الرواة إلا أثارة قليلة منه ، أو أغضوا عن كثير مما وجدوا أنفة من دينهم الوثنى ، واعتزازاً بالإسلام ، وتعفية على العقائد التى قوضها تقويضا .

ومن الطبيعى أن يحدث هذا الإغضاء عن رواية الشعر الجاهلى الدينى حتى لا يثير

(١ ، ٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٧

فى بعض النفوس ذكريات عن الماضى قد تهيج لها الضغائن ، وقد حدث ما يشبه هذا فى الأهاجى التى كانت بين المسلمين وكفار قريش بعد أن استظل الجميع براية الاسلام . من ذلك أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركى قريش ، وقال : « فى ذلك شتم الحى بالميت (أو والميت) وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام »[1] .

ومن ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام نهى عن رواية قصيدة لأمية بن أبى الصلت كان يعرض فيها قريشا بعد وقعة بدر ، منها :

ماذا ببدر والعقنـ ... ـقل من مرازبة جحاجح
هلا بكيت على الكرا ... م بنى الكرام أولى الممادح[2]

وقد كفوا عن روايتها حينا من الدهر ، فلما تمت للإسلام النصرة زالت علة المنع فرويت القصيدة ، وقد أثبتها ابن هشام فى السيرة ما عدا بيتين اثنين ، لأن الشاعر « نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »[3] .

٣ — اليهود يُغْضون عن شعرهم فى أصنامهم :

على أن الذين تهودوا منهم أو تنصروا قبل الإسلام قد أغضوا عن شعرهم الوثنى ، يعزز ذلك قول هشام بن الكلبى فى حديثه عن يعوق : « ولم أسمع همدان سمت به ، ولا غيرها من العرب ، ولم أسمع لها ولا لغيرها فيه شعراً ، وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير ، فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذو نواس فتهودوا معه »[4] . وكان يعوق بقرية خَيْوان القريبة من صنعاء

ثم يقول فى حديثه عن نَسْر : « واتخذت حمير نسراً ، فعبدوه ، ولم أسمع حمير سمت به أحدا ، ولم أسمع له ذكراً فى أشعارها ولا أشعار أحد من العرب ، وأظن ذلك كان لانتقال حمير أيام تُبَّع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية »[5]

---

(١) الأغانى ٤/١٤٠ الدار
(٢) الأغانى ٤/١٢٢ الدار ، والبيان والتبيين ١/٢٣٦
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٤٠٥
(٤) الأصنام ص ١٠
(٥) الأصنام ص ١١

ويقول فى حديثه عن رئام : « وتهوّد تبع وأهل اليمن ، فمن ثم لم أسمع بذكر رئام ولا نسر فى شىء من الأشعار ولا الأسماء ، ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام »[١]

فهو يعلن أن هذه الأصنام الثلاثة قد انقطع عنه ما قيل فيها من شعر ؛ لأن عبادها لما تهودوا عَفَّوْا على جهالتهم الأولى ، واستنكفوا أن يخلدوا شعراً قيل فيها. أو ليس من المنطق ومسايرة الحوادث والقياس الصحيح أن نعلن نحن أيضا أن كثيرا من شعر الجاهلية الوثنى قد عفّى عليه المسلمون أنفة من ضعة روحية وعقلية تردَّوْا فى حمأتها ؛ وورعا وتقية وانصرافا إلى دينهم الجديد ، وامتزاجا به ؟ بلى !

٤ — الشعراء لا يحفلون بالدين :

ولم يكن شعراء الجاهلية مرتبطين بدينهم ارتباطا يُدير ألسنتهم بقصائد كُثْر تنبع من هذا الدين وتدور حوله ، ونحن نجد قلة من الشعراء فى الإسلام والمسيحية واليهودية يتسم شعرهم بسمات دينية ، فلماذا لا نصدق أن شعراء الجاهلية كانوا متحللين من النزعة الدينية ؟ يقول بروكلمان : ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين آلهتها وثيقة جداً كما كانت الصلة عند بنى إسرائيل مثلا ، بين يَهْوَه وشعبه »[٢]

ويقول : « وليس من شك فى أن العرب كانوا فى أول الأمر يؤدون الشعائر الدينية إلى تلك الآلهة التى كانت أقرب إليهم من الله رب العالمين العظيم ، حتى إذا أوشك فجر الاسلام أن يبزغ لم تبق هذه العبادة قادرة على أن تملأ وجدان العرب الدينى ، وهكذا انحط شأن هذه العبادة ، وانحطت دلالتها انحطاطا متواصلا كان كان يرافقه أبدا تعاظم فى أهمية الشعور الدينى العام القائم على أساس الإيمان بالله »[٣]

ويتفق نيكلسون مع بروكلمان فى هذا الرأى ، فيقول : « كان تأثير الدين على حياة العرب قبل الإسلام ضئيلا ، حتى لا تتوقع تأثيرا كبيراً له فى شعرهم والعربى

---

(١) الأصنام ص ١٢

(٢) العرب والإمبراطور العربية ص ٢٦

(٣) العرب والإمبراطورية العربية ص ٢٧

لم يكن يولى الدين اهتماما كبيراً ، وكان تقديره لدينه يقتصر على مزاياه العملية ، وإذا غضضنا النظر عن الشهوات ، فقد كان العربي البدوى يجد فى الدين راحة وأمنا خلال الأشهر الأربعة المقدسة التى يمنع فيها الحرب ، فى حين كان موسم الحج فى مكة يمكنه من الاشتراك فى احتفال وطنى »(١) .

٥ — ما بقى من الشعر الجاهلى يصور الحياة الدينية

ومع ذلك كله فإننا نرى فيما سلم من عوادى الزمن من الشعر الجاهلى ممثلا للحياة الدينية ، ونعجب كيف وصلت الأمانة العلمية بالرواة أن يحرصوا على هذا الشعر حتى آن أوان تدوينه ، وكان المتوقع أن يمحى من سجلات الزمن محوا ؟

بقى لنا من الشعر الجاهلى كثير يصور حياتهم الدينية ، وثنية وغير وثنية ، تصويراً واضح المعالم فى شعر أمية بن أبى الصلت ، وتصوير عجلان فى شعر غيره ، ولكن هذا الأخير ليس بأقل عدداً أو أضأل تصويراً من شعر مئات من شعراء الإسلام الذين لم يصبغوا شعرهم بصبغة دينية .

٦ — وقد حفلت بعض المراجع بأشعار شتى تنبع من عاطفة دينية ، أو تدور حول هذه العاطفة ، أذكر منها كتاب الأصنام لابن الكلبى ، وسيرة ابن هشام ، والأغانى ، وديوان أمية بن أبى الصلت ، ولسان العرب ، وملحق كتاب الأصنام إلخ .

وسأقتصر على التمثيل بطرف مما يتصل بالدين ، لأن استيعابه كله يخرج بالبحث عن منهجه الأصيل إلى منهج آخر .

وإذا كان الشعر الجاهلى قد تعرض للشك ، وكان نصيب الشعر الدينى من الشك أكبر من غيره ، فإنا لا نسترسل مع الشك الذى لا يدعمه برهان من التاريخ أو من طبيعة الشعر نفسه ، ونكاد نوقن أن ابن سلام وأبا الفرج وأضرابهما من جهابذة النقاد القدماء قد نبهوا على الشعر المنحول فلم يفتهم شىء منه .

---

(٢) Aliterary History of the Arabs, P,135

ويعجبنى قول نيكلسون : « ومما لا يمكن تجاهله أن قدراً كبيراً من المشاعر الدينية يمثل فى الشعر الجاهلى ، وإذا كان قد سبق قول بعض العلماء بأن بعض تلك القصائد منحول ، فإن هذا القول لم يعد قائماً ، والفضل فى تقويضه أولا إلى فون كريمر ، وسير شارلس ليال ، وفلهاوزن ؛ لأنهم أثبتوا :

ا — أن الشعور الدينى الذى تمثله هذه القصائد ليس فى كثير من الحالات إسلامياً فى لهجته .

ب — وأن الموضوعات التى ورد فيها ليست من الإسلام .

ح — وأنه نتيجة طبيعية وحتمية لتأثير المسيحية واليهودية الذى عم انتشاره[1] .

وإذا ما تبصرنا فى الشعر الذى نورده لنستنبط منه الحياة الدينية وجدناه مستمداً من عاطفة وثنية أو مسيحية أو يهودية ، لا إسلامية ، ووجدناه أيضا يدور على موضوعات بعيدة عن الإسلام ، فهو إذن شعر جاهلى صحيح لا إسلامى موضوع . أما الشعر الدينى الذى يمثل عاطفة إسلامية أو يبشر بالدين الاسلامى وبالنبى محمد فهو الموضوع ، كقصيدة خنافر الحميرى[2] وما يشبهها .

٧ — ضعف الوثنية فى أواخر العصر الجاهلى .

وما من شك فى أن اليهودية والنصرانية قد أنارت كل منهما الطريق فى بلاد العرب فاهتدى بهما خلق كثير ، هداية تصل إلى أن يدين الشخص بإحداهما أو يتبصر بعض التبصر فى دينه الوثنى ، وما من شك فى أن بعض العرب الذين كانوا على أثارة من دين إبرهيم وإسماعيل كان لهم أيضا تأثير فى تفكير الناس فى الخرافات التى يدينون بها .

على أن العرب فى أواخر العصر الجاهلى كانوا على أبواب يقظة عقلية وروحية ، وكانوا فى ريعان نهضة أدبية ، وكل هذه أمور من شأنها أن هزت أركان الوثنية هزات كادت تقوضها .

---

(١) Nicholson .P. 140   (٢) الأمالى ١/١٣٥

ويستنتج نيكلسون من ظهور شعر يحث على الفضيلة ، ويدعو إلى التأمل والتفكير في الموت إلخ . . . « أنه فى خلال القرن السادس الميلادى كان الدين والمدنيـــة يمتدان بشكل ظاهر فى أنحاء الجزيرة العربية ، ويغيران من أفكار العرب الوثنيين ، ويمهدان الطريق للإسلام »(١) .

وإنا لنجد طرفا من ضعف تأثير الوثنية ، والسخرية بها فى الشعر نفسه :

ا — كان لبنى مِلكان بن كنانه بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر صنم يقال له سعد ، وهو صخرة طويلة بفلاة من أرضهم ، فأقبل رجل من بنى ملكان بإبل كثيرة ليقفها عليه ، التماس بركته فيما يزعم ، فلما رأته الإبل — وكانت مرعية لا تُركب ، وكان يهراق عليه الدماء — نفرت منه . فذهبت فى كل وجه ، وغضب صاحبها فأخذ حجراً فرمى به سعدا ، ثم قال له : لا بارك الله فيك ، نفرت علىّ إبلى ، ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتَنُوفَةٍ من الأرض لا يدعو لغَىٍّ ولا رشد(٢)

ب — وعبيد بن الأبرص هجا بنى جديله ، فعيرهم بعبادة الصنم (اليعبوب)

وتبدلوا اليَعْبُوبَ بعد إلههم صنما فقروا ياجديلُ وأعْذِبوا(٣)

حـ — وأى شىء أدل على الاستخفاف بالوثنية من أن يأكل الناس الإله الذى صنعوه بأيديهم ؟ ذلك أن بنى حنيفة اتخذوا صنما من الحَيْس(٤) فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال قائل :

---

(١) Nicholson, P, 140

(٢) سيرة ابن هشام ٨٥/٤ والأصنام ٣٧ والملل والنحل للشهر ستانى على هامش الفصل ٢٢٢/٣ تنوفة : قفر لا ينبت شيئا

(٣) ديوان عبيد . قروا : افرحوا . أعذبوا : استطيبوا هذه العبادة

(٤) تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن عجنا شديدا وربما جعل فيه سويق

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة (١)

وقال قائل من تميم :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز (٢)

ء — وبلغ من ضعف الوثنية فى أواخر العصر الجاهلى أن عبادتها صارت أقرب إلى العادة ، أو صارت عادة لا عقيدة ؛ يدل على ذلك حديث أبى رجاء العطاردى : «كنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجرا أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حفنة من تراب ، ثم جئنا فحلبنا عليه ، ثم طفنا به» (٣) .

هـ — وفى هذا الدور الذى تزعزعت فيه العقيدة الوثنية ، واستنارت البصائر ، استشار بعضهم الأصنام ، على أن الاستشارة نوع من تزويد النفس بالثقة فحسب ، لا على أنها حكم لا نقض فيه ، فإذا لم توافق المشورة هواه رفضها فى استخفاف وازدراء كما فعل رجل من العرب قُتل أبوه فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخَلَصَة فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم بنهيه عن ذلك ، فقال :

لو كنتَ يا ذا الخلَص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنهَ عن قتل العداة زورا

ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حُجْر الكندى (٤)

و — وثمة شيء آخر يدل على هذا الضعف ، لأنه كان نتيجة له ، ذلك أنا لم نجد شعراً كثيرا يتحدث عن عبادة الشجر والكواكب والملائكة والجن ، وذلك بأن هذه العبادات كانت أقدم من عبادة الأصنام ، وانطمست معالم الشعر الذى قيل فيها

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٣ . التباعة : المسارعة إلى الشر
(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٢٧
(٣) بلوغ الأرب ٢/٢٢٧
(٤) سيرة ابن هشام ١/٩١ والأصنام ٣٥

لما فتر تأثيرها وتطاول الزمن بها ، ولكن بقى شعر كثير يتحدث عن الأصنام لأنها أحدث عهداً ، والشعر المقول فيها قريب من فجر الاسلام فلم يندثر .

ز — وقد تأله بعضهم فى الجاهلية وترك عبادة الأصنام ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل القائل :

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمَىْ بنى غَنْمٍ أزور
ولا هُبَلًا أزور وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير[1]

ولم يكونوا يرون فى الخمسة الأصنام التى رفعها عمرو بن لُحَىّ رأيهم فى هذه ولا قريبا منه ، فظننت أن ذلك كان لبعدها منهم[2]

(١) الأصنام

تعدد المعبودات . كيف نشأت عبادة الأصنام ؟ ما ترمز الأصنام اليه . بعض أصنامهم . إخلاصهم لها . الأصنام فى الشعر .

١ — تعدد المعبودات

انقسم العرب فى دينهم طرائق قددا ، شأن الأمم البدائية كلها ، فاعتقدوا كما اعتقد غيرهم أن الطبيعة ملأى بقوى أعظم من قوة الإنسان ، يتوسل إليها فى كسب الخير ودفع الشر ، ثم ارتقوا فاعتقدوا بحلول هذه القوى فى الأشجار والكهوف والينابيع والحجارة العراض على الخصوص .

ومن طريق الشعائر الدينية التى تؤلف التضحية نواتها ارتبطت الآلهة برباط دموى مع القبائل المقدسة لها ، وأصبحت بمثابة الحامى الذى تلوذ به القبيلة بل بمثابة

---

(١) الأصنام ٢٢ والأغانى ٣/١٢٤ وشطر البيت الأول (عزلت الجن والجنان عنى)
(٢) الأصنام ٢٧

جدها وسيدها الأعلى ، وكانت كل قبيلة تتعبد لإلهها الخاص ، ولكنها تعترف بسلطان آلهة القبائل الأخرى فى مناطقها الخاصة . . . ولقد كانت بعض العشائر تتخذ أحيانا آلهة غير التى تدين لها القبيلة ، كما كانت بعض القبائل تشترك أحيانا فى عبادة إله واحد . وقد جرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة مقام إلهها مرة أو مرتين فى العام أيام الأعياد . . . وكان السلام الإلهى يخيم على الصحراء فى الأعياد الدينية (المواسم) ، فيكف الناس عن القتال والحرب ، والواقع أن الأسواق التى كان العرب يقيمونها فى الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ، ومن هنا كانت مجالا لتبادل النتاج الروحى بالإضافة إلى البضائع والعروض المادية »[١].

تعددت آلهتهم قبل الإسلام وإن كانت عبادة الشمس وأهم النجوم أكثرها انتشارا ، « وأخذت القبائل العربية عن الأمم التى كانت تتصل بها كثيراً من آلهتها ، فكان زونها كالأوليمبيا الإغريقية الرومانية جامعا لشتى الأصنام »[٢]

وهم مع تعدد آلهتهم يقرون بالخالق سبحانه وتعالى ، هو خالق الكون والمحيى والمميت ، لم يخالف أحد منهم إلا الثنوية المتأثرون بالمجوسية ، وهم الذين أنكروا البعث : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ » ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله » .

ولكنهم اتخذوا الأصنام وغيرها وسائط ووسائل وزلفى : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ولكن ما الأنصاب ؟ وما الأصنام والأوثان ؟

قال الفيروزابادى إن الأنصاب حجارة كانت تنصب حول الكعبة فيهل عليها ، والأصنام والأوثان بمعنى واحد : ما عبد من دون الله ، وقال أبو المنذر هشام

---

(١) بروكلمان . العرب والإمبراطورية العربية ص ٢٥ — ٢٦

(٢) حضارة العرب ١٢٢ . جوستاف لوبون

ابن محمد الكلبي : إذا كان من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن [١] وقال : إذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان[٢] ، والأنصاب حجارة أمام الحرم وأمام غيره يطوفون بها كطوافهم بالكعبة [٣] .

ب — نشأة الأصنام وما ترمز إليه

روى ابن الكلبي [٤] أن الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان ، وعادوا إلى ما كان يعبده قوم نوح ، وأشركوا وإن دانوا بالربوبية ، وجعلوا ملك الأصنام بيده تعالى ، يقول تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » أى مايوحدونى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى .

وفى موضع آخر روى أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام ، فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامى ، عمرو بن ربيعة ابن لُحَىٍّ الأزدى وكان قد مرض واستشفى بالشام ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة [٥] ، وعمرو هذا هو الذى قاتل جرهم حتى أخرجهم من حرم مكة واستولى عليها وأجلاهم عنها وتولى حجابة البيت بعدهم [٦] .

ثم ذكر أن كل دار فى مكة كان لأهلها صنم يعبدونه ، فاذا أراد أحدهم السفر تمسح به ، وإذا قدم تمسح به ، فلما بعث الله نبيه بالتوحيد قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشىء عُجاب » يعنون الأصنام . واستهترت العرب بها وأولعت ، فنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر نصب حجرا أمام الحرم

---

(١) الأصنام ٥٣ (٢، ٣) الأصنام ٣٣ (٤) الأصنام ٦ — ٨

(٥) الأصنام ٨ — ٩ وسيرة ابن هشام ٨٢/١ (٦) معجم البلدان لياقوت ٦٥٢/٤

أو غيره ، وطاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأنصاب . فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ، وسموا طوافهم بها الدَّوار[١] .

وخطرت لهم فكرة تمثيل العظماء وذوى الأثر الصالح فيهم من الأسلاف ، أو تمثيل القوى التي يألفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم ، فصنعوا تماثيل لها وتقربوا إليها ، ومما يؤكد ذلك قول ابن الكلبي فى وصف وَدّ : « قلت لمالك بن حارثة صف لى وَدًّا حتى كأنى أنظر إليه ، قال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذُبِر (نقش) عليه حلتان ، مُتَّزِر بحلة مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفْضَة (جعبة) فيها نَبْل »[٢]

وهذا يشبه ان يكون تمثالاً لإله الحرْب .

وقال فى وصف هبل : « وكان فيها بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان »[٣]

وقال فى وصف الفَلْس : « وكان أنفا أحمر فى وسط جبلهم الذى يقال له أجأ ، أسود كأنه تمثال إنسان »[٤].

وقال : « المعمول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن »[٥] .

وقال : « وكان من تلك الأصنام ذو الْخَلَصة ، وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج »[٦] .

فهذه الأوصاف تدل على أن الصنم كان تمثالا على صورة إنسان ، وهو إذاً يرمز إلى إنسان أو إلى فكرة .

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »[٧] إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب . . وقيل هى أسماء رجال

---

(١) الأصنام ٣٢ (٢) الأصنام ٥٦ (٣) الأصنام ٢٨ (٤) الأصنام ٥٩
(٥) الأصنام ٥٤ (٦) الأصنام ٣٤ (٧) سورة نوح

صالحين ، وقيل من أولاد آدم ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم (١) .

ومما يعزز أنهم كانوا يقيمون تماثيل لآلهتهم ما جاء فى أحد النقوش الآشورية المشيرة إلى عودة أسرحدون من غزوه لبلاد العرب : « أتى الملك العربى إلى عاصمتى نينوى ومعه هدايا كثيرة ، فقبل قدمى طالبا أن أعيد إليه تماثيل آلهته ، فرق له قلبى فأعدتها إليه بعد أن أمرت باصلاحها ، ونقش تمجيد ربى أشور عليها وتوقيعها ، وجعلت الأميرة العربية طبوة التى نشأت فى بلاطى ملكة ، وأعدتها إلى بلادها مع آلهتها » (٢).

ولم يكن ذلك عجيبا أو مقصورا على العرب وحدهم ، فقد كان الرومان يعبدون الامبراطور ، وعندهم هيكل لعبادته (٣)

— حـ بعض أصنامهم

مناة :

أقدم أصنامهم التى عبدوها منذ أدخل عمرو بن لُحَىّ عبادة الأصنام ، وكانت تعظمه الأوس والخزرج ، ومن ينزل المدينة ومكة وما قرب منهما ، ويذبحون له ويهدون ، وكانت العرب كلها تعظمه ، وقد سموا به فقالوا : عبد مناة وزيد مناه (٤)

وكان مناة صخرة لهذيل وخزاعة ، وسميت الصخر بذلك لأن دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها أى تراق ، ومن قرأ بالمد فلعلها مفعلة من النوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها (٥)

---

(١) الكشاف ٢/٤٩٢

(٢) حضارة العرب جوستاف لوبون ١٢٣ (٣) روح الاجتماع ٨٨ — ٨٩

(٤) الأصنام ١٣ (٥) النيسابورى على هامش الطبرى ٢٧/٤١

وفى بعض بلاد نجد كشف Pely عن عمود مسيحى حطمه الوهابيون ، وقرر دوتى وآخرون أنه كان بالطائف تمثالان من الحجر لا شكل لهما كان يعبدهما القدماء على أنهما اللات والعزى ، وقد حطمهما الوهابيون ، ويظن أن ثالث هذين التمثالين — وهو تمثال مناة الذى قد يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ أيضا — يوجـــد إلى الجنوب من الطائف (١).

وظلت مناة قائمة إلى أن بعث النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد أو أبا سفيان ابن حرب أو على بن أبى طالب فهدمها (٢).

ويرى بروكلمان أن مناة « إلهة القضاء والقدر التى تقابل إلهة الحظ المخلص Tyche Soteira عند الإغريق ، وكانت معروفة فى مكة ، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة » (٣).

اللات :

اتخذها أهل الطائف ، وكانت صخرة مربعة ، وكانت قريش وسائر العرب تعظمها وسموا زيد اللات ، وتيم اللات (٤).

وكان أهل ثقيف يعكفون عليه للعبادة ويطوفون ، وزعموا أنه سمى برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه ، الحجاج ، فلما مات عبدوه ، وهذا على قراءة من يشدد التاء ، وقال آخرون إنه بيت كان بنخلة فعبدته قريش (٥).

ويرى بروكلمان أن اللات هى الإلهة التى كانت تعرف فى الطائف بالربة أى السيدة والتى شبهها هيرودوتس بإلهة الفلك Urania وهى تقابل الأم الكبرى للإلهة عشتروت عند الساميين الشماليين (٦) . وذكر الطبرى أن اللات مشتقة من الله ، ألحقت فيه التاء فأنث كما قيل عمرو للذكر وللأنثى عمرة (٧)

(١) عصر ما قبل الإسلام . مبروك نافع ٦ (٢) الزينى دحلان على هامش السيرة الحلبية ٣٤٣/٢
(٣) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ (٤) الأصنام ١٦
(٥) الطبرى ٣٥/٢٧ والنيسابورى على هامش الطبرى ٤١/٢٧
(٦) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ (٧) تفسير الطبرى ٣٤/٢٧

وظلت إلى فجر الإسلام إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدمها بالطائف (١). بعد أن أسلمت ثقيف، وعلاها المغيرة يضرب بالمعول وحماه قومه بنو معتّب خشية أن يرمي أو يصاب كما أصيب عروة، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين عليها ويتهمن بالجبن كل من لم يدافعوا عنها (٢)

العزى :

كانت العزّى أعظم الأصنام عندهم، وسموا عبد العزى، وكان العرب يطوفون بالكعبة ويقولون : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنها الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. وزعموا أنها بنات الله وشفعاؤه إليه، قال تعالى : «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان».

وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حُراض، فبنى عليها بيت، وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت العرب وقريش تسمى عبد العزى، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها، ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح (٣).

ويختلفون فى عبادها، فابن هشام يذكر أنها كانت لقريش وبنى كنانة، وأن حجابها وسدنتها من بنى شيبان من سُلَيم حلفاء بنى هاشم أو حلفاء بنى طالب خاصة (٤)

وغيره يرى أنها كانت لغطفان، وهى شجرة سمرة بعث إليها رسول الله خالد بن الوليد فقطعها، وزعموا أنها خرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس ناشرة الشعر تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فضربها خالد بالسيف ... حتى قتلها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

فرجع إلى النبي وأخبره بما فعل فقال : تلك العزى ولن تعبد أبداً (٥) ولكن فى

---

(١) دحلان ٢/٣٧٩ (٢) سيرة ابن هشام ٤/١٩٨ (٣) الأصنام ١٨ — ١٩

(٤) سيرة ابن هشام ٤/٨٧

(٥) أخبار مكة للأزرقي ١/٧٤ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢٧/٤١ والزينى دحلان على هامش السيرة الحلبية ٢/٣٤٠

هذه الرواية خيالا ، والأقرب إلى الصواب ما ذكره ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد بعد فتح مكة إلى العزى ، فلما سمع صاحبها السُّلَمِي بمسيره إليها علق عليها سيفه وهرب فى الجبل الذى هى فيه ، وهو يقول :

أيا عُزَّ شدى شدةً لا شَوَى لها … على خالد ، ألقى القناع وشمّرى

يا عُزَّ إن لم تقتلى المرء خالداً … فبوئى بإثم عاجــل أو تنصرى

فلما انتهى إليها خالد هدمها ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ولم تكن العزى غير شكل آخر للإلهة الثانية اللات ، وكانوا يعبدونها فى صورة الكوكب السماوى الزهرة (فينوس)[2]. وتسمية هذا الاسم مشتقة من اسم الله تعالى العزيز[3] أو هو مؤنث الأعز كما ذهب النيسابورى .

ولكن الآراء مختلفة فى حقيقة العزى : أكانت صنما كما ذكر هشام الكلبى ؟ أم كوكباً كما ذكر بروكلمان ؟ أم شجرات ، أم حجراً أبيض ، أم بيتاً كما ذكر الطبرى[4] وكما ذكر ابن هشام فى موضع آخر أنها بيت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها[5]

وقد سموا بعض أصنامهم بأسماء كانت منذ عهد نوح عليه السلام . من ذلك أن هذيل اتخذوا سُواعا بأرض ينبع ، واتخذت كلب وَدًّا بدومة الجندل ، واتخذت مذحج وأهل جُرَش يغوث ، واتخذت همدان يعوق ، واتخذت حمير نسراً ، ولم تزل تعبده حتى هوّدها ذو نواس ، وهذه الأصنام ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »[6]

وكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير وسموا عبد ود وعبد يغوث[7]

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٦٤ لا شوى لها : لا تبقى على شىء . بوئى : ارجعى . تنصرى : كونى نصرانية وروى تنظرى

(٢) بروكلمان ٢٧

(٣،٤) تفسير الطبرى ٢٧/٣٤

(٥) سيرة ابن هشام ٤/٦٤

(٦) الأصنام ٩ — ١٠ وسورة نوح

(٧) الكشاف ٤٩٢

وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر[١]

د — إخلاصهم للأصنام

والأصنام عندهم كثيرة ، وهم يعبدونها مخلصين ، ويعظمونها تعظيمهم للحرم ، حتى إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة[٢]

ويرى المرحوم الأستاذ محمود جمعه أن السبب فى حمل هذا الحجر عقيدة العربى فى أن الحجر فيه روح الإله ، فهو يحمله معه تيمنا به[٣]. ولكنى أوافق على رأى هشام ، لأن الظاعن من مكة لم يغادر جزيرة العرب التى تسرى فيها كلها روح الإله ، فإله مكة هو إله الطائف واليمامة والحجر . . . إلخ ثم لماذا يحدث هذا من سكان مكة وحدهم ؟

وبلغ من تعلقهم بأصنامهم أن يتخوف أبو أُحَيْحة ألا تعبد العزى من بعده ، ذلك أنه مرض مرضه الأخير فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكى فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه ؟ قال : لا ، ولكن أخاف ألا تعبد العزى بعدى . قال أبو لهب : والله ما عُبِدَت حياتَك لأجلك ، ولا تُترك عبادتها لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة[٤] .

وقاتل بعض العرب لحماية أصنامهم من التدمير ، كما حدث لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، وكان فى القادمين جرير بن عبد الله الذى جاء مسلما ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا جرير ألا تكفينى ذا الخلصة ؟ فقال : بلى ! فوجهه إليه ، فخرج حتى أتى بنى أحمس من بجيلة ،

---

(١) الكشاف ٤٩٢

(٢) الأصنام ٦ (٣) النظم السياسية والاجتماعية ١٤٠ (٤) الأصنام ٢٣

فسار بهم إليه فقاتلته خثعم وباهلة دونه ، فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل ، وأكثر القتل فى خثعم ، وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم ، فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذى الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق ، فقالت امرأة من خثعم :

وبنو أمامة بالوليّة صُرِّعوا ثُمَلاً يعالج كلُّهم أنبوبا

جاءوا لبيضتهم فلاقوا دونها أسداً تَقَبُ لدى السيوف قبيبا

قسم المذلة بين نسوة خثعم فتيانُ أحمسَ قسمةً تشعيبا[1]

ونقل ابن هشام والأزرقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى حنين ومعه مسلمون بعضهم حديث عهد بالجاهلية ، فلما رأوا فى الطريق ذات أنواط — شجرة خضراء عظيمة كانوا يأتونها كل سنة ويعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما — قال بعضهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر ، قلتم — والذى نفس محمد بيده — كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إنها السُّنَن ؟ لتركَبُنَّ سَنن من كان قبلكم[2] .

ولا سبيل إلى ادعاء أن هؤلاء وأمثالهم كانوا يحمون استقلالهم مثلا فى حماية الصنم ، فقد حدثت حروب بسبب الأصنام أيضا لم تكن فيها مظنة الذود عن استقلال ، « حدثت بين بعض قبائل اليمن لاقتناء يغوث ، منها موقعة رزم بين الحارث وهمدان وسدنة الصنم وبين مراد »[3] .

وإلى هذه الموقعة يشير الشاعر بقوله :

وسار بنا يغوث إلى مُراد فناجزناهم حتى الصباح[4]

وقد أسبقنا أن ملكا عربياً ذهب إلى الملك أسرحدون فى نينوى ومعه هدايا

---

(١) الأصنام ٣٦ . الولية : موضع . ثملا : جمع ثملة وهى الحب والسويق . أنبوب : رمح . تقب : تصخب وتقعقع أنيابها

(٢) سيرة ابن هشام ٧١/٤ وأخبار مكة ٧٧/١

(٣) معجم البلدان ٧٧٦/٢ و١٠٢٢/٤ (٤) الأصنام ١٠

وجثا أمامه وقبل قدمه طالبا أن يعيد إليه تماثيل آلهته ، فرق له قلب أسر حدون وأعادها إليه بعد أن أمر باصلاحها[1].

وذكر ابن هشام والأزرقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم فتح مكة ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى ابراهيم عليه السلام مصوراً فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما » ، ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست[2].

وروى فى موضع آخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة يوم الفتح على راحلته طاف عليها ، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع ، فقال تميم بن أسعد الخزاعى فى ذلك :

وفى الأصنام معتبرٌ وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا[3]

هـ — الأصنام فى الشعر

(١) القسم بها :

أقسم العرب بالأصنام كما يقسم العباد بالأرباب ، وجاء هذا القسم على ألسنة كثير من الشعراء ، وإن لم يتسموا بنزعة دينية . أقسم طرفة بالنصب فى قوله :

فأقسمت عند النُّصْب إنى لهالك بمَتْلَفَةٍ ليست بغَبْطٍ ولا خَفْضِ[4]

وأقسم المتلمس بالأنصاب وباللات فى قوله يهجو عمرو بن المنذر :

أَطْرَدْتَنِى حَذَرَ الهجاء ، ولا واللاتِ والأنصابِ لا تَئِلُ[5]

---

(١) حضارة العرب ١٢٣

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢/٤ وأخبار مكة للأزرقى ١٥٠/١

(٣) سيرة ابن هشام ٣٧/٤

(٤) ديوان طرفة ٤٩ غبط : أرض مستوية يرتفع طرفاها

(٥) الأصنام ١٦

وأقسم عبد العزى بن وديعة المزنى بمناة :

إنى حلفت يمينَ صدقٍ برَّةً ... بمناة عند محل آل الخزرج [(١)]

وحلف طرفة بالأنصاب التى يذبحون القرابين عليها فى اعتذاره لعمرو بن هند :

إنى وجدك ما هجوتك والأ ... نصاب يُسْفَحُ بينهن دم [(٢)]

وحلف أوس بن حجر باللات والعزى وبالله :

وباللات والعزى ومن دانَ دينَها ... وبالله ، إن الله منهن أكبر [(٣)]

وكانت قريش قد حمت لها شعبًا من وادى حُراض يقال له سُقام يضاهون به حرم الكعبة ، فذاك قول أبى جُندب الهذلى فى امرأة كان يهواها :

لقد حلفَتْ جَهْداً يميناً غليظة ... بِفَرْعِ التى أَحْمَتْ فُروع سُقام

لئن أنت لم ترسل ثيابى فانطلق ... أُبَاديكَ أُخْرى عَيْشِنا بكلام

يعز عليه صَرْمُ أمِّ حُوَيْرِثٍ ... فأمسى يروم الأمر كلَّ مَرَام

وحلف الشنفرى الأزدى بأثواب الأقيصر فى قوله :

وإن امرأ أجار عَمْراً ورهطه ... عَلَىَّ ـ وأثوابِ الأقَيْصرِ ـ يعنُفُ

وأقسم زيد الخير (زيد الخيل الطائى) بعائم :

تُخَبِّرُ من لاقيتَ أن قد هزمتَهم ... ولم تدر ما سيماهم ، لا ، وعائِمِ [(٤)]

وإذا كان مؤلف الأصنام قد قرر أنه لم يسمع شعراً فى (نَسْر) فإن ياقوتا أورد شعراً فيه عند كلامه على (بَلَخْع) وهى الأرض التى عُبد فيها نسر ، ونسبه إلى الأخطل ، والصواب نسبته إلى عمرو بن عبد الجن الفارس الجاهلى كما فى تاريخ الطبرى [(٥)] ، وقد رواها ابن منظور فى لسان العرب فى مادة (أبل) وكذلك رواها البغدادى فى خزانة

---

(١) الأصنام ١٤
(٢) ديوان طرفة ١٥
(٣) الأصنام ١٧ وديوان اوس بن حجر نمرة ٧
(٤) الأصنام ٤٠
(٥) تاريخ الأمم والملوك ٢/٣٤

الأدب ، وتاج العروس فى (أبل) ، وهى أيضاً فى ديوان الأخطل طبعة اليسوعيين ص ١٤٩ ، ويرجح طابعه الأب أنطون صالحانى أن الأبيات لغير الأخطل :

أَمَا ودماءٍ مائراتٍ تخالها   على قُنَّةِ العُزَّى أو النسرِ عَنْدَمَا
وما سَبَّحَ الرهبانُ فى كل بِيعَـــة   أبيلَ الأبيلِينَ المسيحَ بن مريما
لقد ذاقَ منا عامرٌ يوم لَعْلَعٍ   حُساما إذا ما هُزَّ بالكف صَمَّما

وكانوا أحيانا يتحالفون على النار ، ويأخذون العهد المؤكد واليمين الغموس ، وأحيانا يضعون فيها الملح للتهويل ، قال الشاعر :

حلفتُ لهم بالملح والقوم شُهَّدٌ   وبالنار واللاتِ التى هى أعظم

(٢) ذكرها :

وحسبنا هذا الشعر الدائر على القسم والتحالف ، فلنأخذ فى شعر آخر يدور حول الأصنام وغيرها مما كانوا يعبدون . فمن شعرهم فى وَدّ .

حَيَّاكِ وَدٌّ فإنا لا يحل لنــا   لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزَما(١)

ومن شعرهم فى يغوث :

وسار بنا يغـــوث إلى مُراد   فناجزناهمُ قبـــل الصباح(٢)

وفى اللات يقول عَمْرو بن الْجُعَيْد :

فانى وتركى وصْلَ كأسٍ لكالذى   تبرأ من لاتٍ وكان يدينها(٣)

وكانت هُذَيل تعبد سُواعا ، وقد شبه الشاعر خضوع أناس لحاكمهم بخضوع هذيل لسواع ، وذكر القرابين التى كانت تذبحها عنده :

تراهم حول قَيْلِهمُ عُكوفا   كما عكَفَتْ هُذَيْلٌ على سُواع
تظل جَنَابَهُ صرعى لديه   عَتَائِرُ من ذخائر كل راع(٤)

(١،٢) الأصنام ١٠ (٣) الأصنام ١٦ (٤) الأصنام ٥٧ العتائر : الذبائح

وذكر الجاحظ أن الرجل كان ينذر أن يذبح عند الأصنام كذا عتيرة إذا بلغت إبله أو غنمه كذا ، فإذا اكتمل العدد استعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إنى أذبح كذا شاة ، والظباء شاء كما أن الغنم شاء ، فيجعل قربانه شاء كله مما يصيده من الظباء [1] ، ولذلك يقول الحارث بن حلِّزة اليشكرى فى معلقته :

أم علينا جُناح كندة أن يغـــنم غازيهم ومنا الجـــزاء
عَنَتاً باطلا ، وظلماً ، كما تُعْـ ـتَرُ عن حُجْرة الرَّبيض الظباء [2]

ويقول الروزنى فى شرح البيت ، العتيرة ذبيحة كانت تذبح للأصنام فى رجب ، وقد كان الرجل ينذر إن بلغت غنمه مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم ربما ضنت نفسه بها فأخذ ظبياً وذبحه بدل الشاة الواجبة عليه .

وكانت لهم حجارة غُبْر منصوبة يطوفون بها ، ويَعْتِرون عندها يسمونها الأنصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار ، يقول عامر بن الطفيل وقد أتى غَنِيَّ بن أعْصُر يوما وهم يطوفون بنُصُب لهم ، فرأى فى فتياتهم جمالا وهن يطفن :

ألا ياليت أخوالى غَنِيًّا عليهم كلما أمْسَوْا دَوَارُ [3]

وقال امرؤ القيس فى معلقته يشبه قطيع البقر أو الظباء بالعذارى اللابسات ملاءات :

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأن نعاجه عَذَارَى دَوَار فى مُلَاءٍ مُذَيَّلِ

شبه نعاج السرب فى مشيها وطول أذنابها بفتيات حول الصنم يدرن وعليهن الملاء الطوال ذوات الأهداب .

وكان سَعْد بناحية جُدة ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبله ليقفها عنده تبركاً به ، فلما دنت منه — وكان الدم يراق عليه — نفرت وتفرقت ، فغضب الرجل وتناول حجراً فرمى به سعداً ، ثم جمعها وانصرف وهو يقول :

---

(١) الحيوان ١/٩ (٢) شرح القصائد العشر ١٢٨ (٣) الأصنام ٤٢

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهل سعدُ إلا صخرة بتنوفةٍ من الأرض لا يُدْعَى لغَيٍّ ولا رشد[١]

وشبه سلامة بن جندل أعناق الخيل بالأنصاب :

والعادياتُ أسابيُّ الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب[٢]

(٣) الاستقسام عندها :

وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام أى القداح ، فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزوا أو تجارة أو أمراً عظيما ضرب بالقِداح ، قالوا إنها ثلاث قطع من الخشب مكتوب على أحدها : نهانى ربى ، وعلى الآخر : أمرنى ربى ، وأما الثالث فَغُفْل ، فإن خرج الآمر مضى لطيته ، وإن خرج الناهى أمسك ، وإن خرج الغفل أجال القداح مرة ثانية . وقالوا إنها كانت سبعة ، وإن سادن الصنم هو الذى كان يتولى إجالتها ، وسواء أكانت ثلاثاً أم سبعاً أم أكثر ، وسواء أكانت عليها كتابة أم لم تكن فإن الذى نريد أن نقرره أن الأصنام كانت تستشار . قال طرفة ساخراً بالاستقسام لما بعث عمرو بن هند قائداً من قواده هو الفلاق بن شهاب العدوى ليصلح بين بكر وتغلب فاصطلحوا على دخن فأغارت تغلب على بكر وكان الفلاق ضالعاً مع تغلب :

فَسَعَى الفَلَّاق بينهم سعى خِبٍّ كاذب شِيَمُهْ
أخذ الأزلامَ مقتسما فأتى أغواهما زَلَمُهْ
عند أنصاب لها زُفُرٌ فى صعيد جَمَّةٍ أُدُمُهْ[٣]

ويروون أن امرأ القيس لما قتل بنو أسد أباه حُجْراً استقسم عند الصنم ذى الْخَلَصة ، فخرج له القدح المانع من الثأر ، فكسر الأزلام وضرب بها وجه الصنم ، وقال : لو كان أبوك قتل ما عقْتنى ، وأنشد :

---

(١) الأصنام ٣٧ (٢) المفضليات ١١٩/١ أسابى : طرائق . ترجيب : ذبح فى رجب أو تعظيم . (٣) ديوان طرفة ١٧ — ١٨ أدمه : جلود ما حمله إلى الأنصاب ليذبحه عليها . زفر : من معانيها البحر والنهر الكثير الماء وهو المراد هنا ليدل على الدماء الغزار .

لو كنتَ يا ذا الخَلَصةِ الموتورا   مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا(١)

وكان كثير منهم يخضع لما تشير له قداحه، وللقداح الرأى الفصل، قال شَمْلَة ابن أخضر الضبى :

رئيس ما ينازعه رئيس   سوى ضرب القداح إذا استشارا

وكان منهم الحازم الذى يستشير قداحا، وإذا همّ بالأمر مضى فيه، كجذع بن سنان فإنه عزم على الحرب ولم يستشر قداحا :

أتانى قاشر وبنو أبيه   وقد جَنّ الدجى والليل لاحا
وحذرنى أمورا سوف تأتى   أهُزُّ لها الصوارمَ والرماحا
سأمضى للذى قالوا بعزم   ولا أبغى لذلكُمُ قِداحا

(٤) الدَّوار بها :

وكانوا يطوفون بحجارة غير منصوبة، ويَعْتِرون عندها، ويسمونها الأنصاب ويسمون الطواف بها الدوار، وفى ذلك يقول عامر بن الطفيل وقد أتى يوما غنى ابن أعصر وهم يطوفون بنصب لهم، فرأى فى فتياتهم جمالا وهن يطفن :

ألا يا ليت أخوالى غنيا   عليهم كلما أمسوا دَوَار

وقال المثقِّب العبدى لعمرو بن هند :

يُطيف بنُصْبهم حُجُنٌ صغار   فقد كادت حواجبهم تشيب(٢)

(٥) قرابينهم لها :

وكانوا يذبحون لها، ويسمون الذبائح العتائر، وهم عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجونها ويعتمرون إليها.

وحموا بعض الأنواع من الذبح والعمل، تقربا إلى الأصنام أيضا، وفى تفسير

---

(١) الأصنام ٣٥   (٢) الأصنام ٤٢ حجن : صبيان

هذه الأنواع آراء شتى ، ويظهر أن السبب فى تشعب الآراء اختلاف القبائل فى الاصطلاح نفسه ، وسنقتصر على رأى واحد :

البحيرة : الناقة التى نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، فيبحرون أذنها ويحرمون نحرها وركوبها ، ولا يطردونها من ماء ولا يمنعونها عن مرعى .

السائبة : التى تنتج عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف .

الوصيلة : كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً جعلوه لآلهتهم وإذا ولدت أنثى اختصوا بها ، فإن ولدت ذكراً وأنثى ، قالوا إن الأنثى وصلت أخاها فلم يذبحوه للآلهة .

الحامى : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون قد حمى ظهره ، فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى .

وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك كله : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » .

وقد تحدث الشعر عن هذه القرابين :

حَوْلَ الوصائل فى شُرَيْفٍ حِقَّةٌ   والحاميات ظهورَها والسُّيَّبُ(١)

وقال تميم بن أُبَيٍّ فى وصف حمار الوحش :

فيه من الأَخْرَجِ المرباعِ قَرْقَرَةٌ   هَدْرَ الدِّيَافِيِّ وسط الهَجْمَةِ البُحُرِ(٢)

ومن أنواع القرابين .

الفَرَع : ذبح كان فى الجاهلية ، وهو أول النتاج إذا نتجت الناقة أول نتاجها ذبح يتبركون به ، قال أوس بن حجر :

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٩٧ الوصائل : جمع وصيلة . شريف : ماء لبنى نمير . حقة : الإبل التي دخلت فى الرابعة .

(٢) السيرة ١/٩٨ . الأخرج : الظليم فيه لونان . المرباع : الذى وعي فى الربيع . قرقرة : صوت فيه ترجيع . هدر : صوت . الديافى : نسبة إلى دياف قرية بالشام . الهجمة : قطعة من الإبل . البحر : جمع بحيرة وهى المشقوقة الأذن .

وشبهُ الهيدبِ العبامِ من الـ ... أقوام سقْباً مجللاً فرَعا (١)

وكانوا يسمون الذبائح للأصنام عتائر والمذبح الذى يذبحون فيه لها العِتْر . قالت امرأة فى رثاء والدها :

ما زلتُ أُصعِده وأُحدِره ... من قُتْر مَوْماة إلى قُتْر

هرباً به والمــوت يطلبه ... حيث انتويت به ولا أدرى

حتى دُفِعتُ به لمصرعه ... سَوْقَ المعيز تساق للعِتْر (٢)

وقال زهير بن أبي سلمى :

فَزَلَّ عنها وأوْفَى رأسَ مَرْقَبَة ... كمنصب العِتْر دَمَّى رأسَهُ النُّسُكُ (٣)

(٢) التوحيـــد

تمهيـــد :

لا حاجة بنا إلى أن نعرض لليهودية والنصرانية من حيث نشأتها ومراكزها وتأثيرها فى بلاد العرب فقد فصلنا ذلك فى الباب الأول ، واليهود والنصارى موحدون ، وحتى عباد الأصنام وغيرها على قسط كبير من التوحيد .

« وإنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصابئة فى تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها فى الهياكل ، لا على ما يعتقده الجهال بديانات الأمم وآراء الفرق من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هى الآلهة الخالقة للعالم . ولم يعتقد قط هذا الرأى صاحب فكرة . بدليل قوله تعالى « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٤)

وإذا كان العرب قد عبدوا الأوثان وغيرها ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، فإن « فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم

---

(١) الأمالى ١/٥٨ الهيدب : الثقيل الكثير الشعر . العبام : العى الثقيل . مجللا فرعا : لابساً جلد فرع (٢) زهر الآداب على هامش العقد الفريد ٢/٨ . قتر : جانب (٣) الأصنام ٣٤
(٤) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٤

البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهَدْى البُدْن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى » . [1]

وهم على توحيدهم المشوب بالشرك يعظمون الكعبة ويعرفون فضلها ، وقد اتخذوا معها طواغيت ، وهى بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة ، ولها سدنة وحجاب ، ويهدون إليها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كطوافهم بالكعبة وينحرون عندها ، ولكنهم يعرفون فضل الكعبة عليها ، لأنهم قد عرفوا أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده[2] .

وإذا كان الشعر الجاهلى الوثنى الذى أوردنا بعضه قد مثّل الوثنية تمثيلا يضطرنا إلى الإقرار بأن الشعر الجاهلى لم يغفل الدين إغفالا ، فإنا سنجد شعراً أكثر منه يتصل بالتوحيد والإيمان بالله مالك الملك البارىء المصور الواهب المكافىء ، ويتصل باليهودية والنصرانية اتصالا وثيقا .

وقد قلنا إن العرب — على وثنيتهم — اعتقدوا بإله هو خالق الكون « ولم ينقلوا فكرتهم عن اليهود والنصارى كما يظن كثير من الباحثين »[3] وإنما كان هؤلاء فريقا من المستبصرين المفكرين الذين جروا على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

---

(١) سيرة ابن هشام ٨٢/١ (٢) سيرة ابن هشام ٨٧/١

(٣) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٧

التوحيد فى الشعر

١ — أمية بن أبى الصلت :

وهذا شاعر جاهلى حفل ديوانه بتوحيد الله وتمجيده ، وبالكونيات والبعث والحساب إلخ ، قال فيه الأصمعى : « ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة ، وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبى ربيعة بعامة ذكر الشباب »(١).

وهو بحق أعظم شعراء الجاهلية احتفالا بالدين ،وأكثرهم قصائد دينية ، وقد تعرض لما لم يتعرض له غيره من دقائق وتفاصيل ، حتى قال فيه ابن سلام : « وكان أمية كثير العجائب ، يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب »(٢).

وقد أدرك أمية الإسلام، وتوفى سنة ٩ هـ ، « وقد قرأ الكتب واتصل بالقديسين ولبس المسوح ، وتنسك وحرم الخمر ونبذ الأوثان »(٣) ، وما من شك فى أنه سمع كثيرا من سور القرآن الكريم .

وقد أنشد النبى عليه الصلاة والسلام قول أمية :

الحمد لله مُمْسانا ومُصْبَحنا   بالخير صبَّحنا ربى ومَسَّانا

. . . .

فقال إن كاد أمية لَيُسلم(٤) .

وفى ديوانه دالية عرض فيها قدرة الله فى خلقه ونعمه على عباده ، وعدد بعض مظاهر قدرته ، من تربة مختلفة النوع وسحب ومطر ، ثم عرض لخرافة الهدهد وأنه دفن أمه فى قفاه . . . ثم ذكر أن السموات سبع ، وذكر العرش وذكر الشياطين وأنها تُرْمَى بالكواكب ، ثم وصف مواكب الملائكة وسماهم تلاميذ الله . . . إلخ(٥)

---

(١) الأغانى ١٢٥/٤ الدار   (٢) طبقات الشعراء ١٠٣   (٣) شعراء النصرانية ٢١٩
(٤) الأغانى ١٢٩/٤ الدار   (٥) ديوان أمية ٢٥ — ٢٩ .

ومن القصص الدينية التي ذكرها قصة نوح والطوفان :

جزى الله الأجلُّ المرءَ نُوحاً   جزاء البر ليس له كِذاب
بما حَمَلَتْ سفينته وأنجت   غداة أتاهم الموت القُلاب
وفيها من أرومته عيال   لديه لا الظماء ولا السغاب
وإذ هم لا لبوس لهم ، عراة   وإذ صخر السلام لهم رِطاب
عشية أرسل الطوفان تجرى   وفاض الماء ليس له جِراب
على أمواج أخضر ذى حَبيكٍ   كأن سُعار زاخره الهضاب
وأرسلت الحمامة بعد سبع   تدل على المهالك لا تهاب
تلمَّسُ هل ترى فى الأرض مَتْناً   به تَيَبُّسٌ أو اضطراب
فجاءت بعد ما ركضت بقطف   عليه الثأط والطين الكُثاب
فلما فتشوا الآيات صاغوا   لها طوقا كما عُقِد السِّخاب
إذا ماتت تورثه بنيها   وإن تقتل فليس لها استلاب[1]

فهو هنا يتحدث عن الطوفان وسفينة نوح ونجاة ركابها ، ويستطرد إلى خرافة قديمة أن الحمامة هى التى دلت الركاب على اليابسة فكافئوها بطوق ملازم لعنقها .

وعرض أيضاً لقصة إبراهيم وإسماعيل ، وذكر فيها تفاصيل لم ترد فى القرآن الكريم ، مثل :

فاقض ما نذرت لله واكفف   عن دمى أن يمسه سِربالى
واشدد الصفْدَ أن أحيد عن السِّـ   ـكين حَيْدَ الأسير ذى الأغلال
بينما يخلع السرابيل عنه   فكه ربه بكبش جُلال[2]

وقد خلق الله الكون لحكمة عظيمة يعلمها سبحانه :

---

(١) ديوان أمية ٣٥ حبيك : طرائق الماء والموج . ثأط : طين . كثاب : كثير . سخاب : قلادة . القلاب : الملك . السغاب : الجياع .

(٢) الديوان ٣٣ الصفد : الشد والربط . جلال : عظيم

لم يخلق السماء والنجوم والشمس معها قمر يقوم
قدره المهيمن القيوم والحشر والجنة والنعيم
إلا لأمر شأنه عظيم (١)

وكل شيء هالك إلا وجهه :

فكل معمر لا بد يوماً وذى دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلى سوى الباقى المقدس ذى الجلال

وتعرض أمية للبعث والحشر والحساب والميزان :

ويوم موعدهم أن يحشروا زمراً يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر
وأبرزوا بصعيد مستو جرز وأنزل العرش والميزان والزبر (٢)

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستشهد بشعر أمية ، لأنه حافل بالكونيات والتوحيد، وأرجح أنه تأثر بالقرآن الكريم فى بعض شعره ، لأن الفكرة واحدة وبعض التعابير مشتركة مثل قوله :

عرفت أن لن يفوت الله ذو قدم وأنه من أمير السوء ينتقم
المسبح الخشب فوق الماء سخرها خلال جريتها كأنها عوم (٣)

وهو فى البيت الثانى متأثر بقوله تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره » .

ومثل قوله فى سفينة نوح :

فار تنوره وجاش بماء طم فوق الجبال حتى علاها
قيل للعبد سر ، فسار وبالله على الهول سيرها وسراها
قيل فاهبط فقد تناهت بك الفلك على رأس شاهق مرساها (٤)

---

(١) الديوان ٢٤ — ٢٥ الحش بفتح الحاء وضمها : البستان والنخل .
(٢) الديوان ٥٦ التغابن : غبن أهل الجنة لأهل النار. جرز : لاتنبت.
(٣) الديوان ٣١ عوم : جمع عومة : دويبة (٤) الديوان ٣٧

فهنا من القرآن الكريم (فار تنوره) و (سيرها وسراها) مأخوذة من قوله تعالى : « باسم الله مجراها ومرساها » .

وفى شعر أمية تعبير مسيحى ما زال حيا :

مجِّدوا الله وهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا(١)

٣ — وكان عدى بن زيد نصرانيا ديّانا ، وترجمانا وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر . قال عدى بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه الشيطان ، وكيف دخل فى الحية ، وأن الحية كانت فى صورة جمل فمسخها الله عقوبة لها حين طاوعت عدوه على وليه :

قضى لستة أيام خليقتَه وكان آخرَها أن صوّر الرّجلا
دعاه آدمُ صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح فى الجسم الذى جَبَلا
ثُمّتَ أورثه الفردوس يعمُرها وزوجُه صنعةً من ضلعه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة من شجر طيب أن شَمّ أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خُلقت كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا
فَعَمدا للتى عن أكلها نُهيا بأمر حواء لم تأخذ له الدَّغَلا
كلاهما خاط إذ بُزّا لبوسهما من ورق التين ثوبا لم يكن غُزلا
فلاطها الله إذ أغوت خليفتَه طولَ الليالى ولم يجعل لها أجلا
تمشى على بطنها فى الدهر ما عَمَرَتْ والترب تأكله حزنا وان سَهُلا
فأُتْعِبا أبوانا فى حياتهما وأوجدا الجوعَ والأوصابَ والعللا
وأوتيا الملك والإنجيلَ نقرؤه نشفى بحكمته أحلامنا عِللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا فوق البرية أربابا كما فَعَلا(٢)

---

(١) الديوان ٤٣

(٢) الحيوان للجاحظ ١٩٧/٤ طبعة هارون

٣ — شعراء آخرون غير أمية وعدى :

وسنمر بعدة من شعراء الجاهلية وننقر فى أشعارهم لنستنبط منها مذاهبهم الدينية، غير طامعين فى أن ينطلق أحدهم انطلاق أمية بن أبى الصلت ، فإن أمية شاعر دينى بمعنى الكلمة ، فهو فى العصر الجاهلى كأبى العتاهية مثلا فى العصر العباسى ، كل منهما فى عصره لا نظير له فى اتجاهه .

وحتى لبيد مع تميزه بنغمة دينية قبل إسلامه لم يبلغ شأو أمية ، قال أبو عمرو ابن العلاء : ما أحد أحب إلىّ شعراً من لبيد ؛ لذكره الله عز وجل ولإسلامه ولذكره الدين والخير .

وهذه بعض اتجاهات دينية مستقاة من شعرهم :

١ — أقسموا بالله :

أقسم عبيد بن الأبرص بالله المنعم الغفور :

حلفتُ بالله ، إن الله ذو نِعَمٍ   لمن يشاء وذو عفو وتَصْفاح
ما الطَّرف منى إلى ما لستُ أملكه   مما بدا لى بباغى اللحظ طاح[١]

وأقسم النابغة بالله الذى لا قسم أقوى من القسم به :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

وأقسم برب الكعبة :

فلا ، لعمرُ الذى مسَّحْتُ كعبته   وما هُرِيقَ على الأنصاب من جَسَد
ما قلتُ من سيءٍ مما أُتيتَ به   إذاً فلا رفَعَتْ سوطى إلىَّ يدى

وأقسم أوس بن حجر بالأصنام وبالله الأكبر :

باللات والعزى ومن دان دينها   وبالله إن الله منهن أكبر

وحلف المهلهل برب البيت :

قتلوا كليباً ثم قالوا لا تَثِبْ   كلا ، وربِّ البيت والإحرام

(١) ديوان عبيد القصيدة ٢٤ Lyall

وحلف ذو الإصبع العدواني بالله :

والله لو كرهتْ كفّى مصاحبتى ... لقلتُ إذْ كرهتْ قُرْبِي لها بِينى[1]

وحلف بالله عامر المحاربي :

فما إن شهدنا خمركم إذ شربتم ... على دَهَش والله شربة أشأما[2]

وحلف به لُقَيْم الشيباني :

إنى وبيت الله لولا شدّتى ... لشمّتا (الملبد) فى رجامٍ موصَد[3]

ومن القسم بالكعبة بيت الله قول راشد بن شهاب يخاطب قيس بن مسعود الشيباني :

فلا تحسبنّا كالْعُمور وجَمْعَنا ... فنحن وبيتِ الله أدنى إلى عمرو[4]

وقول درهم بن يزيد فى تهديده لمالك بن العجلان فى خصومة بينهم ، لما قتل رجل من بنى عمرو بن عوف جاراً لمالك وأبوا أن يدفعوا الدية كاملة بحجة أن الحليف له نصف الدية :

إنى لعمرُ الذى يحج له النا ... س ومَنْ دون بيته سَرِف

يمين بَرٍّ بالله مجتهدٍ ... يحلف إن كان ينفع الحلف

لا نرفع العبد فوق سنته ... ما دام منا ببطنها شرف[5]

وحلف زهير بالكعبة التى يطوف بها العرب :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يميناً لنعم السيدان وُجِدْتما ... على كل حال من سَحِيلٍ ومُبرَم[6]

ب — وأسندوا إليه سبحانه وتعالى الثواب والعقاب والمنح والمنع والنفع والضر . قال عبد يغوث يدعو الله أن يعاقب قومه وحلفاءهم لأنهم تخلوا عنه فى الحرب فأسر :

---

(١) المفضليات ١/١٦٢

(٢) المفضليات ٢/١١٩

(٣) النقائض ٢٣ الملبد : رجل أنقذه لقيم يوم قشاوة ثم تنقص من قدره الملبد .

(٤) المفضليات ٢/١١١

(٥) الأغانى ٣/٢١ الدار

(٦) شرح القصائد العشر للتبريزى

جزى الله قومى بالكلاب ملامة ... صريحهم والآخرين المواليا[1]

وفى القصيدة نفسها يناجى الناس متحسراً على أنه قد حرم من سماع أناشيد الرعاة التى تتجاوب وتتردد، فيعبر عمن يخاطبهم بأنهم عباد الله :

أحقًّا عباد الله أن لست سامعا ... نشيد الرعاة المعزبين المتَاليا[2]

والله سبحانه وتعالى هو الرافع والخافض، قال مَقّاس العائذى يدعو الله أن يرفع من قدر بنى شيبان :

إذا وَضَعَ الْمَزَاهِرُ آلَ قومٍ ... فزاد الله آلكم ارتفاعا[3]

ولما أجار الأوس مخلّد بن الصامت الساعدى قال أبو قيس بن الأسلت :

أجرتُ مخلّداً ودفعت عنه ... وعند الله صالح ما أتيت[4]

وفى استعطاف عدى بن زيد العبادى للنعمان وقد حبسه قوله إن الله قد فضلكم على المسيحيين جميعاً :

أَجَلْ نُعْمَى رَبُّهَا أَوَّلُكُمْ ... ودنوّى كان منكم واصطبارى

أجل إن الله قد فضلكم ... فوق من أحكأ صُلبا بإزار[5]

والله هو المعين على الانتصار، قال أبو قيس بن الأسلت (صفى بن عامر الوائلى الأوسى) :

وأحرزنا المغانم واستبحنا ... حِمَى الأعداء والله المُعين[6]

والله هو الذى يقبض الدنيا ويبسطها، ويعلم السر والنجوى ويجازى، قال ذو الإصبع العدوانى فى شكواه من ابن عمه :

إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها ... إن كان أغناك عنى سوف يغنينى

الله يعلمكم والله يعلمنى ... والله يجزيكم عنى ويجزينى

---

(١) المفضليات ١٥٥/١ (٢) المرجع السابق ١٥٥/١

(٣) المفضليات ١٠٥/٢ المزاهر : الحروب . (٤) الأغانى ١٤/٣ الدار

(٥) البيان والتبيين ٢٨٥/٢ أحكأ : شد وعقد (٦) البيان والتبيين ١٧/٣

لولا أواصرُ قربى لستَ تحفظها ورهبـــةُ الله في مولى يعاديني
إذاً بريتك برياً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني (١)

والله تعالى هو الواقي من السوء ، قال أفنون التغلبي :

لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى إذا هو لم يجعل له اللهُ واقيا(٢)

وهو المانح الجمال ، قال قيس بن الخطيم في غزله :

قضى لها الله حين صورها الـ خالق ألا يُكنَّها سَـــدَف (٣)

وهو قاسم الأرزاق والحظوظ بين الناس ، قال لبيد في معلقته :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قَسَمَ الخلائقَ بيننا عَلَّامها(٤)

وقال عبيد بن الأبرص إن الله هو المعطى الذى لا يخيب سائله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب(٥)

وهو الذى يبارك ، قال عبيد يصف شربة ماء لناقته :

بارك في مائها الإله فما يَبِضُّ منه كأنه عسل(٦)

وهو الذى يثيب على المعروف ، قالت هند بنت الخُسّ في مدحة للقَلَمَّس ، وكان سيداً من سادات كنانة ، وحكيما من حكماء العرب وكاهنا ، من كهانهم ، وكان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها :

إذا الله جازى منعما بوفائه فجازاك عنى يا قَلَمَّس بالكَرَم

وهو المانح للقبيلة مكانتها وسماحة أخلاقها ، قال سويد بن أبي كاهل اليشكرى :

كتب الرحمن والحمد له سَعَةَ الأخلاق فينا والضَّلَع (٧)

وللأعشى بيت قد يكون صالحاً للدلالة على أنه قَدَرِيّ :

---

(١) الأغانى ٣/١٠٥ الدار ، والأمالى ١/٢٥٥ (٢) المفضليات ٢/٦١
(٣) الاغانى ٣/٣٣ الدار (٤) المعلقات العشر ٩٦ الشنقيطى
(٥) ديوان عبيد القصيدة الأولى Lyall (٦) ديوان عبيد القصيدة ٣
(٧) المفضليات ١/١٩٥

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامة الرجلا

وسئل يحيى بن متّى راوية الأعشى — وكان نصرانياً عبادياً معمرا ، وكان يرى أن الأعشى قَدَرِىّ — : من أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك (١)

حـ — وقصروا علم الغيب على الله سبحانه وتعالى ، وأقروا بأنهم لا يستطيعون أن يعرفوا ما وراء المشاهد المحسوس من تصاريف القضاء .

قال زهير إن الله يعلم السر والنجوى :

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتُم كل مُقْسَم

فلا تكتمُنَّ الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَم (٢)

وقال المرقش الأكبر إن للزمن أحداثاً شتى ، وإن الله هو الذى يعلم الولود من العقيم ، فهذه يكثر أولادها ، وهذه عقيم لا ولد لها :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم

يهلك والد ، ويَخلُفُ مولو د ، وكل ذى أب يَيْتَم

والوالدات يستفدن غنى ثم على المقدار من يَعْقُم (٣)

وقال لبيد إن طَرق الحصاد وزجر الطير لا يكشف عما فى علم الله :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقال طرفة إن الله كتب فى اللوح ما يلقى كل شخص :

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه وخل الهوينا جانباً متنائيا

ولا يمنعْك الطير مما أردتَه فقد خُط فى الألواح ما كنتَ لاقيا (٤)

والأعشى يدين بأن الله علام الحقائق وخفايا النفوس :

---

(١) الاغانى ٧٦/٨ ساسى (٢) المعلقات السبع ٨٠ الزوزنى (٣) المفضليات ٣٩/٢
(٤) حماسة البحترى ٢٥٨

فإنى وما كلفتمونى بجهلكم ويعلم ربى من أعق وأحوبا
لكالثور والجنى يضرب ظهره وماذنبه إن عافت الماء مشربا[1]

وحاتم يقسم بالله عالم السر ويحيى العظام ، أنه كان يؤثر ضيوفه على نفسه :

أما والذى لا يعلم السر غيره ويحيى العظام البيض وهى رميم
لقد كنت أختار القرى طاوى الحشا محافظة من أن يقال : لئيم[2]

وهم بشر لا وسيلة لهم إلى استشفاف ما وراء حجب الغيب ، قال أحيحة ابن الجلاح :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل؟
وما تدرى وإن ألقحت شولا أتلقح بعد ذلك أم تحيل؟
وما تدرى إذا ذمرت سقبا لغيرك أم يكون لك الفصيل؟
وما تدرى وإن جمعت أمرا بأى الأرض يدركك المقيل[3] ؟

وقال المخبل السعدى :

وتقول عاذلتى وليس لها بغد ، ولا ما بعده علم[4]

وقال :

وما أدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى
ألخير الذى أنا ابتغيه أم الشر الذى هو يبتغينى[5]

وقد علق المثقب العبدى على إرادة الله ومشيئته فى قوله يصف ناقة :

وأيقنت ــ إن شاء الإله ــ بأنه سيبلغنى أجلادها وقصيدها[6]

ودان طرفة بأن القضاء بيد الله ، قال فى معلقته يخاطب مالكا بن عمه :

---

(١) حماسة البحترى ٣٥٢

(٢) الحماسة ٣١٢/٣ (٣) جمهرة أشعار العرب ٢٥٥ يعيل : يفتقر . الشول : الناقة التى تطلب اللقاح . ذمر : جس ولد الناقة . السقب : ولد الناقة (٤) حماسة البحترى ١٤١

(٥) حماسة البحترى ١٨٦ (٦) المفضليات ١٤٩/١ . أجلادها : جسمها . قصيدها : مخ عظامها ، يريد أنها ستبلغه غايته مابقيت فيها قوة

فلو شاء ربى كنتُ قيسَ بن خالد ولو شاء ربى كنتُ عمرو بن مرثد

فأصبحتُ ذا مال كثير وزارنى بنونٌ كرامٌ سادة لمسوَّد [١]

ء — والله سبحانه وتعالى هو الحى الباقى الذى يرث الأرض ومن عليها . قال الممزق العبدى داعياً إلى التهوين من شأن المال ، لأن المال لا بد أن يرثه الله الباقى :

هَوِّنْ عليك ولا تولَعْ بإشفاق فإنما مالنا للوارث الباقى [٢]

وقال لبيد :

ألا كل شىء ما خلا اللهَ باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هـ - وهم يؤمنون بيوم القيامة حيث تجزى كل نفس ما عملت ، وقد ذكرنا طرفا من عقيدتهم فى أن الله تعالى هو المالك للكون المتصرف فيه ، ولكن صرح بعضهم بذكر يوم البعث كما صرح أمية بن أبى الصلت ، قال علاف بن شهاب التيمى إن الله سيثيب عباده يوم الحساب على أعمالهم الطيبة :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخذت منه خطة المغتال

وعلمت أن الله جازٍ عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال [٣]

وقال لبيد :

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه إذا كُشِفَتْ عند الإله الحصائل

وإيمانهم بالبعث حملهم على الاستعداد له ، ومن عدتهم هذا التخيل العجيب الساذج : كانوا إذا مات الرجل شدوا ناقته إلى قبره وجعلوا رأسها إلى الوراء ، وغطوه بوَلِيّة (برذعة)، وتركوها حتى تموت أو تنفلت ، فإذا انفلتت لم يردوها عن ماء ولا مرعى ، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشرت مع الميت فيركبها فى الميعاد [٤] ، فإن لم يفعلوا ذلك حشر حافيا .

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى (٢) المفضليات ٢/ ١٠٠ (٣) بلوغ الأرب ٣/ ٣٠٤

(٤) صبح الأعشى / ٤٠٤ ومحاضرات الأدباء ٢/ ٧٤

ويورد الألوسى معنى آخر يغاير هذا فى أنهم يتركون البلية فى حفيرة لا تطعم ولا تشرب حتى تهلك ، ويقول إنهم ربما أحرقوها بعد موتها ، وربما سلخوها وملئوا جلدها ثماما ، وكانوا يزعمون أنه من مات ولم يُبْلَ عليه حشر ماشياً ، ومن كانت له بلية حشر راكبا عليها(١) . ويوافقه الفيروزابادى فيعرفها بأنها الناقة يموت ربها فتشد عند قبره حتى تموت ، كانوا يقولون ن صاحبها يحشر عليها ، ومن لم يفعل له ذلك حشر راجلا ، وهذا مذهب من يقول بالبعث من العرب وهم الأقل(٢) .

ويذكر صاعد الأندلسى أن الناقة كانت تنحر على قبر المتوفى ليحشر راكبا لا ماشيا(٣) .

قال جُرَيبَة بن الأشْيَم الفقعسى(٤) لابنه ، طالبا أن يحبس ناقته على قبره ليركبها يوم الحشر :

يا سعد إمّا أهلكنّ فإننى ... أوصيك ، إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركنّ أباك يحشر راجلا ... فى الحشر يصرع لليدين ويَنْكَبُ
واحمل أباك على بعير صالح ... وتق الخطيئة إنه هو أقرب
ولعل لى مما تركتُ مطيةً ... فى القبر أركبها إذا قيل : اركبوا(٥)

وقال عمرو بن زيد يوصى ابنه أن يبلو ناقته :

أبُنَىَّ زَوِّدْنى إذا فارقْتَنِى ... فى القبر راحلةً برحل قاتر
للبعث أركبها إذا قيل : اظعنوا ... متوثقين معـاً لحشر الحاشر
من لا يوافيه على عثراته ... فالخلق بين مُدَفَّع أو عاثر(٦)

وهذه عقيدة كانت مسيطرة على من يدينون بها ، ولذا أكثروا من الوصاة بحبس

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٤٠ (٢) القاموس المحيط مادة (بلى) وحاشيته (٣) طبقات الأمم ٤٤

(٤) القاموس المحيط مادة (جرب)

(٥) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل لابن حزم ٣/٢٣٠ وطبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٤ وذكر أن اسمه خزيمة

(٦) المرجع السابق ٣/٢٣٠ الرحل القاتر : اللطيف المتمكن من الظهر .

البلية على قبورهم ، وافتخروا بكثرة البلايا التى تركوها على قبور الأحباب ، قال عويمر النبهانى :

أبنىَّ لا تنسَى البلية ، إنها　　　لأبيك يوم نشوره مركوب

وفخر أعرابى بكثرة ما ترك على القبور من بلايا ، يريد أنه غنى يمتلك النوق ، وأنه لا يبقى عليها ، وأنه حَفِىٌّ بأهله مَعْنِىٌّ ببعثهم ركبانا يوم القيامة :

نجيبة قوم شادها القتُّ والنوى　　　بيــثرب حتى نيُّها متظاهر

فقلت لها : سيرى فما بك علة　　　سنامك مَلْحُومٌ ونابك فاطر

فمثلك أو خيراً تركت رَزِيَّةً　　　تُقَلِّبُ عينيها إذا مَرَّ طائر[1]

وشبه أبو زيد الطائى بالبلايا رجالا أثر فيهم الغزو فقال :

بدَّل الغزو أوجهَ القوم سُوداً　　　ولقد أبدءوا وليست بسود

فى ثياب عمادهن رماح　　　عند جوع يسمو سُمُوَّ الكبود

كالبلايا رءوسها فى الولايا　　　مانحاتِ السَّموم ِسُفْعَ الخدود[2]

و — وأما شعائر اليهودية والنصرانية فقد ترددت فى شعر كثيرٍ منهم :

(١) على سبيل الحلف :

حلف عدى بن زيد بالله وبالصليب ، قال يخاطب النعمان :

سَعَى الأعداء لا يألون شرّاً　　　عليك وربِّ مكة والصليب

وحلف الأعشى بمسوح الرهبان وبالكعبة :

حلفت بثوبَىْ راهب الدَّيرِ والتى　　　بناها قُصَىٌّ والمُضاضُ بن جُرْهُمُ

(٢) على سبيل التشبيه والتصوير واستمداد المعانى :

وصف لبيد رجلا غلبه النعاس فشبهه باليهودى المصلى :

يَلْمِسُ الأحلاسَ فى منزله　　　بيــديه كاليهودىِّ المصلى

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ القت : نبات جاف ترعاه الإبل . النى : الشحم . فاطر : ظاهر . رزية : بلية

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٩٠ وجمهرة الأمثال لأبى هلال ١٩٣

أى يطلب الأكسية الرقاق التى توضع على ظهر البعير تحت الرحل ، ويتحسسها بيديه وهو لا يحس بها من غلبة النوم .

وشبه أوس بن حجر سنان رمحه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفصح :

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّه ... بفِصْحٍ ويحشوه الذُّبالَ المفتَّلا

وشبه عدى بن زيد زجاجة الخمر التى صبح بها ضيفانه بقنديل الكنيسة المجلو المنير فى عيد الفصح :

بَكَرُوا علىّ بسُحْرَةٍ فَصَبَحْتُهُم ... بإناء ذى كَرَمٍ كَقَعْب الحالب

بزُجاجةٍ ملء اليدين ، كأنها ... قنديل فِصح فى كنيسة راهب

وتصور امرؤ القيس وضاءة وجه حبيبته مصباح راهب :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة مُمْسَى راهب متبتل

وشبه ضوء البرق بمصابيح الرهبان التى أميلت فتائلها لأنها ريا بالزيت :

أصاحِ تَرى برقاً أريك وميضه ... كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مكلَّل

يضىء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السَّليطَ بالذُّبال المفتَّل(١)

وقد وصف مُزَرِّد بن ضرار الذبيانى البيضة والحلق المتصل بها الذى يُطرح على الظهر لستر العنق ، فقال إن بيضته يمنية سلسة ملساء لينة تنزلق الحجارة عنها ، وشبه لمعانها فى شعاع الشمس بمصابيح الرهبان تلمع :

وتَسْبِغَةٌ فى تَرْكَةٍ حِمْيَرِيَّة ... دُلامِصَه تَرْفَضُّ عنها الجنادل

كأن شعاع الشمس فى حَجراتها ... مصابيح رهبان زهتها القناديل(٢)

وشبهوا بنواقيس الكنائس ، قال المرقش الأكبر إن أصوات البوم فى هدأة الليل تشبه قرع النواقيس :

---

(١) ديوان امرىء القيس

(٢) المفضليات ١/٩٦ . تسبغه : زرد مشتبك الحلقات متصل بالبيضة يطرح على الظهر لستر العنق . تركة : بيضة مستديرة . دلامصة : سلسله لينة . حجرات : جوانب

وتسمع تَزْقاءً من البوم حولنا ... كما ضُرِبَتْ بعد الهدوء النواقس (١)

ويقول جواس بن القعطل إن الشعرى تتلألأ كالقناديل فى الكنائس :

وأعرضت الشعرى العَبُور كأنها ... معلّق قنديل عليه الكنائس (٢)

وهم شبهوا الحسان بدمى الكنائس ، قال عدى بن زيد العبادى :

كَدُمَى العاج فى المحاريب أو كالـ ... ـبَيْض فى الروض زهره مستنير (٣)

وشبهوا بالصلبان ، قال بشر بن أبى خازم :

لله دَرُّ بنى حَدَّاءَ من نَفَرٍ ... وكلُّ جار على جيرانه كَلِبُ

إذا غَدَوْا وَعِصِىُّ الطلح أرجُلُهم ... كما تَنَصَّبُ وسط البيعة الصُّلُبُ (٤)

أى أنهم عرج ، ولذا تشبه أرجلهم عصى الطلح ، وهى دائما معوجة .

(٣) الكواكب

وكان منهم عباد الشّمس يسجدون لها إذا أشرقت وإذا توسطت السماء وإذا غربت ، ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى هذه الأوقات . وقد عبدتها ثمود ، ثم عبدتها تميم ، يقول بروكلمان عن سجاح : « حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبى سارت مع عدد كبير من أتباعها إلى أنسبائها من قبيلة تميم ، الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافى أدنى من مستوى غيرهم من العرب ، فهم يؤلهون الشمس على الخصوص » (٥)

وعبدها أيضا عرب من حمير قبل أن يتهودوا ، ومنهم بلقيس : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » .

وبعض قبائل من كنانة عبدت القمر ، وعبدت تميم الدَّبَران ، وعبدت لخم

---

(١) المفضليات ٢/٢٥ (٢) المؤتلف والمختلف ٧٤ (٣) البيان والتبيين ١/٥٤

(٤) البيان والتبيين ٣/٥٣ (٥) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧

جذام المشترى ، وعبدت طيء سهيلا ، وعبدت قيس الشعرى العبور ، وعبدت أسد عطاردا[١] .

ومن عباد الكواكب الصابئة ، وهم يعتقدون فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات ، فلا يتحركون ولا يسكنون ولا يسافرون ولا يقيمون إلا بنوء منها .

ومن آثار عبادتهم الكواكب أنهم سموا بأسماء مضافة إليها بالعبودية ، كعبد شمس وعبد المشترى وعبد الشارق .

وسموا الشمس إلهة ، قال الشاعر :

تَرَوَّحْنَا من اللُّعْباء عصراً وأعجَلْنا الإلهة أن تئوبا[٢]

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذف بها إلى الشمس قائلا : « أبدليني بها سنا أحسن منها ، ولتجْرِ فى ظَلْمِها أياتك » أو إياؤك ، والكلمتان معناهما شعاع الشمس ، وزعموا أنه إذا فعل ذلك أمن على أسنانه العوج ، وما زال الصغار يفعلون ذلك إلى الآن غير متأثرين بعبادة الشمس . وفى هذا البريق الذى تجريه الشمس فى الأسنان يقول طرفة واصفا ثغر محبوبته : إن أسنانها براقة سقاها شعاع الشمس ، وهى أسنان صحيحة غير مثلمة ، لأنها لم تضغط على شىء يثلمها ، ولثتها وشفتها فيهما حُوة ، كأنما ذر عليهما كحل ، والعرب يستملحون حُوّة الشفة واللثة :

سقته أَيَاةُ الشمس إلا لثاته أُسِفَّ ـ ولم تَكْدِمْ عليه ـ بإثْمِدِ[٣]

وقال شاعر آخر :

وأشنبَ واضحٍ عذب الثنايا كأن رُضابه صافى المُدام
كسته الشمس لوناً من سناها فلاح كأنه برق الغمام

وقال طرفة فى الأسنان :

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٣

(٢) تروحنا : رجعنا . اللعباء : اسم مكان . أعجلنا : سبقنا (٣) ديوان طرفة ٣٢

بدلته الشمس من منبته بَرَداً أبيض مصقول الأُشُر [١]

وقال آخر :

بذى أُشُرٍ عذب المذاق تفرّدت به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا

(٤) النار

وعبد بعضهم النار ، ولعل هذه العقيدة سرت إليهم من الفرس المجوس .

وعباد النار يفضلونها على التراب ، ويصوبون رأى إبليس فى استكباره أن يسجد لآدم ، ورُوى أن بشار بن برد كان على هذا المذهب لقوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار

وربما كان مذهب إحراق الموتى بالنار إلى الآن امتداداً للمذهب القديم الذى كان يتقرب إلى النار بالنفس والولد .

وقد تمثلت عبادة النار فى هذه المظاهر :

١ — حلفوا بها فكانت لهم نار باليمن لها سدنة ، فإذا تفاقم أمر بين قوم فحلفوا بها انقطع ما بينهم من تعاد ، وسموها الهَوْلة والمُهوِّلة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه من الحلف بها ، ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت ، فإذا وقع فيها استشاطت وتنفضت ، فيقول له : هذه النار قد تهددتك . فإن كان مذنبا نكل ، وإن كان بريئا حلف [٢] وقال الطبرى : « وكان باليمن فيما زعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم » [٣] .

قال أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صَدَّ عن نار المهوِّل حالف [٤]

---

(١) ديوان طرفة ٦٥

(٢) أبيات المعانى . (٣) تاريخ الطبرى ٢/٩٦ (٤) الديوان ١٦ والبيان والتبيين ٣/٦

وقال الأول :

حلفت بالملح والرماد وبالنـ ـار وباللّه نُسْلِمُ الحلقة

حتى يظل الجواد منعفراً ويخضب النبل غرة الورقه(١)

وقال آخر

حلفت لهم بالملح والجمع شُهّد وبالنار واللات التي هي أعظم(٢)

وقال أفنون التغلبي :

لو أنني كنت من عاد ومن إرم رُبّيت فيهم ولقمان ومن جدن

لما فدوا بأخيهم من مهوّلة أخا السكون ولا جاروا على السنن(٣)

وقد أشار إليها الكميت في العصر الأموي :

كهولة ما أوقد المحلفو ن لدى الحالفين وما هوّلوا(٤)

وقال :

هم خوفونا بالعمى هوة الردى كما شب نار الحالفين المهوِّل

ب — وتحالفوا على النار كما تحالفوا على غيرها مما أسبقنا في الحياة الاجتماعية (الحلف والجوار) يذكرون عند المحالفة منافع النار ويدعون إلى الله عز وجل بالحرمان والمنع من هذه المنافع على الذي ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد ، ويقولون في الحلف : الدم الدم ، الهدم الهدم ، (أي ما هدم لكم من بناء أو شأن فقد هدم لنا ، وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا) لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا مدا ، وما بل البحر صوفة ، وما أقام رضوى في مكانه — إن كان جبلهم

---

(١) البيان والتبيين ٣/٦ وفي الأغاني ٢٠/١٣٩ أن الشعر للأعشى :

حلفت بالملح والرماد وبالشـ ـعرى وباللات تسلم الحلقة

حتى يظل الهمام منجدلا ويقرع النبـل طرة الدرقة

(٢) المرجع السابق ٣/٧

(٣) المفضليات ٢/٦٢ أخا السكون أسير من قبيلة السكون اليمنية كان عند قوم أفنون

(٤) البيان والتبيين ٣/٦

رضوى — وكل قوم يذكرون جبلهم أو المشهور من جبالهم ، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم[١]

وربما سرى ذلك إليهم من المجوسية الفارسية القائمة على عبادة النار . وابن عبد ربه يفسر قول الأعشى فى مدح المحلق :

رضيعى لبان ثدى أم تحالفا   بأسحم داج عوض لا نتفرق

بأنهما تحالفا على الرماد كما يفعل الفرس . وإذا كان التحالف على الرماد من تأثير الفرس ، فالتحالف على النار نفسها أحق بأن يكون من تأثيرهم ، على أنى أفضل تفسير الأسحم بدم الحالف كما نص القاموس واللسان .

حـ — واستمطروا بها :

كانوا إذا أكدت السماء فأجدبوا استمطروا بربط السَّلَع والعُشَر بأذناب البقر وأضرموا فيها النار .

ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يجمعون ما يقدرون عليه من البقر ، ثم يعقدون فى أذنابها وبين عراقيبها السَّلع والعُشَر ، ثم يصعدون بها فى جبل وعر ويشعلون فيها النيران ويضجون بالدعاء والتضرع ، ويرون أن ذلك من أسباب السقيا[٢]

ويتابعه الألوسى فيذكر أنهم كانوا يدعون الله ويستسقونه[٣]

ولكن لا علاقة بين إحراق البقر على هذه الصورة وبين دعائهم الله تعالى ، فهل لهذا العمل علاقة بعبادة النار ؟ ما أظن هذا ، إذ لو أن له بها صلة لأشعلوا نارا ودعوا حولها مثلا .

وعلل بعضهم لذلك بأن الهند تعبد البقر ولها عندهم حرمة ، ولهم بها تبرك فربما حذا العرب حذوهم[٤] ، ولكنى لا أرى ذلك صحيحاً ، لأن بعض الهنود يعبدون البقر ويحرصون على سلامتها ، وشتان بين هذا وإحراق العرب لها فى استمطارهم .

---

(١) الحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ وأديان العرب للنجيرى الكاتب مخطوط

(٢) الحيوان ٤/١٥٠ (٣) بلوغ الأرب ٢/٣٣٣

(٤) بلوغ الأرب ٢/٣٣٤

والذى أراه أنهم كانوا يتفاءلون بالنار طلبا للبرق ، أو أنهم كانوا يحاكون عبادة قديمة تقرب الأبقار قربانا للآلهة .

وقد سجل أمية بن أبى الصلت هذه الخرافة فى شعره :

سَنَةٌ أزمة تُخيِّل بالناس ترى للعِضَاه فيها صريرا
إذ يَسُفُّون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئًا فطيرا
ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشيةً أن يبورا
عاقدين النيران فى شُكُر الأذناب عمدا كيما تهيج البحورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صَبِيرٍ صبيرا
فرآها الإله تُرْشَم بالقَطْرِ وأمسى جنابهم ممطورا
فسقاها نشاطه واكفُ النبت مِنْهُ إذا وادعوه الكبيرا
سَلَعٌ مَا ومثله عُشَرٌ مَا عائل مَا وعالت البيقورا (١)

وسخر أعرابى آخر بهذا العمل ، وذكر أن المطر بيد الله ينزله متى شاء :

شفعنا بيقور إلى هاطل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا
فعدنا إلى رب الحيا فأجارنا وصيَّر جدب الأرض من عنده خصبا (٢)

وقال آخر :

لا كسونا الأرض أذناب البقر بالسَّلَع المعقود فيها والعُشَر

وعجب الوردل الطائى من الذين يستمطرون بهذه الأبقار المحروقة ، ويجعلونها وسيلة بينهم وبين الله تعالى :

لادَرَّ دَرُّ رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعُشَر
أجاعل أنت بيقورا مُسَلَّعَةً ذريعة لك بين الله والمطر ؟ (٣)

---

(١) ديوان أمية ٤٥ Fridrick Schulthets والحيوان ٤/١٥٠ تخيل بالناس : تفزعهم . العضاه : جمع عضاهة أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذات شوك . باقر وبيقور : البقر . شكر الأذناب : جمع شكير الشعر فى الذيل . الصبير : السحابة البيضاء أو الكثيفة . منه . بالغ الغاية . عائل : مثقل أو كاف ونافع . عال : أثقل ، ويروى غال بمعنى أهلك

(٢) بلوغ الأرب ٢/٣٠٢ (٣) الحيوان ٤/١٥٠

والثنوية طائفة من الزنادقة ، قال ابن قتيبة[1] إنهم أخذوا الزندقة من الحيرة وهم المعتقدون بالثنوية ، أو القائلون بإله النور وإله الظلام ، وهما إلها الخير والشر ، وكانت هذه العقيدة فى تميم ، ومنهم زرارة بن عُدُس وابنه حاجب ، وقد تزوج حاجب بنته كما قيل ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس الذى أسلم وحسن إسلامه .

(٥) الملائكة والجن

وقِلّةٌ من العرب عبدوا الملائكة والجن ، وقد حكى القرآن الكريم حالهم : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » . وهم الذين عجبوا أن يكون الرسول بشراً مثلهم وأرادوا أن يكون ملكا ، قال تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ »

قال أمية بن أبى الصلت يتبرأ من عبادة الجن :

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم   وأنت إلهى ربنا ورجائيا[2]

(٦) الشجر

وقد عبد بعضهم الشجر كما عبدوا الصنم ، وهم فى هذا وذاك يعتقدون أن قوة إلهيــة حلت فى المعبود ، كما اعتقد قدماء المصريين فى العجل أبيس . فكان الإله عثتر يعبد فى الأصل لا بوصفه إله الزهرة بل بوصفه إلها أرضيا ، إله سقى النخل وجنى الثمار والخصب والنتاج ، وهذا ظاهر مما ورد فى النقوش المعينية من ألقاب ونعوت ، كان يوصف بها فمن ذلك أنه كان يدعى واهب الماء وجانى الثمار وجامع الحصاد ، فهو من أقدم الآلهة التى عبدت فى جزيرة العرب ، وقد انتقلت عبادته إلى جميع أنحاء العالم السامى »[3]

---

(١) المعارف   (٢) ديوان أمية ٣٨

(٣) النظم السياسية والاجتماعية ١٢٥ — ١٢٦

ثم عبد الإله عثتر في صورة مؤنث على أنه إلهة لا إله ، فكانت عثتر إلهة الخصب والنتاج ممثلة في النخل والماء ، وقد وردت بهذا المعنى في النقوش المعينية ، وكانت تدعى في البابلية منتجة الخضرة والنبات . وقد قرنت بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قديم الزمان ، حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من خشب ، كما ورد مراراً في التوراة . وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عن الأغصان ، وكان الساميون يعتقدون أن هذه الإلهة وما شاكلها تسكن جذع الأشجار ، وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ظهور الإسلام[1]

وقد سميت في شمال الجزيرة بأسماء أخرى ، منها العزّى ، وقد اعتقدوا أن العزى شيطانة « تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : إيت بطن نخلة ، فإنك تجد ثلاث سَمُرات ، فاعضد الأولى . فأتاها فعضدها ، فلما جاء إليه قال : هل رأيت شيئا ؟ قال لا . قال : فاعضدْ الثانية ، فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثالثة ، فأتاها ، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها ، تَصرِف بأنيابها ، وخلفها دُبيَّة بن حَرَميّ الشيباني — وكان سادنها — فلما نظر إلى خالد قال :

أعُزَّامُ شدى شدة لا تكذّبي على خالد . ألقى الخمار وشمّرى
فإنك إلا تقتلي اليوم خالدا تبوئى بذل عاجلا وتنصّرى

فقال خالد : يا عز كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد أهانك ثم ضربها ففلق رأسها فاذا هي حُمَمَة ، ثم عضد الشجرة وقتل دُبيَّة السادن ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : « تلك العزّى ، ولا عُزّى بعدها للعرب ، أما إنها لن تعبد بعد اليوم »[2]

---

(١) النظم السياسية والاجتماعية ١٣٣ — ١٣٥
(٢) الأصنام ٢٥ — ٢٦

ولست أورد هذه القصة مؤمناً بتفاصيلها ، وإنما أذكرها لبيان الأثر الذى كان للعزى فى نفوس العرب .

وفى رثاء دُبية يقول أبو خراش الهذلى .

ما لدبيةَ منذ اليـــوم لم أره   وَسْط الشُّروب ولم يُلْمِمْ ولم يَطُفِ
لو كان حيا لغاداهم بمُتْرَعة   من الرَّواويق من شيزَّى بنى الهَطَف
ضخم الرَّماد ، عظيم القدر جَفْنَتُه   حين الشتاء كحوض المنهل اللَّقِفِ
أمسى سُقَامُ خلاءً لا أنيس به   إلا السباعُ ومَرُّ الرّيح بالغَرَفِ (١)

ولم تكن هذه السمرات إلا من الطلح الشائك ، لا يظل ولا يثمر ولا ترعاه الإبل إلا إذا عضها الجوع ، لأنها تسقم منه ، ولكن سلطانها ظل إلى ما بعد الإسلام ، يدل على ذلك قول المعرى فى رسالة الغفران : وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

وقد ذكرها المعرى فى شعره للدلالة على أثر الحظ فى الحياة :

والجَدُّ يدرك أقواما فيرفعهم   وقد يُنال إلى أن يُعْبَد الحجرا
وشرّفت ذاتَ أنواط قبائلها   ولم تباين على علاتها الشجرا

وقال ابن الأثير فى سبب تسميتها : إنها سميت بذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها .

وكان أهل نجران قبل اعتناقهم المسيحية — يعبدون نخلة طويلة لها عيد فى كل سنة ، فاذا كان العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه ، وحلىّ النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوما(٢)

---

(١) الأصنام ٢٤ الشروب : القوم يشربون . الشيزى : الأبنوس أو خشب الجوز . بنو الهطف : من كنانة أو من أسد وهم أول من نحت الجفان . اللقف : الحوض الذى لم يحكم بناؤه فيتهور من أسفله أو يعفر وهو مملوء فيحمل عليه الماء فيفجره . الغرف : ورق الشجر أو الثمام أو مادام أخضر

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٢

ولم ينفرد العرب بعبادة الشجر ، « فقد كان الإسرائيليون يعتقدون أن الشجر ينطق ويتكلم ، ويفعل ما يفعل الإنسان »[١]

(٧) الدهريون

وكان منهم دُهريون ، حكى الله تعالى عقيدتهم بقوله : « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، فهم ينكرون الخالق والبعث والجزاء ويرون أن العالم لا يخرب ولا يبيد وإلا كان مخلوقاً مبتدعا[٢]

قال قائلهم :

منع البقاءَ تقلبُ الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها حمراء صافية ... وغروبها صفراء كالوَرْس
تجرى على كبد السماء كما ... يجرى حمام الموت فى النفس
اليوم أعلم ما يجئ به ... ومضى بفصل قضائه أمس[٣]

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس يرثى كفار قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأنْ سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام ؟

والصدى الطائر الذى يطير بالليل ، والهامة جمجمة الرأس ، وهى التى يخرج منها الصدى بزعمهم ، وزعموا أن روح القتيل الذى لا يدرك بثأره تصير هامة فتزقو وتقول اسقونى ، وإذا أدرك بثأره طارت فذهبت .

وقد عبد الأسبذيون الخيل بالبحرين[٤]

وعبدت طيء الجمل الأسود ، فقد وفد زيد الخير (الخيل) بن مهلهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عدة من طيء ، فلما رآهم قال لهم : إنى خير لكم من من العزى ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله عز وجل[٥]

---

(١) سفر القضاة إصحاح ٩ آية ٨ عن النظم السياسية والاجتماعية
(٢) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٤ (٣) بلوغ الأرب ٢/٣٤٢
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ٨٥ (٥) الأغانى ١٦/٤٧

الباب الخامس

العادات والمعتقدات من الشعر

للشعوب أوهام وخرافات تجافى التفكير والعلم ولكنها ينبوع لطمأنينة معتقيها وسعادتهم ، وإذا كان العلم قد كشف نوره عن زيف الخرافات العامة ، « فإنه لا شيء يستطيع أن يعيد لنا تلك الأوهام التي فرت أمام نوره »[1] . ولا غنى لشعب عن الأوهام لأنها بنات الغرائز[2]

وقد سيطرت الأوهام على الناس قرونا على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الأولى، حتى أن المثقفين والممتازين برجاحة العقل رسفوا في قيودها ألفى عام وكان أصحاب العقول النيرة كثيرين في القرون الوسطى وزمن النهضة ولكن لم يهتد أحدهم إلى ما في أوهامه من الشطط[3] ، وهذه الأمم الأوربية قد دانت لأقاصيص واعتقدت أنها حق لا شك فيه نحو خمسة عشر قرنا كأقاصيص مولوخ . وهكذا بقى العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائمة القائلة بأن إلها أذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه[4]

وإنما تشيع الأوهام في الشعوب لأن الناس يتشابهون فيما يرجع إلى اللاشعور والغرائز وإن اختلفت طبقاتهم ، فهم يتشابهون في الوجدان والشهوات والمشاعر . وإذا كانت الفلسفة قد سارت إلى الأمام شوطا بعيدا فإنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها ، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام .

وفي الجماعات نزعات تتيح للخرافات والأوهام أن تذيع ، ذلك بأن الجماعة سريعة التصديق والاعتقاد ، وأخضع للتخيلات من الأفراد ، وكثيراً ما تخطىء الجماعة في

---

(١) روح الاجتماع . جوستاف لوبون ١٥ (٢) روح الاجتماع ١٤٥

(٣) روح الاجتماع ١٤٤

(٤) روح الاجتماع ١٨٤ . مولوخ : إله عبده الكلدانيون وأهل قرطاجة وكانوا يحرقون أطفالهم قرباناً له ويعتقدون أنه يمد ذراعيه دائما ليتلقاها .

تفكيرها وتعقلها وقياسها ، وهذه أمور سهلت على الأوهام العربية الجاهلية أن تنتشر . فما هو إلا أن ينتقل الوهم أو الخرافة من رجل إلى آخر ومن امرأة إلى أخرى حتى يعم تصديقه بتأثير العدوى . وكان تكرير الشعراء لهذه المعتقدات ناشراً لها ومؤكداً ، حتى ظلت قروناً ذات سلطان على النفوس ، بل ظل بعضها قوى الأثر إلى اليوم . وسنعالج فى هذا الفصل صلة الشعر الجاهلى ببعض العادات كالخمر والميسر ، ثم بكثير من المعتقدات المؤسسة على وهم وخرافة ؛ لنرى أنه سجل صالح لتصوير هذا اللون من ألوان الحياة .

ولست أشك فى أن بعض ما أوردته فى الباب السابق كحبس البلايا والقرابين للأصنام مرده إلى الوهم والخرافة ، ولكنى جعلته من الحياة الدينية لأنه وثيق الصلة بالدين ومنبعث عنه ، فهو نوع من العبادة ، أما هذا الباب فيدور على المعتقد الخرافى والعادة .

(١) الخمر

لماذا أولعوا بها ؟ مظاهر ولعهم بها . مجالسها . أثرها . المحرمون لها

١ — لماذا أولعوا بها ؟

١ — أغرم بها العرب متحضرين ومتبدين ، فشربوها ، وافتخر الشعراء بمعاقرتها وبذل الأموال فى سبائها .

أولعوا بها ليزجوا فراغهم الطويل الممل ، ولتزيدهم حمية وحماسة فى الحرب فإنهم «كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة»(١) وحتى بعض المسلمين قد اصطبحوا بالخمر يوم بدر لتزيد حماستهم اشتعالا (٢) ، وقد كان الفرس يحتسون الخمر قبل أن يخوضوا الغمرات . ثم إنها تولد خيالات سارة وتبعث فى القلب جرأة .

(٢،١) الأشربة لابن قتيبة ص ٢٨ — ٢٩

يقول حسان بن ثابت فى جاهليته :

ونشربها فتتركنا ملوكا　　وأسْـــدًا ما يُنَهْنِهُنا اللقاء

ورأوا أنها باعثة على الكرم ، يقول عمرو بن كلثوم :

ألا هبى بصحنك فاصبحينـا　　ولا تبقى خمور الأندرينا

مشعشعة كأن الحُصَّ فيهـا　　إذا ما الماء خالطها سخينـا

تجور بذى اللُّبانة عن هواه　　إذا ما ذاقها حتى يلينـــا

ترى اللَّحِـز الشحيح إذا أُمِرَّت　　عليه لمـاله فيهـا مُهينا (١)

٢ — ثم استهانوا بالحياة لكثرة حروبهم ، وتوقعهم الفجيعة فى أنفسهم وأحبائهم فانكبوا على لذات الحياة يعلون منها وينهلون ، وهذه خلة ما زالت إلى الحرب القريبة ، وكانت فى كل حرب حتى قالوا إن أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجرى فى الثورة الفرنسية .

ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سَبَى وغنم وظفر ، فيصب الخمر بهجة ونشوة وجلبة للزهو المضاعف ، ومغلوب كُسِر ، وسُلب ماله ، وأسرت نساؤه ورجاله وفجع فى أحبائه ، فأظلمت حياته ، وضاق بالدنيا وضاقت به ، فيلوذ بالخمر يتناسى بها همه ملاوة من الزمن .

قال أبو حفص القُرَيعى إنه قد هجر النبيذ مذ اقتنى المعزى ، وشرب لبنهن المذيق ، فوجده يوجع بطنه ، ووجد النبيذ كان صديقه ، لأنه يحقق له فى الخيـال ما يشتهى ، ويسل الأحزان من النفس فى رفق :

قد هجرت النبيذ مُذْ هُنَّ عندى　　وتَمَزَّزْت رِسْلهن مَذيقا

فوجدت المذيق يوجع بطنى　　ووجدت النبيذ كان صديقا

يَعِـــدُ النفسَ بالعشىِّ مناها　　ويَسُلُّ الهموم سَلًّا رفيقا (٢)

---

(١) شرح القصائد العشر التبريزى ٢١٨ . أندرين : قرية بالشام قريبة من حلب . مشعشعة : رقيقة من العصر أو المزج . الحص : الورس . سخينا : إما حال من الماء وإما فعل بمعنى كرمنا . اللحز : البخيل اللئيم

(١) البيان والتبيين ٣/٢٠٦ تمززت : تمصصت . مذيق : لبن ممزوج بالماء .

وقال المنخل اليشكري :

فإذا انتشيت فإنني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير (١)

٣ — وهم يرون الموت يتخرم الأعمار ، ويختطف الأحباب ، ويذرى الآمال ، فليستمتعوا فى حياتهم القصيرة بما يملكون قبل أن يحتويهم التراب . وقد عبر طرفة ابن العبد عن هذه النزعة خير تعبير :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدد
ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى — وجدك — لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد (٢)

وذكر الجاحظ أبياتا لشاعر قديم تمثل الاتجاه نفسه ، اتجاها إلى الشبع من لذات الحياة والخمر قبل أن يدركه الموت :

قومى اصبحينى فما صيغ الفتى حجرا لكن رهينة أحجار وأرماس
قومى اصبحينى فإن الدهر ذو غير أفنى لقيما وأفنى آل هرماس
اليوم خمر ، ويبدو فى غد خبر والدهر من بين إنعام وإبآس
فاشرب على حدثان الدهر مرتفقا لا يصحب الهم قرع السن بالكاس (٣)

ويرى سحيم بن وثيل الرياحى أن الخمر هى الثناء والفخار ، وأن المال لا يكفل

(١) معجم الشعراء ٣٨٧ والحماسة ١/٢١١ (٢) المعلقات العشر . الشنقيطى ٧٤
(٣) البيان والتبيين ١/١٦٤ هرماس : نهر نصيبين . أرماس : قبور

له الخلود فليفقه فيها ، ولولا الخمر ما حرص على الحياة وما تألم من أن يضمه لحد ، لأن الخمر هي الحياة واللهو والمتعة ، وليست زوجه ولا ماله ولا أولاده بمتعة :

تقول حدراء ليس فيك سوى الخمـ ـر معاب يعيبه أحـد
فقلت أخطأت ، بل معاقرتى الخمـ ـر وبذلى فيها الذى أجد
هو الثناء الذى سمعت به لا سبد مخلدى ولا لبد
ويحك لولا الخمور لم أحفل العيـ ـش ولا أن يضمنى لحد
هى الحيـا والحياة واللهو ، لا أنت ولا ثروة ولا ولد (١)

٤ — ثم هم شغفوا بالخمر فى مجامعهم الفرحة فى الأعراس والأعياد ، وفى مجامع التحالف ، وقدموها قرى للضيفان .

قال الأسود بن يعفر النهشلى :

ولقد لهوت ـ وللشباب لذاذة ـ بسلافة مزجت بماء غوادى
من خمر ذى نطف أغن منطق وافى بها لدراهم الإسجاد
يسعى بها ذو تومتين مشمر قنأت أنامله من الفرصـــاد (٢)

وكانت الخمر على ما أحسوا لها من آثار نفسية وجسمية مفخرة من مفاخر القادرين عليها ، يجمع الرجل ندماءه فيسقيهم وينحر لهم ، قال البرج بن مسهر بن الجلاس :

وندمان يزيد الكأس طيبا سقيت إذا تعرضت النجوم
رفعت بكأسه وكشفت عنه بمعرقة ملامة من يلوم
فلما أن تنشى قام خرق من الفتيان مختلق هضـــيم
إلى وجناء ناوية فكاست وهى العرقوب منها والصميم
فأشبع شربه وجرى عليهم بإبريقين كأسهما رذوم

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٠٥

(٢) المفضليات ٢/١٨ الغوادى : السحب الناشئة غدوة . نطف : جمع نطفة بفتحتين وهى القرط . منطق : غلام عليه نطاق . الإسجاد : السجود ودراهم الإسجاد هى دراهم الأكاسرة كانت عليها صور يسجدون لها تومتين . لؤلؤتين . قنأت . اشتدت حمرتها حتى مالت إلى السواد . الفرصاد : التوت

تراها في الإناء لها حُمَيًّا كُمَيتًا مثل ما فَقَعَ الأديم
فبينا بين ذاك وبين مسكٍ فيا عجباً لعيش لو يدوم(١)

وكان شربها عند الملوك مفخرة كبرى، لأن الذين ينادمون الملوك هم الطبقة العليا، قالت خِرْنق في رثاء زوجها بشر بن عمرو الذي قتله بنو أسد في يوم قُلاب:

فكم بقُلاب من أوصال خِرق أخي ثقة، وجمجمة فَليق
ندامى للملوك إذا لقوهم حَبَوا وسُقوا بكأسهم الرحيق(٢)

٥ — وتقديم الخمر للضيف كرم بلغ الغاية، وجمع الفتيان لشربها مفخرة. رووا أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر جمع قومه عند ماء النظيم ليصلح بينهم، فحضروا وتخلف عامر بن الطفيل، فنال منه علْقمة بن عُلاثة وشتمه — وكان يبغضه — وسمع عامر مقالته، فجاء وقال في الجمع: «لم تُقرون شتمى بينكم ؟ .. وما حبسنى عنكم إلا خمر قدم بها، فسبأتها، وجمعت لها شباب الحي، فخشيت أن أدعهم فيتفرقوا، حتى أنفدتها»(٣).

ب — مظاهر ولعهم بها

١ — افتخر عنترة في معلقته بشرب الخمر بعد اشتداد الحر، في قدح مجلو منقوش، أو اشتراها بدينار مجلو منقوش، وشربها من زجاجة صفراء مخططة، ومعها إبريق أبيض مسدود الفوهة بالفِدام (المصفاة) وأنه يستهلك ماله في سكره حفيظاً على عرضه، يَكْرُم سكران ويكرم مُفيقا:

ولقد شربت من المُدامة بعد ما رَكَد الهواجر بالمَشُوف المُعْلَمِ
بزجاجةٍ صفراءَ ذات أَسِرَّةٍ قُرِنت بأزهر بالشِّمال مُفَدَّمِ

(١) معجم الشعراء ٩٢ والمؤتلف والمختلف ٦٢ خرق: سخي ظريف. مختلق: تام الخلق معتدله. ناوية: سمينة. كابست: مشت على ثلاث قوائم وهي معرقبة. رذوم: ممتلئة تفيض. فقع: أحمر.
(٢) ديوان خرنق ١٦ مخطوط بدار الكتب
(٣) مقدمة ديوان عبيد وعامر Lyall ١٩

فإذا سكرت فإنني مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يُكْلَم
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندى وكما علمتِ شمائلى وتكرمى (١)

وافتخر الأسود بن يعفر بمبادرته إلى شربها :

وقهوة صهباء باكرتها بجُهمةٍ ، والديك لم ينْعَب (٢)

وافتخر المرقش الأكبر بأنه قدير على امتلاك الحسان ، وعلى احتساء الخمر الرَّوِيَّة الجيدة التى يشتريها بماله ، قال لحبيبته خُوَيْلة .

يا خَوْلُ ما يدريكِ رُبّتَ حُرّة خَوْدٍ كريمةٍ حيِّها ونسائها
قد بتُّ مالكها وشاربَ رَيّة قبل الصباح ، كريمةٍ بسبائها (٣)

وقال لبيد فى معلقته يخاطب حبيبته : أنت لا تعلمين كثرة ليالىّ الطيبات التى استلذذت فيها لَهْوى ومنادمتى للكرام ، أبيت أحدثهم . وأنت لا تعلمين كم من راية خمار قصدتها حين نُصبت ، واشتريت الخمر غالية لندماى ، من كل زق مُقَيّر أو خابية مُقَيَّرة ، قد فض ختامها فتلألأت ، وإنى لأصطبح بها قبل أن يصحو الدجاج :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طَلْقٍ لذيذٍ لَهْوُها ونِدَامها
قد بت سامرها ، وغايةِ تاجر وافيتُ إذ رُفعت وعَزَّ مُدَامُها
أُغْلِى السِّباءَ بكل أدكنَ عاتقٍ أو جَوْنةٍ قُدِحت وفُضَّ ختامها
بادَرْتُ حاجتَها الدجاجَ بسُحْرة لأُعَلَّ منها حين هَبَّ نيامها (٤)

وهذا طرفة بن العبد يجاهر فى معلقته بولعه بالخمر ، ويفخر بأنه سيد يشترك مع قومه فى مهامهم ، وخِرِّيتٌ حلس خمارة وخمار :

فان تبغنى فى حلقة القوم تلْقَنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تَصْطَدِ

---

(١) المعلقات العشر ١١٦ المشوف المعلم : الدينار المجلو أو الكأس . ذات أسرة : ذات خطوط . أزهر : إبريق من فضة . مفدم : مسدود بخرقة أو عليه مصفاة .

(٢) ديوان جران العود النميرى ١٧ جهمة بضم الجيم : ثمانون بعيراً أو نحوها وبفتحها بقية سواد الليل

(٣) المفضليات ٢/٣٤ (٤) المعلقات العشر ٩٣

ثم لا يبالى فى حبه الخمر أنها أفنت ماله كله، وأنها جرّت عليه اجتناب العشيرة له فصار كالبعير الأجرب، ولكنه راض؛ لأن الفقراء لا ينكرون إحسانه وإنعامه، ولأن السراة من أمثاله لا يتجافونه، فهم رفقاؤه وندامأه:

وما زال تَشْرابى الخمور ولذتى ... وبَيْعى وإنفاق طريفى ومُتْلَدى

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المعبَّد

رأيت بنى غبراءَ لا ينكروننى ... ولا أهلَ هذاك الطِّرف الممدَّد

ويعلن أنه يحرص على الحياة لثلاث لذات، الخمر أولاهن:

ولولا ثلاث هُنَّ من عيشة الفتى ... وجَدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدى

فمنهن سبق العاذلات بشَرْبة ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِد(١)

ويكرر فى موضع آخر أن أصدقاءه وأقرباءه أكثروا من لومه وعدوه شريراً لأنه مستهتَر بالخمر، ونصحوه أن يتجنبها:

وما زال شربى الراح حتى أشرَّنى ... صديق وحتى سامنى بعض ذلك

وحتى يقول الأقربون نصاحة ... ذر الجهل واصرم حبلها من حبالك(٢)

وامرؤ القيس يعلن أنه ودع الصبا إلا أربع لذات الخمر أولاهن:

وأصبحت ودعت الصبا غير أننى ... أراقب خَلَّاتٍ من العيش أربعا

فمنهن قولى للندامى ترفقوا ... يداجون نَشَّاجا من الخمر مترعا

٢ — وبلغ من غرامهم بالخمر أن أوصى حاتم الطائى امرأته أن تنضح قبره بالخمر، وهذا خيال لا نجده إلا فى العصر العباسى، وفى شعر عمر الخيام:

أماوىَّ إما مِتُّ فاسقى بنُطْفة ... من الخمر ريًّا فانضَحِنَّ بها قبرى

فلو أن عين الخمر فى رأس شارق ... من الأُسْدِ ورْدٍ لاعتلجنا على الخمر(٣)

---

(١) ديوان طرفة ٢٨ — ٣٠. كميت: خمر فيها سواد وحمرة. تعل بالماء: يصب عليها. تزبد: تعلوها رغوة (٢) ديوان طرفة ٥٥

(٣) الديوان ١٠ وشعراء النصرانية ١/١٣٢

٣ — ورثوا الميت بأنه صاحب خمر وندامى ، قال أوس بن حجر :

ليبكك الشَّرْب والمدامـــة والفتيان طُرًّا وطامع طمعا

٤ — وأى دليل على ولوعهم بالخمر وارتخاصهم فيها كل غال من أن يرهن الرجل امرأته على شراب فيغلق الرهن ويترك زوجته ؟

روى أبو الفرج أن عروة بن الورد سبى سلمى الغفـارية ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا ، وكان شديد الحب لهـا ، وكان ولده يُعيَّرون بأمهم ويسمون بنى الأخيذة — السبية — فقالت : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت: أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . فرضى مقالتها ، فأرسلت إلى قومها أن يلقوه بالخمر ثم يتركوه حتى يسكر ويثمل فإنه لا يسأل حينئذ شيئاً إلا أعطاه ، فلقوه وقد نزل فى بنى النضير ، فسقوه الخمر ، فلما سكر سألوه سلمى فردها عليهم ، ثم زوجوها له بعد .

ويقال إنه جاء بها إلى بنى النضير — وكان صعلوكا يغير — فسقوه الخمر ، فلما انتشى منعوه ولا شىء معه إلا زوجته فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غَلِقَتْ ، فلما قال لها : انطلق ، قالت لا سبيل إلى ذلك ، قد أغلقتنى ، فصارت عند بنى النضير فقال فى ذلك :

سقونى الخمـــر ثم تكنفونى عداةُ الله من كذب وزور

وقالوا : لستَ بعد فداء سلمى بمُغْنٍ ما لديك ولا فقـــير

فلا والله لو مُلِّكتُ أمرى ومن لى بالتدبر فى الأمور

إذاً لعصيتهم فى حب ســـلمى على ما كان من حَسَكِ الصدور

فيـا للناس كيف غُلبت أمرى على شىء ويكرهـه ضميرى[1]

٥ — وشبهوا ريق المحبوبة بها ، كما قال عبيد بن الأبرص :

---

(١) الأغانى ٣/٣٧ الدار . حسك : حقد وعداوة

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة ... مشعشعة تُرخى الإزار قديح
بماء سحاب فى أباريق فضة ... لها ثمن فى البائعين ربيح (١)

وقال المسيَّب بن علس إن ريق حبيبته كالخمر التى مزجت بماء جدول على حافيته القصب لأنه دائم الجرى :

ومَهًا يرِفُّ كأنه إذ ذقته ... عَانِيَّةٌ شُجَّت بماء يَراع (٢)

وقال الأسود بن يعفر إن ريق حبيبته بعد نومها حلو عذب طيب الرائحة ، كأنما شربت عشاء خمراً صرفا تخيرها الخارون من دن لثامُه وسداده فَغْوٌ وريحان :

كأن ريقتها بعد الكرى اغْتَبَقَتْ ... صرفا تخيرها الحانونَ خُرْطوما
سلافةَ الدن مرفوعا نصائبه ... مقلَّد الفَغْو والريحانِ ملثوما (٣)

ويمتد بنا القول إذا ذكرنا كثيراً مما قيل فى هذا المعنى ، وحسبنا أن نورد قول المرقش الأصغر : إن فم حبيبته إذا ما ارتشفه ليلا ألذ وأروى من الصهباء العطرة ، كالمسك قد ثوت فى الدن عشرين عاما وقد طلى بالقرمد ، وقد اشتراها رجال مولعون بالخمر من تاجر يربح فيها كثيراً :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحُها ... تُعَلُّ على الناجود طوراً وتُنْزَح
ثوت فى سواد الدن عشرين حجة ... يُطان عليها قِرْمِد وتُرَوَّح
سباها رجال مدمنون تواعدوا ... بجيلانَ يدنيها إلى السوق مُرْبح
بأطيب من فيها إذا جئتُ طارقا ... من الليل بل فوها ألذ وأنضح (٤)

٦ ـــ وأولع بها الحضر كما أولع بها البدو .

أولع بها أهل الحيرة لقربهم من الفرس والروم ، وكانت فى الحيرة

---

(١) الديوان القصيدة ٨

(٢) المفضليات ٥٩/١ مها : بلور شبه ثغرها به لصفائه . عانية : خمر منسوبة إلى عانة بلد بالعراق . شجت : كسرت ومزجت . يراع : قصب أي بماء جدول على حافتيه القصب

(٣) المفضليات ١١٨/٢

(٤) جمهرة أشعار العرب ٢١١ والمفضليات ٤٢/٢ الناجود : إناء الخمر

حانات كثيرة قامت إلى مابعد الإسلام بزمن طويل ، كانوا يسكرون فيها ويفخرون ، وكانت فيها أديرة العبادة واحتساء الخمر ، وقد أكثر الشعراء القول فى خمرها وغلمانها وأزهارها وأعيادها . قال أبو الفرج فى دير اللُّج : « كان النعمان يركب فى كل أحد إليه ، وفى كل عيد ، معه أهل بيته خاصة ، من أهل المنذر ، ومن ينادمه من أهل دينه ، عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رءوسهم أكاليل الذهب ، وفى أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب ، المفصصة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب ، ، فإذا قضوا صلاتهم انصرف إلى مستشرفه على النُّجُب ، فيشرب فيه بقية يومه إلى أن يمسى »(١)

ولهم ساقيات وقينات ، وهم يمزجونها بالماء فتعلوها فقاعات ، قال عدى بن زيد :

ثم ثاروا إلى الصَّبوح فقامت　　قينــــة فى يمينها إبريق
قدَّمَتْه على عُقَار كعين الديـ　　ـك صفَّى سُلافَها الراووق
مُزَّة قبل مَزْجها ، فإذا ما　　مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمَها من يَذُوق
وطَفَتْ فوقها فقاقيع كالدر　　صغار يثيــرها التصفيق

وأولع بها أهل الطائف ، وفى الطائف كروم غُلْب تعرش على جوانب الجبل ، وتكتنف البيوت ، وبلغ من كثرة زبيبها أن سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى بيادر الزبيب ، فقال : ما هذه الحرار ؟ (حجارة نخرة سود بركانية) فقالوا : ليست حرارا ولكنها بيادر الزبيب . ولما حاصر الرسول عليه الصلاة والسلام الطائف وامتنعت عليه ، أوعز إلى أصحابه أن يقطعوا أعناب ثقيف ، فشرع المسلمون يقطعون حتى رجا بعض القرشيين الرسول أن يكف عنها ، وناشدوه صلة الرحم فكفّ .(٢)

وكانت بها حانات كثيرة قبل الإسلام ، فلما حرم الإسلام الخمر تمادى الثقفيون فى شربهم ، وضاق بهم عمر نهيا وحدّاً ، فأضرم النار فى الحانات والمعاصر . يقول أبو محجن الثقفى :

---

(١) الأغانى ٣٢/٦　　(٢) سيرة ابن هشام ١٢٨/٤

رماها أمير المؤمنين بحتفها   فخلانها يبكون حول المعاصر

وأبو محجن هذا شاعر مخضرم ، استهتر بالخمر فى جاهليته وإسلامه ، وحدّه عمر بن الخطاب مرات ، فلما لم يزدجر نفاه ، ولكنه هرب ولحق بسعد بن أبى وقاص ، أبلى بلاء حسناً فى موقعة القادسية ، « فحطم المشركين ، وكان سبب الهزيمة . . . فقال له سعد : لاضربتك فى الخمر أبداً ، فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبداً »[1]

ومن خمرياته هذا الخيال الحضرى البعيد ، يريد أن يُدْفَنَ فى أصل كرمة لتنضح جذورها عظامه ، ويخشى أن يدفن فى الفلاة فتحرم عظامه نطاف الخمر :

إذا مت فادفنِّى إلى أصل كرمة   تُرَوِّى عظامى فى التراب عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى   أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وشَغَفَتْ الخمر أهل المدينة ، ففى المدينة وما حولها مثل خيبر ثروة ونخل وزرع ، وبها يهود ذوو صناعة وثروة وطرب لا يَدَعونه حتى فى وقت الحرج ، فبنو النضير كانوا وهم يجلون عن المدينة معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم .

وكان أهل المدينة يصنعون خمرهم من التمر والبسر كما يقول ابن قتيبة ، وكان اليهود يحملون إليها خمر الطائف والشام يتاجرون فيها ، وكثرت الخمر بالمدينة حتى قال أَنَس : « إنها جَرَت فى سكك المدينة حين حُرِّمت » .[2]

وكانت الحروب ديدن سكانها ، فشربوها ليشجعوا ، وشربوها فى السلم لتزجية الفراغ وللهو ، وورد على حاناتهم بدو البادية يرتوون من خمرها ، وتجر الكأس الكأس حتى ينفد مامعهم ، رووا أن عروة بن الورد — وكان صعلوكا يتعيش من الغارة — جاء بنى النضير فسقوه الخمر ، حتى إذا انتشى منعوه ، وليس معه شىء إلا امرأته سلمى ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غَلقت فتركها وانصرف ، وهو يقول :

سقونى الخمر ثم تكنفونى   عُداةُ الله من كذب وزُور
فلا والله لو مُلِّكْت أمرى   ومن لى بالتدبر فى الأمور

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٦   (٢) نهاية الأرب ٨٠/٤

إذا لعصيتهم في حب سلمى على ما كان من حسك الصدور

وقد ضربوا المثل في الجودة بخمر بابل ، قال عبيد يتحدث عن وقوفه على رسوم دار حبيبته :

ظَلْتُ بها كأنني شاربٌ صهباء مما عتّقت بابل[1]

ح — مجالسها

وقد شربوها في أوان شتى ، ذكرها القالي : منها الغُمَر — القدح الصغير — والقَعْب — أكبر منه — والصحن ، والرِّفد — القدح العظيم — إلخ . . .[2]

وشربوها في أباريق من الفضة ، قال عبيد يصف ريق محبوبته :

إذا ذقتُ فاها قلتُ طعمُ مُدامةٍ مُشَعْشَعَةٍ تُرْخي الإزارَ قَديح

بماء سحاب في أباريق فضة لها ثمن في البائعين ربيح[3]

ولقد يعقد فوق خاتم الإبريق إكليل من الريحان ، قال عبدة بن الطبيب :

والكوب أزْهرُ معصوب بقُلّته فوق السياع من الريحان إكليل[4]

وقال الأسود بن يعفر إن الدن مرفوع على نصائب ، وقد طابت رائحته مما عليه من طيب وريحان :

كأن ريقتها بعد الكرى اغْتَبَقَتْ صرفا تخيرها الحانونَ خُرْطوما

سلافةَ الدّن مرفوعا نصائبه مُقَلَّدَ الفَغْو والريحان ملثوما[5]

وتحدثوا عن السقاة والكئوس والندامى ، والغناء المصاحب الخمر ، وقد أوردنا كثيراً من شعرهم المتصل بالخمر والغناء في (نشأة الوزن والقافية) .

ولعبدة بن الطبيب أبيات جياد يصور فيها غدوه مبكراً — وسواد الليل يجلل

(١) ديوان عبيد القصيدة ٢٦

(٢) الأمالي ٢٠٠/٢ و٢٠٣/٢ (٣) ديوان عبيد القصيدة Lyall A

(٤) المفضليات ١٤٢/١ أزهر : أبيض . قلته : أعلاه . السياع : الطلاء ويريد بالكوب هنا إبريق الخمر .

(٥) المفضليات ٢١٨/٢ اغتبقت : شربت ليلا . الحانون : الخمارون . الخرطوم : أول ما ينزل من الدن . نصائبه : ما يرتفع الدن فوقه . الفغو : نبت طيب الرائحة . ملثوما : عليه لثام

قرن الشمس ، والديك يصيح ليوقظ الدجاج — إلى التجارين ، ومعه رفيق يشاركه في الشراب ، وهو رفيق مختال حسن الخلق كالسيف ذو شمائل حسان ، ظريف كريم ، ذو لهو لا يرعوى لعذل ، وهنالك جلسا على فراش مزين بالوشي والألوان المختلفة والصور المنوعة من دجاج وأسود وغيرها ، والحانة مربعة افتن بانيها في تشييدها وتزيينها ، وينيرها مصباح قوى الفتيلة . وجلسا أمام دن مقطوع الرأس كأنه جذم هدمته الإبل المزدحمة عليه ، وأمام إبريق أبيض مطلى وفي فوهته إكليل من الريحان ، وبين الأصيص والإبريق جرة ضخمة ملأى بالماء ، والكوب مترع بالخمر وقد طفا الزبد فوقه ، وقطع اللحم من الكبش منظومة في السفود ، ويسعى عليهما بالخمر خادم سريع في وسطه حزام ، وعلى الخوان صحاف فيها خل وأبزاز وتوابل .

هنالك اصطبح عبدة خمراً ترعد شاربها ولم يشربها أحد قبله ، وهى خمر صرف ، وممزوجة ، وهنالك طرب لأنه سمع القينة تغنى بشعر جيد جميل كأنه وَشْيٌ مقارب ؛ ووصف المغنية بأنها طويلة الجيد مؤنسة حلوة النغم ، فهم يطربون لها فيعطونها الهبات ويخلعون عليها البرود والسرابيل :

وقد غدوت وقرنُ الشمس مُنْفَتِقٌ ... ودونه من سواد الليل تجليل
إذ أشرف الديك يدعو بعض أسرته ... لدى الصباحْ وهم قوم معازيل
إلى التِّجار فأعدانى بلذته ... رِخو الإزار كصدر السيف مشمول
خرْق يجدُّ إذا ما الأمر جَدَّ به ... مخالط اللهو واللذات ضلّيل
حتى اتكأنا على فُرْشٍ يُزيِّنها ... من جَيِّد الرَّقْم أزواج تهاويل
فيها الدجاج وفيها الأسد مُخْدِرَةً ... من كل شيء يُرَى فيها تماثيل
في كعبة شادها بانٍ وزينها ... فيها ذُبال يضيء الليلَ مفتول
لنا أصيص كجِذْم الحَوض هَدَّمه ... وطء العراك لديه الزِّقُّ مغلول
والكوب أزهرُ معصوب بقُلَّته ... فوق السِّياع من الريحان إكليل
مبرَّدٌ بمزاج الماء بينهما ... حُبٌّ كجَوز حمار الوحش مبزول

والسكون ملآن طاف فوقه زبد … وطابق الكبش فى السفود مخلول
يسعى به منصف عجلان منتطق … فوق الخوان وفى الصاع التوابيل
ثم اصطبحت كميتا قرقفا أنفا … من طيب الراح واللذات تعليل
صرفا مزاجا وأحيانا يعللنا … شعر كمذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداء آنسة … فى صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدو علينا تلهينا ونصفدها … تلقى البرود عليها والسرابيل(١)

وهذا وصف بارع رائع لمجلس الشراب ، لا يقل فى شىء عن أبدع ما جادت به قريحة أبى نواس من بعد .

د — أثرها

وعلى كثرة الشعراء الذين أغرموا بها ، وعلى كثرة ما أداروا من شعر حولها ، فإنهم اتجهوا إلى تصوير الخمر ومجالسها تصويراً مادياً ، عنوا فيه بوصفها ووصف زقاقها وكئوسها ، والفخار باحتسائها ونبالة الندامى ... الخ ولم يتجهوا إلى تصوير آثارها فى النفس والخيال ، وإن كان قليل منهم صور أثر الخمر فى نفسه ، وفترات السكر ، وأطيافه ، مثل قول المنخل اليشكرى :

فإذا انتشيت فإننى … رب الخورنق والسدير

(١) المفضليات ١/١٤١ تجليل : كأنه منقط بجلال من سواد الليل . ومازيل : عزل من السلاح . التجار : الخمارون . أعدانى : أعانى . رخو الإزار : يجر ازاره مخيلة . مشمول : حلو الشمائل . خرق : ظريف كريم . ضليل : لا يرعوى لعذل . رقم : وشى . أزواج : أنماط وهى البسط . تهاويل : ألوان شتى . مخدرة : فى خدرها . كعبة : بيت مربع . أصيص : دن مقطوع الرأس . أزهر : أبيض . السياع : الطلاء . الحب : الجرة الضخمة . الجوز : الوسط . مبزول : مثقوب . طابق الكبش : نصفه أو عضو منه . مخلول : مشكوك فى السفود . منصف : خادم . الصاع : صفحة فيها خل وأبزاز مخلوط . قرقف : تصيب شاربها رعدة . أنف : مستأنفة لم تشرب . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى مقارب . محمول : مروى مشهور . حواشيه : أطرافه . تذريه ترفعه أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا . جيداء : طويلة الجيد . آنسة : منبسطة متحدثة . نصفدها : نعطيها . السرابيل : الثياب

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير[١]

وقول حسان :

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ماينهنها اللقاء[٢]

وقول لقيط بن زرارة :

شربت الخمر حتى خلت أنى أبو قابوس أو عبد المدان

أُمَشّى فى بنى عُدُسِ بن زيد رَخِىَّ البال منطلق اللسان

وقول الأعشى :

وشراب خُسْرُوَانِىٍّ إذا ذاقه الشيخ تَغَنَّى وارْجَحَنّ

وقال امرؤ القيس إنه يشرب هو وندمانه حتى يفقدوا صوابهم فيحسبوا الخيل صغار ضأن ، ويظنوا الأبيض المسود أو الأسود المبيض أشقر :

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا نَقَاداً ، وحتى نحسب الجَوْن أشقرا[٣]

هـ — المحرمون لها

وبعض العرب حرموا الخمر فى الجاهلية فلم يحتسوها . ذكر أبو القاسم عبد الرحمن السعدى الأندلسى فى كتابه (مساوىء الخمر) كثيراً ممن صدوا عن شربها فى الجاهلية ، منهم الكندى عم الأشعث بن قيس ، وقال فى ذلك : إنه لن يشرب خمراً ولن يصاحب شاربيها ، ويتبين من أقواله أن آباءه وأخواله صدوا عنها أيضاً :

فلا والله لا أُلْفَى وشَرْباً أنازعهم شرابا ما حييت

أبى لى ذاك آباء كرام وأخوال بعزهم رُبِيت[٤]

ومنهم قيس بن عاصم التميمى وهو القائل :

لعمرك إن الخمر ما دمت شاربا لسالبة مالى ومذهبة عقلى

---

(١) الحماسة ٢١١/١ ومعجم الشعراء ٣٨٧ (٢) الديوان ٨

(٣) ديوان امرىء القيس ٧٥ (٤) بلوغ الأرب ٣٢٥/٣ والأمالى ٢٠٥/١

وتاركتي من الضعاف قوائم ومورثتي حرب الصديق بلا تبل (١)

وكان قيس هذا كلفا بالخمر في الجاهلية ، يأتيه تاجر خمر فيبتاع منه ، ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد ما عنده ، ولكنه عزف عن الخمر وقال :

وتاجر فاجر جاء الإله به كأن عثنونه أذناب أجمال
جاء الخبيث ببيسانية تركت صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال

وآلى ألا يذوق خمرة أبداً(٢) . وله قصة تدل على بغضه للخمر(٣) . وقد صد عنها غير قيس بن عاصم التيمي صفوان بن أميـــة بن محرب الكناني ، وعفيف بن معد يكرب الكندي . وحرم بعضهم على نفسه الزنا والخمر :

سالمت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهي أميرة والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما وكذاك يفعل ذو الحجا المتعفف(٤)

وممن امتنعوا منها تكرما وصيانة لأنفسهم عامر بن الظرب ، القائل :

سآلة للفتى ما ليس في يده ذهّابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرّق تربُ الأرض أوصالي
مورثة القوم أضغان بلا إحن مُزرية بالفتى ذي النجدة الحالي(٥)

وآلى صفوان بن أمية ألا يشربها وألا يداوى بها سقيما :

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما(٦)

وذكر أبو علي القالي ممن حرموها وقالوا شعراً في تحريمها عفيف بن معديكرب وسويد بن عدي(٧)

---

(١) الأمالي ٢٠٤/١ والبيت الثاني كذا بالأصل
(٢) العقد الفريد ٣١٣/٣ والأغاني ١٤٥/١٢
(٣) الأغاني ١٤٨/١٢
(٤) الملل والنحل للشهرستاني ٢٢٩/٣
(٥) الأمالي ٢٠٤/١
(٦) الأمالي ٢٠٤/١
(٧) الأمالي ٢٠٥/١

وذكر ابن قتيبة فى كتاب الأشربة أن كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرموا الخمر على أنفسهم فى الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « ما شرب أبو بكر خمراً فى جاهلية ولا إسلام » .

وقال عثمان رضى الله عنه : « ما تغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام » . (١)

(٣) الميسر

طريقته . الغرض منه . الفخر به . المدح به . العرب خير الأمم غرضاً من الميسر .

١ — عادة متأصلة شاعت فى الأغنياء ، وطالما افتخروا به لأنه ضرب من المقدرة والكرم ، حيث يطعمون المحاويج ما ربحوه وخاصة أيام الشدة وانقطاع اللبن ، وأيام الشتاء والجدب .

وكانت طريقته أن يجتمع الموسرون ويشتروا جزوراً يقسمه الجزار عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح ، فيأخذ كل من الأيسار على مقدرته ، ثم يسلمونها إلى أمين يدفنها فى الرمل أو يضعها فى خريطته ، ويدخل يده ويخرج قدحاً وهكذا .

وأوضح ما كتب فى المياسرة وطريقتها ما أورده الألوسى فى بلوغ الأرب ، وخلاصته بالاستعانة بقليل مما ذكره غيره أن يجتمع عشرة من اللاعبين ويحضروا جزورا يضمنون ثمنها لصاحبها ، ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم ، وتجعل القداح العشرة فى خريطة وتجال وتحرك فيها ، ثم يخرج الحُرُضة (٢) أول قدح باسم أحدهم على ترتيب لانعلمه — فربما كان بحسب جلوسهم أو أسنانهم أو تراضيهم — ويكون هذا القدح هو نصيبه ، فإن كان رابحا عرف مقدار ربحه وبقى القدح خارج الخريطة لا يعاد إليها ، ثم يخرج قدحاً باسم الثانى ويعرف مقدار ربحه وهكذا إلى العشرة .

---

(١) الأشربة ٢٧ (٢) الحرضة : المحكم عنهم .

وكل رابح يأخذ ما خرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القداح التى لا نصيب لها هم الذين يغرمون ثمن الجزور فيقسم عليهم أثلاثا[١]

والقداح الرابحة هى الفذ والتوءم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلّى ، ولكل منها نصيب كترتيبه ، فللفذ نصيب واحد وللمعلّى سبعة ، فمجموع أنصبتها ثمانية وعشرون . والقداح الغارمة هى المنيح والسفيح والوغد .

وقد عرض الزمخشرى لطريقة المياسرة فى تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر » ونقل عنه الفخر الرازى وإسماعيل حقى صاحب روح البيان ، والألوسى مؤلف روح المعانى ، وعرض لها مؤلف نهاية الأرب فى فنون الأدب [٢] والقلقشندى فى صبح الأعشى[٣] ولكن ما أوردوه مبهم لا يكشف عن حقيقة هذه المقامرة .

ب — وكانوا يوسرون ليلا حيث يوقدون النار وقد عقروا ناقة ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمى به الأيسار من أنصبتهم التى حرموها على أنفسهم كرما وأنفة . والتصدق باللحم هو النفع الذى ذكره القرآن الكريم : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . ولكن القرآن الكريم حرمه فى آية بعد ، لما ينشب عنه من عداء وبغضاء بين المتياسرين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع ، وحتى الكرم الذى فى الميسر ليس خالصاً كما يكرم الشخص من ماله الصرف عن قصد ورغبة .

هـ — وهم أشادوا بقدرتهم على المياسرة فاخرين ومادحين :

قال الشاعر مفتخراً بأنه يقامر إذا جف اللبن فى الضرع ، وبأنه يتخير القدح الغالى :

وإذا تَعَذَّرَتِ السواعد والتوتْ ۝ جال المُفَدَّى وَسْطها المضبوحُ

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٦٥

(٢) ٣/١١٩ (٣) ١/٨٢٥

أَغْلَى بِهِ رِخْوُ الإِزَارِ مُغَذَّلٌ فَغَدَا يُعَارُ لَهُ دَمٌ مَسْفُوحُ(١)

وقال لبيد فى معلقته إنه طالما دعا ندماءه إلى نحر الجزور حيث يلعبون بأزلام متشابهة ، ينحرون الناقة عاقراً – لأنها أسمن – أو مُطْفِلا – لأنها أغلى – وهو يكسب فيطعم الجميعَ لحمها ، حتى إن الجيران والضيفان يشبعون وينعمون كأنهم فى وادى تبالة المخصبة سهوله :

وَجَزُورِ أيسارٍ دعوتُ لحتفها بمغالقٍ متشابهٍ أجسامُها

أدعو بهن لعاقرٍ أو مُطْفِلٍ بُذِلَتْ لجيرانِ الجميعِ لِحامُها

فالضيف والجار الجنيب كأنما هَبَطا تَبَالَةَ مُخْصِباً أهضامُها(٢)

وافتخر الأعشى بالمقامرة :

وجزور أيسار جزرت إلى النَّدَى ونياط مقفرة أخاف ضلالها

وكان الشتاء فصل الجدب والفقر ، فالمياسرة فيه دليل على الثروة والقدرة ، قال طرفة إنهم أصحاب قداح الميسر منذ القدم ، منذ لقمان بن عاد صاحب النسور السبعة التى آخرها لبد ، وهم يقامرون وإن صعَّب الشتاء على القادرين المشاركة فى القداح ، ثم هم لا يلحفون فى طلب الدين الذى لهم على رفيق فى المياسرة ، ويدخلون معهم فى اللعب ذوى المعسرة :

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة إبداء الجزر

لا يُلِحُّون على غارمهم وعلى الأيسار تيسير العسر(٣)

وقال سنان بن أبى حارثة إنه لعب الميسر والرياح الباردة قد اضطرت النوق إلى الرواح ، وإنه قد أطعم أهل الحى من جيران وعفاة :

وقد يَسَرْتُ إذا ما الشَّوْلُ رَوَّحها بَرْدُ العَشِيِّ بشَفَّانٍ وصُرَّادِ

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٥٦ السواعد : مجارى اللبن فى الضرع . المغذى : القدح الغالى . المضبوح : المقوم بالنار . أغلى به : أغلاه

(٢) المعلقات . الزوزنى ١١٣ (٣) ديوان طرفة ٧٣ – ٧٤

ثُمَّتَ أطعمتُ زادى غير مدخر … أهلَ المحلة من جار ومن جاد[١]

وكان بعض المقامرين يأخذ ما بقى من القداح إن لم يحضر من يتمم الأيسار ، ويقول للأيسار قد تممتكم[٢] ، وقد افتخر النابغة بأنه متمم الأيسار :

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم … مَثْنَى الأيادى وأكسو الجفنة الأُدُمَا[٣]

وأشاد عمرو بن قمئة بعظمة قومه فقال : إذا اشتد البرد وانعدم البرق ، وامحى السحاب من السماء فلا ترى فيها غيمة وإن رأيت فسرعان ما تنقشع ، ولقد يتفرق الغمام فى السماء كأنه نعال بالية بانت منها سيورها ، وفى هذا الوقت تهزل النوق فلا لبن — حينئذ نملأ قدورنا طعاما ونقدمها فيسرع إليها الضيوف والغرباء كما تسرع صغار الإبل نفرتها كبارها ؛ وذلك بأنا نياسر بأقداح كاسبة ونقدم ما كسبنا طعاما للناس :

إذا النجم أمسى مَغْرِبَ الشمس رائبًا … ولم يك برق فى السماء يُلِيحها

وغاب شعاع الشمس فى غير جُلْبة … ولا هَبْوة إلا وشيكا مُصُوحها

وهاج غمام مقشعر كأنه … نَقِيلةُ نَعْـلٍ بان منها سَرِيحها

إذا عدم المحلوب عادت عليهم … قدور كثيرٌ فى القدور قديحها

يثور إليها كل ضيف وجانبٍ … كما رد دَهْدَاهَ القِلاص نَضِيحها

بأيديهم مقرومة ومغالق … يعود بأرزاق العباد منيحها[٤]

(١) المفضليات ٢/١٥٠ يسرت : قامرت : الشول : الإبل التى نقصت ألبانها . الشفان والصراد : ريح باردة . جاد طالب العطية (٢) بلوغ الأرب ٣/٦٢

(٣) مثنى الأيادى : أن يأخذ القسم مرة بعد مرة أو هى الأنصباء التى كانت تبقى من الجزور فى الميسر فيشتريها ويعطيها .

(٤) بلوغ الأرب ٣/٨٤ النجم : الثريا وأشد البرد عند طلوعها . رائب : مرتفع . يليحها : يظهرها ويضيئها . الجلبة القطعة من الغيم . المصوح : الذهاب . الهبوة : الغبرة . النقيلة : رقعة النعل والخف . السريح : جمع سريحة وهى السير الذى تشد به النعل . القديح : المغروف والجيل . الجانب : الغريب . الدهداه : صغار الإبل . النضيح : الذى شرب حتى روى . المقرومة : سهام الميسر عليها علامة . المغالق : سهام الميسر أو السهام التي تفوز . منيحها : ممنوحها أو كاسبها . فعيل بمعنى مفعول أو فاعل ، وليس المنيح هنا هو القدح الذى لا سهم له

٤ — وقد مدحوا من يلعب الميسر لأنه كريم مهين للمال، وعابوا من لا ييسر، وسموه البرم، قال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا: إنه مولع بالميسر إذا قمقع الجلد اليابس من شدة البرد، وإنه كفيل بأخذ ما يتبقى من القداح، وله غنمه وعليه غرمه، ولا يحمى نصيبه أن يتقسمه الفقراء:

ولا بَرَماً تُهدِي النساء لعِرسه ... إذا القَشْعُ من حَسِّ الشتاء تقعقعا

. . . .

إذا جَرَّد القوم القداح وأُوقِدَتْ ... لهم نار أيسار كفى من تَضَجَّعا

وإن شَهِد الأيسارَ لم يُلْفَ مالكٌ ... على الفرْث يحمى اللحم أن يتمزعا(١)

ومدح الشاعر قوما بأنهم أعداء النوق العظيمات السنام، لأنهم ينحرونها فترغو صغارها، وهم لا يفرحون إذا فازوا، ولا يبالون بالغرم إن كانوا في عسرة، أسخياء كلفون بالميسر إذا ما عجز غيرهم عنه:

أعداءُ كُوم الذُّرَى ترغو أجِنَّتَهَا ... عند المجازر بين الحي والحجر

لا يفرحون إذا فاز فائزهم ... ولا تضيق عليهم أزْبَةُ العُسُر

هم الخضارم والأيسار إن نُدبوا ... إذ لا تُجيل قداحا راحتا يَسَرِ(٢)

ولا تبرأ أمة قديمة أو حديثة من المقامرة، على اختلاف طرقها. وإذا كان العرب قد أولعوا بها مباهاة ومفاخرة وعطفاً على المحاويج فإن بعض الأمم كانت أشد من العرب ولوعا بالقمار، ولم تقصد منه إلى إطعام جائع أو محتاج، فقد ذكر تاسيتوس أن قدماء الجرمان كانوا يتقامرون على كل ما يملكون، فإذا نفد تقامروا على حريتهم فيصير المغلوب عبداً للغالب، وكان الرومان واليونان كلفين بالمقامرة. ولكن العرب تفردوا بالغرض النبيل من لعب الميسر.

(١) المفضليات ٢/٦٥ـ٦٧ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢ تهدى النساء لعرسه: ليس ممن تعطى النساء زوجه لحما في الشتاء. القشع: القربة اليابسة. تضجع: تكاسل. الفرث: ما بالكرش

(٢) بلوغ الأرب ٣/٥٩ أزبة: شدة وقحط.

(٣) الجـــن

تصورهم لها . تشكلها . مساكنها واستعاذتهم بها . صحبة وزواج . قتلهم الغول . الجن فى الأدب اليونانى .

١ – تصورهم للجن

عاش هذا الشعب الفطرى فى صحراء رحيبة جدبة مليئة بالقيعان والأغوار والوهاد والنجاد والتلال ، يقل سكانها والجائلون فيها ؛ ويسدل الليل ستائره فيعم الظلام والسكون والوحشة كل شيء . فتتسلط الأوهام وتتجسم المخاوف والأحلام ، فيدعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها ، ونسلوا منها .

وكل حديثهم فى هذا خرافة ، ولكنها خرافة لم تقتصر على العرب ، فإن كثيراً من الأميين وضعاف العقول ما زالوا يؤمنون بهذا فى العالم المتحضر .

وقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلا حسنا بقوله : « ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به ومدَّ لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم ، وإلا غبيا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق والشك ... وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر ، فالراوية عندهم كلما كان الأعرابى أكذب فى شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها »[١] على أن تعليله صالح لانتشار هذه الأكاذيب ، ورواجها ، أما السبب فى نشأتها فهو ما أسلفته .

وقد خصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان والسعالى . وأطلقوا

---

(١) الحيوان ٦/٧٩

الغول على « كل شيء من الجن يعرض للسُّفَّار ويتلون فى ضروب الصُّور والثياب ذكراً كان أو أنثى ، إلا أن الأكثر على أنه أنثى . والسعلاة اسم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السُّفَّار ، قالوا : وإنما هذا منها على العبث ، أو لعلها تفزع إنساناً فيتغير عقله »[(١)] .

وزعموا أن خَلْق الغول كالإنسان ولكن رجليها رجلا حمار .

ويزعمون أن الغول تتغول لهم فى الخلوات ، وتظهر لخواصهم فى أنواع الصور فيخاطبونها وربما ضيَّفوها . وكانت تتراءى لهم فيتبعونها فتتبعهم ، ولذلك كانوا يصيحون بها إذا ما رأوها :

يا رجل عـــنز انهقى نهيقاً   لن تنزلى السبيل والطريقا

لأنهم يزعمون أن رجليها رجلا عنز .

وأكثر كلامهم على الأنثى من الغيلان . قال أبو المطراب :

وحالفنى الوحوش على الوفاء   وتحت عهودهن وَبَا البعاد

وغولا قفرة ذكراً وأنثى   كأن عليهما قطع البجاد[(٢)]

وقد زعم تأبط شرًّا أو زعموا له أنه رأى الغول وضربها فى جرأة ضربة واحدة قضت عليها ، وسنذكر قوله فى موضع آخر ، ولكن يعنينا هنا تصويره لها بأنها صغيرة الرأس مشقوقة اللسان ، يشبه لسانها لسان الكلب ، مشوهة الساق ، تلبس ثوباً من جلود بالية :

إذا عينان فى رأس دقيق   كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقٌ مُخْدَجٌ ، ولسان كلب   وثوب من عباء أو شنان[(٣)]

ونسبوا إلى أبى الغول الطهوى أنه لقيها فقتلها أيضا ، وصور شكلها تصويراً يكاد يكون تصوير تأبط شرًّا لفظا ومعنى ، ولذلك أرجح أن الشاعر واحد :

---

(١) الحيوان للجاحظ ٦/ ٤٨   (٢) مروج الذهب ١/ ٢٥٢ — ٢٥٣

(٣) صبح الأعشى ١/ ٤٠٥ وبلوغ الأرب ٢/ ٣٢٩ والأغانى ١٨/ ٢٠٩ ومعجم البلدان ٤/ ٢٣١

إذا عينان فى وجـــه قبيح ككوجه الهر مشقوق اللسان
يعني بوهة وشواة كلب وجلد فى فرآ أو فى شنان (١)

وقد استمدوا من هذا التصور للجن صوراً شتى ، فمثلا شبه الخطفى جد جرير النوق السائرة فى الليل ترفع أعناقها وتهز رءوسها بالجن التى تمد أعناقها ، وقالوا إنه سمى الخطفى لقوله هذا :

يرفعن بالليل إذا ما أسدفا أعناق جنان وهاما رجفا
وعنقاً باقى الرسيم خيطفا (٢)

وكذلك شبه امرؤ القيس بن عمرو بن الحارث بن معاوية الأكبر خيلهم بالسعالى :

سمونا لهم بالخيل تردى كأنها سعال وعقبان اللوى حين تركب (٣)

وقال عمرو بن الأيهم التغلبى فى وصف الخيل أيضا :

وتراهن شزبا كالسعالى يتطلعن من ثغور نقاب (٤)

وبقى هذا التخيل فى الشعر الإسلامى على سبيل المحاكاة ، قال الأشتر النخعى إن خيله كالسعالى :

بقيت وفرى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن هند غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالى شزبا تعدو ببيض فى الكريهة شوس (٥)

ب — تشكلها

ورووا كثيراً من الأقاصيص عن تشكل الجن لهم بصور شتى ، منها أن عبيد بن الأبرص سافر فى ركب من بنى أسد ، فبينا هم يسيرون إذا هم بشجاع يتمعك على الرمضاء فاتحا فاه من العطش ، وكانت مع عبيد فضلة من ماء فنزل فسقى الشجاع حتى

---

(١) المؤلف والمختلف ١٦٣ الفرا : جمع فروة وهى الجبة التى شمر كماها .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٨٣ والحيوان ٦/ ٥٣ العنق : سير شديد . الرسيم : أشد منه . الخيطف : السريع
(٣) المؤتلف والمختلف ١٠ (٤) الأمالى ١/ ٤٤ النقاب : جمع نقب وهو الطريق .
شزب : ضوامر
(٥) الأمالى ١/ ٨٥

روى واستنعش ، فانساب فى الرمل ، فلما كان الليل ونام القوم ندت رواحلهم ، فقام كل واحد يطلب راحلته ، فتفرقوا ، فبينا عبيد كذلك وقد أيقن بالهلكة والموت إذا هو بهاتف يهتف به :

يا أيها السارى المضَلُّ مذهبه دونك هذا البَكر منا فاركبه
وبكرك الشارد أيضا فاجنبه حتى إذا الليـــل تجلى غيهبه
فحط عنه رحـــله وسيبه

فقال له عبيد : يا هذا المخاطب نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت ؟ فأنشأ يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيته رَمِضًا فى قفرة بين أحجـــار وأعقاد
فجدت بالماء لما ضن حامله وزدت فيه ولم تبخل بإنجاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فركب البكر وجنب بكره فبلغ أهله مع الصبح ، فنزل عنه وحل رحله وخلاه فغاب عن عينه ، ثم جاء إخوانه الذين سلِمُوا بعد ثلاث ليال[1]

وهذا الخبر وأمثاله بيِّن الافتعال والوضع ، والغرض منه الترغيب فى عمل الخير ، وقد نقله أبو الفرج عن كتاب عن ابن الكلبى عن أبيه وقال : « وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه » :

وزعموا أن الغول سميت بذلك لأنها تتغول لهم أى تتلون وتتشكل بصور شتى ، أو لأنها تغتالهم ، قال كعب بن زهير فى وصف تلون المرأة :

فما تدوم على حال تكون بها كما تَلَوَّنُ فى أثوابها الغول[2]

وادعوا أن الجن تتشكل أحيانا فى صور حيات ، من ذلك ما أورده الدميرى من قصة الفتى الذى قتل حية ثم اضطربت عليه فقتلته لأنها جنية[3] وطبيعى ألا يصدق

---

(١) الأغانى ١٩/٨٩ ساسى. أعقاد : كثبان رمل . (٢) جمهرة أشعار العرب ٣٠٨
(٣) حياة الحيوان . الدميرى ١/٣١٩ بولاق

أحد هذه المزاعم ، وقد سبق تعليق أبي الفرج على قصة عبيد مع الثعبان . وهذا تعليق ابن هشام على بيت كعب بن زهير : إن للعرب أموراً تزعمها لا حقيقة لها ، منها أن الغول تتراءى لهم فى الفلوات ، وتتلون ، وتضلهم عن الطريق ، وإلى ذلك ذهب أبو عبيدة ، فقد سأله رجل عن قوله تعالى : « طلعها كأنها رءوس الشياطين » كيف ذلك ؟ وإنما يقع الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف : فأجابه بأن الله تعالى كلم العرب على قدر عقولهم ، أما سمعت امرأ القيس يقول :

أيقتلنى والمشرفىُّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

وهم لم يروا الغول قط ، ولكن لما كانت تهولهم أوعدوا بها [(١)].

فالغول أو الجنى المتشكل وهْمٌ وتخيل ، ولذلك سموا الغول الخيتعور ، وهو كل شىء لا يدوم على حال واحد ويضمحل ، كالسراب وكالهباء ، قال الشاعر :

كل أنثى ـ وإن بدا لك منها آية الحب ـ حبها خيتعور

وعلل المسعودى لهذا الوهم تعليلا حسنا مقبولا فى قوله : « وقد تنازع الناس فى الهواتف والجان . . . وإن ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك إنما يعرض لها من التوحد فى القفار والتفرد فى الأودية والسلوك فى المهامه الموحشة ؛ لأن الإنسان إذا سار فى هذه الأماكن رُوِّع ووجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص وأوهمته المحال ، كما يعرض لذوى الوساوس . . . لأن المتفرد المتوحد يستشعر المخاوف ، ويتوهم المتالف ، ويتوقع الحتف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها فى نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له » [(٢)]

حـ ـ مساكنها واستعاذتهم بها

١ ـ وقد اعتقدوا أنها تخالطهم فى كل مكان ، ولذا استعاذوا بها واحتموا وقد

---

(١) شرح بانت سعاد ابن هشام (٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ١/٢٥٤

أخبر القرآن الكريم بذلك : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

وقد أفاض الشعراء فى ذلك قال بعضهم :

قد بت ضيفا لعظيم الوادى   المانعى من سطوة الأعادى
واحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر

أعوذ من شر البلاد البيد   بسيد معظم مجيد
أصبح يأوى بلوى زرود   ذى عزة وكاهل شديد[1]

وقال ثالث :

يا جنّ أجزاع اللّوى من عالج   عاج بكم سارى الظلام الدالج
لا ترهقوه بهوى هائج

وقال رابع :

هيا صاحب الشَّجْراء هل أنت مانعى   فإنى ضيف نازل بفنائكا
وإنك للجنّان فى الأرض سيدٌ   ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

واستعاذ رجل ومعه ولده بجنى عظيم فى واد ، فأكل الأسد ولده ، فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادى   من شر ما فيه من الأعادى
فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عاد

٢ — وإذا مرض أحدهم وطالت علته حسبوا أن الجن مسته عقوبة له على قتله حية أو يربوعا أو قنفذاً أو غزالا أو أرنباً ، وهى من مراكب الجن وأحبابها ،[2] فقدموا الدية للجن جوالقات ملاء بالحنطة والشعير والتمر على جمال من طين ،

---

(١) اللوى : الرمال اللينة أوالمنعطفة . زرود : موضع (القاموس مادة هبر)
(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٩٩

ووضعوها بجانب جحر إلى جهة الغرب وقت الغروب ، فإذا أصبحوا ووجدوا الجمال على حالها قالوا : إن الدية لم تقبل ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من حب قالوا : قد قبلت ، واستبشروا بشفاء المريض ، وفرحوا ، وضربوا بالدف ، قال بعضهم :

قالوا — وقد طال عنائي والسَّقَم — احمل إلى الجن جمالاتٍ وضَمْ
قد فعلت والسقام لم يُرَمّ فبالذي يملك برئي أعتصم

وقال آخر يتبرم بسقمه ، وقد قدم الميرة للجن غير واثق بقدرتها على شفائه ولكنه يمنى نفسه ويعللها :

فياليت أن الجن جازوا حمالتى وزُحزح عنى ما عنانى من السُّقْم
ويا ليتهم قالوا : أنطِنا كلٌّ ما حوت يمينك فى حرب غماس وفى سَلْم
أعلل قلبي بالذى يزعمونه فياليتنى عوفيت فى ذلك الزَّعْم[1]

وذكر غيره أن الجن غضاب عليه ، ولا جريرة له ، وعجب من طلبهم الدية التى لا حق لهم فيها ، وتساءل كيف ينتصف منهم وهم متوارون عنه ، ولو أنهم ظاهرون له ما خشيهم :

ألا إن جنان النويرة أصبحوا وهم بين غضبان علىّ وآسف
حملت — ولم أقتُل — إليهم حمالة تسكن عن قلب من السقم تالف
ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم ومن لى من أمثالهم بالتناصف
تغطوا بثوب الأرض عنى ولو بدوا لأصبحت منهم آمناً غير خائف

وكانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو نَجّروا عينا ذبحوا عندها ذبيحة وسموها ذبيحة الجن حتى لا ينالها شؤم .[2]

وكان القنفذ من مراكبهم كما قلنا ، قال شاعر فى قنفذ رآه ليلا إنه يعجب من اختيار الجن إياه مركبا ، ويدهش من تركهم الخيل والأسود والنوق :

---

(١) أنطنا : أعطنا . غماس : شديدة .

(٢) المخصص ١٣/٢٥

فما يعجب الجنان منك ـ عدمتهم ـ وفى الأسد أفراس لهم ونجائب
أيسرج يربوع ويلجم قنفذ؟ لقد أعوزتهم ـ ما علمت ـ النجائب

ونسبوا إلى الجن شعراً فى مراكبهم .

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد ألذ وأشهى من ركوب الأرانب
ومن عضرفوط عنّ لى فركبته أبادر سربا من عظاء قوارب[1]

٣ ـ ومسكنها الفلوات ، وقد أكثروا من القول إنهم سمعوا عزيفها هنالك ، ولعل الذى خيل إليهم ذلك رجع الأصوات ، وصدى الريح المتناوحة ، والرعود القاصفة ، والوحوش المصوتة فى بيداء كلها وهاد ونجاد ، قال الأصمعى : « إنما العزف من الريح على الرمل فتسمع له صوتا ، والجن لا تعزف ولكن الأعراب قالوه بجهلهم »[2]

قال الشاعر :

وبهماء تعزف جنانها مناهلها آجنات سدم[3]

وقال آخر :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل فى حافاتها زجل

وقال بشر بن أبى خازم إنه اخترق الفلاة التى تعزف جنها ، وتهدر ريحها :

وخرق تعزف الجنان فيـــه فيافيه تحن بهـا السَّوام[4]

وقال أعشى باهلة فى رثاء أخيه المنتشر إنه كان جريئاً يمشى فى البيد التى لم تطأها قدم ، فلا أثر فيها لغير الجن :

من ليس فى خيره منّ يكدره على الصديق ولا فى صفوه كدر
يمشى ببيداء لا يمشى بها أحـــد ولا يحس ـ خلا الخافى ـ بها أثر[5]

---

(١) العضرفوط : ذكر العظاء أو هو من مراكب الجن . العظاء : جمع عظاية : دويبة مثل سام أبرص
(٢) ديوان جران العود النميرى ١٩
(٣) سدم : مطمورة .
(٤) المفضليات ١٣٤/٢ السهام : الريح الحارة (٥) جمهرة أشعار العرب ٢٨٠ الخافى : الجنى

وطرفة بن العبد شجاع اخترق الفيافى التى تعزف الجن فيها :

وركوب تعزف الجن به ... قبل هـــذا الجيل من عهد أبد

قد تبطنت بطرف هيكل ... غير مرباه ولا جأب مكد (١)

والمثقب العبدى قد اجتاز بناقته موماة تعزف جنها :

فى بلدة تعزف جنانها ... فيها خناطيل من الرود (٢)

وقد ظل هذا التخيل إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فجران العود النميرى يقول فى قصيدة غزلية قصصية :

حملن جران العود حتى وضعنه ... بعلياء فى أرجائها الجن تعزف (٣)

و — صحبة وزواج

راجت قصص زواج الإنس بالجن فى الأدب العربى ، ولعل هذا الزواج عائد إلى رواج السحر والخفاء ، ورواج ما كان يتحدث به السمار والرواة من غرائب تشوق السامعين .

وقد أفرد ابن النديم فى الفهرست ثبتا بأسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس ، وعلق عليها بقوله : « وكانت الأسحار والخرافات مرغوبا فيها مشتهاة فى أيام خلفاء بنى العباس لا سيما فى أيام المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا ، فكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان وآخر يعرف بابن القطار » . (٤)

١ — وقد أكثروا من ذكر صحبتهم للجن ، ومعاشرتهم ومخالطتهم مفاخرة بشجاعتهم وقـــدرتهم على ما يعجز عنه الناس ، قال عبيد بن أيوب العنبرى أحد لصوص العرب :

---

(١) ديوان طرفه ٤٥ أبد : قديم وأضيفت الصفة إلى الموصوف . مرباه : ثقيل فى مشيه . الجأب : الغليظ . مكد : يكد بالساق والسوط (٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٨ إبل خناطيل : متفرقة . الرود : الذهاب إلى المرعى (٣) ديوان جران العود ١٩ (٤) الفهرست ٤٢٨

تقول وقد ألممتُ بالأمس لِمَةً   مُخضَّبَةُ الأطراف خُرسُ الخلاخل
أهذا خدين الغول والذئب والذى   يهيم بربات الحجال الهراكل ؟ (١)

وقال إنه رأى نارها التى كانت توقدها للتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى :

فلله در الغول ، أىّ رفيقــة   لصاحب قفر فى المهامه يُذْعَر
أرنَّتْ بلحن بعد لحن وأَوْقَدَتْ   حوالىَّ نيرانا تلوح وتُزْهِر (٢)

وتباهى فى حديثه لحبيبته بأنه ألف الغيلان والسعالى :

وساحرةٍ منى ولو أن عينها   رأت ما ألاقيه من الهول جُنَّت
أبيتُ وسعلاةٌ وغول بقفرة   إذ الليل وارى الجنَّ فيه أَرَنَّت (٣)

ونسبوا إليه كثيراً من الشعر المتصل بالغيلان ، كما نسبوا إلى تأبط شرا ، ولعلهم لاءموا بين حياتهما القائمة على التقفر والصعلكة والفتك وبين هذا التخيل العجيب .

وروى الجاحظ لسهم أو سمير بن الحارث الضبى أنه أوقد ناره بالصحراء فطرقته الجن ، فدعاهم إلى الطعام فأبوا :

ونار قد حَضَأْت بُعَيد وَهْنٍ   بدار لا أريد بهــا مُقاما
ســوى تحليل راحلة وعين   أكالئها مخافة أن تناما
أتوا نارى فقلت :مَنُونَ ؟ قالوا   سَرَاةُ الجن . قلت : عِمُوا ظلاما
فقلت إلى الطعام ، فقال منهم   زعيم : نَحْسُدُ الإنس الطعاما (٤)

واختلف الشراح فى معنى الحسد هنا ، وأحسن ما قيل أنهم لا يأكلون ما يأكل الناس وإن كانوا يشتهونه .

وشبيه بهذه القصة ما نسبه جذع بن سنان الغسانى إلى نفسه أو ما نحله القصاص إياه ، فيه تفصيل لوفود الجن على ناره وتحيته لهم وأنه رآهم ملاح الوجوه ، فنحرلهم.

---

(١) الحيوان ٦/٥١ الهراكل : جمع هركلة أو هركولة أو هركيل : الحسنة الجسم والخلق والمشية . ويروى (الـكواهل)   (٢) الحيوان ٥/٤٢ و٦/٥٠ ومروج الذهب ١/٢٠٣ (والشعر لأبي المطراب)   (٣) الحيوان ٦/٤٨ ومروج الذهب ١/٢٠٢ (الشعر لأبي المطراب)

(٤) الحيوان ٤/١٥٣ و٦/٦٠

أتوا نارى فقلت : منون أنتم ؟ فقالوا : الجن . قلت : عموا صباحا
نزلت بشعب وادى الجن لما رأيت الليـل قد نشر الجناحا
أتيتهم وللأقـدار حتم تلاقى المرء صبحا أو رواحا
أتيتهم غـريبا مستضيفا رأوا قتلى — إذا فعلوا — جُناحا
أتونى سافرين فقلت أهـلا رأيت وجوههم وُسَمًا صِباحا
نحرت لهم وقلت : ألا هلـموا كلوا مما طهيت لكم سماحا

« وكلا الشعرين أكذوبة من أكاذيب العرب لم تقع قط » (١) .

٢ — وتمادوا فى تخيل الصحبة والعشرة حتى زعموا أن عمرو بن يربوع تزوج الغول ، وأولدها بنين ، ولذا سُمُّوا بنى السِّعلاة ، قال شاعر يهجوهم :

يا قبّح الله بنى السِّـعلاة عمرو بن يربوع شِرار النّاتِ
ليسوا بأبطال ولا أكيات (٢)

ويزعمون أن تأبط شرًّا لقى الغول فراودها عن نفسها فأبت فقتلها .

فطالبتها بضعها فالتـوت فكان من الرأى أن تقتلا (٣)

وحدث عبيد بن أيوب العنبرى عن نفسه أنه تزوج الغول :

علام ترى ليـلى تعـذِّب بالمنى أخا قفرات كان بالذئب يأنس
وصار خليلَ الغول بعد عَرَارَةٍ صَفيًّا ، وربّته القفار البسابس (٤)

وذكر الجاحظ عن أبى زيد أن رجلا تزوج السعلاة ، وأنها كانت عنده زمانا وولدت منه حتى رأت ذات ليلة برقا على بلاد السعالى فطارت إليهن فقال :

رأى برقا فأوضع فوق بِكر فلايًا ما أسال وما أغاما

---

(١) شرح أدب الكاتب لابن السيد
(٢) النات : الناس . أكيات : أكياس (٣) الأغانى ١٨ / ٢٠٩
(٤) الحيوان ٦ / ٥٩ العرارة : النساء يلدن الذكور . البسابس : القفار الخالية .

فمن هذا النتاج المشترك وهذا الخلق المركب بنو السعلاة من بنى عمرو ابن يربوع [1] .

وإلى هذا أشار أبو العلاء فى ذكره حنين الإبل إلى البرق :

إذا لاح إيماض سترتُ وجوهها   كأنى عمرو والمطى سعالى

هـ — قتلهم الغول

والعامة تزعم أن الغول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت ، فإن أعاد الضارب ضربة أخرى قبل أن تموت فإنها لا تموت ، قال الشاعر :

فثنيت ـ والمقدار يحرس أهله ـ   فليت يمينى قبل ذلك شُلت

وأنشدوا لابى البلاد الطهوى :

لهان على جهينة ما ألاقى   من الرَّوْعات يوم رحا بطان
لقيت الغول تسرى فى ظلام   بسَهب كالعباية صحصحان
فقلت لها : كلانا نضو أرض   أخو سفر فصدى عن مكانى
فصدت وانتحيت لها بعضب   حسام غير مؤتشب ، يمانى
فقدَّ سراتَها والبرْكَ منها   فخرَّت لليدين وللجران
فقالت : زد . فقلت : رويد إنى   على أمثالها ثبت الجنان
شددت عقالها وحططت عنها   لأنظر غُدْوةً ماذا دهانى
إذا عينان فى وجه قبيح   كوجه الهر مشقوق اللسان
ورِجلا مُخْدَجٍ ولسان كلب   وجلد من قراب أو شنان

وأبو البلاد الطهوى هذا من شياطين الأعراب ، وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ويطيل الكذب ويجيزه . [2]

فهذا الشاعر يَدَّعى أو يُدّعى له أنه لقى الغول فى الظلام بفلاة واسعة مستوية ،

---

(١) الحيوان ٦/ ٦٠

(٢) الحيوان ٦/ ٧٢ صحصحان : أرض مستوية . سهب : فلاة . مخدج : ناقص الخلقة . شنان : قرب بالية . الجران : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منخره .

فخدعها بقوله إن كلا منهما مهزول من الترحال فابتعدت عنه ، ولكنه أنحى عليها بسيفه القاطع فقد ظهرها وثوبها فخرت صريعة ، فهمت أن تخدعه كا خدعها فقالت له زدني ضربا ، فلم يضربها لئلا تحيا ، وفي الصباح نظرها فرأى شكلها العجيب .

ولكن هذه القصيدة المنسوبة لأبي البلاد الطهوي تكاد هي نفسها تكون منسوبة لتأبط شراً ، ولأبي الغول الطهوي . قال تأبط شراً :

ألا من مُبلغٌ فتيانَ فَهْمٍ　　بما لاقيت عند رحا بطان

بأني قد لقيت الغول تهوى　　بسَهْبٍ كالصحيفة صحصحان

فقلت لها : كلانا نِضْو أرض　　أخو سفر ، فخلي لي مكاني

فشدت شدة نحوي فأهوت　　لها كفي بمصقول يماني

فأضربها بلا دهش ، فخرت　　صريعاً لليدين وللجران

فقالت : ثن . قلت لها : رويدا　　مكانك إنني ثبت الجنان

ولم أنفك مضطجعاً لديها　　لأنظر مُصْبحا ماذا دهاني

إذا عينان في رأس دقيق　　كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقُ مُخْدَجٍ ولسان كلب　　وثوب من عَباء أو شِنان(١)

والقصيدتان قصيدة واحدة بها تغيير يسير .

ولا تخرج الأبيات التي عزيت إلى أبي الغول الطهوي عن ذلك (٢) .

ثم هم ينسبون إلى تأبط شراً أبياتا أخر يصف فيها لقاءه للغول وأنه راودها عن نفسها فأبت فقتلها :

فأصبحت الغول لي جارة　　فيا جارتا لك ما أهولا

فطالبتها بُضْعَها فالتوت　　عليّ وحاولتُ أن أفعلا

فمن كان يسأل عن جارتي　　فإن لها باللّوى منزلا (٣)

---

(١) الأغاني ٢٠٩/١٨ ومعجم البلدان ٢٣١/٤ وصبح الأعشى ٤٠٥/١ وبلوغ الأرب ٣٧٩/٢
(٢) المؤتلف والمختلف ١٦٣　　(٣) الأغاني ٢٠٩/١٨

ويروى هكذا :

فطالبتها بضعها فالتوت فكان من الرأى أن تقتلا
فطالبتها بضعها فالتوت فكان من الرأى أن تقتلا

و — الجن فى الأدب اليونانى

ولم يشذ العرب بتخيلهم للجن وتصورهم لشكلهم وادعائهم أنهم يخالطونهم ، فإن الأدب اليونانى ملىء بهذا التخيل ، والميثولوجيا الإغريقية حافلة بالأقاصيص عن آلهة اليونان وأنصاف الآلهة ، وعرائس البحار والغابات وبنات الماء .

ومن مميزات سكان الأولمب القدرة على التشكل بهيئة إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد ، فليس عجيبا أن يمثل هومير هذه الأساطير فى صور شعرية شائقة ، وليس عجيباً أن تعمر أساطيرهم بأقاصيص الغرام بين الآلهة والبشر فى ثنايا الإلياذة والأوديسة ، وفى شعر هسيود وروايات سوفوكليس ويوريبيدس . وما قصة غرام أفروديت بأودونيس إلا صورة من قصة الجنية العاشقة فى تصوير شعرى رائع .

(٤) شياطين الشعراء

عبقر . شيطانا الشعر . شياطين بعض الشعراء . شياطين شعراء الإفرنج .

العقل الباطن

١ — الشعر وحى وفيض وإلهام ، وهو إذا ما صدر عن عاطفة مشبوبة صادقة فن لا أثر للإرادة فيه ، أو أثرها فيه أضعف من أثر التلقى والطواعية والاستمداد من أغوار النفس واللاشعور

وقد نسب العرب كل أمر عجيب إلى الجن ، وتخيلوا أن عبقر واديهم ومقامهم ، وقالوا فى الأمر العظيم عبقرى ، فلا عجب أن يصلوا الشعر بالجن ، ولا عجب أن يتخيلوا أن لكل شاعر شيطانا يلهمه القريض ، ولكن للشعر شيطانين ، أحدهما مجيد واسمه الهوبر ، والآخر مفسد واسمه الهَوْجل ، وكانت عقيدتهم هذه معلومة فى العصر

الإسلامى ، فقد روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق وقال له . إنى قد قلت شعراً فاسمعه ، قال أنشدنى ، فقال :

ومنهم عُمر المحمود نائله ... كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال : يا ابن أخى ، إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره ، ومن انفرد به الهوجل فسد شعره ، وقد اجتمعا لك فى هذا البيت ، فكان معك الهوبر فى أوله فأجدت ، وخالطك الهوجل فى آخره فأفسدت (١) .

وقد سموا الشعر رُقَى الشياطين ، قال جرير :

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيا

وقال آخر :

ماذا يُظَنُّ بسلمى إذ يلم بها ... مُرَجَّلُ الرأس، ذو بُرْدَيْن وضّاحُ

خزٌّ عمامتـــه ، حُلْوٌ فكاهته ... فى كفه من رقى الشيطان مفتاح

وصرح كثير منهم فى العصر الجاهلى ، وفيما بعده ، بأن شياطينهم تلهمهم أفانين القول ، قال الراجز :

إنى وإن كنت صغير السن ... وكان فى العين نبوٌّ عنى

فإن شيطانى أمير الجن ... يذهب بى فى الشعر كل فن (٢)

وقال حسان فى جاهليته يعزو إلى شيطانه أنه قائل بعض شعره .

إذا ما ترعرع فينا الغلام ... فما إن يقال له : من هُوَهْ

إذا لم يسد قبـــل شد الإزار ... فذلك فينا الذى لا هوه

ولى صاحب من بنى الشيصبان ... فطوراً أقول ، وطوراً هوه

وقال جرير :

إنى ليلقِى علىَّ الشعـ ... ـرَ مكتهلٌ من الشياطين

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠ (٢) رسائل أبي العلاء ١٠٥

ب — ولم يكتفوا بنسبة شعرهم إلى الشياطين ، بل سموها ، فكان لكل شاعر شيطانه المسمى فشيطان الأعشى مسحل ، وشيطان قرو بن قطن جهنام . قال الأعشى :

دعوت خليلي مسحلا، ودعوا له جهنام بعداً للغوى المذمم[1]

وشيطان المخبل السعدى عمرو ، قال الشاعر الإسلامي :

لقد كان جنى الفرزدق قدوة ولا كان فينا مثل فحل المخبل

ولا في القوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل

وشيطان عبيد بن الأبرص هبيد ، وهو نفسه شيطان بشر بن أبي خازم ، وينسبون إليه قوله :

أنا ابن الصلادم أدعى الهبيد حبوت القوافي قرمى أسد

عبيداً حبوت بمأثورة وأنطقت بشراً على غير كد

ولاقى بمدرك رهط الكميت ملاذا عزيزاً ومجداً وجد

منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد[2] ؟

وسأله الراوى : أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مدرك ، فقال : هو مدرك بن واغم صاحب الكميت ، وهو ابن عمى .

وقالوا إن شيطان امرئ القيس لافظ بن لاحظ ، وشيطان النابغة الذبيانى هاذر[3] ، ونسبوا إلى أبي نواس أنه كان يستعين بإبليس فى نظم الشعر ، ورووا له أبياتا منها :

دعوتُ إبليس ثم قلت له فى خَلْوة والدموع تنحدرُ

أما ترى كيف قد بليتُ ، وقد أقرح جفنِي البكاء والسهر ؟

إن أنت لم تُلق لى المودة فى صدر حبيبي وأنت مقتدر

لا قلتُ شعراً ولا سمعتُ غِنًا ولا جرى فى مفاصلى السكَرُ

فما مضت بعد ذاك ثالثةٌ حتى أتانى الحبيب يعتذر[4]

---

(١) رسائل أبي العلاء ١٠٥ (٢) جمهرة أشعار العرب ٢٣ (٣) الجمهرة ٢٣
(٤) عصر المأمون ٣/ ٢٢٣

ولم يقتصروا على نسبة الشعر للشياطين ، بل نسبوا إليهم الغناء أيضاً فى الإسلام ، فقالوا إن الغريض كان يتلقى غناءه عن الجن ، وأن سماره سمعوا وهو يغنيهم ذات ليلة عزيفا عجيبا وأصواتا مختلفة أفزعتهم ، فقال لهم إن فيها صوتا إذا نام سمعه ، ويصبح فيبنى عليه غناءه ، فأصغوا إليه فإذا نغمته هى نغمة الغريض فصدقوه [١] .

ولم يقنع أبو النجم أن يكون شيطانه كشياطين الشعراء ، فادعى أن شيطانه ذكر وشياطينهم إناث ، لأن الذكور أقوى من الإناث وأقدر :

إنى — وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى — وشيطانى ذكر

وروى بعضهم بيت عمرو بن كلثوم فى معلقته هكذا :

وقد هرّت كلاب الجن منا وشذّبنا قتادة من يلينا [٢]

وقال إن الشعراء كانوا يسمون كلاب الجن ، فالمعنى أننا لبسنا الأسلحة فشرع الشعراء يذكروننا ويرْهبوننا .

حـ — ولهم مع شياطين الشعراء أقاصيص ومساجلات ، ومحاكات منثورة فى كتب الأدب ، نذكر بعضها للتمثيل :

قال جرير بن عبد الله البَجَلى [٣] : « سافرت فى الجاهلية فأقبلت على بعيرى ليلة أريد أن أسقيه ، فأبى أن يتقدم ، فدنوت من الماء وعقلته ، ثم أتيت الماء فإذا قوم مشوهون عنده ، فقعدت . ثم أتاهم رجل أشد تشويها منهم ، فقالوا هذا شاعرهم وطلبوا منه أن ينشدنى ، فأنشد :

ودع هريرة إن الركب مرتحل البيت . . . .

فلا والله ما خرم منها بيتا واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :

تسمع للحَلْى وسواسا إذا انصرفَتْ كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ [٤]

فأعجبه ، فقلت له : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا ، قلت : لولا ما تقول

---

(١) الأغانى ٢/٣٧٣ الدار

(٢) آكام المرجان والمعلقات العشر للشنقيطى ١٠٠ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٢٢٧

(٣) الأغانى ٩/١٥٦

(٤) العشرق : شجيرة فى أكمامها حب صغير إذا جفت فمرت بها الريح سمعت لحبها خشخشة

لأخبرتك أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عاما أول بنجران ، قال : فإنك صادق ، أنا الذى ألقيتها على لسانه ، وأنا مسحل صاحبه ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس » .

وقد لاقى الأعشى هاجسه مسحلا وسمع منه [١] ، وقد اعترف فى شعره أن مسحلا يوحى إليه ، بل إنه مصدر وحيه ولولاه ما شعر .

وما كنت شاحوذاً ولكن حسبتُنى إذا مسحل يسدى لى القول أنْطَق
شريكان فيما بيننا من هَوادة صفيان : إنسىٌّ وجنٌّ مُوَفَّق
يقول فلا أعيا بقول يقوله كفانى ، لا عَىٌّ ولا هو أخرق [٢]

وحاور عبيد بن الحمارس جنيا بالشعر [٣]

وذكر أبو العلاء أن أبا بكر بن دريد قص على أصحابه أنه رأى فيما يرى النائم أن قائلا يقول : لم لا تقول فى الخمر شيئا ؟ فقال : وهل ترك أبو نواس مقالا ؟ فقال له أنت أشعر منه حيث تقول :

وحمراءَ قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبَىْ نرجس وشقائق
حكتْ وَجْنَةَ المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لونَ عاشق

فقال له أبو بكر : من أنت ؟ فقال : أنا شيطانك ، وسأله عن اسمه فقال : أبو زاجية ، وخبره أنه يسكن بالموصل [٤] .

ى — وإذا كان العرب قد عزوا شعرهم إلى الجن ، وتخيلوا أنها تلهمهم ، ونسبوا كل أمر عظيم إلى عبقر فإن الفرنجة يشبهونهم فى كثير من تخيلهم .

يعبر الإنجليز عن العبقرية بكلمة Genius ومصدرها الذى اشتقت منه كلمة

---

(١) خزانة الأدب ٥٤٩/٣ (٢) جمهرة أشعار العرب ٣٠
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤٤٨/٤
(٤) رسائل أبى العلاء ١٠٦

Genii ومعناها جن ، فبين العبقرية والجن علاقة في اللغة الإنجليزية كالعلاقة التي بين عبقر والعبقرية في اللغة العربية ، وقيل إن أصل الكلمة لاتيني يدل على معنيين متقابلين ملك رحيم وشيطان رجيم ، يولد الواحد منهما أو يولدان معاً بمولد الشاعر ، ويقصون عن بعض شعرائهم قصصاً تشبه شبهاً قويا ما روى عن شياطين شعراء العرب فمثلا بدأ الشاعر كولردج قصيدته (كوبلاخان) وأتمها له جني والشاعر نائم . واستيقظ الشاعر ماسفيلد من نومه لينقل عن جني قصيدته (المرأة تتكلم) . وأغرب من هذين ما يرويه وليم بلاك عن نفسه إذ يزعم أنه مسكون ، وأن ساكنيه ملائكة وشياطين تطارده نهاراً ، وتوقظه ليلا ، لتوحي إليه بما ينظم وَحْياً لا يستطيع أن يصده ولا قدرة له على تنقيح ما توحى به .

ويقول « ريلكه » إنه ظل أسير الأرواح ثلاثة أيام لم ينقطع فيها نظمه ، وأخرج ديوانا من دواوينه الروائع ، وأعجبه ، وألح الجن أن ينشره ، فرضي على شريطة أن يكون النشر بعد وفاته ، حتى لا يتحمل تبعة شعر أملاه عليه جني جالس قبالته(١)

هـ — ولكن علم النفس يعزو هذا كله إلى العقل الباطن ، وقد كشفت الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسي عن كثير من عمل العقل الباطن عند الفنان ، وانتهوا إلى أن لإنتاج الفني يصدر غالبا عن العقل الباطن كأنه حلم يقظة .

ويروى ستيفنسن كيف بدأ هو نفسه يكتب قصته الفنية البديعة « دكتور جيكل ومستر هيدِ » فيقول : « إن العمل الحقيقي يقوم به مساعد غير منظور أبقيه أنا داخل حجرة عليا مغلقة . . . يقوم به أولئك الناس الصغار — في الدماغ — الذين ينجزون لي نصف عملي وأنا مستغرق في نومي ، وربما أنجزوا النصف الباقي وأنا مستيقظ تمام اليقظة ، حيث أظن أني أنا القائم بالعمل ، وكثيراً ما يعن لي أن أعتبر نفسي غير فنان ، بل مخلوقا شأنه شأن بائع الجبن أو الجبن نفسه » .

---

(٢) الأدب المقارن لنجيب العقيقي ٤٠

وهذا التصوير المستملح تؤيده إشارات من كتاب آخرين ، فهذا فولتير ــ وقد جلس مرة أخرى فى إحدى مقاصير المسرح يشهد تمثيل رواية من رواياته ــ يصيح متعجباً : أحقًّا أنا الذى كتب هذا ؟!

وجورج إليوت ــ ولم تكن تعتقد فى قوى نفسية غير طبيعية ــ تصرح أنها قد خيل إليها وهى تكتب Adam bede أن عقلا آخر قد استحوذ على قلمها وسيره . ويقول جوته إنه كتب أحسن رواية له وهو فى غيبوبة حالة يشبهها بحالة النائم الماشى .

وكثير من الأدباء الأحياء صرحوا بهذا ، فمثلا بروفسور هوسمان يقول فى طريقة إنتاج قصائده : أنا أظن أن إنتاج الشعر ليس عملية فاعلة Active قدر ما هى قابلة Passive وغير اختيارية [1].

و ــ التحليل النفسى يعزو إلى العقل الباطن الإنتاج الأدبى الرفيع ، وقد عبر الشعراء العرب والإفرنج عن هذا العقل بأنه قوى خفية تلهم ، وسموها شياطين .

وإذ كان الشعر يحلق بجناحين من الخيال فقد حُق للشعراء أن ينطلقوا مع خيالهم فينسبوا شعرهم إلى قوى وراء حسهم . وتَصَوُّرُهم هذه القوى شياطينَ ألصق بالخيال وأدنى إلى الشعر من التحليل النفسى الذى يرجع الإنتاج الأدبى إلى العقل الباطن للشاعر ، أى إلى الشاعر نفسه .

لست بهذا أهيم مع الشعراء ، وأجحد حقائق العلم ، وإنما أقرر أن الشعراء كانوا موفقين فى تخيلهم وفى دعواهم أن شياطينهم تلهمهم أو تملى عليهم .

(٥) الزجر والعيافة

ما الزجر ؟ بم تشاءموا ؟ بم تفاءلوا ؟ إنكار كثير منهم للزجر

ا ــ الزجر والعيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنوائها فتتسعد أو تتشاءم ، والعائف المتكهن بالطير أو غيرها [2] .

(١) كيف يعمل العقل . سرل برت ٢/٢١٨ ــ ٢٢٠ (٢) القاموس المحيط مادة عاف .

وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش وإثارتها ، فما تيامن منها سموه سانحا ، وما تياسر سموه بارحا ، وما استقبلهم فهو الناطح ، وما جاء من خلفهم فهو القعيد .

واختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤمهم بها ، فمنهم من يتشاءم بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بالانحراف إليه ، ويتبرك بالسانح . ومنهم من يرى عكس ذلك (١) . قال عمرو ابن العلاء : « سأل يونس رؤبة بن العجاج : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه . وما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره » (٢) .

وحكى أبو عبيدة عن رؤبة أن البارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك فولاك مياسره . والسانح ما جاء من مياسرك فولاك ميامنه (٣) .

ونقل عن المفضل الضبي أن البارح ما يأتيك من يمينك إلى يسارك ، والسانح ما يأتي من يسارك إلى يمينك (٤) .

وإنما اختلفوا في الاصطلاح لأن الزجر وهم وخرافة تابع للمصادفة البحت ، فمن زجر طيراً وقضى لبانته تفاءل باتجاهها ، ومن لم يقض حاجته تشاءم بهذا الاتجاه نفسه .

قال ابن دريد : أهل نجد كانوا يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح . وأهل العالية على عكسهم . وقال أبو جعفر النحاس : السنيح عند أهل الحجاز ما أتى من اليمين إلى اليسار ، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين ، وهم يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح ، وأهل نجد بالضد من ذلك والسانح عند أهل نجد هو البارح عند أهل الحجاز ، وقال المبرد : السانح ما أراك مياسره فأمكن الصائد ، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له (٥) .

ب — وأصل التطير من الطير إذا مر بارحا أو سانحا أو رآه يتفلى وينتتف ، ثم صاروا إذا رأوا الأعور من الناس والبهائم ، أو الأعضب أو الأبتر زجروا

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢) العمدة ٢/٢٠٣
(٣) الأغاني ٩/١٥٧ ساسي (٤) بلوغ الأرب ٣/٣١٨
(٥) العمدة ٢/٢٠٣ والأغاني ٩/١٥٧ ساسي

عند ذلك وتطيروا كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال ، فزجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوه فى كل شىء [١]

فهم إذاً بدءوا بالطير ثم انتقلوا إلى غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا الحيوان إلى ما يحدث فى الجماد من كسر أو صدع مثلا [٢] .

وليس فى الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شىء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ، وأبشع إخباراً ، وأشنع أخباراً ، فلماذا خصوا الغراب بهذا ؟

لعل سبب ذلك أمور راجعة إلى لونه ، وإلى عمله ، وإلى اسمه ، ونستطيع أن نستنبطها من قول الجاحظ : « وتطيروا بالغراب إذا كان أسود ، ولاختلاف لونه إن كان أبقع ، ولأنه غريب لا ينقطع إليهم ، ولأنه لا يوجد فى موضع خيامهم يتقمم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم ، ولأنه ليس شىء أشد على ذوات الدَّبَر من إبلهم من الغربان ، ولأنه ينقب عن الدبَر حتى يبلغ إلى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب وفقار الظهر »[٣] . وقد بسط ولوعه بنقر قروح الإبل فى موضع آخر إذ يقول إن العرب تسمى الغراب ابن داية ، « لأنه اذا وجد دبرة فى ظهر البعير أو قرحة فى عنقه سقط عليها ونقره وعقره حتى يبلغ الدايات ، وإذا كان فى ظهر البعير دبرة غرزوا فى سنامه إما قوادم نسر أسود وإما خرقة سوداء لتفزع الغربان منه ولا تسقط عليــــه . وقد يوضع الريش علامة لجمال الملوك [٤] »

وأشار إلى التشاؤم باسم الغراب بقوله إن اسمه قد اشتقت منه الغرابة والاغتراب والغريب [٥] .

---

(١) الحيوان ٣/١٣٥ (٢) صبح الأعشى ١/٣٩٩

(٣) الحيوان ٣/١٣٦ الأبقع : الذي فيه بقع كالبلق فى الدابة . الدبر : جمع دبرة وهى القرحة . دايات العنق : فقراته (٤) الحيوان ٣/١٢٩ (٥) الحيوان ٣/١٣٥

لهذا جعلوا الغراب مثلا فى الشؤم ، حتى إنهم إذا ذكروا غيره ذكروا الغراب معه ، وقد يذكرون الغراب وحده ، وهم يتشاءمون بغيره من وجه واحد ، أما هو فكثير المعانى فى هذا الباب ، فهو المقدم فى الشؤم (١) .

وبلغ من بغضهم له أن تحرزوا من التصريح باسمه ، فكنوا عنه بالأعور مع أنه مشهور عندهم بقوة الإبصار وصفاء العين ، فيقال « أصح بدنا من غراب ، وأبصر من غراب ، وأصفى عينا من غراب (٢) »

وقد أكثر الشعراء من ذكر تشاؤمهم بنعيبه وشحيجه ، قال عنترة إن الغراب الأبقع قد أنذره ببين أحبابه ، وإنه غراب كريه المنظر منسول الريش مولع بتفريق الأحبة ، فكان فكيه مقص يقطع الأواصر :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى ببينهم الغرابُ الأبقع
حَرِقُ الجناح كأن لَحْيَيْ رأسه ... جَلَمان . بالأخبار هشٌّ مولع
فزجرته ألا يُفرِّخ طيره ... أبداً ويصبح خائفا يتفجع
إن الذين نعبتَ لى بفراقهم ... هم أسهروا ليلى التمامَ فأوجعوا (٣)

وتوجس زهير أن يرتحل عنه أحباؤه لما سمع نعيق الغراب :

ألق فراقهم فى المقلتين فذى ... أمسى بذاك غراب البيْن قد نعقا

وكذلك توجس النابغة :

زعم العواذل أن رحلتنا غدا ... وبذاك تنعاب الغراب الأسود (٤)

وبقى التشاؤم بالغراب الى ما بعد الإسلام ، وما زال الناس يتشاءمون به وبالبوم إلى اليوم ، قال عمر بن أبى ربيعة :

نعب الغراب ببين ذات الدُّمْلُج ... ليت الغراب ببينها لم يَشْحَج (٥)

(١) الحيوان ٣/١٣٧ (٢) الحيوان ٣/١٣٠

(٣) ديوان عنترة ١٠٣ والحيوان ٣/١٣٦ . حرق الجناح : منسول الريش متقطعه . اللحيان : جانبا الوجه . الجلم : المقص الكبير . يفرخ : تصير له فراخ (٤) الأغانى ٩/١٥٧ ساسى

(٥) يشحج : يصوت . يقال شحج الغراب إذا غلظ صوته لكبر سنه .

وقال جرير :

إن الغراب بما كرهت لمولع　　بنوى الأحبة دائم التَّشحاج
ليت الغراب غداة ينعب دائبا　　كان الغراب مقطع الأوداج

على أنهم تشاءموا بطيور أخرى ، منها الجراد « لأن فيه معنى الجَرْد ، ولأنه ذو ألوان [1] » والجرد من معانيه القحط والمنع والتعرية والبلى [2] . وسنذكر قصة النابغة وصاحبه لما خرجا للغزو فسقطت جرادة على أحدهما فتطير ورجع ، ولم يعبأ الآخر فغنم وعاد .

وقد يتطيرون بالبازى والغراب والرَّخم والبوم « وأشياء كثيرة من جهة القسمية ويتيمن بها آخرون [3] » .

وكذلك تشاءموا ببعض الحيوان كالثور الأعضب — المكسور القرن — والأبتر — المقطوع الذنب — والقعيد — ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر — والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش [4] .

قال الرَّماح بن أبرد :

جرى بانبتات الحبل من أم جحدرٍ　　ظباءٌ وطير بالفراق نَعُوب [5]

وهذه حادثة تاريخية تنبئ عن تشاؤمهم بالكلاب ، ذكر الطبرى أن السيدة عائشة سارت إلى البصرة لتشترك فى موقعة الجمل ، فلما مرت على ماء الحوءب نبحتها كلابه ، فقالت هى ومن معها : أى ماء هذا ؟ فقيل لها : ماء الحوءب . فصرخت السيدة عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ، ثم قالت : « أنا والله صاحبة كلاب الحوءب ، طُرُوقا رُدونى » تقول ذلك ثلاثا . فأناخت وأناخوا حولها وهم على ذلك وهى تأبى ، فغالطوها وقالوا لها إنه ليس ماء الحوءب ، حتى كان الغد

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/١٣٦
(٢) القاموس المحيط مادة جرد
(٣) العمدة ٢/٢٠٣
(٤) المخصص لابن سيده مواد الكلمات
(٥) الأغاني ٢/٢٧٣

فجاءها ابن الزبير فقال : النّجا النجا ، فقد أدركـكم والله على بن أبى طالب ، فارتحلوا (١)
ويظهر أن العرب كانوا يتشاءمون بكلاب الحوءب إن نبحتهم ، ويتفاءلون بها إن لم تنبحهم ، وظل وهمهم هذا إلى ظهور الاسلام .

وأشركوا النبات مع الطير والحيوان ، فتشاءموا بالغَرْب — شجرة حجازية ضخمة شائكة — والبان ، والخِلاف — الصفصاف — ولعل السبب أنهم ربطوا بين أسمائها وما تدل عليه مادتها من غربة وبَيْن واختلاف ، وربما نظروا إلى مرارة طعم الريحان — وهم يتفاءلون بالريحان — فتشاءموا به (٢)

ولم يقف تشاؤمهم عند هذا ، فإنهم تشاءموا ببعض الأحداث . فإذا انكفأ من المرأة إناء وصُبّ مافيه تشاءمت واستعاذت من ذلك بقولها : دافقُ خيرٍ . وتشاءموا بالعُطاس ، قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشيع الجنب فَعْم المُنَطَّق

يقول إنه يبكر قبل أن يستيقظ الناس ، حتى لا يسمع عطاسهم فيتشاءم ويخيب . وإذا استمع أحدهم عاطسا لا يعرفه ، قال : بكلابى أسأل الله أن يجعل شؤمك بك لا بى (٣) .

حـ — ولهم ضروب من التفاؤل أسلفت بعضها فى أول الفصل ، على أنهم تفاءلوا بالهدهد إلى أبعد حد ، لأنهم زعموا أنه كان يهدى سليمان عليه السلام إلى مواضع الماء فى أعماق الأرض ، وزعموا أن الله تعالى آثره بالقُنْزُعة التى على رأسه مثوبة له على بره بأمه ، لأنها لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القُنْزُعة عوضٌ عن تلك الوهدة ، ويروون قصيدة فى ذلك لأمية بن أبى الصلت أو غيره (٤) .

د — ولكن الزجر لم يكن ضربة لازبة يدين به جميع الناس ، فإنه وهمٌ لا يستند

---

(١) تاريخ الطبرى ١٧١/٥ ومعجم البلدان ٣٠٦/٣
(٢) الحيوان للجاحظ ١٤٢/٣
(٣) بلوغ الأرب ٣٦٦/٢ (٤) الحيوان للجاحظ ١٦٠/٣

إلى منطق الحوادث والعقل . لذا نجد به كثير من الشعراء ، وسفهوا المتشائمين خاصة ، لأن التشاؤم يدعو إلى الكف والإحجام ، أما التفاؤل – على أنه وهم أيضا – فإنه يدعو إلى الإنجاز والإقدام .

قال المرقم :

لا يمنعنَّكَ من بُغا ء الطير تعقيد التمائم
لا والتشاؤم بالعطا س ولا التيمن بالمُقاسم
ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم[1]

ونصح أفنون بن صريم التغلبي من يزمع الرحلة ألا يثنيه زاجر الطير ، ولا يعوقه الغراب ولا الوعول الآتية من الخلف :

يا أيها المزمع وَشْكَ النوى لا يَثْنِك الحازى ولا الشاحج
ولا وعول نَجَشَتْ كُدَّسًا خارجها من غمرة والبج[2]

وافتخر ربيعة بن مقروم بأن مقادته إلى الله ، فلا يثنيه طير سانح ، ولا يعوقه غراب ، وهو على مذهب أهل العالية فى تشاؤمهم بالسانح

أصبح ربى فى الأمر يرشدنى إذا نويت المسير والطلبا
لا سانح من سوانح الطير يثنيـ ـنى ولا ناعب إذا نعبا[3]

ويشاركه لبيد فى إيمانه بالقضاء والقدر ، وأن الغيب مفاتيحه بيد الله وحده :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعلُ[4]

ولم يقتصر بعضهم على إنكار التطير ورفضه ، بل زادوا على جحدهم له أنه

---

(١) حماسة البحترى ٢٥٥ والأغانى ١٥٧/٩ ساسى . المقاسم من يقاسمك . الواقى : الصرد وهو طائر ضخم الرأس . الحاتم : الغراب . ويروى حاتم وهو الطير .

(٢) حماسة البحترى ٢٥٦ ورواها الجاحظ للحارث بن حلزة فى الحيوان ١٣٩/٣ الحازى : زاجر الطير . الشاحج : المراد به الغراب نجشت : ثارت . كدسا : جمع كادس وهو الذى يجىء من الخلف والعرب تتشاءم به . غمرة : جماعة الظباء والوعول ، يعني أن الذى يتخلف عنها يدركها سريعا فيلج فيها لأنه عداء

(٣) حماسة البحترى ٢٥٧ (٤) بلوغ الأرب ٣٢٧/٣

شؤم على من يعتقده ، لأنه إن لم يعوقه عن طِيَّته يزعزع ثقته ويبلبل عقله ، قال علقمة بن عبدة :

ومن تعرض للغربان يزجرها　　على سلامته لا بد مشئوم[١]

وروى أن النابغة خرج هو وزَبَّان بن منظور الفزارى للغزو ، فسقطت جرادة على النابغة فتطير وعاد ، وأما زبان فمضى فظفر وغنم ، فقال :

تَعَـلَّمْ أنه لا طير إلا　　على متطير ، وهى الثبور

بلى ! شئٌ يوافق بعض شئ　　أحايينا ، وباطله كثير

يقولها فى جملة أبيات لا أقف على جملتها .[٢]

وقد ذكر الجاحظ هذه الأبيات فى البيان والتبيين ونسبها إلى زبان بن سيار بن عمرو بن جابر ، ولم يشر إلى قصة النابغة ، ولكن البيت الاول فيه اسمه (زياد) :

تَخَيَّرَ طِيرَةً فيها زيادٌ　　لتخبره ، وما فيها خبير

أقام كأن لقمان بن عاد　　أشار له بحكمته مشير

تعلمْ أنه لا طير إلا　　على متطير وهو الثبور

بلى شئ يوافق بعض شئ　　أحايينا وباطله كثير

ومن يُتْرَخْ به لا بد يوما　　يجئ به نَعِيٌ أو بشير[٣]

ولكنه فى كتاب الحيوان ذكر قصة النابغة وزبان ، وأن الجرادة وقعت على النابغة أو على زبان ، وأورد الأبيات[٤]

وفى هذه الأبيات معنى جديد هو أن الطير لا أثر لها فى خيبة أو نُجْح ، وما هى إلا مصادفات فى بعض الأحيان ، والمصادفة ليست سببا ولا علة .

وهذا عوف بن عطية بن الخرع التيمى لا يعبأ بالطير ، يقول إنهم يقصدون البلاد ليهجموا وليغنموا غير متوجسين من طير شرا حيثما اتجهت وكيفما طارت ، سيان عندهم السانح منها والبارح :

---

(١) المفضليات ٢/١٠١　　(٢) العمدة ٢/٢٠٢ وربيع الأبرار للزمخشرى ورقة ١٢٣ مخطوط

(٣) البيان والتبيين ٣/١٨٤ والهوامل والشوامل　　(٤) الحيوان ٣/١٣٨

نؤم البلاد لحب اللقاء ولا نتقي طائراً حيث طارا
سنيحاً ولا بارحا إن جرى ونرجو هنالك يمن اليسار(١)

وافتخر حاتم بن عدى بأنه ذو عزيمة قوية لا يثنيه عن قصده صُرَد ولا غراب :

وليس بهياب إذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم(٢)

وكان من الطبيعي أن يكون شعراء الإسلام أكثر تنديداً بالزجر والزاجرين ، لأنه يفتر العزائم ، ويعوق عن الأعمال ، ويكل الغيب إلى غير الله تعالى علام الغيوب . ومن ألطف ما قيل أبيات لأبي الشيص يبرئ فيها الغراب من الطيرة ، ويقول إذا كان الناس يتطيرون منه لأن اسمه قريب من الغربة فأولى بهم أن يتطيروا بالإبل ، لأنها مطايا الغربة والفرقة :

الناس يَلْحَوْن غرا ب البيْن لما جهلوا
وما على ظهر غرا ب البين تُطْوَى الرُّحَل
ولا إذا صاح غرا ب في الديار احتملوا
ما فرق الأحباب بعـ د الله إلا الإبل
وما غراب البين إلا ناقة أو جمـل(٣)

وكذلك فعل شعراء إسلاميون كثيرون منهم الكميت ، فهو على خبرته بعادات العرب وعقائدهم لم يجارهم في تشاؤمهم :

ولا أنا ممن يزجر الطيرُ همَّه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمرَّ سليم القرن أم مرَّ أعضب(٤)

ومنهم ضابئ بن الحارث ، فقد أعلن أن الإنسان قد يتوجس شرًّا من أمر لا ضير فيه ، والرجل الذى يوطن نفسه على تحمل رزايا الدهر إنما هو رجل ضعيف العزيمة :

---

(١) معجم الشعراء ٢٧٦ (٢) الحيوان ٣/١٣٠ حاتم : هو الغراب . الواقي : الصرد
(٣) العمدة ٢/٢٠١ الرحل : جمع رحلة بضم الراء وكسرها
(٤) العمدة ٢/٢٠٢ ونسبهما الألوسى إلى ضابىء بن الحارث البرجمي ٣/٣٢٧

وما عاجلات الطير تُدنى من الفتى ... نجاحاً ولا عن رَيْثهن يخيب
ورب أمور لا تَضيرك ضَيْرة ... وللقلب من مخشاتهن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطِّن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب[1]

والمراد بعاجلات الطير تلك التى تمر أمام الزاجر أول ما يبصر ، فإن أبطأت عليه وزجرها فقد راثت ، والأول محمود والثانى مذموم .

(٦) عقر الإبل على القبور

كانوا يعقرون على قبر الميت ، واختلف فى الباعث على العقر ، قال ابن السيد فيما كتبه على الكامل للمبرد : قال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل فى حياته لضيفانه ، واحتجوا بقول زياد الأعجم يرثى المغيرة بن المهلب (وقيل إن الشعر للصلتان العبدى) .

فإذا مررت بقــبره فاعقر به ... كوم الجلاد وكلَّ طِرْف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخا دم وذبائح[2]

وقال آخرون إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاما للميت كما كانوا يذبحون للأصنام . وقيل إنهم فعلوه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت ، فكأنهم يثأرون لهم منها ، وقيل إن الإبل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بعقرها أنها قد هانت عليهم لعظم المصيبة . وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث : « لا عقر فى الإسلام » .

وأنا أميل إلى أن العقر كان تكريماً للميت ، وإشهاراً لفضله بين الناس ، وتباهياً بما نحر بنوه على قبره من ذبائح لإطعام الفقراء ، وإذا كانوا قد تياسروا لتوزيع لحم

---

(١) تهذيب الكامل المبرد ٢/٢٥٨ وبلوغ الأرب ٣/٣٢٦ والأصمعيات من مجموع أشعار العرب نشرها وليم بن الورد البروسى ١٦

(٢) الكامل وحماسة الخالديين ٣٩٨ مخطوط ومراث وأشعار لليزيدى . مخطوط بمعهد المخطوطات .

الذبائح على الحاويج ، فهم يعقرون على القبور لإطعام المحاويج ، ثم لم يكن الذبح موقوفا على النوق ، بل كانت تذبح الخيل أيضاً ، والبيت الأول لزياد الأعجم مع أنه فى العصر الاسلامى يقرر هذا .

ولعل هذا الفرض الذى ذهبت إليه هو الذى حمل جريبة بن الأشيم الفقعسى أن يوصى ابنه أن يَعقر على قبره ، ودعا عليه أن يفتقر إن لم يعقر :

إذا مِت فادفِنِّى بحَرَّاءَ ، ما بها سوى الأصْرَخَيْن ، أو يُفَوِّزَ راكب
فإن أنت لم تعقر علىَّ مطيتى فلا قام فى مال لك الدهرَ حالب
ولا تدفِنَنِّى فى صُـــوًى ، وادفنَنِّى بدَيْمومة تنزو عليها الجنادب

ويظهر أن النوق كانت تهيب الذبح إذا مارأت قبراً ، لأنها نظرت غيرها يذبح عليه أو لأنها تهيب الدم ، أو أن الشاعر تخيل هذا وصوره ، قال شاعر مرّ على قبر ربيعة بن مكدّم :

نَفَرتْ قَلوصى عن حجارة حَرَّةٍ بُنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى ياناق منـــه ، فإنه شِرِّيبُ خمر ، مِسْعَرٌ لحروب
لولا السِّفار وبُعْدُ خَرْق مَهْمَه لتركتُها تحبو على العُرْقوب (١)

ويعزز هذا التعليل أن بعض الناس مازالوا إلى اليوم يعقرون الذبائح على عتبة الدار أو على المقبرة ، ويوزعون اللحم على الفقراء ، ثم إن الرعاة فى أريتريا إذا مروا بمقابر أقاربهم « حلبوا البقرة وألقوا ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل » . (٢)

(٧) الهامة والصـــدى

وهذه خرافة مبعثها ولوعهم بالثأر ، وأى تحريض على الثأر أقوى من زعمهم أن القتيل الذى لم يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمى الهامة ، فلا يزال يقول :

(١) العقد الفريد ١٣٦/١ نسب هذا الشعر إلى حفص بن الأخيف وإلى عمرو بن شقيق وإلى كرز ابن حفص بن الأخيف وفى الأغانى ١٢٦/١٤ ساسى أن الشعر لرجل من بنى الحارث بن فهر ، أو لضرار ابن الخطاب بن مرداس أحد بنى محارب بن فهر أو لحسان بن ثابت أو لكرز بن حفص بن الأحنف وفى تهذيب الكامل ٢٥٨/١ أنه لحسان بن ثابت (٢) فى بلاد النجاشى الدكتور كامل مراد ٨١ سلسلة اقرأ

استقونى اسقونى ، حتى يقتل قاتله فيسكن ؟ (١).

ويقول المسعودى : إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصادح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبداً مستوحش ، ويسكن فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به (٢).

قال شداد بن الأسود بن عبد شمس فى رثاء كفار قريش يوم بدر :

يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام ؟

وقال أبو دواد الإيادى :

سلط الموت والمنون عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هام (٣)

وقال شاعر لابنه يوصيه أن يثأر له إن قتل حتى لا تنادى هامته بالسقيا ، لأن أى عطش إنما هو بأبيه لا بالهامة ، وإهمال الثأر مصيبة كبرى يبيض الرأس منها :

ولا تَزْقُوَنْ لى هامةٌ فوق مَرْقَبٍ ... فإنّ زُقاء الهام للمرء عائب

تنادى : ألا اسقونى ، وكل صَدًى به ... وتلك التى تبيضّ منها الذوائب

وقال ذو الاصبع العدوانى مهدداً ابن عمه المبغض له :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حيث تقول الهامة اسقونى (٤)

واستعطف عَبيد بن الأبرص حُجراً لما طرد بنى أسد إلى تهامة بقصيدة قال فيها إن الوديان ملاء بتوجيع المنكوبين وآهات المحروقين وأصوات الهام :

فى كل واد بين يثـ ... ـرب فالقصور إلى اليمامة

تطريب عانٍ أو صيا ... ح مُحَرَّق أو صوت هامة (٥)

---

(١) الأمالى ١٢٩/١ (٢) مروج الذهب ٣٥١/١ (٣) مروج الذهب ٣٥١/١

(٤) المفضليات ١٥٨/١ والأمالى ١٢٩/١

(٥) ديوان عبيد القصيدة ٢٩

وقد عيّروا بترك الثأر ، وعبروا عن ذلك بأن الهامة تطالب بثأر القتيل ،
قال مُفَلّس الفقعسى :

وإن أخاكم — قد علمتُ مكانه   بسفح قُبا — تَسفِى عليه الأعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنها   بنى عامر هل للهلالىّ ثائر؟[1]

أما الصدى فمن معانيه أنه طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلى ، كما يزعم العرب[2]، ويظهر أنهم أطلقوه على غير القتيل فيما بعد كما يتضح من النصوص .
قال حاتم :

أماوىّ إن يصبح صداى بقفرة   من الأرض لا ماءٌ لدى ولا خمر
تَرَىْ أن ما أنفقت لم يك ضرنى   وأن يدى مما بخلتُ به صِفر[3]

وقد ظل هذا من تخيلات العرب بعد الإسلام ، مما يدل على أصالته فى نفوس العرب ، قال توبة :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   علىّ ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا   إليها صدًى من جانب القبر صائح

وقال قيس بن الملوّح :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا   ومن دوننا رمس من الأرض أنكب
لظل صَدَى رمسى — وإن كنت رمة —   لصوت صدى ليلى يَهَشّ ويطرب

وقال جميل بن معمر :

يهواك ما عشتُ الفؤاد فإن أمت   يتبع صداى صداك بين الأقبُر

وذكر الجاحظ أن الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعى إليه ضعف وليه وعجزه ، وهذا كانت العرب تقوله فى الجاهلية ، وأورد للنمر بن تولب :

---

(١) المرأة العربية ١/١٣٣ قبا : موضع قرب المدينة وآخر بين مكة والبصرة
(٢) القاموس المحيط مادة صدى   (٣) شعراء النصرانية ١١٠

أعاذل إن يصبح صداي بقفرة ... بعيداً فآتى صاحبى وقريبى
ترى أن ما أبقيتُ لم أكُ ربّه ... وأن الذى أنفقتُ كان نصيبى (١)

(٨) شق الرداء لتقوية الحب وتأكيده

وكانوا يزعمون أن المتحابين إذا شق كل واحد منهما ثوب صاحبه دامت مودتهما ولم تفسد . وقال أبو عبيدة : كان من شأن العرب إذا تجالسوا مع الفتيات للتغزل أن يتعابثوا بشق الثياب لشدة المعالجة عن إبداء المحاسن . وقيل : إنما يفعلون ذلك ليذكر كل واحد منهما صاحبه به ، وقال العينى : كانت عادة العرب فى الجاهلية أن يلبس كل واحد من الزوجين برد الآخر ثم يتداولان على تخريقه حتى لا يبقى فيه لُبسٌ طلباً لتأكيد المودة . (٢)

وأيا ما كان الباعث على هذا الشق العجيب فإن شعرهم قد صوره ، ونستطيع أن نفسر به قول عبد يغوث بن الحارث :

وأنحر للشرب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا (٣)

فهو فى القصيدة يتحسر على حريته المسلوبة وماضيه الجميل السعيد ، فيقول إنه كان ينحر مطيته للندامى ويوطد حبه للمغنيتين اللتين تطربانه ؛ على أنا نستطيع أن نذهب مذهبا آخر هو أنه جياش الشعور طروب ، إذا ما سمع غناء القينتين شق رداءه إعجابا وفورة .

وبقى هذا الوهم إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فهذا سُحيم عبد بنى الحسحاس يشير إلى شق الرداء والبرقع وإن كان يشك فى نفعه :

فكم قد شققنا من رداء مُنيَّر ... على طفـــلة ممكورة غير عانس

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٢
(٢) خزانة الأدب . البغدادى ١/٣٨١
(٣) المفضليات ١/١٥٦

إذا شُق برد شق بالبرد برقع دواليك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقْيا على الهوى وإلف الهوى يغْرَى بهذى الوساوس [١]

وعجب شاعر آخر من فتور الحب وزواله بعد ما شق برقع حبيبته وشقت رداءه :

شققتِ ردائى يوم بُرقة عالج وأمكنتنى من شق برقعك السَّحْقا
فما بال هذا الود يَفسَد بيننا ويمحق حبل الوصل ما بيننا محقا [٢]

(٩) وطء المقلاة دم الشريف

زعموا أن المرأة التى لا يعيش لها ولد إذا وطئت دم الشريف عاش ولدها ، أو هو خاص بالشريف القتيل [٣] سواء قتل غدراً أو قوداً ، وقال ابن الأعرابى : يمرون به ويطئون حوله ، وقال أبو عبيدة : تتخطاه المقلاة سبع مرات ، وهذا معنى وطئها له [٤] . وشبيه به ما تفعله بعض النساء الجاهلات فى مصر من تخطيهن القتيل للبرء من العقم .

قال بشر بن أبى خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن : ألا يُلْقَى على المرء مئزرُ

وقال الكميت متأثراً بهذه العقيدة ، أو لعلها ظلت إلى عهده ، فى مدحه الحسين ابن على عليهما السلام :

وتطيل المرزّآت المقاليـ ـت إليه القعود بعد القيام

وقال آخر :

تركن الشعثمين برمل خَبْتٍ تزورهما مقاليت النساء

وقال آخر :

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحاً هَضيما مُهَشَّما

(١) خزانة الأدب ٣٨٢/١ وربيع الأبرار للزمخشرى ورقة ٣٦ مخطوط بمكتبة تيمور
(٢) السحق : الرقيق (٣) صبح الأعشى ٤٠٦/١
(٤) بلوغ الأرب ٣٥١/٢

وقال آخر :

تباشرت المقاليت حين قالوا ثوى عمرو بن مرّة بالْحُفَر

(١٠) تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ

كانوا يعلقون الحلى والجلاجل على اللديغ ، زاعمين أنه يفيق ، وذلك لأنهم أرادوا شغله بصلصالها حتى لا ينام فيسرى السم فيه فيهلك على زعمهم ، قال القتيبى : كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ ويحركونها لئلا ينام فيدب فيه السم ، وقيل لبعض الأعراب : أتريدون أن يسهر ؟ فقال : إن الحلى لا تسهر ، ولكنها سنة ورثناها[١] أو لأنهم زعموا أن حلى الذهب تبرئه ، وحلى الرصاص أو الرصاص يميته .

قال عويمر النبهانى :

فبت معنّى بالهموم كأننى سقيم نفى عنه الرقادَ الجلاجل

وقال آخر :

كأنى سليم سَهَّد الحلْىُ عينه فراقب من ليل التمام الكواكبا[٢]

وقال النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

تُسَهِّد من نوم العشاء سليمَها لحَلْى النساء فى يديه قعاقع[٣]

وشبه بعض بنى عذرة أثر الحب فى نفسه بالسليم المحَلّى :

كأنى سليم ناله كَلْمُ حية ترى حوله حَلْىَ النساء مُوَضَّعاً

وازدرى بعضهم هذه العقيدة فقال :

وقد عللوا بالبُطل فى كل موضع وغُرُّوا كما غر السليمَ الجلاجلُ

وأشار بعض الشعراء الإسلاميين إلى هذه العادة ، قال جميل إذا كان الحلى يبرىء

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٣٦

(٢) ليل التمام : ليل الشقاء الطويل (٣) المخصص ٤/٤١

اللديغ فإن حليك سقام لى ، يريد أن زينتها وجمالها وحلاها تزيده بها تيما :

إذا ما لديغ أبرأ الحَلْىُ داءه   لحليك أمسى يا بثينة دائيا

(١١) إذا خافوا دخول قرية

زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية فخاف جنها أو وباءها فوقف على مدخلها وعَشَّرَ — نهق عشرا — كما ينهق الحمار ثم دخلها لم يصبه شيء[١]، وزاد الألوسى : « ثم علق عليه كعب أرنب كان ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن »[٢] .

ورووا أن عروة بن الورد خرج فى رفقة إلى خيبر ليمتاروا ، فلما قربوا منها عشروا ، واستنكف عروة أن يفعل فعلهم ، وقال :

وقالوا احْبُ وانهق لا تضرك خيبر   وذلك من دين اليهود ولُوعُ

لعمرى لئن عَشَّرْتُ من خشية الردى   نُهاقَ الحمير إننى لجزوع[٣]

ورأى شاعر آخر أن التعشير وغيره لا ينجى من القضاء .

ولا ينفع التعشير فى جنب جِرْمةٍ   ولا دَعْدَعٌ يغنى ولا كَعْبُ أرنب[٤]

ومثله قول الآخر :

لا ينجينك من حِمام واقع   كعْبٌ تعلقه ولا تعشير

---

(١) صبح الأعشى ٤٠٨/١ والحيوان للجاحظ ٣٥٨/٦ طبعة هارون

(٢) بلوغ الأرب ٣٤٨/٢

(٣) الديوان ٢١ ومعجم البلدان ٣٠٩/٤ والحيوان للجاحظ ٣٥٩/٦ ولوع : كذب . أحب : من حبا يحبو

(٤) الحيوان للجاحظ ٣٥٨/٦ نشره هارون. الجرمة : القطعة من النخل . دعدع : كلمة كانوا يقولونها عند العثار

(١٢) إذا ضلوا فى فلاة

وكانوا على دربتهم، وبصيرتهم بالصحراء قد يضلون، فإذا ضل الرجل فى فلاة قلب قميصه، وصفق بيديه كأنما يومئ إلى إنسان ليهديه.(١)

ولم يذكر أحد تعليلا لهذا العمل، ولعل منشأه أن الرجل يريد أن يسلى نفسه بسماع صدى يديه، أو يتوهم أن إنساناً يسمع تصفيقه فيسرع إليه ليعينه.

وأما قلب القميص فللتفاؤل بتغير الحال، وقد جاء نحوه فى الشريعة الإسلامية فى الاستسقاء. وقد ذكر القلقشندى أن الرجل كان يحبس ناقته ويصيح فى أذنها كأنه يومىء إلى إنسان، ثم يحركها ويزعم أنها تهتدى إلى الطريق (٢)، ولكن الشعر المروى ليس فيه ذكر الناقة، وإنما فيه قلب الثوب والتصفيق.

قال أعرابى:

قلبت ثيابى والظنون تجول بى ... وترمى برجلى نحو كل سبيل
فلأياً بلأى ما عرفت تَجِلَّتِى ... وأبصرت قصداً لم يُصَب بدليل

وقال أبو العملّس الطائى:

فلو أبصرتنى بِلوَى بطان ... أُصَفِّقُ بالبنان على البنان
فأقلب تارة خوفا ردائى ... وأصرخ تارة بأبى فلان
لقلت أبو العملس قد دهاه ... من الجِنّان خالعةُ العنان

وقال الشاعر:

وآذن بالتصفيق من ساء ظنه ... فلم يدر من أى اليدين جوابها

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٤٩ (٢) صبح الأعشى ١/٤٠٥

(١٣) كى السليم ليصح الأجرب

ومن عجائب معتقداتهم أنهم يكوون الجمل السليم ليصح الأجرب .

وقد أكثر الشعراء من التشبيه بهذا العمل الجائر ، قال النابغة :

وكَلَّفْتَنِى ذنبَ امرىء وتركتَهُ   كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع [١]

وقال آخر :

فألزمتنى ذنبا وغيرى جره   حنانيك لا تكو الصحيح بأجربا

وقال بعض الأعراب :

كمن يكوى الصحيح يروم بُرْءاً   به من كل جرباء الإهاب

ذكر الجاحظ انهم كانوا إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم [٢] .

وقال ابن السيد : فى هذا الفعل خمسة أقوال :

١ — إنه من أعمال جهال العرب ، كانوا إذا وقع العر فى إبل أحدهم اعترضوا بعيراً صحيحا منها فكووا مشفره وعضده وفخذه ، ويرون أنهم بذلك يبرئون الإبل من العر ، كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الأرانب خشية العطب ، ويفقئون عين فحل الإبل لئلا تصيبها العين ، وهذا قول الأصمعى وأبى عمرو وأكثر اللغويين [٣] .

٢ — قال يونس : سألت رؤبة بن العجاج عن هذا ، فقال : هذا ، وقول الآخر : « كالثور يضرب لما عافت البقر » شىء كان قديما ثم تركه الناس » .

٣ — كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق الداء به ، لا ليبرأ السقيم ، وحكى ذلك ابن دريد .

---

(١) حماسة البحترى ٣٥٢

(٢) الحيوان للجاحظ ١/١٧ طبعة هارون

(٣) شرح أدب الكاتب وخزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٠٩

٤ — قال أبو عبيدة : هذا لم يكن ، وإنما هو مثل لا حقيقة ، أى أخذت البرىء وتركت المذنب ، فكنت كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم لو كان هذا مما يكون . قال : ونحو هذا قولهم : « يشرب عَجْلانُ ويسكر مَيْسَرَة » ولم يكونا شخصين موجودين .

٥ — قيل أصل هذا أن الفصيل كان إذا أصابه العُرّ لفساد فى لبن أمه عمدوا إليها فكووها فتبرأ ، ويبرأ فصيلها ببرئها لأن ذلك الداء سرى إليه من لبنها .

فأى هذه التعليلات نرتضى ؟

نعتقد أن الرأى الرابع أجودها وأحقها بالموافقة ، فليس بمعقول أن يكوى العرب البعير السليم ليبرأ الأجرب وهم بتجاربهم الكثيرة يعرفون جرائر الجرب ويعرفون علاجه ، ويَقُون السليم حتى لا تنتقل إليه العدوى .

وإنما هذا مثل لبيان سوء التصرف وعماية الظلم . وقد وافقنى على هذا الشيخ الحجازى الكبير الخبير بحياة البادية وأدبها الشيخ محمد جبر ، وقال إن من أمثالهم إلى اليوم : « يخلط العفراء بالصفراء » ، وليس لهذا المثل حقيقة وإنما هو تخييل لسوء الفعل .

(١٤) ضرب الثور إذا عافت البقر الماء

كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكَدَر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحل ، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحمار .

فقال فى ذلك عوف بن الخَرِع :

تمنت طيِّئٌ جهــــلا وجُبنا ... وقد خاليتُهم فأبوا خِلائى

هجونى أن هجوت جبال سَلْمَى ... كضرب الثور للبقر الظماء

وقال فى ذلك أنس بن مدرك فى قتله سُلَيك بن السُّلَكة :

إنى وقتلى سليكا ثم أعقِــــلَه ... كالثور يضرب لمـا عافت البقر

وقال الهيّبان الفقمى :

كما ضُرب اليعسوب أن عاف باقر — وما ذنبه إن عافت الماء باقر[١]

ولما كان الثور أمير البقر وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه باسم أمير النحل .

وقيل إنهم كانوا يزعمون أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقرُ عن الشرب حتى تهلك .

وقال فى ذلك الأعشى :

فإنى وما كلفتمونى — وربكم — لأعلم من أمسى أعقَّ وأحوبا

لكالثور والجنىُّ يَضرِبُ ظهرَه — وما ذنبه أن عافت الماء مشربا

وما ذنبه إن عافت الماء باقر — وما إن تعاف الماء إلا ليُضربا[٢]

كأنه قال : إذا كان يضرب أبدا لأنها عافت الماء فكأنها إنما عافت الماء ليضرب .

وقال يحيى بن منصور الذُّهلى فى ذلك :

لكالثور والجنى يضرب وجهه — وما ذنبه إن كانت الجن ظالمة

وقال نهشل بن حرىّ :

أتترُكُ عارضٌ وبنو عدى — وتغرم دارم وهُمُ بَراء

كدأب الثور يضرب بالهراوى — إذا ما عافت البقر الظماء[٣]

وقال نهشل بن حرى :

كذاك الثور يضرب بالهراوى — إذا ما عافت البقرُ الظماء[٤]

---

(١) معجم الشعراء ٤٨٩

(٢) حماسة البحترى ٣٥٢ والحيوان ٦/٥٣

(٣) الحيوان للجاحظ ١/١٨ – ٢١ طبعة هارون

(٤) حماسة البحترى ٣٥٣

وتعجب النابغة الذبياني من أن تلق عليه جريرة لم يقترفها ، وشبه حاله بحال الثور المظلوم يضرب لأن البقر لا ترد الماء :

أتترك معشراً قتلوا هذيلا وتعقبني بما فعلت جُذام
كذلك يُضْرَبُ الثور المعنّى إذا ما عافت البقرُ الحيام[1]

وأشار بعض الشعراء إلى ذعر البقر من الماء ، وإلى ضرب الثور وهو غير متعصى على الورود :

فلا تجعلوني كالبعير وخلها يكسّر ضرباً وهو للوِرْد طائع
وما ذنبه إن لم تَرِدْ بقراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

فهل لذلك من سبب ؟

قيل إنهم زعموا أن الجن تصد البقر عن الماء ، وإن الشيطان يركب قرنى الثور ، فكأنهم بضرب الثور يطردون الجن ، ولكنى لا أرتضى هذا التعليل ، وأرى أن البقر — شأنها شأن إناث الحيوان مع ذكرانه — تقتدى بالثور وتحاكيه ، فإذا ورد الماء وردت معه .

وقريب من هذا التعليل قول الشنقيطى : إذا امتنعت البقر من شرب الماء لا تضرب لأنها ذات لبن ، وإنما يضرب الثور لتفزع هى فتشرب »[2].

ولكن الذى لا تعليل له ما قيل من أنهم كانوا يضربون الثور بعد ما ورد الماء وشرب لتشرب البقر عند ضربه ، وأرجح أن هذه مبالغة من قُصّاص العادات أو مجافاة لفهم النصوص .

(١) الوقاية من العين والجن

يتفشى فى الأمم البدائية والشعوب الجاهلة ربط المسببات بغير أسبابها الطبيعية ، فيؤمن الناس بالسحر ، ويعتمدون على التمائم فى جلب النفع ودفع الضر ، وقد دان

(١) حماسة البحترى ٣٥٣ (٢) طهارة العرب ٢٦

العرب بالتمائم ونوّعوها ، قال رقاع بن قيس الأسدى :

أَحَبُّ بلاد الله ما بين مَنْعِجٍ إلىَّ وسلمى أن يَصُوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمي وأول أرض مس جلدى ترابها (١)

ومن تمائمهم :

ا — تعليق كعب الأرنب :

كانوا يعلقون على أجسامهم كعب الأرنب ، ويعتقدون أنه وقاية من السحر ، وأن الجن تنفر من الأرنب ، لأنها تحيض (٢)

قال ابن الأعرابى : « قلت لزيد بن كثوة : أتقولون إن من عُلق عليه كعب أرنب لم تقربه جِنّان الدار ولا عُمّار الحى ؟ قال : إى والله ، ولا شيطان الحماطة ، ولا جار العُشَيْرة ، ولا غول القفر » (٣). قال امرؤ القيس :

أيا هنـــد لا تنكحى بُوهَةً عليـــه عَقيقَتُهُ أحْسَبَا
مُلَسَّـــعَةً وَسْطَ أرْباعه به عَسَمٌ يبتغى أرنبا
ليجعل فى ســـاقه كعبها حذار المنية أن يَعْطَبَا (٤)

ب — تعليق سن الثعلب وسن الهرة ، وحيض السَّمُرة :

رزعموا أن الصبى إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شىء من هذه سلم ، وأن الجن إذا رأته لم تقدر عليه ، قالت امرأة تصف ولداً :

كانت عليه سِنّةٌ من هرة وثعلبٍ ، والحيضُ حيض السَّمُرة (٥)

---

(١) الأمالى ٨٣/١

(٢) صبح الأعشى ٤٠٦/١ (٣) بلوغ الأرب ٣٥٨/٢ . العمار : الجن التى تسكن مع الناس. الحماطه : شجر شبيه بالسدر ، أو كل شجر لا شوك له ، أو كل شجر له شوك . العشيرة : تصغير العشرة : شجرة جيدة النار (٤) حماسة البحترى ١٨٩ البوهة : الرجل الأحمق . العقيقة : غرلة الصبى وشعر كل مولود من الناس والبهائم . الأحسب : من ابيض جلده من داء فصار أبيض وأحمر وهو والأبرص . الملسعة : المقيم فى داره لا يبرحها . العسم : يبس يصيب مفصل الرسغ فتعوج القدم والكف

(٥) صبح الأعشى ٤٠٦/١

وتمتد بهم الخرافة إلى زعمهم أن جنية أرادت صبيا فلم تقدر عليه ، فلامها الجن في ذلك ، فقالت تعتذر إليهم :

كان عليه نفرة ثعالب وهررة
والحيض حيض السمرة (١)

تعني أنه كان يحمل ما ينفرها من التعرض له .

حـ — تعليق الأقذار النجسة :

واعتقدوا أن تعليق الأقذار النجسة وقاية من العين والجن والأرواح الخبيثة ، وأنشدوا للمزق العبدي :

ولو كنتُ في بيت تُسَدُّ خَصاصُه   حوالىَّ من أبناء بَكْرَةَ مجلسُ
ولو كان عندي حازيان وكاهن   وعلَّق أنجاسا علىَّ المنَجِّس
إذاً لأتتني حيث كنت منيتي   يَخُبُّ بها هادٍ إلىَّ مُعْفِرسُ (٢)

وزعموا أن التنجيس يشفي إلا من العشق :

يقولون علق — يا لك الخير — رمَّةً   وهل ينفع التنجيس من كان عاشقاً ؟

ولكن القضاء لا بد واقع ، ولا بد أن يخلف بعض الظنون ، فقد علقت امرأة على ولدها نجساً فلم يقه من الموت :

نجَّستُه لا ينفع التنجيس   والموت لا تفوته النفوس

ولم تخل البيئة العربية من عقلاء يستخفون هذه العقيدة ، قال المرقش :

لا يمنعنَّك من بغا   ء الخير تعقيد التمائم (٣)

وقال آخر :

ولا ينفع التعشير إن حُمَّ واقع   ولا وَدَعٌ يغني ولا كعب أرنب

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٠٨ السمرة : من شجر الطلح . وحيضها شيء يسيل من السمر كدم الغزال
(٢) حماسة البحتري ١٣٩ . الحازي : الخبير بالأمور والمراد هنا الطبيب الحاذق . معفرس : غالب
(٣) حماسة البحتري ٢٠٥

وما زال لهذه الخرافات أشباه يدين بها بعض الجاهلات فى مصر ، فيعلقن على الصبي تمائم فيها ناب ذئب ورأس كلب . . إلخ

ى — وكانوا يحصنون الإبل من الحسد إذا بلغت ألفاً بأن يفقئوا عين الفحل ، فإن زادت فقئوا الأخرى ، وهذا هو المفقّأ والمعمّى[١] . وكان بشامة بن الغدير كثير المال ، وكان ممن فقأ عين بعير فى الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها[٢] وقد أشار الشعراء إلى هذا :

فقأتُ لها عين الفَحيل تعيفاً   وفيهن رَعْلاء المسامع والحامى[٣]

وقال آخر :

وهبْ لنا وأنت ذو امتنان   تُفْقأُ فيها أعين البعْران

وقال آخر :

فكان شكر القوم عند المِنن   كَىَّ الصحيحات وفقء الأعين[٤]

(١٦) الرتم

كان الرجل إذا عزم على سفر عقد خيطاً فى غصن شجرة أو ساقها ، فإذا عاد ووجد الخيط على حاله علم أن زوجته حفظت غيبته ، وإن لم يجده أو وجده محاولا قال إنها خانته ، وهذا العقد يسمى الرتم :[٥] .

وقيل الرتم نبت معروف كان يعقده الرجل إذا سافر .[٦]

والفيروزابادى يذكر أن من أراد سفراً كان يعمد إلى شجرة فيعقد غصنين منها ، فإن رجع وكانا على حالها قال إن أهله لم تخنه وإلا فقد خانته وذلك الرَّتم والرتيمة[٧]

---

(١) البيان والتبيين ٦٦/٣ والحيوان ١٧/١

(٢) ابن سلام ٢١٥ (٣) رعلاء : مشقوقة الأذن لكرمها الفحيل : الفحل الكريم المنجب. تعيفا : كهانة . الحامى : الفحل من الإبل يضرب عشرة أبطن يحمى ظهره بأن يترك ولا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى (٤) البيان والتبيين ٦٦/٣

(٥) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٩٦ وبلوغ الأرب ٣٤٩/٢ (٦) صبح الأعشى ٤٠٨/١

(٧) القاموس المحيط مادة رتم

ولكنى أخالف هؤلاء جميعاً وأختار للرتم معنى آخر ورد فى المادة نفسها هو أن الرَّتْمة خيط يعقد فى الإصبع للتذكير، وجمع الكلمة رَتَم، فالرتم كالرتيمة واحدة الرتائم والرِّتام (١).

والنصوص التى وردت لا تجافى هذا الرأى، بل كلها صالحة لأن تفسر به.

قال الشاعر:

خانته لما رأت شيباً بمفرقه وغرَّه حِلْفُها والْعَقْد للرَّتم

وقال آخر مستهينا بهذه الرتائم:

لا تحسبن رتائما عَقَدْتَهـــا تنبيك عنها باليقين الصادق

وظرف شاعر فى قوله إن فلانا يعلم أن ظبيه مُسْتَحَلّ، ولكنه يخدع نفسه ويعللها بالرتائم:

يعلل عمرو بالرتائم قلبـــه وفى الحى ظبى قد أُحِلّت محارمه

وقال آخر لاحياً على رجل من العرب أخذ يوصى قبل سفره ويعتقد فى الرتم:

هل ينفعنك اليوم أن همتْ بهم كثرة ما توصى وتعقاد الرَّتَم ؟ (٢).

فالرتمة فى هذه النصوص الخيط المعقود فى الإصبع للتذكير، وهذا فعل المحبين، يعقد كل منهم فى إصبع الآخر خيطا ليذكره دائما.

---

(١) القاموس المحيط وهامشه

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٥٢ وجمهرة الأمثال لأبى هلال ١٩٦ ومعجم البلدان ٤/٢٢٥

المراجع

على حسب الترتيب الهجائى

١ — الإتقان فى علوم القرآن . السيوطى
٢ — أخبار النساء . ابن قيم الجوزية . مطبعة التقدم العلمية بمصر
٣ — أخبار مكة . الأزرقى . المطبعة الماجدية
٤ — الأدب المقارن . الأستاذ نجيب العقيقى
٥ — أديان العرب . الأستاذ محمد نعمان الجارم
٦ — الأساس فى الأمم السامية ولغاتها . الدكتور على العنانى والأستاذ ليون محرز والأستاذ محمد عطية الإبراشى .
٧ — الأسرة والمجتمع . الدكتور على عبد الواحد وافى
٨ — الأسلوب . الأستاذ أحمد الشايب
٩ — الأشباه والنظائر المعروف بحماسة الخالديين . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٩ أدب
١٠ — الأشربة . ابن قتيبة .
١١ — الأصنام . هشام بن محمد الكلبى بتحقيق أحمد زكى باشا
١٢ — أصول النقد الأدبى . الأستاذ أحمد الشايب
١٣ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب . محمود الزمخشرى
١٤ — الأغانى . الأصفهانى . طبعة دار الكتب وساسى
١٥ — الأمالى . القالى . طبعة دار الكتب
١٦ — أمالى السيد المرتضى . مطبعة السعادة
١٧ — أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء . الأب لويس شيخو اليسوعى
١٧ — إنسان العيون فى سـيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . برهان الدين الحلبى

١٨ — أيام العرب . الأساتذة محمد أحمد جاد المولى وأبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى
١٩ — أيمان العرب . النجيرمى مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ف ٧٩١ (١٦٨) .
٢٠ — بلاغات النساء . أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور . مطبعة والدة عباس الأول .
٢١ — بلال داعي السماء . الأستاذ عباس محمود العقاد .
٢٢ — بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكرى الألوسى . مطبعة دار السلام ببغداد .
٢٣ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق حسن السندوبى . طبعة ثانية . وطبعة هارون
٢٤ — تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعى .
٢٥ — تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان .
٢٦ — تاريخ الأدب العربي فى العصر الجاهلى . السباعى بيومى .
٢٧ — تاريخ الأمم والملوك . محمد بن جرير الطبرى . المطبعة الحسينية .
٢٨ — تاريخ الإسلام السياسى . الدكتور حسن إبراهيم .
٢٩ — تاريخ التمدن الإسلامى . جرجى زيدان .
٣٠ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب . إسرائيل ولفنسون .
٣١ — تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان . النيسابورى .
٣٢ — تفسير الطبرى . مطبعة بولاق .
٣٣ — ثلاث رسائل (أولاها فى الرد على النصارى) . الجاحظ . نشرها يوشع فنكل المطبعة السلفية .
٣٤ — الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . طبعة دار الكتب .
٣٥ — جامع البيان فى تفسير القرآن . الطبرى . مطبعة بولاق .
٣٦ — الجامع الصحيح . البخارى . مطبعة بولاق .
٣٧ — جمهرة أشعار العرب . أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي . المطبعة الرحمانية .

٣٨ — جمهرة الأمثال . ابو هلال العسكرى . طبعة بمبى ، وطبعة على هامش أمثال الميدانى .

٣٩ — حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . الطبعة الثانية .

٤٠ — الحماسة . البحترى . المطبعة الرحمانية .

٤١ — حياة الحيوان . الدميرى . طبعة بولاق .

٤٢ — الحيوان للجاحظ . طبعة ساسي وطبعة هارون .

٤٣ — خزانة الأدب . البغدادى . طبعة دار العصور .

٤٤ — الخصائص . ابن جنى . طبعة دار الكتب .

٤٥ — خلاصة تاريخ العرب . سيديو . مطبعة محمد مصطفى بمصر ١٣٠٩ ﻫ .

٤٦ — دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية .

٤٧ — دراسة الشعراء . المرصفى .

٤٨ — ديوان الحماسة لأبى تمام . شرح التبريزى وشرح المرزوقى .

٥٩ — ديوان الخرنق . مخطوط بدار الكتب رقم ٨ ش أدب .

٥٠ — ديوان المتنبي . شرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية .

٥١ — ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .

٥٢ — ديوان امرىء القيس . شرح السندوبى .

٥٣ — ديوان المثقب العبدى . مخطوط بدار الكتب ٥٦٥ أدب .

٥٤ — ديوان أمية بن أبي الصلت . نشره المستشرق فون سردريك شلتهتز .

٥٥ — ديوان أوس بن حجر . نشره المستشرق رودلف جيير . فينا ١٨٩٢ .

٥٦ — ديوان حاتم الطائى . طبعة بيروت

٥٧ — ديوان طرفة بن العبد . شرح الشنقيطى .

٥٨ — ديوان عامر بن الطفيل . المستشرق ليال .

٦٩ — ديوان عبيد بن الأبرص . ليال .

٦٠ — ديوان عروة بن الورد . طبعة بيروت .

٦١ — ديوان عنترة . شرح عبد المنعم شلبي .

٦٢ — ربيع الأبرار للزمخشري . مخطوط بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب .
٦٣ — رسائل أبي العلاء .
٦٤ — رسائل إخوان الصفا . طبعة مصر .
٦٥ — روح الاجتماع . جوستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا .
٦٦ — زهر الآداب الحصري .
٦٧ — شرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد . مطبعة البابي الحلبي بمصر .
٦٨ — شرح أدب الكاتب . ابن السيد البطليوسي . طبعة بيروت .
٧٩ — شرح الأشموني على ألفية بن مالك .
٧٠ — شرح المعلقات السبع . الزوزني .
٧١ — شرح القصائد العشر . التبريزي .
٧٢ — شرح بانت سعاد . ابن هشام .
٧٣ — شرح ديوان جران العود النميري . أبو جعفر محمد بن حبيب .
٧٤ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة تصحيح مصطفى السقا الطبعة الثانية .
٨٥ — الشعر المعاصر . مصطفى السحرتي .
٧٦ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي .
٧٧ — الصاحبي . ابن فارس . المطبعة السلفية .
٧٨ — صبح الأعشى . القلقشندي . طبعة دار الكتب .
٨٩ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . الطبعة الثانية . صبيح .
٨٠ — طبقات الأمم . صاعد الأندلسي . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩١٢
٨١ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحي . مطبعة السعادة بمصر .
٨٢ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطي .
٨٣ — العبر وديوان المبتدأ والخبر . ابن خلدون . طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ
٨٤ — العرب قبل الإسلام . جورجي زيدان .
٨٥ — العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان . ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي . بيروت .

٨٦ — عصر المأمون . الدكتور فريد رفاعى
٨٧ — عصر ما قبل الإسلام . مبروك نافع
٨٧ — العقد الفريد . ابن عبد ربه . لجنة التأليف والترجمة والنشر
٨٩ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده . ابن رشيق . مطبعة أمين هندية
٩٠ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب
٩١ — فجر الإسلام . أحمد أمين
٩٢ — فقه اللغة . الدكتور على عبد الواحد وافى
٩٣ — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . الدكتور شوقى ضيف
٩٤ — الفهرست . ابن النديم . طبعة ليبزج
٩٥ — فى أصول الأدب . الأستاذ أحمد حسن الزيات
٩٦ — فى الأدب الجاهلى . الدكتور طه حسين
٩٧ — القاموس المحيط . الفيروزابادى
٩٨ — القِرى لقاصد أم القُرى لمحب الدين الطبرى . نشره الأستاذ مصطفى السقا مطبعة البابى الحلبى بمصر ١٩٤٨ م
٩٩ — قواعد النقد الأدبى . لاسل كرومى . ترجمة الأستاذ محمد عوض
١٠٠ — الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . طبعة ليدن
١٠١ — الكامل . المبرد . طبعه المستشرق ريت بمدينة ليبزج
١٠٢ — الكرماء . أبو هلال العسكرى
١٠٣ — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . محمود بن عمر الزمخشرى . المطبعة البهية المصرية
١٠٤ — كيف يعمل العقل . سرل برت . ترجمة الأستاذين محمد خلف الله وفؤاد جلال
١٠٥ — لسان العرب . ابن منظور . طبعة بولاق
١٠٦ — المؤتلف والمختلف . الآمدى . نشره وصححه المستشرق الدكتور فريتس كرنكو . مكتبة القدسى بالقاهرة
١٠٧ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

١٠٨ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية
١٠٩ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسى
١١٠ — محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية . محمد الخضرى بك
١١١ — مختصر تاريخ البشر . أبو الفداء . طبعة القسطنطينية
١١٢ — المخصص . ابن سيده . مطبعة بولاق
١١٣ — المرأة العربية . عبد الله عفيفى بك
١١٤ — المرأة فى مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكى
١١٥ — المرأة فى التاريخ والشرائع . جميل بيهم
١١٦ — مراثى شواعر العرب . الأدب لويس شيخو
١١٧ — مراث وأشعار . اليزيدى . مخطوط بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية فى ٨١٦ (٣٩٣)
١١٨ — مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ ﻫ
١١٩ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة ج.م . جويو ترجمة سامى الدروبى
١٢٠ — معجم البلدان . ياقوت الحموى . مطبعة السعادة بمصر
١٢١ — معجم الشعراء . المرزبانى . أخرجه المستشرق الدكتور سالم الكرنكوى
١٢٢ — المزهر . السيوطى . طبعة صبيح
١٢٣ — المعارف . ابن قتيبة . طبعه المستشرق وستنفلد بمدينة جوتنجن
١٢٤ — مغنى اللبيب . ابن هشام . المطبعة الأزهرية بمصر
١٢٥ — مفتاح دار السعادة . ابن القيم
١٢٦ — المفضليات . الضبي . شرح الأستاذين شاكر وهارون ، وطبعة السندوبى
١٢٧ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر
١٢٨ — مقدمة الحضارات الأولى . جوستاف لوبون . ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم .
١٢٩ — مقدمة ترجمة الإلياذة . البستانى
١٣٠ — الملاهى للضبي . مخطوط بدار الكتب . فنون جميلة ٥٣٣

١٣٢ — الملل والنحل . الشهرستانى . على هامش الفصل لابن حزم المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠ ﻫ
١٣٣ — مهذب الأغانى . محمد الخضرى بك
١٣٤ — النابغة الذبيانى . الأستاذ عمر الدسوقى
١٣٥ — النقائض بين جرير والفرزدق . طبعة بريل . ليدن ١٩٠٧ م
١٣٦ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية . الأستاذ محمود جمعة
١٣٧ — نقد النثر . قدامة بن جعفر . مطبعة لجنة التأليف
١٣٨ — نهاية الأرب فى فنون الأدب . النويرى . طبعة دار الكتب
١٣٩ — الهوامل والشوامل . لأبى حيان التوحيدى ومسكويه نشره الأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١
١٤٠ — وفيات الأعيان . ابن خلكان . مطبعة بولاق
١٤١ — A literary History of the Arabs. by Reynold A. Nicholson. london. 1907.

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ــ وحى النسيب فى شعر شوقى

٢ ــ فن الخطابة

٣ ــ الحياة العربية من الشعر الجاهلى

٤ ــ الغزل فى العصر الجاهلى

٥ ــ مع ابن خلدون